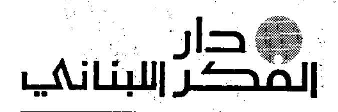


المعلّقات العشر

شرح ودراسة وتحليل

د. مفيد قميحة

دار الفكر اللبناني
بيروت



للطباعة والنشر

كورنيش المزرعة - تجاه غلوب بنك
هاتف: ٣١١٥٧٨ - ٨٦٣٣٩٣
ص.ب: ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠
تلكس: DAFKLB 23648 LE - بيروت، لبنان

الطبعة الخامسة ٢٠٠٢


المعلقات العشر

الإهـداء

إلى البيت الذي ترعرعت فيه ، أباً وأمّـاً وإخوة
إلى بيتي ، زوجةً وأبناءً ،
إلى كلّ الأهل والأحبّة .

مفيد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين ، نبيِّنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد .

فلقد تناول المعلّقات العربية علماء وأدباء كثيرون بالدرس والشرح والتحليل ، فتوزّعت تبعاً لذلك الآراء لتشمل جوانب متباينة ألمّت بأكثر الأطر البنائية والتوثيقيَّة ، ولذا كان من الصعوبة بمكان أن يجد الدارس لها بعد كلّ ذلك السّيل من الدراسات معبراً جديداً يدخل عن طريقه إليها ، إلاّ أننا بعون الله وتوفيق منه ، استطعنا بعد وقفة طويلةٍ متأنّية استعرضنا فيها مختلف الآراء والجوانب أن نجد ذلك المعبر ، فحاولنا الدخول مستفيدين من كلّ الجهود السابقة التي أضاءت لنا الطريق ، وسهّلت لنا العبور والاكتشاف ، ولسوف يجد القارىء الكريم ، أن عبورنا لم يكن سطحّياً ، بل كان عبوراً تجاوز الرتابة والنمطية ، وتخطّاهما إلى أبعاد عميقة لم يولها الدارسون حقّها من العناية والتركيز ، فقد حاولنا بذلك العبور أن نصل إلى أبعاد الذات الإنسانية عند أولئك الشعراء الذين ظلّت الكلمة عندهم قاصرة ولأسباب شكليّة قاهرة ، عن إضاءة تلك الأبعاد ، فراحوا يرسمونها بما أتيح لهم من صور حسِّيّةٍ نقليَّة في أكثرها ، إلاّ أنها رغم ذلك ، تحمل كلّ معاناة الشعر وكلّ توّجعات الإنسان .

ولن نستعرض في هذه الكلمات القليلة ما أمكننا التوصّل إليه ، لأننا آثرنا أن يتعرّف القارىء بنفسه عليه ، حتى لا نفقده متعة الاكتشاف التي أحسسنا بها ، ونحن نتذوّق شعر أولئك الأسلاف ، وقصيدهم الرائع الجميل . . .

د . مفيد محمد قميحة

العصر الجاهلي
معارفه وآدابه

إنّ المتتبَّع لحياة العرب في الجاهلية ، والمطّلع على أخبارهم ومآثرهم سوف يلاحظ دون شك وجود كثير من العادات والمعارف التي تحوّلت في نظرهم إلى قيم أصيلة تعلّقوا بها ، وكان لها في أنفسهم مكانةٌ لا تدانى ، ومنزلة تعادل الوجود والذات ، هذه القيم يمكننا أن نقف عليها من خلال تلك الأحاديث التي روتها كتب الآداب والسّير ، وذكرت فيها نماذج كثيرة منها تؤكّد وجودها الفاعل الذي قد نقبل بعضه على أساس أنه يمثل صفاتٍ ومزايا حميدة تخلّلت صحراء الحياة العربية ، وبثّت فيها عبقاً إنسانياً ينبثق كالضوء من خلال سجف الظلام المطبق ، ونرفض بعضه الآخر ، لأنه يمثل الجانب السلبي الذي طغى على تصرفاتهم وحوّل حياتهم إلى نزاع مستمر ، وضنك وبؤسٍ دائمين ، ولن نستفيض في ذكر تلك الأسباب التي أوجدت مثل هذين النوعين من القيم ، ولكننا نجد أنفسنا ملزمين بالإشارة إلى المسبّبات التي نعزوها إلى فقدان الشعور بالوطن الذي يجمع الشّتات ويوحّد الجهود ويحقق انصهار القبائل في إطار الأمّة الواحدة والكيان الموحد ، وبالتالي يتحوّل ولاء الفرد إلى الوطن أو الأمة ، وليس إلى ولاء للقبيلة يفرض عليه نوعاً من الانحسار أو الانكماش في أبعاد تفكيره ، ومعطيات جهوده وآفاق منطلقاته ، ويجعله أسير بوتقةٍ ضيقة تحمله على التعصب الشديد الذي يقوده إلى عدم وضوح الرؤيا في التفرقة بين الحقّ والباطل والخطأ والصواب ، وتجره إلى نزاعاتٍ لا تنتهي وحروب لا تهدأ حتى مع الذين تجمعه بهم صلات الرحم والقرابة .

وقبل أن نتحدث عن الجانب الايجابي من تلك القيم والمعارف متجاوزين الجانب السلبي الذي لا يخفى على من يتعانون الأدب ، يطيب لنا أن نشير إلى أن العصر الجاهلي

لم يكن في نظرنا عصر جهل بالمعنى الذي توحيه الكلمة ، فالجهل وإن كان في اللغة نقيض العلم والمعرفة كما أجمعت عليه كلّ المصادر اللغوية ، إلاّ أنّ له معانٍ أخرى يمكن أن نستشفها عند تعمّقنا في مسارب اللغة ، فقد جاء في اللسان نقلاً عن ابن عباس أنّه قال : من استجهل مؤمناً فعليه إثمه ، قال ابن المبارك : يريد بقوله : من استجهل مؤمناً أي حمله على شيءٍ ليس من خلقه[1] ، ويؤكد هذا المعنى قول النابغة :[2] .

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل   وكيف تصابي المرء والشيبُ شامل

فاستجهلتك هنا : بمعنى استخفتك ، أي حملتك على أن تفعل ما ليس من خلقك وعاداتك ، وتقوم بأفعالٍ وحركات تسيء إلى منزلتك ، وتتنافى مع وقارك وصفاتك ، والجاهلية التي هي من الجهل ، كلمةٌ تطلق على الفترة الزمنية التي سبقت ظهور الإسلام ، وقد ورد ذكرها مراراً في القرآن الكريم كنقيض لكلمة « إسلام » وما تعنيه من شرائع وأعرافٍ وسلوك ، فقال عزّ من قائل : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[3] وقال أيضاً : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[4] وقال كذلك : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ ، حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾[5] فهذه الآيات تظهر أنّ الجاهلية تعني مفاهيم وأفعالاً كانت سائدة قبل الإسلام ، وهي في مجملها تحمل مغايرة واضحةً لما تعنيه كلمة إسلام من خضوع لله ، ومطاعة لأوامره ، وامتثالٍ لأحكامه ، وابتعادٍ عن كلّ ما يشين السلوك والقيم الكريمة ، والأخلاق الفاضلة . وجاء في الحديث الشريف الموجّه إلى أحد الصحابة الأجلّاء بعد سلوكه مسلكاً يتنافى مع الأخلاق الإسلامية وتعاليمها : « إنك امرؤٌ فيك جاهلية »[6] أي فيك حالٌ من الأحوال التي كانت سائدة قبل الإسلام ، كالمفاخرة بالأحساب والأنساب ، والتجبُّر ، والتكبُّر والجهل بالشرائع الآلهية .

فالجاهلية بهذه المعاني التي أشرنا إليها ليست مشتقة من الجهل الذي هو نقيضٌ للعلم والمعرفة ، بل من الجهل الذي هو بمعنى الضلال والطيش والنزق والتعصّب

---

(١) اللسان ـ مادة جهل .
(٢) ديوان النابغة ص ٨٧ دار صادر .
(٣) سورة المائدة الآية ٥٠ .
(٤) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .
(٥) سورة الفتح الآية ٢٦ .
(٦) راجع شوقي ضيف ـ العصر الجاهلي ص ٣٩ .

والغضب ، أو بمعنى السلوك المغاير لما يأمر به الإسلام ، وتحثّ عليه شرائعه وتعاليمه ، فالعصر الجاهلي إذاً هو العصر الذي سبق الإسلام تحديداً وهو عصر زاخرٌ بكثيرٍ من المعارف والعلوم والعادات ، ويكفيك ما أُثر عنه من شعرٍ بليغ ، لتدفع عنه ذلك المعنى المناقض للعلم ، ولتعرض عمّا يساورك من شكّ في أمر جهله وغبائه ، وإذا ما عدت إلى المصادر التي تتحدّث عنه ، فإنّك ستجد فيها حديثاً مطوّلاً عن كثيرٍ من العلوم والمعارف التي كانت سائدة بين أبنائه ، وستجد أنّ العرب في تلك الحقبة من الزمن ، لم يكونوا في عزلة تامةٍ عن الأمم المجاورة بل كانوا على اتصالٍ اقتصاديٍّ وحضاريٍّ وسياسي بها ، وخاصة مع الفرس والروم عبر إمارتي ملوك الحيرة وغسّان ، إلّا أنّ الاتصال بهاتين الدولتين لم يكن قوّياً وفاعلاً ، بل كان اتصالاً تفرضه الظروف الحياتية والاقتصادية عليهما ، وهم بالتالي لم يتأثروا كلّ التأثر بما كان يسود هاتين الأمتين من مفاهيم حضارية وثقافية وعلمية ، فقد كان العرب يأخذون من هذه الأمم ما يوافق عقليتهم وأمزجتهم وتقاليدهم ، لأنّ تعصبهم لأعراقهم وقيمهم وتقاليدهم وإحساسهم المتعالي بالذات ، فرض عليهم عدم الانجرار والانسياق مع القوى المجاورة ، وحافظ بالتالي على الطابع المميّز لوجودهم وجعلهم في منأىً عن الانصهار والذوبان في كيانات الغير .

ولقد عرف العرب في صحرائهم كثيراً من العلوم والمعرف ، ولعلّ أهمّها ما عرف عنهم من علمٍ بالأنساب والأيام ، وما ينطوي في ذلك من المناقب والمثالب ، ويتحدّث الجاحظ عن معارف العرب المتعدّدة التي استطاعوا إتقانها عن طريق التبصُّر والتأمل الطويل في الظواهر والأشياء ، والمراقبة الجادة لهما ، تلك المراقبة التي فرضتها عليهم طبيعة حياتهم ، وضرورة احتياجاتهم والحاجة كما يقول المثل : أمّ الإختراع ، فتكوّن لهم من جرّاء ذلك خبرات واسعة وعلومٌ أوليّة مبنية على الملاحظة الدقيقة التي تمثل بداية الطريق للوصول إلى الحقائق العامة الثابتة ، فيقول : فخرجت بهم الحاجة إلى تعرّف حال الجاني والجارح والقاتل ، وحال المجنيّ عليه والمجروح والمقتول ، وكيف الطلب والهرب ، وكيف الداء والدواء ، لطول الحاجة ، ولطول وقوع البصر ، مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء ، ومن هذه الجهة عرفوا الآثار في الأرض والرمل[1] وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء ، لأنّ كل من كان بالصحاصح الأمالس[2] حيث لا أمارة ولا هادي ، مع حاجته

---

(١) أي علم القيافة ، وهو الاهتداء بالأثر .

(٢) الصحاصح : الأرض الواسعة ، والأمالس أو الأماليس كما وردت في بعض النسخ : الأرض التي ليس فيها ماء ولا شجر .

إلى بعد المشقة ، مضطراً إلى التماس ما ينجيه ويؤديه[1] ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجدب ، وضنّه بالحياة ، اضطرته الحال إلى تعرّف شأن الغيث ، ولأنه في كلّ حال يرى السماء وما يجري فيها من كواكب ، ويرى التعاقب بينها ، والنجوم الثوابت فيها ، وما يصير منها مجتمعاً ، وما يصير مفترقاً ، وما يصير منها فارداً[2] وما يكون منها راجعاً ومستقيماً ، وسئلت أعرابية فقيل لها : أتعرفين النجوم ؟ فقالت : سبحان الله ، أما أعرف أشباحاً وقوفاً عليّ كلّ ليلة ، وقال اليقطري : وصفت أعرابية لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء ونجوم الاهتداء ، ونجوم ساعات الليل والسعود والنحوس ، فقال قائلٌ لشيخٍ عباديّ ، كان حاضراً : أما ترى هذه الأعرابية تعرف من النجوم ما لا نعرف ، قال : ويلَ أمّك ؟ من لا يعرف أجزاع بيته[3] وكذلك كانوا على معرفة بالطبّ ، فقد فرضت عليهم الحاجة أن يركنوا إلى التجربة للتخلّص من بعض الأدواء والأمراض ، فجرّبوا الكيّ واللسع بالنار ، واستفادوا من النباتات المنتشرة في بيئتهم فصنعوا منها الأدوية والعقاقير ، وكذلك كانوا يتداوون بالرُّقى والعزائم ، مثلهم في ذلك مثل جميع أهل البادية ، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون في مقدّمته فقال : « وللبادية من أهل العمران طبٌّ يبنونه في غالب الأمر على تجربةٍ قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثاً عن مشايخ الحيِّ وعجائزه ، وربّما يصحُّ منه البعض ، إلّا أنه ليس على قانون طبيعي ، ولا على موافقة المزاج ، وكان عند العرب من هذا الطبّ كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره »[4] وكذلك شاعت عندهم العيافة ، وهي التنبؤ عن طريق ملاحظة الطيور حيث كانوا يتيامنون منها أو يتشاءمون ، ولهم في الفأل والطّيرة أحاديث كثيرة ، يقول الجاحظ : « وأصلُ التطيُّر ، إنما كان من الطّير ، من جهة الطير إذا مرّ بارحاً وسانحاً أو رآه يتفلّى وينتتف ، حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم ، أو الأعضب أو الأبتر ، زجروا عند ذلك ، وتطيّروا عندها ، كما تطيّروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال ، فكان زجرُ الطير هو الأصل ، ومنه اشتقوا التطيُّر ، ثم استعملوا ذلك في كلّ شيء . . . وللطّيرة سمّت العرب المنهوش بالسليم ، والبّرية بالمفازة ، وكنّوا الأعمى أبا بصير ، والأسود أبا البيضاء ، وسمّوا الغراب بحاتم ، إذ كان يحتم الزجر به على الأمور . . . ، والغراب كثير المعاني في هذا الباب ، فهو المقدّم في

---

(١) يؤديه : يعينه .

(٢) فارداً : منفرداً عن غيره .

(٣) الحيوان ـ الجزء السادس ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ دار الهلال .

(٤) المقدّمة : ص ٣٠٩ ـ دار الهلال .

الشؤم »[1] وقادهم إيمانهم بـالطِّيـرة إلى الاستقسام بـالازلام والقداح « وهي سهـام كانـوا يكتبون عليها عبارات يصدرون عنها مثل الآمر والناهي والمتربّص ، وهي غير أزلام القمار وقداحه »[2] .

أمّا العلوم العقلية فقد كانت ضعيفةً لديهم ، نظراً لرحيلهم المستمر وتنقّلهم الدائم وراء مساقط الغيث ومواضع الكلأ ، فالعلوم العقلية تتطلّب استقراراً وثباتاً ، وهم قـوم لم يعرفوا الثبات والاستقرار قط ، فطبيعة حياتهم فرضت عليهم التنقل ، كما فـرضت عليهم سرعة التحرّك ، وهذا مّما لا يتناسب مع طبيعة العملِ العقلي الذي يتطلّب التأني والتأمل الـطويل في الـوجود والـظواهـر ، كمـا يتـطلب ربـطاً وثيقـاً بين العلّة والمعلول أو السَّبب والمسبِّب ، ولـذا كانت لمحـاتهم العقلية والفلسفيـة خاطفـة وعابـرة ، تتناسب مـع طبيعة وجودهم وظروفهم ، ولذلك فقد شاعت عندهم الحكمة كمـا كثرت الأمثـال التي هي في نظرنا وليدة التجارب والملاحظات والخبرات المتأتِّية من رؤية الأشياء وتدبُّر أحوالها وتبصر حركاتها ونتائجها، والمتصفّح للمصادر الأدبية والتاريخيـة واللغويـة يرى سيـلاً من الحكم والأمثـال عندهم ، فقـد أُلّفت في ذلك الكتب الضخمـة من أشهـرهـا ، جمهـرة الأمثـال « للعسكري » ومجمع الأمثال للميداني ، وظهر عندهم كثير من الحكماء والعلماء والخطباء والوعّاظ الذين اكتظّت بذكر أسمـائهم وأقوالهم الكتب ، حيث لم يتـركوا شـأناً من شؤون الحياة والنظر في الوجود والأشياء إلّا وأبدوا رأيهم فيه ملمّين وموجزين في آنٍ واحد ، لأن عقليتهم كما ذكرنا جعلتهم يكتفون باللمحة الخاطفة والإشـارة الدّالـة ، بحيث لم يكونـوا قادرين على الوقوف والتريّث للتفصيل والابانة والولوج إلى حقائق الأشياء وجوهرها الأصسل، أمّا أهم ما عرف عنهم في نظرنا وهو الذي آثرنا أن نجعله خاتمة حديثنا عن معارفهم وعلومهم فهو تلك اللغة وذلك الشعر الذي كان العامل الرئيسي على توحيدها وجعلها اللغة الأدبيـة الوحيدة التي سادت الجزيرة العربية بأكملها رغم اختلاف قبائلها ولهجاتها[3] فلقد تطوّرت تلك اللغة إلى الحدّ الذي جعلها قادرة على أن تثبت في وجه الزمن، وتقاوم بصلابة وجـدارة كلّ اللغات المجاورة، وقد توّج فضل تلك اللغة وثبّت أركانها وأظهر عظمتها واكتمالها نـزول القرآن الكريم بها ، وهو الكتاب الذي أعجـز البلغاء في كـلّ عصر وزمـان ونزول القـرآن

---

(١) الحيوان ـ ج ٧ ص ٥٠٩ ـ ٥١٠ .

(٢) شوقي ضيف ـ العصر الجاهلي ص ٨٥ .

(٣) راجع كارلو نالينو ـ تاريخ الآداب العربية ص ٩٤ .

الكريم بهذه اللغة يعني قدرتها العظيمة على الإيصال والبيان ، ولذلك نرى العرب قبل الإسلام كانوا ممّن يتأثرون بالكلمة ويعجبون ببلاغتها ، ويعرفون فضلها وقيمها وبيانها حتى قال الرسول وهو سيّد البلغاء ، فيها : « **إنَّ من البيان لسحراً ، وإنّ من الشعر لحكمة** »[1] .

ويذكر الجاحظ لغة العرب ومنطقهم فيقول : « وكلّ شيء للعرب فإنّما هو بديهة وارتجال ، وكأنّه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع أو في حرب ، فما هو إلى أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيّده على نفسه ، ولا يدرّسه أحداً من ولده ، وكانوا أمّيّين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلّفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكلّ واحدٍ في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسرُ من أن يفتقروا إلى تحفّظ ، أو يحتاجوا إلى تدارس . . . ، ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ، ومن المنثور والأسجاع ، ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادقٌ من الديباجة الكريمة والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول في مثل ذلك إلّا في اليسير والنبذ القليل »[2] .

وهكذا فقد تملّكت اللغة من نفوس أولئك القوم وعقولهم ، فملكوا ناصيتها ، ودانت لهم طائعة متطوّرة قادرة على التعبير عن كلّ الاحتياجات النفسية والشعورية ، فكان لهم من ذلك الأدب الرفيع والبيان الساحر ، والمثل الرفيع والحكمة البالغة ، يذهبون بها إلى حيث يشاؤون من فنون القول ، فيصوّرون الأشياء بإيجازٍ ودقة ، ويحيطون بالموضوع في بلاغة من النظم والصياغة ، وعميقٍ من البيان وقليل من اللفظ ، وحسبك دليلاً على ذلك الشعر والخطابة وهما أعظم ما أُثر عن ذلك العصر من فضل ، فقد بلغا من الرقيّ والتطوّر حدّاً جعل الكثير من النقاد والأدباء في مختلف العصور يعجبون بهما ويثنون على ما جاء فيهما من صور رائعة وأساليب رفيعة ، ويتناولوهما بالنقد والتحليل ، مظهرين البلاغة والجمال ، مقارنين لهما مع غيرهما من آداب الأمم ومالها من فنون القول ، وقد ذكرنا من قبل رأي

---

(١) راجع العمدة ج أول ص ٢٠ .

(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٣ ـ دار الكتب العلمية .

الجاحظ الذي يصوّر أدب العرب بـأنه أدب الفـطرة والسجية والبـديهة الـذي ينطلق على ألسنتهم بعفوية وطلاقة ، معبّراً عن كلّ الاحتياجات والأغراض دون ميل منهم إلى التعقيد الـذي يقطع الإيصـال ، ودون أن تظهـر عليه عـلامات الكـدّ والاعياء اللذين يـدلّان على الضعف والتمحُّل ، يقول الرافعي عن أمّة العرب وشعرها : « وهذه الأمّة من أمم الفطرة ، فليس لديها من أسباب التعلُّم والأخذ عن الأمم الأخرى شيء فلا بدّ أن يكون شعرها كمالاً في اللغة ، فلم ينطقوا به حتى هذّبت وصفّيت وصارت إلى المطاوعة في تصوير الاحساس وتأديته على وجهه الأتم »[1] ويشير الجـاحظ إلى أنّ بعض الشعراء كـانوا يحـرصون على مـراجعة أدبهم قبـل إطلاقـه وإذا عته صـوناً لـه من الضعف وحرصـاً عليـه من الإتهـام أو الاستكراه ، فيقول : « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً[2] وزمناً طويلاً يردّد فيها نظره ، ويقلّب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله ، وتتبّعاً على نفسه فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبـه ، وإحرازاً لمـا خوّلـه الله من نعمته »[3] .

وليست هذه المراجعة التي يشير إليها الجاحظ ممّا يتنافى مع الفطرة الأدبية التي فُطر عليها أولئك القوم ، ولكنّها من باب الحرص والاهتمام الشديـدين بالكلمـة التي كان لهـا المقام الأول عندهم والمكانة الرفيعة لـديهم حتى أنّنا نـراها تـرتبط عند أكثـرهم بالسيـادة والشرف والنائل ، وتتحوّل إلى قطرٍ يمحو الجـدب ويحلُّ الخيـر والنّماء ، يقـول عبيد بن الأبرص :[4] .

كم فيهمُ مـن سيّـدٍ أيّـدٍ	ذي نفحـاتٍ قائـلٌ فاعـل
من قـولـه قـولٌ ومن فعلهُ	فعــلٌ ومن نـائله نـائــل
القـائلُ القـولَ الـذي مثلهُ	ينبت منـه البلد المـاحـل

ثمّ هي كذلك من باب التعظيم لها ، والاجلال الذي يصونها من التكلّف والسقوط ، ويخلّصها من الشوائب التي تسيء إلى قائليها وتحطّ من قدرهم ومكانتهم ، فقد كان الشعر عندهم يحظى بالمنزلة السامية ، وكان الشاعر اللسان المعبّر عن أغراضهم وطموحاتهم ،

(١) تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ٢٢ .
(٢) كريتاً : تاماً .
(٣) البيان والتبيين ج ٢ ص ٤ .
(٤) ديوانه ص ١٢٥ دار صادر .

ولا بدّ لذلك اللسان من أن يكون الممثل الرفيع الذي يقوم بالواجب الملقى عليه خير قيام ، فيظهر المحاسن ويردّ المساوىء ، ويفعل في النفوس فعل الغيث في التربة الكريمة .

وهكذا اهتمّ العرب بالشعر حتى صار في رأيهم قيمةً عليا لا تدانى ، كما صار الشاعر عنوان القبيلة ، وقبلة أنظار كلّ فردٍ فيها ، ومثاراً للدهشة والاعتزاز .

وإذا عدنا إلى كتب الأدب والسّيرة باحثين منقّبين ، فإننا نجد أنه ليس من قبيل الخيال أو المغالاة تلك الأخبار التي زخرت بها وحملتها إلينا وتحدّثت فيها عن وفرة الشعر وكثرة الشعراء في العصر الجاهلي ، تلك الوفرة والكثرة اللتان بلغتا حدّاً يلفت الأنظار ، وامتلأت بهما صفحات المصادر التاريخية والأدبية ، حتى يخيّل لمن يتتبع أخبار أولئك القوم أنّ الشعر كان علمهم الوحيد ، وقيمتهم الفريدة التي يحرصون عليها حرصهم على أشرف المناقب والمحامد ، ولا غرو في ذلك ، فالذي يقف على أخبارهم وطبائعهم وظروف حياتهم وما أحاط بها من تفاصيل يدرك تماماً كيف استأثرت الكلمة عندهم بتلك المكانة الرفيعة والمنزلة الخطيرة ، بحيث كانت قادرة على التأثير والتوجيه ، وعلى أن ترفع وتضع ، وتعزّ وتذلّ ، وتحكم وتفصل ، وخاصة إذا كانت شعراً منظوماً يسهل على الألسنة تناقله ، وعلى الركبان حفظه والتغنيّ به والنشر له بين القبائل التي تتنازع على السيادة والشرف والشهرة ، ولبيان أهمّية الكلمة وأبعادها الإيجابية والسلبية على مواقف أولئك القوم نسوق حادثتين اثنتين ذكرتهما كتب الأدب ، أولاهما : أنّ أبا عبيدة[1] قال : كان الرجل من بني أنف الناقة إذا قيل له : ممّن الرجل ؟ قال : من بني قريع ، فما هو إلّا أن قال الحطيئة :

قومٌ همُ الأنف والأذناب غيرهمُ ومن يسوّي بأنف الناقة الذنبا[2]

فصار الرجل منهم إذا قيل له : ممّن أنت ؟ قال : من بني أنف الناقة[3] والحادثة الثانية ، تشير إلى الآثار السلبية التي قدّر للكلمة أن تخلّفها في نفوسهم حتى بعد زوال الجاهلية عنهم ودخولهم في الإسلام ، فقد ذكر أنّ جريراً الخطفي لمّا هجا بني نمير

---

(١) هو معمر بن المثنّى التيمي بالولاء ، البصري ، النحوي ، من أئمة العلم بالأدب واللغة مولده ووفاته بالبصرة ، قال الجاحظ عنه : لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه ، وكان إباضيّاً ، شعوبيّاً من حفاظ الحديث . راجع فهرس الأعلام للزركلي الجزء السابع ص ٢٧٢ .

(٢) أراد بأنف الناقة : بغيض بن عامر بن لاي بن شماس ابن لاي ابن أنف الناقة واسمه جعفر بن قريع ، وأراد بالذنب الزبرقان وأهل بيته ، واسمه حصين بن بدر راجع خزانة الأدب ج ص ٥٦٧ .

(٣) البيان والتبيين ج٤ ص ٣٨ تحقيق عبد السلام هارون .

بقصيدته المشهورة التي جاء فيها[1] :

فغضّ الطرف إنّك من نميرٍ ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

« أخذ بنو نمير ينتسبون إلى عامر بن صعصعة ، ويتجاوزون أباهم نميراً إلى أبيه هرباً من ذكر « نمير » وفراراً ممّا وسم به من الفضيحة والوصمة مع أنهم كانوا قبل ذلك إذا سئل أحدهم ممّن الرجل ؟ فخّم لفظه ، ومدّ صوته وقال : من بني نمير »[2] ويعلّق الجاحظ على هذه الحادثة مظهراً أثر الكلمة وقدرتها على النيل من الخصوم ، رغم رفعة مكانتهم وشدّة بأسهم وسطوتهم فيقول : وفي نمير شرفٌ كثير ، وهل أهلك عنترة وجرماً وعكلاً وسلول وباهلة وغنّياً إلاّ الهجاء ، وهذه قبائل فيها فضل كثير ، وبعض النقص ، فمحق ذلك الفضل كلّه هجاء الشعراء ، وهل فضح الحبطات مع شرف حسكة بن عتاب وعباد بن الحصين وولده إلاّ قول الشاعر[3] :

رأيت الحمر من شرّ المطايا ... كما الحبطات شرّ بني تميم

وهل أهلك ظليم البراجم إلاّ قول الشاعر :

إنّ أبانا فقحةٌ لدارم ... كما الظليم فقحة البراجم

وهل أهلك بني العجلان إلاّ قول الشاعر :

إذا الله عادى أهل لؤمٍ وذمّةٍ ... فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل

قبيلته لا يغدرون بذمّةٍ ... ولا يظلمون الناس حبّةِ خردل

ولا يردون الماء إلاّ عشيّةً ... إذا صدر الورّاد عن كلّ منهل

هاتان الحادثتان ، تظهران بشكل جليّ خطر الكلمة عند أولئك القوم ، وتشيران بوضوح إلي وقعها الشديد الذي يجعلهم إمّا يشمخون تيهاً وعزّة وأنفة ، أو يطأطئون الرؤوس ذلاّ وعاراً وخيبة ، كما توضحان الأسباب التي دفعتهم إلى التعلّق بالشعر وتفضيله على غيره من فنون القول ، وإلى توجيه اهتمامهم العقلي على حفظه وروايته وترديده في

---

(١) هذه القصيدة تسمّيها العرب الفاضحة ، وقيل : إنّ جريراً دسماها الدمّاغة ، راجع خزانة الأدب ج ١ ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٩ ص ٦٨ ، كذلك راجع البيان والتبيين ج ٤ ص ٣٥ .

(٣) هو زياد الأعجم .

الأماسي والنوادي والاجتماعات ، تلقيناً له ، ودرابة عليه وإذاعة لما فيه من المحامد والفضائل ، وتعرّفاً بوساطته على ما في الغير من مساوىء ومثالب .

وتشير كتب الأدب إلى حوادث مماثلة لهاتين الحادثتين نسوق بعضها تبياناً لأهمّية الكلمة عند أولئك القوم الذين كان الشعر ذا تأثير عظيم على نفوسهم بحيث كانوا يسلمون قيادهم لسحره ، ويذعنون لإرادته ومساره ، وليس أدلّ على ذلك من حادثة الأعشى والمحلّق التي أوردتها المصادر بأساليب مختلفة ، فقد ذكرت أن الأعشى عندما « قدم مكّة وتسامع الناس به ، وكانت للمحلّق امرأة عاقلة ، وقيل : بل أمّ ، فقالت له : إنّ الأعشى قدم وهو رجلٌ مفوّه مجدود في الشعر ، ما مدح أحداً إلّا رفعه ، ولا هجا أحداً إلّا وضعه ، وأنت رجل كما علمت فقيرٌ خامل الذكر ذو بنات ، وعندنا لقحة نعيش بها ، فلو سبقت الناس إليه فدعوته إلى الضيافة ونحرت له ، واحتلت لك فيما تشتري به شراباً يتعاطاه ، لرجوت لك حسن العاقبة ، فسبق إليه المحلّق ، فأنزله ونحر له ، ووجد المرأة قد خبزت خبزاً وأخرجت نحيّاً فيه سمن ، وجاءت بوطب لبن ، فلما أكل الأعشى وأصحابه ، وكان في عصابة قيسية ، قدّم إليه الشراب واشتوى له من كبد الناقة وأطعمه من أطايبها ، فلما جرى فيه الشراب ، وأخذت منه الكأس ، سأله عن حاله وعياله ، فعرف البؤس في كلامه ، وذكر البنات ، فقال الأعشى : كفيت أمرهن ، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته :

أرقت وما هذا السُّهاد المؤرق ... وما بيَ من سقمٍ وما بي معشقُ

ورأى المحلّق اجتماع الناس فوقف يستمع وهو لا يدري أين يريد الأعشى بقوله إلى أن سمع :

نفى الذمّ عن آل المحلّق جفنةٌ ... كجابية الشيخ العراقيّ تفهق[1]

ترى القوم فيها شارعين وبينهم ... مع القوم ولدانٌ من النّسل دردق[2]

لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ ... إلى ضوء نارٍ باليفاع تحرّق

تشبُّ لمقرورَيْن يصطليانها ... وبات على النار النّدى والمحلّق

رضيعي لبانٍ ثدي أمٍّ تحالفا ... بأسحم داجٍ عَوْضُ لا نتفرق[3]

---

(١) تُفهق : تملأ وتفيض .

(٢) الدردق : الأطفال .

(٣) أسحم داج : أسود مظلم ، كناية عن الليل ، وعوض : أبداً .

ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه   كما زان متن الهندوانيّ رونق

فما أتمّ القصيدة إلاّ والناس ينسلون إلى المحلّق يهنئونه ، والاشراف من كلّ قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته لمكان شعر الأعشى ، فلم تمسِ واحدةٌ إلاّ في عصمة رجلٍ أفضل من أبيها ألف ضعف[١] .

هذه الحادثة تبيّن القدرة التي يتميز بها الشعر على تسويغ الأحكام ، ونشر الفضائل وتحقيق الاشتهار بين القبائل ، ونذكر كذلك في هذا المجال حادثة « عرابة الأوسي » الذي اشتهر بشعر الشمّاخ بن ضرار حيث بذل له عرابة في سنة شديدةٍ وسق بعير تمراً ، فقال الشمّاخ :

رأيت عرابة الأوسيّ يسمو   إلى الخيرات منقطع القرين

إذا ما رايةٌ رفعت لمجدٍ   تلقّاها عرابةُ باليمين

فصار « شعر الشماخ مثلاً سائراً بين الناس ، وأثراً باقياً لا تبلى جدّته ولا تتغيّر بهجته »[٢] .

وممّن رفعه الشعر أيضاً وجعله مقدّماً عند الملوك ، الحارث بن حلّزة اليشكري وكان أسلع أي أبرص ، فأنشد عمرو بن هند ملك الحيرة قصيدته التي مطلعها :

آذنتنا ببينها أسماءُ   ربَّ ثاوٍ يُملُّ منه الثواء

وكانت أم عمرٍو حاضرةً وهو ينشد شعره ، فقالت لابنها : بالله ما رأيت كاليوم قط رجلاً يقول مثل هذا القول ، يتكلّم من وراء سبعة ستور[٣] فقال الملك : ارفعوا ستراً وأدنوا الحارث ، واستمرّ الحارث بإنشاده وعمرو بن هند يرفع الستور واحداً واحداً بناءً لطلب أمّه حتى أزيلت الستور السبعة ، وأجلس الملك الشاعر بقربه وأكرمه غاية الاكرام ، وأطعمه في جفنته[٤] فلا عجب بعد سماعنا لمثل هذه الحوادث ، ومعرفة منحاها إذا رأينا القبائل العربية تقيم الاحتفالات والتبريكات عند نبوغ شاعرٍ من أبنائها ، نظراً لما يمثله وجود الشاعر فيها

---

(١) العمدة ص ٣٧ ـ ٣٨ ، والأغاني ج ٨ ص ٨ .

(٢) العمدة ج ١ ص ٣١ .

(٣) من عادة الملوك آنذاك أن يجب الشاعر الأبرص عن أنظارهم خلف الستور حتى لا يشاهد .

(٤) راجع شرح القصائد السبع الجاهليات لأبي بكر محمد بن قاسم الأنباري ص ٣٧٠ .

من ذبّ عن الأعـراض والحرمـات ، ودفاع عن الأحسـاب والأنسـاب ، ونشرٍ للفضـائـل والمكرمات ، فقد ذكر أنّ القبيلة منهم ، كانت « إذا نبغ فيهـا شاعـر أتت القبائـل فهنّأتهـا بـذلك ، وصنعت الأطعمـة ، واجتمعت النساء يلعبن بـالمزاهـر كما يصنعن بـالأعراس ، وتباشروا به ، لأنه حمـاية لأعـراضهـم ، وذبٌّ عن أحسابهم ، وتخليـد لمآثـرهم ، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنّئون إلّا بغلامٍ يولد ، أو فرس تنتج ، أو شاعر ينبغ فيهم »[1] .

ولبيـان تعلّق القبائـل بشعرائهـا وتقديـرها المفـرط لهم ولأشعارهم نـذكر مـا أوردته الروايات عن بني جعدة حيث قيل : « أُمسك علي النابغة الجعدي أربعين يوماً فلم ينـطق بالشعر ، ثمّ إن بني جعدة غزوا فظفروا ، فاستخفّه الطرب والفرح ، فرام الشعر فذلّ له ما استصعب عليـه ، فقال لـه قومـه : والله لنحن بإطـلاق لسان شـاعرنـا أسـرّ منـا بـالـظفـر بعدونا »[2] .

وكذلك كان شأن بني تغلب الذين تعلقوا بقصيدة شاعرهم عمرو بن كلثوم ، وراحوا يردّدونها في كلّ مناسبةٍ ومكان ، « ويروونها صغاراً وكباراً حتى هجـاهم شاعـر من شعراء خصومهم ومنافسيهم « بكر بن وائل » إذ قال :

أَلْهى بني تغلب عن كـلّ مكـرمـةٍ ... قصيـدة قـالهـا عمـرو بن كلثـوم
يـروونهـا أبـداً مـذ كـان أوّلهم ... يـا للرجـال لشعرٍ غيـر مشؤوم[3]

وهكذا يتبين لنا أنّ الشعر لم يكن ليحطّ من شأن قائليه ولو كانوا سادة أمثال النابغـة وعمرو بن كلثوم كما يرى البعض ، ولكنه كان يـرفع من ذلـك الشأن ويضيف إلى شـرف المحتد شرف البيان ، كما تتبيّن لنا أهمّيته في أنفس أولئك القوم حتى غدا في رأي كثير من المصادر « ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون ، وإليه يصيرون »[4] كما غـداً سجلاً لتاريخهم وحافظاً لمآثرهم ومناقبهم من الانـدثار والضيـاع ، يقول الجـاحظ : « فكلّ أمـةٍ تعتمـد في استبقـاء مـآثـرهـا وتحصين منـاقبهـا على ضـرب من الضـروب ، وشكـلٍ من الأشكال ، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر

(١) محمد شكري الألوسي : بلوغ الأدب ص ٨٤ ط ٣ .
(٢) المستطرف من كلّ فنّ مستظرف ج أول ص ١٣٨ .
(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٩ ص ١١٤ ، كذلك راجع الأغاني ج ١١ ص ٤٨ .
(٤) طبقات الشعراء ص ٣٤ .

والكلام الموزون المقفّى ، وكان ذلك ديوانها »[1] وقد أشار الكثير من الصحابة إلى أهميّة الشعر عند العرب ، فذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : كان الشعر علم قومٍ لم يكن لهم علمٌ أصحُّ منه »[2] وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : « الشعر ميزان القول ، ورواه بعضهم : الشعر ميزان القوم[3] وكان ابن عباس يقول : إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه ، فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب »[4] .

وأهميّة الشعر هذه تتأتّى من كونِ أنّه قد تحوّل إلى قيمة اجتماعية تمتلك كثيراً من القدرات التي تستطيع أن تضغط وتؤثر على نفوس أولئك القوم الذين تضخّم الاحساس بالذات عندهم حتى أصبحت الانفعالية طابعاً عاماً يشترك فيه كلّ الأفراد ، كما كانت الاتباعية مسلكاً واضحاً يتجلّى في كلّ مشارب القوم ومناهج الحياة ، ولذلك بتنا نرى كل ذلك التأثير المتعاظم للشعر والشاعر على السواء ، لأنه تأثيرٌ صادرٌ عن الاهتمام بالكلمة التي كان بمقدورها أن تفعل في نفوسهم ما يفعله السحر فيها ، فلا غرابة إذا ما رأينا رؤبة يقرن الشعر بالسحر ، ويجعله قادراً على التأثير والنفاذ ، يقول رؤبة :

لقد خشيت أن تكون ساحرا ... راويةً مرّاً ومرّاً شاعرا[5]

ويربط بروكلمان بين الشعر والسحر عندهم ، ويرى أنّ الهجاء قبل أن ينحدر « إلى شعر السخرية والاستهزاء ، كان في يد الشاعر سحراً يقصد به تعطيل قوى الخصم بتأثير سحريّ ، ومن ثمّ كان الشاعر إذا تهيّأ لإطلاق مثل ذلك اللعن ، يلبس زيّاً خاصاً شبيهاً بزيّ الكاهن ، ومن هنا تسميته بالشاعر ، أي العالم ، لا بمعنى أنه كان عالماً بخصائص فنٍّ أو صناعة معيّنة ، بل كان شاعراً بقوّة شعره السحريّة ، كما أن قصيدته كانت هي القالب المادي لذلك الشعر »[6] وممّا يؤيّد مثل هذا الاتجاه الأخبار التي ذكرتها الكتب ، وتحدّثت فيها عمّا كانوا يسمّونه « شيطان الشعر » وفي هذه التسمية ربط واضح بين الشعر والسحر ، فقد ذكر أنّه كان لبعض الشعراء شياطين يوحون إليهم بالأشعار ، ويذيعونها بين الناس عن

---

(١) الحيوان ج ١ ص ٤٩ .
(٢) طبقات الشعراء ص ٣٤ .
(٣) العمدة ج ١ ص ٢٠ .
(٤) العمدة ج ١ ص ٢٠ .
(٥) تاريخ العرب السياسي قبل الإسلام ج ٩ ص ٦٧ .
(٦) تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ٤٦ .

طريقهم ، ويروي صاحب الجمهرة أخباراً على ألسنة بعض الناس تتحدّث عن التقائهم ببعض الشياطين من الجن حيث كانوا يذاكرونهم الأشعار ويردّدون لهم قصائد وأبياتاً لأمرىء القيس والأعشى والنابغة وعبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم وغيرهم من شعراء الجاهلية المعروفين ، من هذه الأخبار ما ذكره على لسان شيخ حميريّ التقى بأحدهم فسأله إن كان يروي شيئاً من أشعار العرب فقال له نعم : « سل عن أيّها شئت ، قلت والكلام للشيخ : أنشدني للنابغة ، قال : أتحب أن أنشدك من شعري أنا ، قلت : نعم ، فاندفع ينشد لامرىء القيس والنابغة وعبيد ، ثم اندفع ينشد للأعشى ، فقلت : لقد سمعت بهذا الشعر منذ زمانٍ طويل ، قال : للأعشى ، قلت : نعم ، قال : فأنا صاحبه قلت : فما اسمك ؟ قال : مسحل السكران بن جندل ، فعرفت أنه من الجن ، فبتّ ليلةً الله بها عليم ، ثمّ قلت من أشعر العرب ، قال : أرو قول لافظ بن لاحظ ، وهيّاب وهبيد ، وهاذر بن ماهر ، قلت : هذه أسماء لا أعرفها ، قال : أمّا لافظ فصاحب امرىء القيس ، وأمّا هبيد فصاحب عبيد بن الأبرص وبشر ، وأمّا هاذر فصاحب زياد الذبياني وهو الذي استنبغه »[1] .

ولسنا ممّن يؤمن بمثل هذه الروايات إلّا أن إيرادها هنا دليل قويّ على قدرة الشعر على التأثير في أنفسهم ذلك التأثير الذي راحوا يفسرّونه بقوى غيبية لا يستطيعون ردّها أو مقاومتها تعليلاً منهم لإذعانهم المفرط لسحر الكلمة وأبعادها النافذة فيهم ، ولقد أدرك النقاد العرب تأثير شعر الهجاء خاصة في الناس ، ولذلك امتنعوا عن الحكم بين الشعراء أو الاساءة إلى أيٍّ منهم ، هرباً من ألسنتهم ، واحتفظوا بآرائهم النقدية وأحكامهم الفنيّة حتى لا يزجّوا بأنفسهم في متاهات الكلمة التي قد لا توفر الأحساب والكرامات ، فقد ذكر أنّ أبا عبيدة سئل : « أيّ الرجلين أشعر ؟ أبو نواس أم ابن أبي عيينة ؟ فقال : أنا لا أحكم بين الشعراء الأحياء ، فقيل له : سبحان الله ، كأنّ هذا ما تبيّن لك ، فقال : أنّا ممّن لم يتبيّن له هذا »[2] وهكذا نرى أبا عبيدة يتهرّب عمداً عن الإجابة ويقبل أن يقال غبيّاً أو جاهلاً وهو من هو في اللغة والأدب ، فراراً من ألسنة الشعراء الأحياء الذين كانوا يصبّون جام غضبهم على كلّ من يتعرّض لهم بسوء أو يذكرهم بقبيح ، كذلك فقد أدرك الشعراء أنفسهم أثر كلماتهم القادرة على مقاومة الزمن وعوامل الفناء والإمحّاء فيه ، يقول دعبل الخزاعي :

إنّي إذا قلت بيتاً مات قائله ومن يقالُ له والبيت لم يمتِ

---

(١) الجمهرة ط ١٨ ـ ١٩ ـ دار المسيرة .

(٢) العمدة ج ١ ص ٥٩ .

كما أن أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أنشد أبياتاً لأبي الدلهان في ذلك المعنى ، فقال :

ولـلشعـراء ألـسنـة حـدادٌ ... على العـورات مـوفيـة دليلة
ومن عقل الكريم إذا اتقاهم ... وداراهـم مـداراةً جـمـيـلة
إذا وضعـوا مكاويهم عليـه ... وإن كذبوا ، فليس لهنّ حيلة[1]

وقال طرفة أيضاً مبيّناً ذلك الأثر :[2]

رأيت القوافي يتّلجن موالجاً ... تضيّق عنهـا أن تولجهـا الإبر

وذكر امرؤ القيس أثر الكلمة فقال :[3]

ولـو عن نثا غيـره جـاءني ... وجـرح اللسـان كجـرح اليـد

وهكذا يتضح ممّا تقدّم أن الشعر كان سلاحاً ماضياً في أيدي الذين يمتلكونه ، وهو سلاح لا يقلّ قدرة في الفتك عن السيف والسّنان ، ولذلـك كان العـرب يتّقون حـامليه ، ويعملون جهدهم في سبيل رضائهم ومداراتهم ويتـرفعون عن الإسـاءة إليهم إشفاقـاً على أنفسهم من كلمة قارصة تجري مجرى المثل ، وطمعاً بالمدح القادر على إزالة الإساءة لأن القاعدة عندهم هي أنّ المديح يجبُّ الهجاء ويمحو كلّ آثاره السلبية إلى الأبد ، وقد أشار الجاحظ إلى تخوّف العرب من الهجاء ومن شيوعه بين الناس ، فذكر أنهم كانوا « إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق ، وربمّا شدّوا لسانـه بنسعةٍ كمـا فعلوا بعبد يغـوث بن وقاص الحارثيّ حين أسرته بنو تميم يوم الكلاب »[4] .

ونذكر المصادر كذلـك أحاديث متعـدّدة تؤكد وفـرة الشعر وكثـرة الشعراء في ذلـك العصر ، حتى يظنّ المـرء أن الشعر كـان فيهم سليقةً وطبعـاً ، أو كأنهم جبلوا على حبّ الشعر ونظمه ، فقلّما تـرى فيهم من لا يجيده ، ولكنّهم ، يتفـاوتون في ذلـك بين المقلّ والمكثـر ، يقول ابن قتيبـة : « والشعراء المعـروفون بـالشعر عنـد عشائـرهم وقبائلهم في

---

(١) راجع العمدة ج ١ ص ٦٠ .
(٢) ديوان طرفة ص ٤ دار صادر .
(٣) ديوان امرىء القيس ص ٥٣ دار الكتب العلمية .
(٤) البيان والتبيين ج ٤ ص ٤٥ تحقيق عبد السلام هارون .

الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفذ عمره في التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال[1] ويقول في موضع آخر موضحاً النهج الذي التزمه في تصنيف كتابه « الشعر والشعراء » وأسقط بموجبه كلّ من غلب عليه غير الشعر : « ولو قصدنا لذكر مثلِ هؤلاء في الشعراء لذكرنا أكثر الناس ، لأنّه قلّ أحدٌ له أدنى مسكةً من أدب ، وله أدنى حظّ من طبع ، إلاّ وقد قال من الشعر شيئاً[2] .

ويذكر الرافعي أنّ ابن أبي دؤاد كان يقول : « ليس أحدٌ من العرب إلاّ وهو يقدر على قول الشعر »[3] .

وممّا يؤكد ما أشرنا إليه من وفرة الشعر وكثرة الشعراء قول أبي عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم ممّا قالت العرب إلاّ أقلّه ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثير »[4] .

فبعد الذي سمعناه ، نستطيع التأكيد على أن الحديث عن شيوع الشعر وانتشاره بين الناس ليس حديثاً خيالياً ، بل هو حديث يرتكز إلى جذور واقعية ووقائع مادّية ثابتة يمكن أن نستشف معالمها من خلال طبيعة ذلك المجتمع الذي راح يسرح مع الشعر في نشوة عارمة بلغت به حدّ النشوة المنبعثة عن السكر والشراب .

وليس حديثنا عن تلك الكثرة والوفرة يعني أنّنا ممّن يقيمون وزناً للكمّية ، فالكمّية ليست في نظرنا بذات قيمة ، ولكنّنا ألمحنا إليها لنصل إلى الغاية المرجوة التي نميل إلى تسطيرها وتسجيلها والتأكيد عليها ، وهي أن النوعية هي معيار الشعر وميزان ثباته وخلوده ، وهي وحدها القادرة على الوقوف في وجه الزمن ومقاومة عوامل الفناء والامحّاء، وحقّاً، فقد استطاع ذلك الشعر الذي أُثر عن العرب في جاهليتهم أن يقف في وجه الزمن بفضل عوامل كثيرة ساعدت على بقائه واستمراره ، وقد أشرنا إلى بعض تلك العوامل في حديثنا عن « أثر الكلمة » التي كان بإمكانها أن تعصف في نفوس أولئك القوم ، وتقيم الدنيا ثمّ لا تقعدها ، لأنهم كانوا ممّن يركنون إلى العواطف ويتركون لها زمام أنفسهم ، وليس الشعر إلاّ وليد العاطفة الجياشة والإحساس المرهف ، ولذا أذعنوا له وأسلموا له القياد ، هذا فضلاً عن العوامل الفنيّة التي أسهمت إسهاماً جليلاً في بقاء ذلك الشعر وكتبت له الاشتهار والخلود ،

---

(١) الشعر والشعراء ص ١٨ .
(٢) الشعر والشعراء ص ١٨ ـ ١٩ .
(٣) تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ٦٤ .
(٤) طبقات الشعراء ص ٣٤ .

يقول شوقي ضيف موضحاً تلك العوامل أو الخصائص : فمن « أهم ما يلاحظ على الشعر الجاهلي أنه كامل الصياغة ، فالتراكيب تامة ولها دائماً رصيدٌ من المدلـولات تعبّر عنـه ، وهي في الأكثر مدلولات حسّية ، والعبارة تستوفي أداء مدلولها، فلا قصور فيها ولا عجز ، وهذا الجانب في الشعر الجاهليّ يصوّر رقيّاً لغويّاً ، وهو رقيّ لم يحدث عفواً ، فقد سبقته تجارب طويلة في غضون العصور الماضية قبل هذا العصر ، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى أخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه الصورة الجاهلية التامة »[1] .

أمّا الخطابة ، فإنها الوجه الآخر للكلمة الأدبية ، وقد احتلت عندهم مكانةً لا تقلّ في الأهمية عن الشعر ، إلاّ أنها لم يكن بمقدورها أن تنافس الشعر الذي يوافق طبائعهم ، فهي ترتكز على العقل أكثر من ارتكازها على العواطف ، والعرب كما قلنا ، قـومٌ عاطفيـون ، ولذلك لم تستطع أن تقف في وجه الشعر أو تشيع شيوعه الكبير بين الناس نظراً لأن الشعر يتميّز عنها بالوزن والنغم والقدرة على إثارة المشاعر ، ومن ثمّ العلوق في الذاكرة ، ولـذا كان أكثر قدرة على مقاومة عوامل الفناء فاستطاع أن يبزّها ويكتب لنفسه السيادة بلا منازع ، يقول ابن رشيق مقارناً بين المنثور والمنظوم : « ألا ترى أنّ الدرّ وهو أخـو اللفظ ونسيبه ، وإليه يقاس وبه يشبّه ، إذا كـان منثوراً لم يؤمن عليـه ، ولم ينتفع بـه في الباب الـذي له كسب ، ومن أجله انتخب ، وإن كان أعلى قدراً وأغلى ثمناً ، فإذا نظم كان أصون له من الابتـذال ، وأظهر لحسنـه من كثرة الاستعمـال ، وكذلـك اللفظ إذا كان منثـوراً تبـدّد في الاسماع وتدحرج عن الطباع ، ولـم تستقر منـه إلاّ المفرطـة في اللفظ وإن كانت أجمله ، والواحدة من الألف وعسى أن لا تكون أفضله »[2] فتلك إشارة جيـدة من صاحب العمـدة تظهر قدرة المنظوم على البقاء وعلى مقاومة عوامـل الضياع والتشتت الـذي يفقد الأشيـاء رونقها واتصالها .

وكذلك يقارن عمرو بن العلاء بين الشاعر والخطيب ، فقد ذكر الجاحظ أنه قـال : « كان الشاعر في الجاهلية يقدّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم ، ويفخّم شأنهم ويهوّل على عدوهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلمّا كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبه ، ورحلوا إلى السوقة ، وتسرّعوا إلى أعراض

---

(١) العصر الجاهلي ص ٢٣١ .

(٢) العمدة الجزء الأول ص ١٥ ـ ١٦ .

الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر »[1] ويتابع الجاحظ أبا عمرو بن العلاء فينحو إلى ما نحا إليه ويقول : « كان الشاعر أرفع من الخطيب ، وهم إليه أحوج لردّه مآثرهم عليهم ، وتذكيرهم بأيّامهم ، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر ، صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر »[2] فالجاحظ وابن العلاء هنا يعترفان بتقدّم الشاعر على الخطيب عندهم ، ويشيران بوضوح إلى قيمة الكلمة التي بإمكانها أن تهزّ النفوس ، وتثير المشاعر ، وتنال الرضا والاعجاب ، وليس هناك فرق بين هذه « الكلمة » سواءً في الشعر جاءت أم في الخطابة ، فالفرق في سموّها وارتفاعها ووقعها المحبب في النفس أو الممجوج منها ، ولذا نراهم عندما تنحدر الكلمة إلى المستوى الذي لا يليق بها من المكانة والغاية ، يقدّمون الخطيب على الشاعر ، ويرفعون من قدره ومنزلته عليه ، وهذا حقٌّ بديهيٌّ من حقوقهم يهدف إلى صون الكلمة من الابتذال والسوقية ، وإلى توجيهها الوجهة التي تحافظ فيه على رفعتها وعلى مقدّراتها المعنوية والمادية .

وبالرغم من هاتين المقارنتين بين الشاعر والخطيب ، تبقى الأهميّة للشعر حيث الوفرة والكثرة ، فالخطابة التي أُثرت عن ذلك العصر لم يكن بمقدورها أن تقف في وجه تيار الشعر المتدفق في كلّ اتجاه ، فهي من النزرة والقلّة بمكان ، ومن الشيوع والاستجابة لعوامل البيئة وطبيعة القوم في ركود ، ولعلّ قدرة الشعر على البقاء ، أفقدها كثيراً من تلك العوامل عندهم ، فاهملوا رواية الكثير منها ، واحتفظوا لنا بالقليل الموجز من القول الذي يصوّر ما كانت عليه الخطابة في عصرهم ، ويشير إلى السّنن والتقاليد المتبعة أثناء إلقائها ، وقد أفاض الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » وفي ردّه على الشعوبية خصوصاً ، بذكر تلك السّنن والتقاليد وتبريرها وشرح أهميتها وأهدافها ، كما أورد كثيراً من الخطب والاسجاع والحكم والامثال والمواعظ التي تفوّه بها العرب ، وذكر عدداً كبيراً من الخطباء الذين اشتهروا عند قبائلهم وفي أنحاء الجزيرة العربية كلّها ، أمثال أكثم بن صيفي وقسّ بن ساعدة وضمرة بن ضمرة ، وعامر بن الضرب وهانىء بن قبيصة وزهير بن جناب وابن عمار وغيرهم من خطباء العرب وسادتها وحكمائها ، ويشير شوقي ضيف إلى كثرة الخطباء في الجاهلية فيقول بعد أن يورد أسماء كثير من المشهورين : « وواضح أنّ هذه كثرة من الخطباء الجاهليين ، إن لم يصحّ ما أُثر عنهم من خطب ، فإن من المحقق أنهم خطبوا

---

(١) البيان والتبيين ج أول ص ١٣٦ دار الكتب العلمية .

(٢) البيان والتبيين ج ٤ ص ٨٣ ، تحقيق عبد السلام هارون .

كثيـراً في أقوامهم وقبـائلهم ، وإلاّ ما اشتهـروا بالبـراعـة في هـذا اللون من ألـوان اللّسن والبيان ، وكان ممّا بعثهم على إحسانه حاجتهم إليه في مواطن ومواقف عدة ، وكـان قلّما يرتفع نجم سيد من سادتهم ، إلاّ والخطابة صفة من صفاته ، وسجيّة من سجـاياه ، حتى تساق له القلوب بأزمتها ، وتجمع له النفوس المختلفة من أقطارها »[1] .

فلا عجب بعد كلّ الذي سمعناه عن أهمية الكلمة وأثرهـا ، من أن تعلّق في أماكن العبادة عندهم ، ومن أن توضع في المكان الذي يجب أن توضع فيه من الهالة والتقديس .

وهكذا نرى أنّ العصر الجاهلي قد سادت فيه قيم كثيرة ، وهي قيم تنمّ عن معارف جلّى تدفع عنه ما وصم به من جهل ، اللّهم إلاّ ذلك الجهل الديني والغرائزي المبنيّ على تقديس التقاليد والعادات ، وتشير بجلاء إلى أن ذلك العصر قد مهّد في كثيـرٍ من جوانبـه ومعطياته إلى إشراق ضوء باهر كانت أنواره ما تزال مسدفة وراء حجب من الفراغ والصراع والممارسات الموروثة التي سرعان ما تبدّدت جميعها عند انبثاق فجر الإسلام وسطوع قيمه وشرائعه . . .

---

(١) العصر الجاهلي ص ٤١٥ .

المعلقات

دراسة عامة

ممّا لا شكّ فيه ، هو أن الشعر تعبيرٌ عن حاجات إنسانية تختلج في النفوس وتعتمل بها لترى النور بعد استيفاءٍ للزمن ونضوج للمعاناة ، عبر كلمات لها خصائصها ومصطلحاتها وأبعادها الفكرية والدلالية ، فليس الشعر كلاماً عادياً يتفاهم به الناس ولكنه كلام من نوع آخر يتطلّب كثيراً من الحذق والمهارة والأصول ، إضافةً إلى الموهبة التي يمكن لنا أن نسميها الملكة الشعرية ، فليس باستطاعة كلّ إنسان أن ينظم شعراً ، كما أنه ليس باستطاعة أيّ مثقف أن يقوم بذلك العمل مهما كان حظّه من الثقافة كبيراً ، لأنّ الثقافة من مستلزمات الشعر وإغنائه ، لكنها ليست قادرة على أن تجعل المثقف يكتب شعراً ، فالشعر ملكة خاصة ينفرد بها قلّة من الموهوبين ، وهذه الملكة كغيرها من الملكات الإنسانية أو القدرات تستوجب مراناً وتنمية وصقلاً حتى يكتب لها الاكتمال والنضوج ، ولذلك كان الشعر في مفهوم العرب وغيره صناعة[1] تستوجب كثيراً من المهارات ، ولكنها صناعة من نوع آخر ، عمادها الكلمة والحسّ والذوق ، إضافة إلى الموهبة التي هي الينبوع والأساس .

وبما أننا عرّفنا الشعر بأنه تعبير عن الحاجات الإنسانية بالكلمة الفنّية ، فإنّ هذا يقتضي قدم الشعر وربطه بوجود الإنسان ، ولذلك فليس من الممكن أن نتعرّف إلى بداياته ، ولا إلى صوره الشكلية وأنماطه التعبيرية الأولى ، لأن تلك البدايات ستظلّ مجهولة رغم كثير من الافتراضات والأقاويل ، ولا يمكن لأحدٍ أن يؤرّخ لها إلاّ تكهُّناً أو رجماً بالغيب ، ولأن الحاجات الإنسانية والتعبير عنها قديمان قدم الإنسان ، بعيدان بعد الزمن ووجوده فيه ، ولذلك فقد فطن بعض القدماء إلى هذه الناحية المهمّة ، ورأيناهم في

---

(١) راجع شوقي ضيف الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٣ .

كثير من كتب التاريخ والسيّر والآداب ، يذكرون أشعاراً لآدم عليه السلام ، أو لغيره ، من قدامى الأسلاف ، ونحن هنا لا نذكر ذلك اعترافاً منا بصدق ذلك الشعر ، ولا نشك قيد لحظة في وضعه واختلافه ، ولكنّنا أشرنا إلى ذلك تدليلاً على ارتباط الشعر بحاجات الإنسان وبمشاعره الخاصة التي تقتضي تعبيراً عنها بصورة خاصة من الصور نجهلها ، تلك المشاعر الأزلية الخالدة التي لا تتغيّر ولا تتبدّل لأن عالم النفس والطبيعة الإنسانية باقٍ على حاله ، سواءً ذلك في الماضي أو في الحاضر ، أو المستقبل واللامنظور، فليس من العجب أن يكون لهؤلاء الأسلاف شعرهم الخاص ، وتعبيراتهم الخاصة عن حاجاتهم الإنسانية ـ وما أكثرها ـ ما دامت العواطف واحدة ، تتهذّب ، ولكنّها لا تتغيّر ، وما دامت بواعث الشعر موجودة في كلّ زمان ومكان .

بعد هذه المقدمة نعود إلى الشعر عند العرب لنؤكد على قدمه ، وعلى أن الافتراضات التي جعلت بداياته الأولى لا تتعدّى أوائل القرن السادس للميلاد والمائة سنة السابقة على مولد النبي ﷺ هي افتراضات تستند إلى ما وصلنا من شعر منسوب إلى شعراء لا يتجاوزون في الزمن تلك الفترة ، لكنّ الشعر الذي وصلنا منها شعر تدلّ فنيّته وخصائصه ، ومن ثمّ اكتماله بهذا الشكل البديع من الاتقان لغةً ونغماً على أن جذوره قديمة العهد ، وعلى أنه مرّ في مراحل متعدّدة حتى وصلنا بتلك الصورة من الجودة والإستواء ، ولذلك فإننا نذهب إلى ما ذهب إليه بروكلمان حين قال : إن شعر العرب كان « فنّاً مستوفياً لأسباب النضج والكمال منذ ظهر العرب على صفحة التاريخ ، ولا تستطيع رواية مأثورة أن تقدّم لنا خبراً صحيحاً عن أولية الشعر »[1] .

وإذا كان بعض الباحثين ، يميلون إلى إنكار الأشعار الجاهلية أو بعضها على الأقل لوجود اختلافات في اللغة بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، أو لعدم انتشار الكتابة في البقعة التي نمي إليها الشعر الجاهلي ، أو لأسبابٍ أخرى يرونها ، فإنّ ذلك الإنكار يتعامى عن كثير من الأقوال التي لا يُشكّ في صدقها ، والتي أشارت بشكل واضح إلى أهمية الشعر عند العرب ، وإلى تعلّق هؤلاء الناس بذلك الفنّ من القول وحفظه وترداده مع الزمن ، فكلّ الكتب القديمة العهد تؤكدّ مبلغ عناية العرب الجاهليين بالشعر وحرصهم العظيم عليه ، يقول أبو هلال العسكري : « وممّا يفضل به غيره « أي الشعر » طول بقائه على أفواه الرواة ، وامتداد الزمان الطويل به ، وذلك لارتباط أجزائه ببعض ، وهذه خاصيّة في كلّ لغة

---

(١) بروكلمان ـ تاريخ الأدب العربي ص ٤٤ . الجزء الأول .

وعند كلّ أمّة ، وطول مدّة الشيء أشرف فضائله وممّا يفضل به غيره من الكلام »[1] .

من هذا النص يمكننا أن نتبين ملاحظة على جانب كبير من الأهميّة وهي قدرة الكلام المنظوم ـ أي الشعر ـ على البقاء والاستمرار لمُدةٍ طويلة من الزمن ، وذلك لسهولة حفظه التي تؤدّي حتماً إلى كثرة تداوله وشيوعه بين الناس ، فلا سبيل إذاً إلى إنكار الشعر الجاهلي واختلاق قصة انتحاله ، لأن عهد تدوينه قد تأخر حتى مطلع العصر العباسيّ ، هذا فضلاً عن الأهميّة الخاصة التي كان العربيّ يوليها للشعر ، يقول ابن سلّام في طبقات الشعراء : « وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم « أي الجاهليين » ومنتهى حكمهم ، به يأخذون وإليه يصيرون » .

وقال عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قومٍ لم يكن لهم علمٌ أصحُّ منه »[2] .
وقال ابن عباس : « الشعر علم العرب وديوانه »[3] .

فهذه الأقوال وغيرها تظهر بما لا يدع مجالاً للشك مدى اهتمام العرب بالشعر ومدى إقبالهم بكلّ جوارحهم عليه ، لأنهم أودعوه كلّ قيمهم وعلومهم ، وتاريخهم ، وجعلوه سجلاً لأنفسهم ومعارفهم ، فكان كلُّ ذلك الاهتمام به والحرص عليه مستوحىً من الحرص العظيم على البقاء والوجود وأيُّ حرصٍ يعادل الحرص على النفس ، بل أيُّ حرص يعادل البقاء والاستمرار ، ولذا أقبل العرب على الشعر وعلى نظمه وحفظه وتداوله ، واهتموا به كلّ ذلك الاهتمام الذي حمل إلينا تراثاً شعرياً عظيماً لا يستهان به ، رغم أنّ الكثير منه قد ضاع وطواه الزمن بصروفه المتغيّرة في صفحات النسيان . يقول أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم ممّا قالت العرب إلاّ أقلّه ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعر كثير »[4] .

وأخبار كثرة الشعر والشعراء متعدّدة في كتب تواريخ الأدب ، وهي تظهر بشكل واضح وجليٍّ وفرة المنظوم في تلك الفترة السابقة على الإسلام . وتبيّن أنّ الجاهليين قد فاقوا في نتاجهم كلّ تصور ، فقد « ذكروا أن أبا تمام صاحب كتاب الحماسة كان يحفظ من أشعار العرب « الجاهليين » ١٤ ألف أرجوزة غير القصائد والمقاطيع ، وكان حمّاد الراوية يحفظ ٢٧ ألف قصيدة على كلّ حرف من حروف الهجاء ألف قصيدة ، وكان الأصمعي

---

(١) الصناعتين ص ١٥٥ .
(٢) طبقات الشعراء ص ٣٤ .
(٣) العقد الفريد ج ٦ ص ١٣٠ .
(٤) طبقات الشعراء ص ٣٤ .

يحفظ ١٦ ألف أرجوزة ، وكان أبو ضمضم يروي أشعاراً لمائة شاعر كلّ منهم اسمه عمرو »[١] .

ويحدّثنا ابن سلّام في طبقاته عن وفرة الشعر العربي وضياع أكثره بسبب اهتمام المسلمين بالدين الجديد واشتغالهم بالفتوح فيقول : « فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب « أي الشعر » وتشاغلوا بالجهاد ، وغزوا فارس والروم ولهيت عن الشعر وروايته ، فلمّا كثر الإسلام وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا إلى ديوانٍ مدوّن ولا كتاب مكتوب ، فألّفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك ، بالموت والقتل ، فحفظوا أقلّ ذلك وذهب عنهم أكثره[٢] .

فمن هذه الأقوال نستنتج أن الشعر الجاهليّ ليس شعراً منتحلاً أو مختلفاً ، بل هو شعر ثابت الحقيقة والجذور ، وأنّ الذي وصلنا منه لا يمثّل إلاّ غيضاً من فيض ، وقد ضاع أكثره مع ضياع الذاكرة الإنسانية موتاً أو سهواً ، وهذا التشكيك عند بعض الباحثين في مصداقيته مردّه إلى افتراضات واهية حاول أصحابها عن طريق إضفاء صفة البحث والعلمية والجدلية المنطقية والإستناد إلى بعض الروايات الضعيفة والطعن بصدق ما نقله الرواة ، أن ينفوا عن العرب الجاهليين هذا الشعر الذي يدلّ اكتماله بهذا الشكل والفنيّة والغنى والتنوّع ، على أن العرب كانوا قبل الإسلام يمتلكون كلّ مقوّمات الأمة التي تمثّلها وحدة اللغة مضافةً إلى وحدة الانتماء والوجود ، ولذلك نرى بعض المستشرقين المنصفين يدحضون مزاعم المنكرين للشعر العربي برمته ، ويخطئونهم فيما ذهبوا إليه من مزاعم وافتراءات . يقول بروكلمان : ومن ثمّ يعدُّ خطأً من مرجليوث وطه حسين أن أنكرا الكتابة في شمال الجزيرة العربية قبل الإسلام بالكليّة ورتبا على ذلك ما ذهبا إليه من أنّ جميع الأشعار المرويّة لشعراء جاهليين مصنوعةٍ عليهم ومنحولة لأسمائهم »[٣] .

ويشير بروكلمان أيضاً إلى ناحيةٍ مهمّة تؤكد صحة أكثريّة الشعر الجاهلي وتغلق المنافذ بوجه المشككين فيقول : « على أنّه بالرغم من كلّ العيوب التي لم يكن منها بدٌّ في المصادر القديمة ، يبدو أن القصد إلى التشويه والتحريف لم يلعب إلاّ دوراً ثانوياً »[٤] .

---

(١) جرجي زيدان ـ تاريخ آداب العربية المجلد الأول ص ٧٠ .

(٢) طبقات الشعراء ص ٣٤ .

(٣) تاريخ الأدب العربي ص ٦٤ .

(٤) تاريخ الأدب العربي ص ٦٥ .

من هنا يمكننا القول : إن الشعر في الجاهلية كان من الوفرة بمكان ، وإنّ ما وصل إلينا منها ليس شعراً منحولاً ، أو محرّفاً بالكلّية ، وهو في معظمه صحيحٌ وحقيقي ويمثّل سجلاً دقيقاً وغنياً بكل مظاهر الحضارة العربية المختلفة وصور الحياة المتباينة ، ويمكن اعتباره بمثابة « الآثار عند قدماء المصريين واليونانيين من الأمم القديمة »[1] .

نعود بعد هذا الاستطراد الضروري إلى الحديث على المعلّقات العربية تلك القصائد المشهورة التي تمثّل قمّة ما توصل إليه الشعر العربي في الجاهلية من حيث المستوى والنضوج والفنيّة ، فالمعلّقات لفظ من ألفاظٍ عدّة أطلقها الرواة والباحثون على عددٍ من القصائد الجاهلية المميّزة ، وقد اختلف الباحثون عبر التاريخ ، أو تعدّدت آراؤهم في تسميتها ، وفي عددها وفي أصحابها وفي روايتها ، وسوف نتتبع بشكل وافٍ كلّ هذه الأشياء متوقفين عندها مناقشين ومحلّلين ما أمكن وصولاً منّا إلى إبداء رأي يكون أقرب إلى السلامة والصواب .

فمنذ القدم تطالعنا كتب الأدب بأسماء متنوّعة ومتعدّدة أطلقت على مجموعات من الأعمال الشعرية التي جرى اختيارها وفق اعتبارات فنّية وتاريخيّة وموضوعية ، من هذه الأسماء الكثيرة أو الألقاب أو المصطلحات « المعلّقات أو السبع الطوال » و « المجمهرات » و « المنتقيات » و « المذهّبات » و « عيون المراثي » و « مشوبات العرب » و « الملحمات » و « الاعتذاريات » و « الهاشميات » وا « السيفيات »[2] . إلى غير ذلك من الأسماء التي ربطت هذه المختارات في رابط مؤلّف وقرنتها إلى بعضها البعض حتى غدت هذه التسميات علماً لها ودليلاً عليها ، ومن أوائل هذه التسميات أو المصطلحات لفظ « المعلّقات » الذي كان في الأصل يطلق على كلّ ما يعلّق ، ومن ثمّ أخذ معناه مع الزمن يتطوّر اصطلاحياً فيعطي فترةٍ بعد فترة الأبعاد المجازيّة التي ترتبط بالمصدر ولكنها تجعلها أكثر شموليّة واتساعاً وغنىً ، وقد عرف هذا اللفظ طريقه إلى الأدب فأطلق على مجموعة من القصائد التي تعتبر « من أجود الشعر وأدقه معنىً وأوسعه خيالاً وأبرعه أسلوباً وأسمحه لفظاً وأعمقه معنىً وأمدّه قافيةً وأصدقه تصويراً للحياة التي كان يحياها العرب في جاهليتهم »[3] .

---

(١) عبد المنعم خفاجي الشعر الجاهلي ص ٣٥٥ .
(٢) راجع جمهرة أشعار العرب للقرشي ص ٣٤ ـ ٣٥ .
(٣) الشعر الجاهلي ٣٤١ .

ويختلف الباحثون وتتعدّد آراؤهم في سبب تسميتها بهذا الاسم إلاّ أن أكثرهم يرجع السبب في ذلك إلى تعليقها في ركن من أركان الكعبة المقدّسة عند العرب في القديم والحديث، وخبر التعليق هذا قد ورد في عددٍ من المصادر القديمة والحديثة على السواء فقد جاء على لسان ابن الكلبي المؤرّخ المتوفي سنة ٢٠٤ هـ وقيل سنة ٢٠٦ هـ إن « أوّل شعر علّق في الجاهلية شعر امرىء القيس ، علّق على ركن من أركان الكعبة أيّام الموسم حتى نظر إليه ثم أحدر ، فَعَلِقت الشعراء ذلك بعده ، وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية ، وعدّوا من علّق شعره سبعة نفر ، إلا أنّ عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة »(١) .

وذكر ابن عبد ربه ذلك في عقده فقال : « كان الشعر ديوان خاصة العرب والمنظوم من كلامها والمقيِّد لأيامها والشاهد على حكّامها ، حتى لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيّرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلّقتها بين أستار الكعبة ، فمنه يقال : مذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير ، والمذهّبات سبع وقد يقال لها : المعلّقات »(٢) .

وجاء في خزانة الأدب للبغدادي : « أنّ العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعبأ به ولا يُنشده أحد ، حتى يأتي مكّة في موسم الحج فيعرضه على أندية قريش ، فإن استحسنوه روي وكان فخراً لقائله وعلّق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه ، وإن لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به »(٣) .

وقال ابن رشيق القيرواني في عمدته : « وكانت المعلّقات تسمّى المذهّبات وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب ، وعُلّقت على الكعبة ، فلذلك يقال مذهّبة فلان إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحدٍ من العلماء »(٤) .

وقد أشار ابن خلدون أيضاً إلى خبر التعليق هذا فقال : « اعلم أن الشعر كان ديواناً للعرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم ، وكان رؤساء العرب متنافسين فيه ، وكانوا يقفون

---

(١) تاريخ آداب العربي للرافعي ص ١٨٤ ، الجزء الثالث .
(٢) العقد الفريد ج ٦ ص ١١٨ .
(٣) خزانة الأدب ج ١ ص ٨٩ .
(٤) العمدة ج ١ ص ٧٣ .

بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كلٍّ واحدٍ منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز حوكه حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت أبيهم إبراهيم ، كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والأعشى ، وغيرهم من أصحاب المعلّقات السبع ، فإنّه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلّقات »[1] .

هذه بعض النصوص القديمة التي تذكر خبر التعليق لبعض القصائد الجاهلية على أستار الكعبة أو في ركنٍ من أركانها ، ولكن قلّةً من الباحثين ينكرون تعليقها ، بل ومنهم من ينكر وجودها ويدّعي اختلاقها أيضاً ، فالرافعي يؤمن أن هذه القصائد المسمّات بالمعلّقات هي من مختارات الشعر وأحسنه ، إلا أنه يرفض الأخذ بصحة تعليقها ويعدّ ذلك من الأخبار المختلفة فيقول : « أما خبر الكتابة بالذهب أو بمائه ، والتعليق على الكعبة ففي روايته نظر ، وعندي أنه من الأخبار الموضوعة التي خفي أصلها حتى وثق بها المتأخرون ، وإنما استدرجهم إلى ذلك أن هذه القصائد تكاد تكون الصفحة المذهّبة من ديوان الجاهلية »[2] .

ويستند الرافعي في رأيه إلى أبي جعفر النّحاس أحد شارحي المعلّقات حين يقول : « إن العرب كان أكثرها يجتمع بعكاظ ويتناشدون فإذا استحسن الملك قصيدةً قال : علّقوها وأثبتوها في خزانتي ، وأمّا قول من قال : إنها عُلّقت في الكعبة فلا يعرفه أحدٌ من الرواة »[3] .

وأبو جعفر هنا لا ينفي خبر التعليق وإنما ينفي خبر التعليق في الكعبة ومعرفة الرواة له ، ولعلّه يقصد الرواة الذين سمع منهم أو اطلع على آرائهم فقط ، ويجوز أن يكون هناك من الرواة الذين يقولون بالتعليق على ركن من أركان الكعبة ، ولكنه لم يقف على آرائهم وأقوالهم ، أو أنه تجاهلهم قصداً لأنه يرى عكس ما يرون ولا يؤمن بما يذهبون إليه ، وهذا التجاهل واضحٌ من قوله : « وأمّا قول من قال » فهذا يثبت أن هناك من كان يقول بالتعليق ولكنّ ابن النحاس أراد طمسه والتشكيك به تبريراً لرأيٍ جديدٍ أراد إطلاقه تغليباً لقولٍ عَمِل

---

(1) المقدمة ص ١١٢٢ ـ دار الكتاب اللبناني .
(2) تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ١٨٣ .
(3) شرح القصائد المشهورات ص ١٢٥ .

على إظهاره وتأييده ، وهذا هو ما أمكننا استخلاصه من قوله : « وأصحُّ ما قيل في هذا أن حماداً الرواية لمّا زهد الناس في حفظ الشعر جمع هذه السبع وحضّهم عليها وقال لهم هذه المشهورات فسمّيت القصائد المشهورة لهذا » .

والتشكيك بخبر التعليق هذا فتح الباب أمام جمهرةٍ من الباحثين للتفسير والتأويل ، فنرى بعض المستشرقين وغيرهم ممّن تناول المعلّقات بالدراسة والبحث يميل نتيجة ذلك اللّبس والجدل اللذين أثيرا حول خبر التعليق إلى تفسيرات متعدّدة لأسباب التسمية فمنهم من يرى أن تسمية هذه القصائد بالمعلّقات لا يعني بالضرورة تعليقها على ركن من أركان الكعبة ، فربّما كانت هذه التسميات مستوحاة من معانٍ مجازيّة أخرى بسبب شهرة هذه القصائد ونفاستها .

يقول بروكلمان : « وأقدم ما بقي من مجموعات القصائد الكاملة هو الاختيارات التي جمعها حمّاد الراوية وسمّاها على غرار عناوين الكتب الأخرى « السّموط » والاسم الآخر المألوف وهو « المعلقات » وأراد حمّاد من هاتين التسميتين الدلالة على نفاسة ما اختاره والافتخار بخالص اختياره . وزعم المتأخرون أنها سميّت معلّقات لأنها كانت معلّقة على الكعبة لعلوّ قيمتها ، ولكنّ هذا التعليل إنّما نشأ من التفسير الظاهر للتسمية وليس سبباً لها كما هو رأي نولدكه »[1] .

فبروكلمان يرى أن التسمية مستوحاة من الاستحسان الكبير لهذه القصائد التي تعتبر من أجود الشعر العربي ، والتعليق تسمية مجازية مأخوذة من الجودة والحرص والمحافظة على الشي ، لأن كل نفيس يحرص عليه والحرص على الأدب وعلى الشعر خاصة شيء واضح عند العرب ، يدلُّ عليه ذلك الاعتناء به والتناقل له ، وترديده في كلّ المناسبات الموجبة وغير الموجبة حتى غدا الشعر بالنسبة لهم علمهم الوحيد وسجلهم الحافل بالأفكار والآثار، فهذا الاهتمام بالشعر عند العرب والحرص عليه، هو الذي جعل الباحثين يميلون إلى هذه التفسيرات المجازية للتسمية ، ويقبلون فروضها ، ولذلك نرى بلاشير يقول : « ونعتبر فرضية نولدكه أقرب إلى المعقول . ويقول هذا العالم : استعمل مؤرّخو القرون الوسطى العرب كلمة بمعنى العقد أي السّمط عنواناً لكتبهم ، وهذا ما جرى للمعلّقات التي سمّيت « بالسّموط » ويتابع القول فيرى صحة ما افترضه لّيال Lyall حول هذه التسمية حين

---

(١) تاريخ الأدب العربي ص ٦٧ .

قال : « إن المعلّقات مشتقة من العِلق ، وهو ما يضنّ به من الأشياء والحليّ والثياب ، وممّا يدعو إلى قبول هذا الرأي أن ابن رسته أحد جغرافيي العرب في القرن الثالث عشر للهجرة أسمى كتابه « الأعلاق النفيسة » فمعنى المعلّقات إذاً عقود من أحجار كريمة تعلّق »[1] .

وهذا الرأي الذي ذهب بلاشير إلى صحة فرضيته يعتمد على الرواية التي ذكرت خبر علقمة بن عبدة عندما عرض شعره على قريش وأنشدهم قصيدته التي مطلعها :

هـل ما علمتَ ومـا استودعت مكتـوم ؟

فقالوا : هذه سمط الدهر ، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته المشهورة :

طحـا بـك قلبٌ في الحسـان طـروب

فقالوا : هاتان « سمطا » الدهر ، والسمط عندهم الخيط الذي يجمع حبات العقد بعضها إلى بعض ، وهو أيضاً القلادة ، والأمر في التسمية قائم على التشبيه ، فكأن هاتين القصيدتين لنفاستهما يقومان مقام السّمط الذي يعلّق في جيد الحسان[2] .

ويـردّ الدكتـور البهبيتي على الذين افتـرضوا معـانٍ مجازيـة لتسميـة تلك القصـائـد بالمعلّقات إنكاراً منهم لخبر تعليقها على أستار الكعبـة أو على ركنٍ من أركانهـا فيقول : « فالسّموط تفيد معنى التعليق ، كما أنها تفيد إكباراً ومدحاً لما يوصف من فنون القـول ، فالاسم اختيار عربيٌّ قديم قصد به إلى الدلالة على حالة التعليق كما قصد به إلى التعظيم ، وهو اسمٌ يطلقه على القصائـد جيلٌ من النـاس يدرون من أمـور هذا التقليـد ويقبلون منه بالمشاهدة وبالتجريب ما يجعل هذا الاسم أكفى في الدلالة وأوفى في بيان التقدير ، وأعلق بالتقديس الطقسي العبادي الذي كان التعليق تجسيداً له »[3] .

إذاً نحن أمام آراءٍ ثلاثة ، رأي يقول بالتعليق ، ورأي ثانٍ ينكره ، ورأي ثالث يذهب إلى تفسير التعليق تفسيراً مجازياً ينتهي إلى ترجيح عدم التعليق ويفترض الفروض المتعدّدة لهذه التسمية التي توحي ظاهرياً بأن القصائد عُلّقت ، لأن المعلّقات مشتقة من علّق « وعلّق الشيء بالشيء ومنه وعليه تعليقاً : ناطه ، والعلاقة : ما علقته به »[4] .

---

(١) تاريخ الأدب العربي الجزء الأول ص ١٨١ .

(٢) راجع بكري الشيخ أمين المعلقات السبع ص ١٢ ، وراجع بدوي طبانة معلقات العرب ص ١٨ .

(٣) نجيب البهبيني المعلقات سيرة وتاريخاً ص ٢٨ دار الثقافة المغرب ط ١٩٨٢ .

(٤) لسان العرب مادة علق .

إذاً فالمعلّقات تسمية تفيد التعليق الحسّي لهذه القصائد ، وهذا التعليق لا ترفضه القرائن والشواهد ، وخصوصاً بعد الذي عرفناه من أهميّة الشعر عند العرب وولوعهم الشديد به ، وحرصهم على حفظه ، وتناقله جيلاً بعد جيل فليس من الغريب أو المستبعد أن يعمد هؤلاء العرب إلى بعض قصائد من أشهر ما أنتجته قرائح شعرائهم فيكتبونها ويعلّقونها ويحيطونها بشيء من الهالة والتقديس ، وليس العرب وحدهم مَنْ كان يفعل ذلك ، فهناك أُمم كثيرة فعلت الشيء نفسه ، فقد كان اليونانيون « يعلّقون بعض أشعارهم في معابدهم ، وكان شعرهم واحدة من ركائز ثقافتهم ، وكذلك كان البابليون يعلّقون جيلجاميش في المعابد »[1] .

ثم لا بدّ لنا في هذا المجال من أن نذكّر بأنّ الشعراء كانوا يأتون قريشاً من كلّ أصقاع الجزيرة العربية وينشدونها ما قالوه من شعر في موسم الحج فإذا ما استحسنته « روي وكان فخراً لقائله وعلّق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه » ، وإذا لم تستحسنه « طرح ولم يعبأ به »[2] . فالتعليق هنا مرتبط بالإجادة والاستحسان ، وهذا أمرٌ غير مستهجنٍ في الوقت الحاضر عندما نستمع إلى قصيدة موفّقة نطلب من صاحبها نسخة عن تلك القصيدة ، أو نطالبه بنشرها في الصحف حتى يتسنّى للناس التعرّف عليها وينالهم من قراءتها ، ذلك الإعجاب الذي أحسسنا به وعرفناه عند سماعها ، فالتعليق آنذاك ، كان بمثابة « النشر » في أيامنا هذه ، وبما أنّ الكتابة وأدواتها كانت غير ميسّرة في ذلك العصر فكان يعمد إلى تعليق تلك القصائد لصونها والاطلاع عليها ، ثم لا ننسى أن العرب كانوا يعلّقون في الكعبة العهود والمواثيق المكتوبة بينهم حرصاً عليهما وتعظيماً لها ، وليس الشعر المشهور بأقلّ مكانة من العهود والمواثيق ، فقد جاء في « الصحيحين وغيرهما أن قريشاً لما بلغهم إكرام النجاشي لجعفر وأصحابه ، كبر ذلك عليهم وغضبوا على رسول الله ﷺ ، وأصحابه ، وكتبوا كتاباً على بني هاشم أن لا ينكاحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم ، وكان الذي كتب الصحيفة بغيض بن عامر فشلّت يده ، وعلّقوا الصحيفة في جوف الكعبة وحصروا بني هاشم في شعب أبي طالب »[3] .

إذاً فهذا التعليق ليس مستحدثاً بل هو دليلٌ على تعليق كان قبله وليس مستبعداً قطّ أن

---

(١) المعلقات سيرة وتاريخاً ص ٥٧ .

(٢) خزانة الأدب ج ١ ص ٨٩ .

(٣) الدميري : حياة الحيوان ص ١٩ .

تكون تلك القصائد ممّا علّق في الكعبة ، وخصوصاً بعد أن ذكر خبر التعليق عدد من المصادر الإسلامية ، وهذا الذكر يوحي بأن شيئاً من ذلك حدث ، وإلاّ فما هي الفائدة من اختلاقه ، ما دام أن القصائد المشار إليها بخبر التعليق هي من روائع الشعر الجاهلي ، وشهرتها يكاد يجمع عليها كلّ الدارسين ، ثم إن خبر المعلّقات وتعليقها أصبح نوعاً « من الشيوع العام في الناس وفي الزمن يتصل ما اتصل التعليق ، ويجري تحت أعين الشهود ما تجدّد الحاج وما تعاقب ، فهو ليس ملكاً خاصاً لشاهد واحد ولا لطائفة معينة من الناس يضيف أصحاب السند فيها »[1] .

وإذا كان البعض ينفي خبر التعليق مستنداً إلى مزاعم تقول بأن العرب أمة لا تحسن الكتابة كلّياً فإن ذلك مرفوض من قبل كبار الباحثين أمثال بروكلمان الذي يقول : « ومن ثمّ يعدُّ خطأً من مرجليوث وطه حسين أن أنكرا الكتابة في شمالي الجزيرة العربية قبل الإسلام بالكليّة ، ورتبا على ذلك ما ذهبا إليه من أن جميع الأشعار المرويّة لشعراء جاهليين مصنوعة عليهم ومنحولة لأسمائهم »[2] .

فالكتابة كانت منتشرة بشكل قليل قبل الإسلام بدليل أن الرسول عليه الصلاة والسلام بعد معركة بدر طلب من بعض الأسرى تعليم الكتابة لعددٍ من المسلمين كفداء لأنفسهم فهذا يدلُّ على أن الكتابة كانت موجودة ويؤكدّ ذلك أنّه « كان في أصحاب رسول الله ﷺ كاتبون ، منهم أمير المؤمنين عليٌّ سلام الله عليه ، وعثمان وزيد وغيرهم »[3] .

أمّا رفض طه حسين وإنكاره جملة للشعر الجاهلي ومنه المعلّقات ، لعدم ملاحظته وجود أيّ تباين أو تباعد في اللهجة أو اللغة التي نظم بها ذلك الشعر ، فذلك يعود إلى أن الرجل حصر نفسه بين أمرين لا ثالث لهما حين قال : « إمّا أن نؤمن بأنه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان ، لا في اللغة ولا في اللهجة ، ولا في المذهب الكلامي ، وإمّا أن نعترف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل ، وإنّما حمل عليها بعد الإسلام حملاً ، ونحن إلى الثانية أميل منا إلى الأولى »[4] .

---

(١) المعلّقات سيرة وتاريخاً ص ٥٦ .
(٢) تاريخ الأدب العربي ص ٦٤ .
(٣) أحمد بن فارس الصاحبي في فقه اللغة ص ٩ .
(٤) في الأدب الجاهلي ص ٩٤ .

فهذا الحصر يبدو فيه الاعتمال الواضح الذي يحاول أن يخلق فجوة بين لغة القرآن الكريم ولغة الشعر التي لا تختلف عنها بشيء ، فقد تناسى الرجل أن القرآن نزل بلسانٍ عربيّ مبين ، وأنّ اللغة التي نزل بها هي نفس اللغة التي اكتملت وتوحّدت وأصبحت لغة الأدب والشعر قبل نزوله بفترة طويلة من الزمن ، وإلاّ فإنه من غير المعقول ، أن يكون القرآن عربياً مبيناً وهناك لغة غير مكتملة ولا يفهمها العرب في كلّ أمصارهم وديارهم .

وأما تعدّد التسميات لهذه القصائد التي سمّيت بالمعلّقات ، فلا يشكل خلافاً جوهريّاً لأنّ أكثره أطلق على سبيل الإعجاب والإطراء ، وكلُّ التسميات في معناها العام ، تفيد الحرص والعناية والاهتمام بهذه القصائد ، فكلمة المعلّقات لم تكن الكلمة الوحيدة التي عرفت بها تلك القصائد ، وإنّما كان هناك إلى جانبها كلماتٌ عدة أطلقت عليها وأصبحت مع الزمن « ألقاباً أخرى تدلُّ عليها وتشارك في عرف الأدب لفظ « المعلّقات » في مدلولها الأدبي ، وإن كانت أقلّ منها ذيوعاً وجرياناً على الألسنة »[1] . من هذه الألقاب : السبع الطوال ، فقد ذكر صاحب كتاب « الجمهرة » في حديثه عن الشعراء وطبقاتهم أن امرأ القيس يأتي في طليعة الشعراء الجاهليين ومن ثم « زهير والنابغة والأعشى ولبيد وعمرو وطرفة . (وقال المفضّل) هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسمّيها العرب السّموط »[2] .

وأشار الرافعي إلى أنّ حمّاد الراوية هو الذي أطلق التسمية ، وأنه استقاها من الحديث الشريف : « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال » ، وهي : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف واختلفوا في السابعة أنها يونس ، أو يوسف أو الكهف »[3] . وقد اتفق أكثر الباحثين على أن حماد الراوية هو الذي جمع هذه القصائد واختار اسمها وجعله كما يقول بروكلمان « على غرار عناوين الكتب الأخرى السّموط ، والاسم الآخر المألوف وهو المعلّقات ، وأراد حماد من هاتين التسميتين الدلالة على نفاسة ما اختاره ، « والحق أن هذه المجموعة من اختيار حمّاد الراوية كما سلف »[4] .

وتسميته هذه القصائد بالسبع الطوال يعود إلى اعتبارها أطول القصائد الجاهلية وأكثرها شهرة وذيوعاً ، وقد فاق طول بعضها كلّ تصوّر ، وخاصة معلّقة عمرو بن كلثوم التي

---

(١) معلقات العرب ص ١٣ .

(٢) الجمهرة ص ٣٤ .

(٣) تاريخ الأدب العربي ج ٣ ص ١٨٥ .

(٤) تاريخ الأدب العربي الجزء الأول ص ٦٧ .

يقول عنها الرواة إنها « كانت تزيد على ألف بيت وأنها في أيدي الناس غير كاملة وإنما في أيديهم ما حفظوه منها »[1] .

ومن ألقاب المعلّقات أيضاً السّموط ، فقد ذكر صاحب الجمهرة أن العرب تسمّي السبع الطوال السّموط[2] .

ونقل صاحب العمدة قول صاحب الجمهرة فذكر أن أبا عبيدة قال : أصحاب السبع التي تسمى السمط : امرؤ القيس وزهير والنابغة والأعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم وطرفة »[3] . وكذلك فعل السيوطي في كتابه المزهر في علوم اللغة وأنواعها »[4] .

وأصل تسمية هذه القصائد بالسمط يعود أيضاً إلى حمّاد الراوية الذي ذكر أن علقمة بن عبدة المعروف « بالفحل » أتى قريشاً فأنشدهم قصيدته التي مطلعها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم

فقالوا : هذه سمط الدهر ، ثم عاد إليهم في العام المقبل فأنشدهم :

طحا بك قلبٌ في الحسان طروب

فقالوا : « هاتان سمطا الدهر »[5] .

وقد لاحظ « نولدكه » أنّ مؤرخي العرب في القرون الوسطى استعملوا هذه التسمية التي هي بمعنى العقد وأطلقوها على كتبهم « وهذا ما جرى للمعلّقات التي سمّيت بالسموط »[6] فمعنى السمط إذاً هو معنىً مجازي يشير إلى أهميّة تلك القصائد وإلى مدى حرص العرب عليها وزهوهم بها ، وتناقلهم لها وارثاً عن وارث كما يتوارث الناس النفائس بعضهم عن بعض في كلّ زمانٍ ومكان .

ومن الألقاب الأخرى ، « المذهّبات » وهذا اللقب لا يختلف عن غيره ، فهو يدلُّ على الحرص والعناية ، وقد أطلق القرشي هذا اللقب على قصائد لشعراء من الأوس

---

(١) شعراء النصرانية ص ١٩٨ .
(٢) راجع الجمهرة ص ٣٤ .
(٣) العمدة ص ٧٣ .
(٤) راجع المزهر الجزء الثاني ص ٢٩٧ .
(٥) تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ١٨٦ .
(٦) بلاشير تاريخ الأدب العربي ج أول ص ١٨٢ .

والخزرج[1] ، كما أطلقه أكثر مؤرخي الأدب على المعلّقات فقال صاحب العقد : « إن العرب « عمدت إلى سبع قصائد تخيّرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلّقتها على أستار الكعبة ، فمنه يقال : مذهّبة امرىء القيس ومذهّبة زهير والمذهّبات السبع »[2] .

كما ذكر ذلك صاحب العمدة فقال : « وكانت المعلّقات تسمّى المذهّبات وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلّقت على الكعبة فلذلك يقال مذهّبة فلان ، إذا كانت أجود شعره »[3] .

ومن ألقاب هذه القصائد أيضاً « المشهورات » وهو لفظ أطلقه أبو جعفر النّحاس ، وجعله عنواناً لكتابة المسمّى « شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلّقات » وقد فسّر أبو جعفر سبب هذه التسمية فذكر أن حماداً الراوية هو الذي جمع تلك القصائد السبع بعد أن رأى زهد الناس في حفظ الشعر وحرصهم عليه « وقال لهم : هذه المشهورات فسمّيت القصائد المشهورة لهذا »[4] .

هذه هي بعض ، التسميات والألقاب التي أطلقت على هذه القصائد ، وياستطاعتنا من خلالها أن نستخلص « أن هناك بعضاً من القصائد العربية التي وصلتنا من العصر الجاهلي ، وأنّ أكثر الرواة قد أجمعوا على شهرتها وفنّيتها وارتفاعها عن جميع ما أثر للعرب من شعر وجمع لهم من قصيدة »[5] .

وكما تباينت آراء الرواة والمؤرخين في تسميات تلك القصائد ، فإنها تباينت أيضاً في عددها وأصحابها ، فمنهم من يجعل المعلّقات سبعاً ، ومنهم من يجعلها ثمانياً ، ومنهم من يجعلها عشراً ، وهم في كلّ ذلك يضيفون ويحذفون ، ويقدّمون ويؤخّرون ، وسوف نحاول من خلال عرضنا لهذه الآراء والوقوف عليها التوصل إلى قاسم مشترك يحدّد العدد والأشخاص ، وأوّل هذه الآراء هو رأي صاحب الجمهرة الذي يجعل المعلّقات ثمانياً ، ويحذف معلقة الحارث بن حلزة ويبقى على ستٍ منها وهي معلّقة امريء القيس ،

---

(١) الجمهرة ص ٣٥ .
(٢) العقد الفريد ج ٦ ص ١١٨ .
(٣) العمدة ص ٧٣ .
(٤) شرح القصائد المشهورات ص ١٢٥ الجزء الثاني .
(٥) الشعر الجاهلي ص ٣٥٠ .

وزهير بن أبي سلمى ولبيد بن أبي ربيعة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد ، وعنترة بن شداد ، ولكنه يضيف إلى هذه الست معلّقة النابغة ويجعلها قصيدته التي مطلعها :

عوجوا فحيّوا لنعمٍ دمنة الدار ماذا تحيّون من نؤيٍ وأحجار

بدلاً من قصيدته التي وسمتها أكثر المصادر بالمعلّقة ومطلعها :

يا دار ميّة بالعلياء فالسّند أقوت وطال عليها سالف الأبد

كما يضيف إليها أيضاً معلّقة الأعشى ويجعلها قصيدته التي مطلعها :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما تردّ سؤالي

بدلاً من قصيدته المشهورة على أنها المعلّقة ومطلعها :

ودّع هريرة إنّ الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيّها الرجل[1]

أما صاحب العقد فيجعل المعلّقات سبعاً ، وهذا هو رأي أكثر الرواة والباحثين ، ومن ثم يعدّدها ويذكر أصحابها ومطالعها وقد وردت عنده على الشكل التالي :

معلّقة امرىء القيس ومطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل

معلّقة زهير ومطلعها :

أمن أمّ أوفى دمنةٌ لم تكلّم

معلّقة طرفة ومطلعها :

لخولة أطلالٌ ببرقة ثهمد

معلّقة عنترة ومطلعها :

يا دار عبلة بالجواء تكلّمي

معلّقة عمرو بن كلثوم ومطلعها :

ألا هبيّ بصحنك فأصبحينا

معلّقة لبيد ومطلعها :

عفت الدّيار محلُّها فمقامها

---

(١) راجع الجمهرة ص ٥٢ وص ٥٦ .

معلّقة الحارث بن حلزة ومطلعها :

آذنــتــنــا بــبــيــنــهــا أســمــاء[1]

وهكذا يستبعد ابن عبد ربّه النابغة والأعشى ، ويوافقه على ذلك الزوزني الذي شرح المعلّقات فـجعلها سبعاً ، ولكن أبا زكريا التبريزي يضيف إلى هذه المعلّقات ثلاثاً ويجعلها عشراً ، وممّا أضافه التبريزي إليها معلّقة الأعشى الأكبر :

ودّع هــريــرة إن الــركــب مــرتــحــل

ومعلّقة النابغة :

يــا دار ميّــة بــالعـليــاء فــالسّــنــد

معلّقة عبيد بن الأبرص التي مطلعها :

أقفــر من أهله ملحــوب فــالقطبيّــات فالـذنـوب[2]

وذكر أبو جعفر النحاس في كتابه « شرح القصائد المشهورات » أنّ المعلّقـات سبع متفقاً في الرأي مع صاحب العقد الذي لا يذكر عبيد بن الأبرص مـع أصحاب المعلّقـات ولكنّه يضمّن كتابه شرحاً لقصيدتي الأعشى والنابغة ، ويعلّق على ذلك فيقول : « فحدانا قول أكثر أهل اللغة على إملاء قصيدة الأعشى وقصيدة النابغة لتقديمهم إيّاهما ، وإن كانتا ليستا من القصائد السبع عند أكثرهم »[3] .

أمّا ابن خلدون فيرى المعلّقات سبعاً ويضيف إليها اسماً ينفـرد به عنـد حديثـه عن أهميّة الشعر وتعليقه في الكعبة « كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سُلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلّقات السبع »[4] . فقـد أسقط ابن خلدون هنا من أصحاب المعلّقات عمرو بن كلثوم ولبيد بن ربيعة اللذين أجمع الرواة على أنهما من أصحاب المعلّقات السبع ، كمـا أسقط معهمـا الحارث بن حلزة أيضـاً ، وانفرد بتسميـة علقمة بن عبـدة على أنه أحـد أصحـاب المعلّقات .

---

(١) راجع العقد الفريد ج ٦ ص ١١٨ ـ ١١٩ .

(٢) راجع المعلقات السبع للزوزني ط دار الثقافة بيروت الطبعة الرابعة .

(٣) شرح القصائد المشهورات ص ١٢٥ .

(٤) المقدمة ص ١١٢٢ .

وهكذا من خلال عرضنا لبعض الآراء في المعلّقات وعددها وأصحابها نستطيع أن نلاحظ اتفاقاً شبه تامٍ بين أكثر الباحثين على خمسٍ من المعلقات وهي : معلّقات امرىء القيس وطرفة وزهير وعنترة وعمرو بن كلثوم ، كما نلاحظ تبايناً في ما تبقى منها ، وهذا التباين مرده إلى وجهات نظرٍ خاصة واجتهادات تعتمد الترجيح بين هذا وذاك ، ولكن مجمل هذه الوجهات والاجتهادات تجعل المعلّقات عشراً ولا تتجاوز هذا العدد الذي أصبح رأياً توفيقياً اعتمده أكثر الباحثين والشرّاح على مرّ العصور .

تبقى مسألة أخيرة أثارها بعض النقّاد والدارسين ، ولا بدّ لنا من مناقشتها بموضوعية واتزان لأنها مسألة تعددت فيها الآراء وذهبت فيها مذاهب شتّى من التصوّر والافتراض ، وهي مسألة الشعر الجاهلي وحظّه من الصّحة والصواب ، والحديث عن هذه المسألة حديث قديم العهد ، فقد أثاره ابن سلّام الجمحي في كتابه طبقات الشعراء ، ورأى فيه بعض التزيُّد والانتحال ، ويعيد ذلك إلى سببين هامين هما : القبائل التي تزيّدت في شعرها ونسبت لشعرائها ما ليس لهم ، ثم الرواة الذين اشتبه بأمانتهم وأكثروا من الوضع ، يقول ابن سلام في ذلك : « فلمّا راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قومٌ قلّت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعدُ ، فزادوا في الأشعار »[1] .

من هذا الحديث نستطيع أن نلاحظ أن هناك في الشعر الجاهلي أشعاراً ليست منه ، ولكنّ هذه الأشعار وجدت في ذلك العصر من يقف في وجهها ويردّها بدليل قول ابن سلّام نفسه : « وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولّدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الاشكال »[1] .

فابن سلّام يعترف بأن أهل العلم أمكنهم التعرّف على ذلك التزيُّد والوضع لأنه لم يكن ليخفى عليهم ، ومن ثمَّ أشاروا إلى انتحاله وبطلانه ، وعملوا ما أمكنهم على رفضه وردّه ، ولكن الذي خفي عليهم ما أُضيف إلى بعض الشعراء من شعر الأبناء ، أو ممّن كان

---

(١) طبقات الشعراء ص ٣٩ .

(٢) طبقات الشعراء ص ٣٩ .

على علاقة بهم ، وقد سبّب ذلك لهم بعض الحرج والاشكال لأن ذلك الشعر المنحول لا يختلف في شكله ومضمونه عن نمط الشعر الجاهلي الموثق والصحيح ، فمثل هذا الشعر يمكن اعتباره جاهلياً ويصحّ « أن يكون ممثلاً للحياة العقلية الجاهلية متى كان المزيِّف عالماً بفنون الشعر خبيراً بأساليبه »[1] كما أنّ الروايات تتضارب في أمره بين مصدّق ومنكر ، ورغم عدم تسليمنا كليّاً بوضعه وانتحاله ، لأنه يحاكي في عرفنا نماذج سابقة اعترف ابن سلّام بوجودها وصحتها بدليل قوله بالمحاكاة والتقليد لها ، ويورد مثالاً على ذلك حادثة جرت لأبي عبيدة مع داود بن متمّم بن نويرة عند قدومه البصرة ، يقول أبو عبيدة : « فأتيته أنا وابن نوح فسألناه عن شعر أبيه متمّم وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته ، فلمّا نفذ شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا ، وإذا كلامٌ دون كلام متمّم ، وإذا هو يحتذي على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متمّم والوقائع التي شهدها ، فلمّا توالى ذلك علمنا أنه يفتعله »[2] .

من هنا نستطيع القول : إنّ جانباً من الشعر الجاهلي قد ثبتت صحته ووثّقه كثير من النقاد وأصحاب الخبرة والدراية ، وإذا كان هناك من خلاف أو تعارض في روايات ذلك الشعر فإن ذلك أمرٌ متوقعٌ ومفروغٌ منه لأسباب سوف نذكرها بعد قليل عند حديثنا عن المعلّقات واختلاف روايتها ، إلاّ أن ذلك التعارض أو الاختلاف لا ينفي وجود شعرٍ ثبتت صحته ، ولا يؤدي إلى الشكّ كليّاً فيه واعتباره شعراً مزّيفاً لا يمثل الحياة الجاهلية بكل معاييرها المختلفة .

وإذا كان بعض الباحثين نتيجة لآراء مسبقة وغاياتٍ خاصة وتأويلات فيها كثير من الظنّ والذاتية ، يحاول أن ينكر الشعر الجاهليَّ برمّته وينعته بالتزييف والوضع معتمداً على اختلاف وجهات النظر في شخصيات روت ذلك الشعر واتهمت من البعض بصدقها وأمانتها فإن ذلك مردودٌ كلّياً نظراً لأن التعارض والاختلاف بين الرواة أمرٌ طبيعي جداً ، وهو خلاف نستطيع أن نلاحظه تقريباً لدى كلّ أصحاب المهن الواحدة الذين كثيراً ما يطعنون على بعضهم البعض ومثل ذلك ، كان الخلاف بين مدرستي البصرة والكوفة اللتين اهتمتا باللغة والشعر والأدب ، فقد حمل التنافس أعلام هاتين المدرستين على سوق التّهم واختلاق ما ليس صحيحاً عند كلّ طرف ، وتجسيم العيوب التي لا يمكن أن يسلم منها أيّ إنسان ،

---

(١) أحمد أمين فجر الإسلام ص ٤٩ .

(٢) طبقات الشعراء ص ٣٩ ـ ٤٠ .

ومن ثمّ اتسع الطعن على حمّادٍ الراوية وخلف الأحمر وغيرهما من كبار رواة الشعر ، ويورد طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي حديثاً منقولاً عن الأغاني ليطعن فيه على حمّاد وعلى كثرة ما رواه من شعر ، يقول الحديث : إنَّ حمّاداً لم « يكن يسأل عن شيء إلّا عرفه ، وقد زعم للوليد بن يزيد أنه يستطيع أن يروي على كلّ حرفٍ من حروف المعجم مائة قصيدة لمن لم يعرفهم من الشعراء ، قالوا : وامتحنه الوليد حتى ضجر ، فوكّل به من أتمَّ امتحانه ثمّ أجازه »[1] . فهذا الحديث رغم إيراده للطعن والتشكيك بحماد الراوية فإنّه يثبت بشكل مفروغ منه نبوغ الرجل ومقدرته الشعرية التي لا تضاهى .

وقد أشار النقاد والمستشرقون على وجه الخصوص إلى قدرة العرب في مجال الرواية وقوّة الحافظة ، يقول نولدكه في مقام الإعجاب بذلك : « إن الشعر العربي نقل بواسطة الرواية الشفوية والتواتر السّماعي ، ولا غرابة في هذا بالنسبة للمقطوعات والقصائد القصيرة ، أمّا المطوّلات فقد كان من التوفيق في حفظها وتداولها وجود فريق من الرجال اختصّوا بالحفظ ، فوعوا أشعار واحدٍ أو جملة شعراء كما كان للشعراء أنفسهم رواة يروون أشعارهم فكان لكلّ شاعرٍ راويته ، وقد يكون ابنه أو ربيبه أو نسيبه أو حبيبه »[2] .

ثمّ إنّ هناك حديثاً ذكره ابن جنّي في كتابه « الخصائص » يشير إلى تفوق المدرسة الكوفية على غيرها في علم الشعر وصناعته ، وابن جنّي كما هو معروف ممّن يميلون إلى مدرسة البصرة ، والحديث منسوب إلى حمّاد الراوية ، وقد جاء فيه : « أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في الطنوج ، قال : وهي الكراريس ، ثمّ دفنها في قصره الأبيض ، فلمّا كان المختار بن أبي عبيد ، قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار ، فمن ثمّ أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة »[3] .

ومهما يكن الرأي في هذا الحديث ومقدار صحته ومصداقيته ، فإننا نعتقد بأن حماداً الراوية وغيره من الرواة الذين اتهموا بانتحال قصائد كثيرة ، ووضعها على ألسنة شعراء من هنا وهناك ، هم من العلماء البصيرين بالشعر ، ويتمتعون بموهبة عالية في هذا المجال ، ورغم اعتقادنا بقدرة هؤلاء الرواة وعلمهم وغزارة معرفتهم ، فإن هناك أسئلة تطرح نفسها كردٍّ على المتهمين والمشككين وهي : لماذا يضع حمادٌ وأمثاله مثل ذلك الشعر ؟ ولماذا

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ١٧٠ .

(٢) معلّقات العرب ص ٣٣ .

(٣) الخصائص الجزء الأول ص ٣٨٧ .

ينسبونه إلى غيرهم من الشعراء ؟ وما هي الأسباب المجهولة التي حدت بهم إلى نظم ذلك الشعر وإلحاقه بغير ذواتهم ؟

إنها في رأينا أسئلة مشروعة ، والإجابة عليها تقتضي كثيراً من الحذر في قبول الأعذار والتعليلات التي لا يقرّها منطق الطبيعة الإنسانية ، فهل بلغ التواضع عند هؤلاء الرواة إلى هذه الدرجة من الإيثار الذي يسحق النفس ويميت العبقرية والذات من أجل إحياء شخصيات بائدة ؟ إن ذلك في رأينا أمرٌ لا يتصوّره العقل ولا يتقبّله المنطق السليم ، وخصوصاً إذا ما نحن نظرنا إلى أهميّة الشاعر ومكانته التي لا تسامي في ذلك العصر ، ولو كان ذلك الشعر لغير الذين نسب إليهم ، أو لأناسٍ مجهولين أو مختلقين ، لما تردّد حمادٌ وخلفٌ وأضرابهما قيد لحظة من نسبته إلى أنفسهم ، لأن ذلك يرفع من شأنهم ، ويؤكد موهبتهم ، ويعزّز مكانتهم الاجتماعية والفكرية على السواء .

وهذا الجدل الذي أُثير حول صحة الشعر الجاهلي ، هو نفسه الذي أُثير حول هذه المعلقات ، وحول صحتها وترتيبها وألفاظها ، فإذا كان البعض يرى في تلك الأمور سبيله إلى الشكّ والإنكار والقول بالوضع كما فعل الدكتور طه حسين في حديثه على معلّقة امرىء القيس حين قال : « وهم بعد هذا يختلفون اختلافاً كثيراً في رواية القصيدة وفي ترتيبها ، ويضعون لفظاً مكان لفظ وبيتاً مكان بيت ، وليس هذا الاختلاف مقصوراً على هذه القصيدة ، وإنما يتناول الشعر الجاهلي كله ، وهذا الاختلاف شنيع يكفي وحده لحملنا على الشكّ في قيمة هذا الشعر »[1] . وكما فعل بلاشير حين تحدّث عن المعلّقات فقال : « لا تعتبر القصائد المذكورة « أي المعلّقات » بالرغم من شهرتها أكثر بقايا الشعر الجاهليّ قدماً وصحة ، فهي تثير مشاكل منها صحة الشعر الجاهلي ، ولعلّ من الحذر أن نرجّحها على غيرها من النتاج الشعري الذي قد يكون أقلّ ألقاً ولكنّه أدلّ على التفجر العفوي للشعر البدوي »[2] . فمن الواضح أن هذين الباحثين يرميان إلى التقليل من قيمة الشعر الجاهلي وتصويره الحقيقي للحياة السابقة على الإسلام ، وهذا التقليل يمهد بالتالي عند بعضهم إلى القول بالوضع ورفض أكثر الشعر الجاهلي ، ومن بينه المعلقات التي تمثّل الصورة الناضجة لحياة أولئك الأسلاف وما يعتمل فيها من أحداث ومجريات .

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ٢٠٤ .

(٢) تاريخ الأدب العربي مجلد ٢ ص ١٨٤ .

وإذا كان البعض يشكّك في صحة هذه المعلّقات لرفضها كما هو واضح عند الدكتور طه حسين حيث يقول : « القرآن وحده هو النصّ العربي القديم الذي يستطيع المؤرّخ أن يطمئن إلى صحته ويعتبره مشخّصاً للعصر الذي تلي فيه ، فأمّا شعر هؤلاء الشعراء ، وخُطب هؤلاء الخطباء ، وسجع هؤلاء الساجعين ، فلا سبيل إلى الثقة بها ولا إلى الاطمئنان إليها »[1] . فإن البعض الآخر يحاول أن يقف موقفاً وسطاً فهو لا يرفضها جملة ، ولا يقبلها على تلك الصورة التي تعارف عليها أكثر الدارسين بحيث يرى فيها زيادة دخلتها من قبل الرواة ، ويمثل هذا الرأي الرافعي حيث يقول : « إنَّ تلك القصائد لا تخلو من الزيادة وتعارض الألسنة قلّ ذلك أو كثر ، إمّا أن تكون مولّدة فدون هذا البناء نقصُ التاريخ »[2] .

وإذا ما نحن راجعنا هذه المعلّقات في الصورة التي حملتها إلينا المصادر فإنّنا لا بدّ لنا من ملاحظة بعض الاختلاف في المادة اللغوية ، ولكنّ هذا الاختلاف لا يتجاوز إحلال لفظٍ مكان لفظ ، أو تقديم بيت على آخر ، وفي أسوأ الأحوال وضع شطر مكان شطر ، وهذا كله ليس بالاختلاف الجوهري الذي يؤدّي إلى الشك والرفض ، لأنه في نظرنا اختلاف كان لا بدّ منه لأسباب عديدة منها :

أولاً : بعد الزمن بين فترة النشأة وفترة التدوين ، وهذا البعد الزمنيُّ الذي انتقلت فيه القصيدة جيلاً بعد جيل معتمدةً على الرواية والذاكرة الإنسانية هو الذي أدّى إلى بعض تلك التغيُّرات في المادة اللغوية والبناء الشعري .

ثانياً : إن هذه التغيُّرات في رأينا ناتجة عن كثرة الرواة وتعدد المصادر التي اعتمدت في عصر التدوين ، ومن المعلوم أن الشعر الجاهلي قد تعدّدت مصادره ، وكثر رواته ، وتناقله الأبناء عن الآباء ، والأحفاد عن الأبناء مدّة طويلة من الزمن .

ثالثاً : ممّا لا شك فيه أن الاعتماد على الذاكرة الإنسانية هو مصدر ذلك الاختلاف ، أو التغيير البسيط في المادة والسّياق ، ونحن نعلم أن الرواة هم من الذين يمتلكون الذوق الشعري ويتمتعون بالقدرة التي تخوّلهم إتمام لفظٍ أو شطرٍ افتقدته الذاكرة ، وهذا ما يحدث لأيّ شخص يمتلك الموهبة الشعرية في حال توقفه عند لفظٍ من الألفاظ ، أو شطرٍ من

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ١٧٦ .

(٢) تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ١٨٩ .

الشطور خانته الذاكرة في الإفصاح عنه ، ولكنّ ذلك التغيير لا يكون في أيّ حالٍ من الأحوال بعيداً عن السياق والمعنى العام .

رابعاً : إن الاختلاف ليس قطّ دليلاً على التزييف والوضع ، وإنّما الاختلاف كما قلت ناتجٌ عن روايات متعدّدة ورواة كُثر ، وهذا التعدُّد بالضرورة يؤدّي إلى الصّحة والتوثيق بصورة تدفع المزاعم والشكوك ، لأن تعدّد المصادر دليلٌ على وجود الشيء وليس على إنكاره .

من هنا نستطيع القول : إن الشعر الجاهلي قدّر له عددٌ من النقاد والباحثين الذين « أحاطوه بسياجٍ محكم من التحرّي والتثّبت ، فكان ينبغي أن لا يبالغ المحدثون من أمثال مرجليوت وطه حسين في الشكّ فيه مبالغةً تنتهي إلى رفضه »[1] .

أما المعلّقات فلا مجال إلى الشك في صحتها أو القول في تزييفها لأنها اختصت بعناية فائقة وتواترت روايتها في عدد من المصادر الموثوقة عن طريق رواة شعراء ، اختصوا بالموهبة والحافظة ، فوصلتنا في صورة تكاد تمثّل الأصل ، ولا تمسُّ الجوهر من قريب أو بعيد .

---

(١) شوقي ضيف : العصر الجاهلي ص ١٧٧ .

امرؤ القيس

هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن معاوية بن الحارث بن يعرب بن ثور بن مرتع[1] بن معاوية بن كندة[2] . وقيل : اسمه حُندج بن حجر ، والحندج : الرملة الطيبة تنبت نباتاً حسناً ، وليس في العرب حُجر بضمّ الحاء غير هذا ، ومعنى امرؤ القيس رجل الشدّة ، والمسمّون بهذا الاسم في العرب جماعة ذكر منهم السيوطي ستة عشر في كتابه المزهر ، ومؤرّخوا الروم يذكرونه في كتبهم باسم قيس[3] . وقيل : اسمه عديّ وقيل : مليكة وكنيته أبو وهب ، وأبو زيد ، وأبو الحارث ، وكان يقال له : الملك الضليل وذو القروح وإياهُ عنى الفرزدق بقوله :

وهب القصائد لي النوابغ إذ مضوا ... وأبو يزيد وذو القروح وجرول[4]

وأُمّه هي فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير أخت كليب ومهلهل[5] ابني ربيعة

---

(١) مرتع بسكون الراء وكسر التاء ، ذكره ابن ماكولا وابن الكلبي وقال : سُميّ بذلك لأنه كان يقال له : ارتعنا فيقول : أرتعتكم أرض كذا وكذا ، والتشديد للتاء ذكره أيضاً لغة « المؤتلف والمختلف للآمدي ص ٩ دار الكتب العلمية ، بيرو .

(٢) راجع طبقات الشعراء ص ٤١ ، والأغاني ص ٦٢ ج ٨ .

(٣) راجع تاريخ آداب العرب ، ص ١٩٠ وشعراء النصرانية ص ٦ .

(٤) راجع ديوان الفرزدق ص ١٥٩ مجلد ٢ دار صادر بيروت ، وأبو زيد : هو المخبّل السعدي ، وذو القروح : امرؤ القيس وجرول : الحطيئة .

(٥) قيل : إن المهلهل خالُهُ هو الذي لقنه فن الشعر فبرز فيه إلى أن تقدم على سائر شعراء وقته بالإجماع ، شعراء النصرانية ص ٨ .

التغلبيين[١] . ولا تعرف سنة مولده بالضبط ويظن أو ليندر أنها كانت حوالي سنة ٥٠٠ م[٢] . بينما يقول لويس شيخو : إنها كانت سنة ٥٢٠ للمسيح في نجد[٣] . وقيل : إنه وُلد ببلاد بني أسد ، وإنه كان ينزل المشقر من اليمامة ، ويقال : بل كان ينزل في حصن من البحرين[٤] . وقيل : إنه من أهل نجد ، وهذه الدّيار التي وصفها في شعره كلّها ديار بني أسد[٥] .

أما كندة قبيلته ، فهي من قبائل العرب القحطانيين ، وموطنها الأول كان في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية ، وهي من القبائل التي كانت تسكن اليمن في الأصل ، ويذكر اليعقوبي في تاريخه أنه « كان بين كندة وحضرموت حروب أفنت عامتهم » وقد دخل أهل اليمن من جرّاء هذه الحروب التشتيت والتفريق وصارت « كندة إلى أرض معدّ فجاورتهم ، ثمّ ملكوا رجلاً منهم كان أوّل ملوكهم يقال له مُرتع بن معاوية بن ثور »[٦] .

وتعاقب على كندة ملوك عدّة منهم حُجر بن عمر بن آكل المرار « الذي حالف بين كندة وربيعة ، وكان تحالفهم بالذنائب »[٧] . ومنهم عمرو بن حجر الذي غزا الشام ومعه ربيعة « فلقيه الحارث بن أبي شمّر فقتله ، فملك بعده الحارث بن عمرو ، وأُمّه ابنة عوف بن محلّم الشيباني ونزل بالحيرة ، وفرّق ملكه على ولده[٨] .

وكان للحارث أربعة أولاد هم : حجر وشرحبيل وسلمة الغلفاء ومعد يكرب ، فملّك حجراً في أسد وكنانة « وكانت مواطن أسد في القرن السادس الميلادي في جنوب أجا وسلما على جانبي بطن الرّمة ، ووادي الرّمة ، وأسد هذه من نسل أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس »[٩] .

---

(١) الأغاني ص ٦٣ ج ٨ ، الشعر والشعراء ، ص ٥٥ .
(٢) تاريخ العرب السياسي ج ٣ ص ٢٥٢ .
(٣) شعراء النصرانية ص ٦ .
(٤) الأغاني ص ٦٥ ج ٨ .
(٥) الشعر والشعراء ص ٤٩ .
(٦) تاريخ اليعقوبي ص ٢١٦ المجلد الأول .
(٧) تاريخ اليعقوبي ص ٢١٦ ج ١ .
(٨) تاريخ اليعقوبي ص ٢١٦ ج ١ .
(٩) تاريخ الأدب الجاهلي لعلي الجندي ، ص ١٨ .

وحجر هو والد الشاعر امرىء القيس ويقال : إنه هو الذي انتقل إليه حكم كندة بعد وفاة والده الحارث بن عمرو[1] .

وتذكر الروايات أن حجراً والد امرىء القيس قد ساءت سيرته في بني أسد ، فتنكّروا له وأزمعوا على قتله تخلّصاً من ظلمه وبطشه ، فقد ذكر ابن الكلبي أنّ حجراً لما « كان في بني أسد وكانت له عليهم إتاوة في كل سنة مؤقتة ، فعمر ذلك دهراً ثم بعث إليهم جابيه الذي كان يجبيهم ، فمنعوه ذلك ، وحجر يومئذٍ بتهامة وضربوا رسله وضرّجوهم ضرجاً شديداً قبيحاً ، فبلغ ذلك حجراً فسار إليهم بجندٍ من ربيعة ، وجندٍ من جند أخيه من قيس وكنانة ، فأتاهم وأخذ سراتهم فجعل يقتلهم بالعصا فسمّوا عبيد العصا ، وأباح الأموال وصيَّرهم إلى تهامة وآلى بالله أن لا يساكنوهم في بلدٍ أبداً ، وحبس منهم عمرو بن مسعود بن كندة ، وفزارة الأسدي وكان سيّداً ، وعبيد بن الأبرص الشاعر ، فسارت بنو أسد ثلاثاً ، ثم أنّ عبيد بن الأبرص قام فقال : أيها الملك إسمع مقالتي :

يا عين فابكي ما بني	أسدٍ فهم أهل النّدامهْ
أهل القباب الحمر والنَّعم	المؤبّل والمدامهْ[2] .
حِلاًّ أبيت اللعن حلاًّ	إنّ فيما قلت آمهْ[3] .
في كلّ وادٍ بين يثرب	فالقصور إلى اليمامهْ
تطريب عانٍ أو صياحُ	محرّقٍ أو صوت هامهْ[4] .
إمّا تركت عفواً	أو قتلت فلا ملامهْ
أنت المليك عليهمُ	وهمُ العبيدُ إلى القيامةْ[5]

قيل : فرق لهم حجر حين سمع قوله ، فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة ، تكهّن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة بن سوادة بن سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن

---

(١) تاريخ العرب السياسي : ج ٣ ص ٢٤٤ .
(٢) المؤبّل : الكثير ، والمقتني . .
(٣) الآمة : العيب .
(٤) الهامة : طائر يعتقد العرب أنه كان يخرج من جسد القتيل ويقول : اسقوني ، أو هو البومة .
(٥) راجع ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٣٧ ـ ١٣٨ دار صادر بيروت . .

خزيمة فقال لبني أسد : يا عبادي ، قالوا : لبّيك ربّنا ، قال : من الملك الأصهب ، الغلّاب غير المغلّب ، في الإبل كأنها الربرب ، لا يعلق رأسه الصخب ، هذا دمه يتشعّب ، وهذا غداً أوّل من يسلب ، قالوا : من هو ربّنا ؟ قال : لولا أن تجيش نفسٌ جاشية ، لأخبرتكم أنه حجر ضاحية ، فركبوا كلّ صعبٍ وذلول فما أشرق لهم النّهار حتى أتوا على عسكر حُجر فهجموا على قبّته » وحاول حجّابه منعهم وخيّموا عليه « فأقبل عليهم علباء بن الحارث الكاهلي ، وكان حُجر قد قتل أباه ، فطعنه من خللهم فأصاب نسأه فقتله ، فلمّا قتلوه قالت بنو أسد : يا معشر كنانة وقيس أنتم إخواننا وبنو عمّنا والرجل بعيد النسب منّا ومنكم ، وقد رأيتم ما كان يصنع بكم هو وقومه ، فانتهبوهم ، فشدّوا على هجائنه فمزّقوها ، ولفوه في ريطة بيضاء وطرحوه على ظهر الطريق[١] .

ولكنّ الأمر لم يقتصر على هذا الحدّ من الرواية ، فقد ذكر ابن السكّيت أنه لما « طعن الأسدي حجراً ولم يجهز عليه أوصى ودفع كتابه إلى رجلٍ وقال له : انطلق إلى ابني نافع وكان أكبر ولده ، فإن بكى وجزع فالهُ عنه واستقرهم واحداً واحداً حتى تأتي امرأ القيس وكان أصغرهم فأيّهم لم يجزع ، فادفع إليه سلاحي وخيلي وقدوري ووصيتي » . فانطلق الرجل بوصيته إلى نافع ابنه ، فأخذ التراب فوضعه على رأسه ، ثمّ استقراهم واحداً واحداً ، فكلّهم فعل ذلك ، حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلاعبه النرد ، فقال له : قُتل حجر ، فلم يلتفت إلى قوله ، وأمسك نديمُه ، فقال له امرؤ القيس : اضرب ، فضرب حتى إذا فرغ قال : ما كنت لأُفسد عليك دستك ، ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كلّه فأخبره ، فقال : الخمر عليَّ حرام ، والنساء حرام ، حتى أقتل من بني أسد مائة وأجزّ نواصي مائة ، وفي ذلك يقول :

أرقت ولم يأرقْ لما بيَ نافعُ ... وهاج لي الشوق الهموم الروادع[٢] .

أما سبب فراق امرىء القيس لأبيه فتذكر الروايات أن حجراً طرده وآلى أن لا يقيم معه أنفةً من قوله الشعر ، أو لقوله الشعر في فاطمة ، أو لأنه تغزّل في امرأة من نساء أبيه ، أو لقوله ، في أبيه وهو يشرب الخمر :

أسقيا حجراً على علّاته ... من كميت لونها لون العلق

(١) الأغاني ج ٨ ص ٦٥ ـ ٦٦ .
(٢) الأغاني الجزء ٨ ص ٦٧ .

ولكنّ أقرب الأسباب إلى ذلك الطرد ما ذكره ابن دأب في حديثٍ عن الفرزدق وغيره حيث قال : « كان من حديث امرىء القيس أنه لمّا ترعرع علق النساء وأكثر في الذكر لهنّ والميل إليهن فكره ذلك أبوه حجر »[1] . وحاول إصلاحه من خلال تكليفه ببعض الأعمال إلّا أنه ظلّ على سيرته الأولى ، ومن ثمّ طرده فخرج مراغماً لأبيه فكان ينتقل في منازل العرب مع صعاليك وشذّاذ وذؤبان من احياء طيء وكلب وبكر ، ويغير بهم على أحيائها ويقاسمهم ما يحصل عليه أو ما يقع لهم من الصيد ، ويذهب بهم إلى الغدران والرياض فيذبح لهم ويوآكلهم ويعاقرهم الخمر وينشدهم الشعر وتغنّيهم القيان ، وتجمع الروايات على أنه استمرّ على هذه الحال إلى حين مقتل أبيه وقد أتاه خبر مقتله وهو مقيمٌ بدّمون من أرض اليمن ، أتاه به رجل من بني عجل يقال له : عامر الأعور أخو الوصّاف ، فلمّا أتاه بذلك قال :

تطاول الليل عليّ دمّون   دمّون إنّا معشرٌ يمانون
وإنّنا لأهلنا محبّون

ثم قال : ضيّعني صغيراً ، وحمّلني دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمرٌ وغداً أمر فذهبت مثلاً[2] . . ثم قال :

خليلي ما في اليوم مصحى لشاربٍ   ولا في غدٍ إذ كان ما كان مشربُ

ثم آلى ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى يثأر بأبيه ، فلمّا كان الليل لاح له برقٌ فقال :

أرقت لبرقٍ بليلٍ أهلْ   يضيء سناه بأعلى الجبلْ
بقتل بني أسدٍ ربَّهم   ألا كلّ شيءٍ سواه جلل[3] .

وتذكر الروايات أن امرأ القيس بعد علمه بمقتل أبيه ، أخذ يعدّ العدّة لقتال بني أسد الذين بدورهم حاولوا مفاوضة امرىء القيس والصلح معه وإنهاء ذلك الوضع الناتج عن حادثة القتل بالطرق السلمية .

يقول الخليل بن أحمد : إنه « قدم على امرىء القيس بن حجر بعد مقتل أبيه رجالٌ

---

(١) الجمهرة ص ٣٨ .

(٢) راجع الأغاني ص ٦٨ ، والجمهرة ص ٣٨ ، والشعر والشعراء ص ٥٠ .

(٣) الشعر والشعراء ص ٥١ .

من قبائل بني أسد كهول وشبّان ، فيهم المهاجر بن خداش ابن عمّ عبيد بن الأبرص ، وقبيصة بن نعيم ، وكان في بني أسد مقيماً ، وكان ذا بصيرة ، بمواقع الأمور ، ورداً وإصداراً ، يعرفُ ذلك له من كان محيطاً بأكناف بلده من العرب ، فلما علم بمكانهم أمر بإنزالهم ، وتقدّم بإكرامهم والإفضال عليهم واحتجب عنهم ثلاثاً ، فسألوا من حضرهم من رجال كندة فقال : هو في شغل بإخراج ما في خزائن حجر من السلاح والعدّة ، فقالوا : اللهمّ غفراً ، إنّما قدمنا في أمرٍ نتناسى به ذكر ما سلف ونستدرك به ، فليبلّغ ذلك عنّا ، فخرج إليهم في قباء وخفٍّ وعمامة سوداء وكانت العرب لا تعتمّ بالسّواد إلاّ في التِّرات فلمّا نظروا إليه قاموا له » وتكلّم خطيبهم في أمر الصلح ، فرفض امرؤ القيس فخيّروه عندئذٍ بين ثلاثٍ يختار إحداها : « إمّا أن يختار واحداً من أشرف بيوت بني أسد فيقتله في أبيه ، وإمّا أن يقبل الفداء من بني أسدٍ التي هي ألوف تجاوز الحسبة ، وإمّا أن يتفق معهم على هدنةٍ حتى تضع الحوامل ، وتهيّأ الجيوش والأسلحة للقتال ، فرفض امرؤ القيس الأولين لأنه لا كفء لحجر في دم ، وأنه لن يعتاض به ناقةً أو جملاً فيكتسب بذلك سُبّة الأبد وفتّ العضُد ، وقبل الثالثة قائلاً : وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنّة في بطون أمهاتها ، ولن أكون لعطبها سبباً ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل في القلوب حنقاً وفوق الأسنّة علقاً .

إذا جالت الخيل في مأزقٍ ... تصافح فيه المنايا النفوسا

وتقول الرواية : إنهم في النهاية نهضوا عنه ، وقبيصة يقول متمثّلاً :

لعلّك أن تستوخم الورد إن غدت ... كتائبنا في مأزق الموت تمطر

فقال امرؤ القيس : لا والله لا أستوخمه ، فرويداً ينكشف لك دجاهاً عن فرسان كندة وكتائب حمير »[1] .

ويذكر اليعقوبي في تاريخه : أن امرأ القيس كان غائباً وقت مقتل أبيه فلمّا بلغه ذلك « جمع جمعاً وقصد لبني أسد ، فلمّا كان في الليلة التي أراد أن يغير عليهم في صبيحتها نزل بجمعه ذلك ، فذعر القطا ، فطار عن مجاثمه فمرّ ببني أسد ، فقالت بنت علباء[2] ما رأيت كالليلة قطاً أكثر ، فقال علباء : لو ترك القطا لغفا ونام ، فأرسلها مثلاً ، وعرف أن

---

(١) راجع الأغاني ج ٨ ص ٧٦ .

(٢) هي بنت علباء بن الحارث أحدُ بني ثعلبة ، قاتل حجر والد امرىء القيس .

جيشاً قد قرب منه فارتحل ، وأصبح امرؤ القيس فأوقع بكنانة ، فأصاب فيهم وجعل يقول : يا للثارات ! فقالوا : والله ما نحن إلاّ كنانة فقال :

ألا يـا لهف نفسي بعـد قـومٍ ... هُمُ كـانـوا الشّفـاء فلم يصـابـوا
وقـاهـم جـدُّهم بـبـنـي أبيـهـم ... وبـالأشقينَ مـا كـان العقـاب
وأفـلـتـهـنّ عـلبـاءُ جـريـضـاً ... ولـو أدركتـه صفـر الـوطـاب[1]

ويجيبه عبيد بن الأبرص الأسدي على ذلك بقصيدة طويلة منها :

يـا ذا المعيِّرُنـا بقتـل أبيـه إذلالاً وحينـاً
أزعمت أنّك قد قتلت سَراتنا كذباً ومينا
هلاّ على حجر بن أمّ قطام تبكي لا علينا
إنّا إذا عضّ الثقاف برأس صعدتنا لوينا
نحمي حقيقتنا وبعض القوم يسقط بين بينا[2]

وتكمل الروايات ما ذكره اليعقوبي ، فتقول : إن امرأ القيس لمّا علم بأن بني أسد قد فـاتوه في تلك الليلة ، تتبّعهم حتى أدركهم ظهـراً « وقد تقـطعت خيله ، وقـطع أعنـاقهم العطش ، وبنو أسد جامّون على الماء ، فنهد إليهم فقاتلهم حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم وحجز الليل بينهم ، وهربت بنو أسد ، فلمّا أصبحت بكر وتغلب امتنعوا أن يتبعوهم وقالوا له : قد أصبت ثأرك ، قال : والله ما فعلت ولا أصبت من بني كاهل ولا من غيرهم من بني أسـد أحداً ، قـالوا : بلى ولكنّـك رجلٌ مشؤوم وكـرهوا القتـال معه ، وانصـرفـوا عنه »[3] .

بعد هذه الحادثة نرى امرأ القيس يرحل إلى اليمن طالباً المعونة من بعض القبائل بعد امتناع بكرٍ وتغلب عن نصرته ، فاستنصر أزد شنوءة ، فأبوا نصرته ، فنزل بقيلٍ يدعى مرثد الخير بن ذي جدن ، وكانت بينهما قرابة ولكنه مات ، وخلفه قرمل بن الحميم ، فأنفذ له الجيش « وتبعه شذاذ من العرب واستأجر من قبائل العرب رجالاً فسار بهم إلى بني أسد ، ومرّ بتباله وبها صنمٌ للعرب تعظّمه يقال لـه : ذو الخلصة ، فـاستقسم عنده بقـداحه وهي

---

(١) تاريخ اليعقوبي ص ٢١٧ ـ ٢١٨ مجلد .
(٢) ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٤١ .
(٣) الأغاني ص ٧٠ ج ٨ .

ثلاثة ، الآمر والناهي والمتربّص ، فآجالها فخرج الناهي ، ثم أجالها فخرج الناهي ، ثم أجالها فخرج الناهي ، فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم وقال : مصصت بظر أمّك ، لو أبوك قُتل ما عقتني ثم خرج فظفر ببني أسد »[1] . وقال في ذلك شعراً :

قولا لدودان عبيد العصا ... ما غرّكم بالأسد الباسل

قد قرّت العينانُ من مالك ... ومن بني عمروٍ ومن كاهل

حلّت لي الخمر وكنت امرءاً ... عن شربها في شغل شاغل

فاليوم أشرب غير مستحقبٍ ... إثماً من الله ولا واغل[2]

ويروي اليعقوبي حادثة إيقاع امرىء القيس ببني أسد على الوجه التالي فيقول : « ومضى امرؤ القيس إلى اليمن لمّا لم يكن به قوّة على بني أسد ومن معهم من قيس ، فأقام زماناً ، وكان يدمن مع ندامى له ، فأشرف يوماً فإذا براكب مقبل فسأله : من أين أقبلت ؟ قال : من نجد ، فسقاه ، ممّا كان يشرب ، فلمّا أخذت منه الخمرة رفع عقيرته وقال :

سقينا امرأ القيس بن حجر بن حارثٍ ... كؤوس الشّجا حتى تعوّد بالقهر

وألهاهُ شربٌ ناعمٌ وقراقرٌ ... وأعياه ثأرٌ كان يطلب في حُجر

وذاك لعمري كان أسهل مشرعاً ... عليه من البيض الصوارم والسمر

ففزع امرؤ القيس لذلك ثم قال : يا أخا الحجاز ، من قائل هذا الشعر ؟ قال : عبيد بن الأبرص ، قال : صدقت ، ثم ركب واستنجد قومه فأمدّوه بخمسمائة من مذحج ، فخرج إلى أرض معدّ ، فأوقع بقبائل من معدّ وقتل الأشتر بن عمرو ، وهو سيّد بني أسد ، وشرب في قحف رأسه وقال :

قولا لدودان عبيد العصا ... ما غرّكم بالأسد الباسل

يا أيّها السائل عن شأننا ... ليس الذي يعلم كالجاهل

حلّت لي الخمر وكنتُ امرءاً ... عن شربها في شُغلٍ شاغل[3].

ولكن بعض المؤرخين ينفون أن يكون امرؤ القيس قد استطاع الإيقاع ببني أسد ،

---

(١) الأغاني ص ٧٠ ج ٨ .

(٢) ديوان امرىء القيس ص ١٣٤ دار الكتب العلمية .

(٣) تاريخ اليعقوبي ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ج ١ .

ومنهم ابن خلدون وابن أبي الفداء وغيرهما من المؤرخين[1] .

ويبدو من كلّ ذلك أن فن القصص والخيال قد لعب دوره في سرده لحياة امرىء القيس وأحداثها ، وتعدّدت الروايات وتضاربت حتى حملت امرأ القيس بعيداً إلى بلاد الروم ، فبعد إيقاع الرجل ببني أسد أو فشله في ذلك نراه أيضاً يستعدّ لمجابهة المنذر ملك الحيرة ، وعدوّ كندة اللدود الذي استعان بكسرى انوشروان ، فاضطر امرؤ القيس عندئذ إلى الاختباء والفرار لعدم قدرته على مقابلة خصومه ، فسار إلى سعد بن الضباب الأيادي ، وكان عاملاً لكسرى على بعض كور العراق ، فاستتر عنده حيناً حتى مات سعد ، فخرج إثر ذلك إلى جبلي طي واستجار برجل هناك فرفض وقال : « والله ما لي من الجبلين إلاّ موضع ناري فنزل بقوم من طيء ، ثم لم يزل ينتقل في طيء مرّة وفي جديلة مرة وفي نبهان مرة حتى صار إلى تيماء فنزل بالسموأل بن عادياء ، فسأله أن يجيره فقال له : أنا لا أجير الملوك ولا أطيق حربهم فأودعه أدراعاً وانصرف عنه يريد ملك الروم »[2] .

وفي هذه الأثناء التي تابع فيها امرؤ القيس طريقه إلى قيصر ، نجد الحارث الغسّاني وهو الحارث الأكبر يرسل رجلاً من قبله إلى السموأل كي يطالبه بالسلاح الذي أودعه امرؤ القيس عنده ، فلما انتهى الرسول إلى حصن السموأل أغلق الحصن دونه « وكان للسموأل ابن خارج الحصن يتصيّد ، فأخذه الحارث وقال للسموأل : إن أنت دفعت إليَّ السلاح وإلاّ قتلته ، فأبى أن يدفع إليه ذلك وقال له : أقتل أسيرك فإنّي لا أدفع إليك شيئاً ، فقتله ، وضربت العرب المثل بالسموأل في الوفاء »[3] .

ويتابع امرؤ القيس طريقه إلى قيصر الروم برفقة « عمرو بن قميئة أحد بني قيس بن ثعلبة ، وكان من خدم أبيه ، فبكى ابن قميئة ، وقال له : غررت بنا فأنشأ امرؤ القيس يقول :

بكى صاحبي لمّا رأى الدرب دونه	وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينُك، إنّما	نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا
وإنّي أذينٌ إن رجعت مظفراً	بسير ترى منه الغرانق أزورا

---

(١) راجع تاريخ الأدب الجاهلي ص ٤٤ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ص ٢١٩ - ٢٢٠ ج ١ .

(٣) الشعر والشعراء ص ٥٨ .

على ظهر عـاديٍّ تحـاربـه القـطا إذا سافه العود الدّيافيُّ جرجـرا[١].

وتقول الروايات : إن قيصراً أكرم وفادته بل وتزيد على ذلك فتعجله مقرّباً منه إلى درجة الخاصّة من ندمائه ، ومواصلاً لابنته ، وأنه أرسل معه جيشاً تضمّن في عداده بعض أبناء الملوك ، حتى يستعيد ملك أبيه ، ولكنّ الطمّاح الأسدي راعه تكريم قيصر له فعمل على الإيقاع به وقال لقيصر : « إنّ امرأ القيس شتمك في شعره وزعم أنّك علج أغلف »[٢] أو حسب رواية أخرى : « إنك أمددت بأبناء ملوك أرضك رجلاً من العرب وهم أهل غدر ، فإذا استمكن مِمّا أراد وقهر بهم عدوّه غزاك »[٣] . عندئذ تضيف الروايات ، أن قيصر فكرّ بالأمر وأرسل إلى امرىء القيس حلّة مسمومة منسوجةً بالذهب ، وطلب منه أن يلبسها ليعرف فضله وتعظم منزلته وقدره ، فما كان من امرىء القيس إلاّ أن قبل الهدية ولبسها فأسرع السمُّ في جسده ، وتقطع من جرائه جلده ، وأيقن بالموت والهلاك ، فقال في ذلك شعراً :

تـأوّبـني دائي القـديـم فـغلّسـا أحـاذر أن يـزداد دائي فـأنكسـا
لقـد طمح الـطّماح من بعـد أرضـه لـيلبسـني مـن دائـه مـا تـلبسّـا
فلو أنهـا نـفسٌ تمـوت جـمـيعـة ولكنّهـا نفسٌ تـسـاقط أنفسـاً[٤]

وتابع امرؤ القيس مسيره والمرض يفتّ جسمه فتّاً ، فلما صار إلى مدينة بأرض الروم تدعى أنقرة ، ثقل عليه المرض فأقام بها إلى أن مات ، وقبر هنـاك ، وذكر أنـه قال قبيـل موته :

ربّ خـطبـةٍ مسحنفـرة وطـعنـة مثعنجـرة[٥].
وجـفـنـةٍ مـتـحـيّـرة حـلّت بـأرض أنقـرة[٦]

وقيل أيضاً : إنّـه لما كان يحتضر ، رأى قبـر امرأة من أبنـاء الملوك ماتت هنـاك ،

---

(١) الشعر والشعراء ص ٥٨ ، ووالغرانق الأسد ، وساقه شمّه ، والعود الديافي : الحمل الضخم نسبةً إلى دياف قرية بالشام ، وجرجر : رغا وضج .
(٢) تاريخ اليعقوبي ص ٢٢ ج أول .
(٣) الشعر والشعراء ص ٥٩ .
(٤) راجع تاريخ اليعقوبي ص ٢٢٠ ج أول ، والشعر والشعراء ص ٥٩ .
(٥) المسحنفرة : فيها انطلاق وسعة ، والمثعنجرة : التي يتصبب منها الدم ويسيل . .
(٦) والمتحيّرة : المملوءة طعاماً ودسماً .

ودفنت في سفح جبلٍ يقال له : عسيب ، فسأل عنها وأخبر بقصتها فقال :

أجـارتنا إن المـزار قـريب   وإنّي مقيمٌ ما أقام عسيب
أجارتنا إنّا غريبان ها هنـا   وكلّ غريبٍ للغريب نسيب[1]

وكانت وفاته سنة ٥٦٥ م على أرجح الروايات .

هذه هي بعض تفاصيل حياة امرىء القيس سردناها كما ذكرتها المصادر التاريخية والأدبية ، وقد لاحظنا من خلال سردنا لتلك التفاصيل ، تعدّد الروايات لها وتضارب الآراء فيها ، وهذا ما حمل الدكتور طه حسين على التشكيك في سيرة الرجل التاريخية وتفسيرها تفسيراً فيه كثير من الظنّ والتأويل والذاتية التي أوصلته إلى الاعتقاد بأن كل تلك القصص حول تلك الشخصية ما هو إلا نوع من الأساطير الملفّقة والحكايات المختلفة التي روّج لها الرواة في عصر متأخر ، هو « عصر المدوّنين والقصاصين ، فأكبر الظنّ إذن أنها نشأت في هذا العصر ولم تورث عن العصر الجاهلي حقّاً »[2] .

ولذلك ولأسبابٍ كثيرة نرى الدكتور طه حسين يعتبر تلك السيرة تمثيلاً لحياة عبد الرحمن بن الأشعث الذي ثار على الحكام الأمويين وهي تشبهها في وجوه كثيرة ذكرها في كتابه[3] إلّا أنه لا ينكر وجود شخصية امرىء القيس بل يعترف حياءً بوجودها المشوب بكثير من الخلط والاضطراب فيقول : «ولعلّ هذا وأشباهه من الخلط في حياة امرىء القيس أصحُّ دليل على ما نذهب إليه من أنّ امرأ القيس إن يكن قد وجد حقاً ـ ونحن نرجح ذلك ونكاد نوقن به ـ فإن الناس لم يعرفوا عنه شيئاً إلا اسمه هذا ، وإلّا طائفة من الأساطير والأحاديث التي تتصل بهذا الاسم»[4] فهذا الاعتراف المنكسر الذي يستشفُّ من خلال سطوره بأن الرجل قد حُمل عليه حملاً ، لأنه اعتراف نلمح فيه تشكيكاً بكلّ المصادر التاريخية والأدبية ، فضلاً عن اتفاقه مع رأي الرجل المسبق وهو التشكيك بالشعر الجاهلي ككلّ بدليل قوله : « فإنّ الناس لم يعرفوا عنه عنه شيئاً إلّا اسمه هذا » ، أمّا تلك الأشعار المنسوبة ، وتلك الآراء المبثوثة في صفحات الكتب فإنها في عرفه ضربٌ من الأساطير الملفّقة ، وحكايات ابتدعها الرواة ، والقصاصون .

---

(١) راجع الشعر والشعراء ص ٥٩ .
(٢) في الأدب الجاهلي ص ١٩٦ .
(٣) راجع في الأدب الجاهلي ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .
(٤) في الأدب الجاهلي ص ١٩٦ .

ويردّ الدكتور علي الجندي على مزاعم طه حسين معترفاً بـدخول فنّ القصص على حياة امرىء القيس ، إلا أنه يرفض أن تكون حياة ذلك الرجل تمثيلاً لحياة عبد الرحمن بن الأشعث ، بل هي حياة لشاعر كبير ملأ الدنيا وشغل الناس فيقول : « ولا أعتقد أن قصة حيـاة امرىء القيس لـون من ألوان التمثيـل لحياة عبـد الـرحمن بن الأشعث ، استحـدثـه القّصاص لإرضاء هوى الشعوب اليمنية في العراق ، ولاتقاء عمّال بني أُميّة ، فالمعـروف عن النفوس البشرية أنها تسترضي ذوي السيادة والسلطان ، وهم في ذلك الوقت بنـو أُميّة وعمـالهم ، وإذا لم يكن هناك ميـلٌ لاسترضـائهم ـ لعدم الـرغبـة فيهم ـ فليس هنـاك إلاّ مداراتهم ، ومصانعتهم وعند ذلك تسكت الألسنـة وخصوصـاً من الرواة ، وهم كـانوا في العـادة بعيدين عن التلوّن بـأيّ لون سيـاسي بحيث يجعل منهم أصـدقـاء لفـريق وأعـداء لآخر »[1] .

ومهمّا تعددت الآراء واختلفت أو تشابهت حول شخصية الرجل وسيرته التاريخية ، فإننا نعتقد اعتقاداً راسخاً بوجود امرىء القيس ، الشاعر العربي الكبير الذي سيبقى « الرجل الذي افتتح به ديوان التاريخ الأدبي ، وما زال فيه ، كأنّه قطعة من الزمن ، لا يغيّره الموت ولا يغيّبه الكفن »[2] .

بعد عرضنا لسيرة الرجل التاريخية نعود لنستعرض سيرته الأدبية وما رافقهـا من آراء النقـاد والمؤرّخين ورجال الفكـر والأدب ، فقد أجمعت كـلّ المصادر التي بين أيـدينـا ، تاريخية وأدبية ، على مكانة الشاعر الكبيرة في دنيا الشعر ، وعلى شهرته ونبوغه وتقدمه ، فهذا ابن سلام الجمحي يجعله رأس الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين ، وأيّد رأيه ذلك بأقوال العلماء والنّقاد الثقاة البصيرين بـالشعر وصنعتـه فيقول : « إن علمـاء البصرة كـانوا يقدّمون امـرأ القيس بن حُجر » وأنّ الفـرزدق عندمـا سُئل من أشعـر الناس ؟ قـال : « ذو القروح » يعني امرأ القيس » . وأن لبيداً مرّ بالكوفة في بني نهد « فأتبعوه رسولاً سؤولاً يسأله من أشعر الناس ؟ قال : « الملك الضليل » واحتجّ من يقدّمه على غيره بقوله : « إنّه « سبق العرب إلى أشياء ابتدعها استحسنتها العرب ، واتبعته فيه الشعراء ، منه استيقاف صحبه ، والبكاء في الدّيار ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشبّه النساء بالـظباء والبيض ، والخيـل

---

(١) تاريخ الأدب الجاهلي ص ٥١ ـ ٥٢ .
(٢) الرافعي تاريخ آداب العرب ص ١٩٣ مجلد ٣ .

بالعقبان والعصيّ ، وقيّد الأوابد وأجاد التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً »[1] .

وقد ذكره الرسول الكريم في حادثة جرت لقوم من اليمن ضلّوا طريقهم في متاهات الصحراء وكاد العطش يفتك بهم فقال ﷺ : « **ذاك رجلٌ مذكور في الدنيا شريفٌ فيها ، منسي في الآخرة خاملٌ فيها ، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعر إلى النار** »[2] .

كما ذكره كبار الصحابة فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « إنه سابق الشعراء خسف لهم عين الشعر »[3] .

وفضّله علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : « رأيته أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة ، إنّه لم يقل لرغبة ولا لرهبة »[4] .

وقال عنه أبو عبيدة معمّر بن المثنى : « إنه أوّل من فتح الشعر ، واستوقف وبكى الدِّمن ووصف ما فيها » وهو أول من شبّه الخيل بالعصا واللقوة والسباع والظباء والطير ، فتتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف »[5] .

ويحكى أنّ الفرزدق قال : كان الشعر جملاً فنحر ، فجاء امرؤ القيس فأخذ رأسه ،

وقال جرير : اتخذ الخبيث الشعر نعلين .

وقال بشار : لم أزل منذ سمعت قول امرىء القيس في تشبيهه بشيئين في بيت واحدٍ حيث يقول :

كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً ... لدى وكرها العنّاب والحشف البالي

أعمل نفسي في تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد حتى قلت :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه[6]

---

(١) طبقات الشعر ص ٤١ ـ ٤٢ ، راع كذلك العمدة ص ٧٢ .
(٢) الشعر والشعراء ص ٦٣ .
(٣) الشعر والشعراء ص ٦٣ .
(٤) العمدة ص ٧٢ ج أول .
(٥) الشعر والشعراء ص ٦٣ .
(٦) الأعلم الشنتمري : أشعار الستة الجاهليين ص ٢٢ .

هذه هي بعض آراء القدماء في امرىء القيس اقتطفنا يسيراً منها ، أما آراء المحدثين فإنها من الكثرة بمكان ، وسوف نشير لها في حديثنا على معلّقته ولكنّنا سنكتفي هنا برأي الدكتور شوقي ضيف حيث يقول : والحقّ أنه يعدُّ أباً للشعر الجاهلي ، بل للشعر العربي جميعه ، فقد استوى عنده في صورة رائعة ، سواءً من حيث سبقه إلى فنون أجاد فيها ، أو من حيث قدرته على الوصف والتشبيه ، وقد مضى يعنى بأخيلته ومعانيه وألفاظه مما نجده ماثلاً في استعاراته وبعض طباقاته وجناساته ، وبذلك أعدّ الشعراء من بعد ، للعناية بحُلىً معنوية ولفظية مختلفة »[1] .

أمّا سيرته الشخصية ونقصد بها هنا جوانب معيّنة من سلوكه وصفاته ، فإنّ أكثر المصادر تشير إلى أن امرأ القيس كان رجلاً ماجناً متهالكاً على اللّذة والمتعة وشعره يشهد على ذلك ، وأنّ سبب فراقه لأبيه أو طرد أبيه له ، يعود إلى تغزّله بالنساء وتشبيبه بهنّ ، فقد ذُكر عن الفرزدق أنه قال : كان من حديث امرىء القيس أنه لما ترعرع علق النساء وأكثر في الذكر لهنَّ ، فكره ذلك أبوه حُجر » . وحديثه مع عنيزة وفاطمة وغيرهما من الفتيات اللاّئي ذكرهنّ في أشعاره ، يدلّ على أنه كان فتى لاهياً يعشق المغامرات ويتجرّأ على الفواحش ووصفها ، إلى الحد الذي جعل بعض النقاد ينعتونه بالتعهُّر[2] . ويعدّونه من عشّاق العرب الزناة[3] وليس ذلك بغريب عنه ، فحكاية دارة جلجل وغيرها من الحكايات التي ذكرها الرواة وتوزّع ذكرها على صفحات ديوانه ، تثبت أن الرجل قد انساق مع أهوائه الخاصة ، ونزواته الطائشة إلى أبعد ما يكون ، وتطلعُنا المصادر على بعض ملامح تلك الشخصية فتذكر أن امرأ القيس كان « وسيماً جميلاً ، ومع جماله وحسنه مفرّكاً لا تريده النساء إذا جرّبنه ، وقال لامرأةٍ تزوجها : ما يكره النساء مني ؟ قالت : يكرهن منك أنّك ثقيل الصدر ، خفيف العجز ، سريع الإراقة ، بطيء الإفاقة .

وسأل أخرى عن مثل ذلك فقالت : يكرهن منك أنك إذا عرقت فحت بريح كلب . فقال : أنت صدقتني ، إنّ أهلي أرضعوني بلبن كلبة »[4] .

ولعلّ حكايته مع زوجته أمّ جندب عند تنازعه مع علقمة الفحل على أيّهما أشعر ،

---

(١) العصر الجاهلي ص ٣٦٥ .

(٢) راجع طبقات الشعراء ص ٣٩ .

(٣) راجع طبقات الشعراء ص ٦٠ .

(٤) الشعر والشعراء ص ٦٠ .

واحتكامهما إليها ، تدلّ على كراهة النساء له بدليل قوله لها : « ما هو بأشعر منّي ولكنّك له عاشقة »[1] .

وتذكر الروايات أنّ امرأ القيس كان مزواجاً ، وأنّه لم « تصبر عليه إلّا امرأة من كندة يقال لها هند ، وكان أكثر ولده منها » كما أنه كان « مئناثاً لا ذكر له وغيوراً شديد الغيرة ، فإذا ولدت له بنتٌ وأدها ، فلمّا رأى ذلك نساؤه غيّبن أولادهنّ في أحياء العرب ، وبلغه ذلك فتتبعهنّ حتى قتلهن »[2] .

أمّا عن ديانته ، فقد عدّه الأب لويس شيخو واحداً من شعراء النصرانية وقد ورد في شعره ما يشير إلى معرفته لها ، وليس غريباً على شاعرٍ كامرىء القيس من أن يكون قد ألّم ببعض الديانات الساميّة التي كانت منتشرة في شبه الجزيرة العربية آنذاك ، كاليهودية والنصرانية ، وأن يذكرها في شعره كما فعل غيره من الشعراء الجاهليين ، على سبيل التصوير ، وليس على سبيل الاعتقاد ، لأننا من خلال شعره وتفاصيل حياته ، نستطيع أن نرى ابتعاداً كلياً عن تلك المثالية التي تدعو لها الأديان ، وتهافتاً على المتع الحسّية والمادية وارتكاباً لكلّ المحاذير والممنوعات ، ولذلك يقول بلاشير : « ويظلّ اعتناق امرىء القيس النصرانية في حيّز الفرضيات »[3] . لأن الوقائع والأحداث تثبت في أكثرها أن امرأ القيس قد عاش الحياة الجاهلية بكلّ أبعادها وقيمها ، ولم تستطع أيٌّ من الديانات ، سماويّةً كانت أم وثنية ، من أن تؤثّر فيه أو تطبع حياته ، وتفاصيلها بطابعه الخاص ، فقد آثر الرجل أن يعيش حياته وفق مزاجه وهواه ، يتقلّب مع ذاته أنّى طاب له التقلّب ويستقرّ حيث وجد في الاستقرار متعة وانطلاقاً ، فهو لم يكن إلّا « على دين هواه ولذاته ، لا يدين بمذهب آخر ولا يحترم ديناً سواه »[4] .

---

(١) راجع الموشح للمرزباني ، تحقيق محمد علي البجاوي ص ٢٨ - ٢٩ .
(٢) الشعر والشعراء ص ٦٠ .
(٣) تاريخ الأدب العربي ص ٨٦ .
(٤) سليم الجندي : امرؤ القيس ص ١٨٦ .

معلقة امرىء القيس
بن حجر الكندي

قِفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ... بسِقْط اللّوى بين الدَّخُولِ فَحَومَلِ [1]

فتُوضِحَ فالمِقراةِ لم يَعفُ رسمُها [1] ... لما نسجَتْها مِن جَنوبٍ وشمأَلِ [2]

تَرى بَعَرَ الآرام في عَرَصاتها ... وقيعانها كأنه حبُّ فُلفلِ [3]

كأنّي غَداةَ البَين يومَ تَحَمّلوا ... لدى سمُرات الحيِّ ناقفُ حنظلِ [4]

وُقوفاً بها صَحبي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ ... يقولون لا تَهلِك أسىً، وتجمَلٍ [5]

وإنَّ شفائي عَبرةٌ مُهَراقةٌ ... فهل عند رسم دارسٍ من مُعَوَّلِ [6]

---

(١) السقط الرمل المنقطع . اللوى : الرمل الذي يلتوي ويعوّج . الدخول فحومل : هما موضعان .

(٢) توضح والمقراة: موضعان. لم يعف رسمها : لم ينمح أثرها . والرسم ما لصق بالأرض من آثار الدار . نسجتها : نسج الريحين اختلافهما عليه، وستر إحداهما بالتراب . وكشف الأخرى التراب عنها .

(٣) الآرام : الظباء الخالصة البياض . عرصاتها : عرصة الدار: ساحتها. وهي البقعة الواسعة التي ليس فيها بناء . قيعانها : جمع قاع . وهو المستوى من الأرض . الفلفل : حبٌّ هندي .

(٤) الغداة : الضحوة . البين : الفراق. تحمّلوا : ارتحلوا . سمُرات : شجر الطلح . الحي : القبيلة . ناقف حنظل : نقف الحنظل : شقّة عند الهبيد وهو الحَبُّ ، أو الحنظل ـ وناقفه الذي يشقّه .

(٥) وقوفاً : منصوبة على الحال . يريد : قفا نبكِ في حال وقف أصحابي . مطيّهم : المطيّ : المراكب . أسىً : الأسى : الحزن وشدّة الجزع . تجمَّل : أي تجمّل بالصبر .

(٦) عبرة : دمعة . مهراقة : مسكوبة . معوّل : مبكى . وقد اعول الرجل : إذا بكى رافعاً صوته . والمعوّل : المعتمد والمكل عليه .

كـدابِـكَ من أُمِّ الحُـوَيـرثِ قبلهـا وجـارتِهـا أُمِّ الـرَّبـابِ بِمـأْسَـلِ [1]

إذا قـامتـا تضـوَّعَ المِسـكُ منهُمـا نسيم الصَّبا جاءت بـرَيَّا القَـرَنفُل [2]

ففـاضتْ دمـوعُ العَين مني صَبابـةً على النحرِ حتى بلَّ دمعي مِحملي [3]

ألَا رُبَّ يَـوم لَـكَ منهنَّ صـالـحٍ ولا سِيَّمـا يـومٍ بـدارَةِ جُلجُـلِ [4]

ويـوم عَقـرْتُ للعـذارى مـطيّتِي فيـا عجباً من كُورهـا المتحمَّـل [5]

فـظَلَّ العـذارى يـرتمين بلحمهـا وشَحمٍ كهدَّاب الدمقسِ المُفتَّل [6]

ويـومَ دخلْتُ الخِـدْرَ، خِـدْرَ عُنيـزَةٍ فقالتْ: «لَكَ الوَيلاتُ إنَّكَ مرجلي» [7]

تقـولُ وقـد مـال الغبيطُ بنا معـاً عقرْتَ بعيري، يا امْرأ القَيس، فانْزِل [8]

فقلتُ لهـا سِيـري وأرخي زمـامَـهُ ولا تُبعـديني من جَنـاكَ المُعلَّل [9]

فمثلكِ حُبْلى قد طَرقْتُ، ومـرضعٍ فَـأَلْهيتُهـا عن ذي تمـائمَ مُحْوِل [10]

---

(١) الدأب : العادة . ومتابعة العمل والجدُّ في السعي . أم الحويرث وأم الرباب : أمرأتان . مـأسل : أسمُ جبلٍ ، أو ماء بعينه .

(٢) تضوّع : انتشر فوحه . الصبا : الريح . ريّا : الرائحة الطيبة .

(٣) صبابة : شوقاً . محملي : حمّالة سيفي .

(٤) ويروى: «ألا ربّ يوم كان منهنّ صالح » . دارة جلجل : غديرُ ماء يروى أن أمرأ القيس لقي فيه يوماً محبـوبته عنيـزة » .

(٥) العـذارى من النسـاء : البكـر التي لم تفتض . الكـور : الـرحـل بـأداتـه . المتحمل : التحمل : الحمل .

(٦) الهدّاب : اسمٌ لما استرسل من ثوب أو شعر . الدمقس : الابرسيم الأبيض .

(٧) الخدر : الهودج . عنيزة : اسم عشيقته . لك الويلات : دعاءٌ منهـا عليه ، والـويل والـويلة : شدة العذاب . مرجلي : أي سوف تجعلني اسير على رجليَّ .

(٨) الغبيط : نوع من الهوادج . عقرت بعيري : أي أدبرت ظهر بعيري فانزل عن البعير .

(٩) الجني : الثمـر . المعلل : الملهي : من قولـك : عللت الصبي بفاكهـة : الهيته بهـا . وقد جعـل الشاعر حبيبته بمنزلة الشجرة . وسمّى ما جناه من شمّ وعناقٍ وتقبيل : ثمراً جنياً .

(١٠) طـرقتُ: الطروق: الاتيـان ليـلاً. والمـرضـع: التي لهـا رضيع . التميمـة: العـوذة. محـول: يقـال: أحول الطفل . إذا تمّ له حولٌ أي عام فهو محول .

يقول الزوزني في شرح البيت : « فربّ امرأة حبلى ، قد أتيتها ليلاً . ورب امرأة ذات رضيع قد اتيتها ليلاً ، فشغلتها عن ولدها الذي علّقت عليه العوذة ، وقد أتى عليه حولٌ كاملٌ » . ولا شك في أن هذا البيت من دلائل التعهُّر في شعر امرىء القيس .

إذا ما بَكى من خَلفها انصرفَتْ لهُ بشِقٍّ، وتحتي شِقُّها لم يُحوَّلِ (١)
ويوماً على ظهر الكثيب تعذَّرَت عليَّ، وآلت حلْفَةً لم تُحلَّلَّ (٢)
أفاطمُ مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ وإن كنتِ قد أزمَعْتِ صَرْمي فأجْملي (٣)
وإن تكُ قد ساءتك مِنّي خليقةٌ فسُلّي ثيابي من ثيابك تنسُلِ (٤)
أغَرَّكِ منّي أنَّ حُبَّكِ قاتلي وأنّك، مهما تأمُري القلبَ، يفعلِ (٥)
ومَا ذَرفَتْ عيناك إلّا لتضربي بسهمَيك في أعشار قلب مُقَتَّلِ (٦)
وبيضة خدر لا يُرامُ خباؤها تمتّعتُ من لهوٍ بها غير مُعْجَلِ (٧)
تجاوَزْتُ أحراساً إليها وَمْعشَراً عليَّ حِراصاً لو يُسرُّونَ مَقْتلي (٨)
إذا ما الثُرَيّا في السماء تَعرَّضتْ تعرُّضَ أثناء الوشاح المُفصَّلِ (٩)
فجئْتُ وقدْ نَضَّتْ لنومٍ ثيابها لَدَى السِّتْر إلّا لِبْسَةَ المُتفضّلِ (١٠)

---

(١) الشقُّ : النصف . يقول الزوزني : إذا ما بكى الصبي من خلف المرضع انصرفت إليه بنصفها الأعلى فأرضعته وأرضته ، وتحتي نصفها الأسفل . لم يُحوَّلِ : لم تحوّله عني .

(٢) ظهر الكثيب : الرمل الكثير . التعذّر : التشدُّد . آلت : حلفت . التحلل في اليمين : الاستثناء .

(٣) افاطم : ترخيم فاطمة . وقيل هو اسم عنيزة الحقيقي . مهلاً : رفقاً . ازمعت صرمي : وطّنتِ النفس على هجري . أجملي : ليكن هجرانك جميلاً .

(٤) خليقة : طبيعة . الثياب : هنا بمعنى القلب . فالمعنى على هذا القول :
إن ساءك خلقٌ من أخلاقي أو كرهت خصلة من خصالي فردي عليَّ قلبي أفارقك .

(٥) قاتلي : مذللي .

(٦) ذرفت : دمعت . أعشار : أي تجعلين القلب عشر قطع . مقتّل : المقتلّ : المذلل غاية التذليل .

(٧) بيضة خدرٌ : امرأة مصونها في خدرها . ثم شبهها بالبيض لأن النساء يشبهن بالبيض من ثلاثة أوجهٍ : أحدها بالصحة ، والسلامة عن الطمث ، والثاني : في الصيانة والستر ، والثالث : في صفاء اللون ونقائه . الرَّومُ : الطلب . الخباء : البيت من قطن أو وبرٍ و شعرٍ . التمتع : الانتفاع . غير معجلِ : لم أعجلْ عنها . ولم أشتغل عنها بغيرها .

(٨) الأحراس : يجوز أن يكون جمع حارس ، بمنزلة صاحب . المعشر : القوم . حراصاً : الحراص : جمع حريص . مثل ظراف وكرام . الأسرار : الاظهار والاضمار جميعاً .

(٩) الثريا : المراد الجوزاء . تعرضت : التعرّض : الاستقبال . والأخذ في الذهاب عرضاً . الأثناء : النواحي . والأوساط . الوشاح : سير من الجلد المفصّل : الذي فُصل بين خرزه بالذهب أو غيره . يقول : تجاوزت إليها في وقت ابداء الثريا عرضها بالسماء كأبداء الوشاح الذي فصل بين جواهره وخرزه بالذهب .

(١٠) نضّت . خلعت . المتفضل : الذي يرتدي ثوباً واحداً .

فقـالتْ يَميـنَ الله مـا لَـكَ حيـلةٌ | وما إن أرى عنكَ الغـوايةَ تنجلي[1]
خَـرَجتُ بهـا تَمشي تَجُـرُّ وراءَنـا | على أَثَـرينـا ذيـلَ مـرْطٍ مُـرَحّـل[2]
فلمَّـا أجـزْنـا سـاحـةَ الحيِّ وانتحى | بنا بَطنُ خَبتٍ ذي حقـافَ عقنقل[3]
هصـرتُ بفـوْديْ رأسهـا فتمـايلتْ | عليَّ هَضيم الكشح ، ريّا المُخلخل[4]
مُهفهفـةٌ بيضـاءُ غيـر مُفـاضـةٍ | تَـرائبُهـا مصقـولَـةٌ كـالسجّنجـل[5]
كبكـر المُقـانـاة البيـاضَ بصفُـرةٍ | غَـذَاها نَميـرُ الماء غيـرُ المُحلَّل[6]
تَصُـدُّ وتُبـدي عن أسيـل وتَتَّقـي | بنـاظرةٍ من وحش وَجْـرَةَ مُـطفـل[7]
وجيـد كجيـدِ الـرِّئم ليس بفـاحشٍ | إذا هـي نَصـتّـهُ، ولا بمـعـطّل[8]
وفَـرعٍ يـزين المتنَ أَسْـودَ فـاحمٍ | أثيثٍ كقنـو النخلة المُـتعثكـل[9]

---

(١) اليمين : الحلف . الغواية : الضلال . الانجلاء : الانكشاف .

(٢) المرط : الثوب من خزّ أو صوف أو هـو الملاءة . مـرحّل : المنقش بنقـوش تشبه رحـال الإبـل . المعنى : خرجت بها من خدرها وهي تمشي وتجرّ مرطتها على أثرنا لتعفي به آثار أقدامنا .

(٣) أجزنا : أججزتُ المكان : قطعته . انتحى : الانتحاء والتنحي : الاعتماد على شيء البطن : مكان مطمئن حوله أماكن مرتفعة . والخبت : أرض مطمئنة . الحقف : الرمل المشرف المعوج . والجمع : أحقاف . العقنقل : الرمل المتعقد المتلبد .

(٤) هصرت : الهصر : الجذب . فودا رأسها : جانباه . هضيم : ضامر . الكشح : منقطع الأضلاع . ريّا : تأنيث الريان . المخلخل : موضع الخلخال من الساق .

(٥) مهفهفة : لطيفة الخصر . المفاضة : المرأة العظيمة البطن المسترخية اللحم . الترائب . جمع تريبة وهي موضع القلادة من الصدر . الصقل : إزالة الصدأ والدنس وغيرهما . السجنجل : المرآة .

(٦) البكر من كل صنف : ما لم يسبقه مثله . المقاناة : الخلط . النمير : الماء النامي في الجسد . المحلل : ذكر أنه من الحلول . وذكر أنه من الحل . والمعنى : يشبهها ببيض النعام وهي بيض تخالط بياضها صفرة يسيرة . ثم رجع إلى صفتها فقال : غذّاها ماء نمير عذب لم يكثر حلول الناس عليه فيكدره ذلك يريد أنه صافٍ .

(٧) تصدُّ : تعرض . والصدُّ : الصرف والدفع . تبدي : تظهر . أسيل : خدٌّ طويل . الاتقاء : الحجز بين شيئين يقال : اتقيته . بترسٍ : أي جعلت الترس حاجزاً بيني وبينه . حرّة : موضع . والمطفل : التي لها طفل . والوحش : جمع وحشي مثل زنج وزنجي .

(٨) الرئم : الظبي الأبيض الخالص . جمع رَام . الفاحش : ما جاوز القدر المحمود من كل شيء . نصّته : رفعته . معطّل : غير معطّل عن الحلي .

(٩) الفرع : الشعر التام جمع فروع . فاحم : شديد السواد . الأثيث : الكثير . القنوات : التجعدات ، والعثكال : بمعنى القنو . والنخلة المتعثكلة : التي خرجت عثاكيلها . أي قنواتها .

غـدائـرُهُ مستشـزراتٌ إلى العُـلَا | تَضلُّ العقاصُ في مُثنىً ومُـرسَل[١]
وكشحٍ لَطيـفٍ كـالجـديـل مُخصّرٍ | وسـاق كأُنبـوب السّقيِّ المُـذَلّـل[٢]
وتُضحي فَتيتُ المِسك فَوقَ فـراشها | نَئُومُ الضُّحى لم تنتطق عن تَفضُّلِ[٣]
وتَعـطو بِـرَخصٍ غيـر شَثْنٍ كـأنـه | أساريعُ ظَبيٍ أو مشاويكُ إسْحَل[٤]
تُضيءُ الـظلام بـالعِشـاء كـأنهـا | مَـنـارَةُ مُمَسَى راهـب مُتبتّـل[٥]
إلى مثلهـا يـرنـو الحليمُ صبابـةً | إذا ما اسبكَرَّتْ بينَ درْعٍ ومِجول[٦]
تَسلَّتْ عمـاياتُ الـرِّجال عن الصبَا | وليس فُؤادي عن هَـواكَ بمنُسَـل[٧]
ألَا رُبَّ خصمٍ فيـكِ ألـوَى رددْتُـهُ | نصيحٍ على تَعـذَالـه غيـرِ مُؤتَـل[٨]
وليـلٍ كمـوج البحـر أرخى سُـدولـهُ | عليَّ بـأنـواعِ الهمـومِ ليبتلي[٩]
فـقلتُ لـه لـمـا تمـطَّى بـصلُبـه | وأَرْدَفَ أعجـازاً ونَـاءَ بكلكـل[١٠]

---

(١) الغدائر : الخصلة من الشعر . الاستشزار: الارتفاع . العقيصة: الخصلة المجموعة من الشعر . . . والجمع عقص وعقائص والفعل من الضلال والضلالة : ضل يضلُّ .

(٢) الكشح : منقطع الاضلاع . الجديل : خطام يتخذ من الأدم . المخصّر : الدقيق الوسط . الأنبوب : ما بين العقدتين من العقب وغيره . السقي المذلل : النخل المسقي المذلل بالأرواء .

(٣) تضحي : الأضحاء مصادفة الضحى . الفتيت : اسم لدقائق الشيء الحاصل بالفت . نئوم الضحى : كثيرة النوم في وقت الضحى . لم تنطتق : لاتشدُّ وسطها بنطاق . التفضل : لبس الفضلة وهي ثوب واحدٌ يلبس للخفة في العمل والمعنى : تصادف العشيقة الضحى ودقائق المسك فوق فـراشها وهي كثيرة النوم في وقت الضحى ، فلا تشدُّ وسطهابنـطاق بعد لبسهـا ثوب المهنـة ، يريـد أنها مخـدومة منعمّة ، تُخدم ولا تخدم .

(٤) تعطو : تتناول . أو تسير بترفعٍ . الرخص : اللين الناعم . الشثن : الغليظ الكزّ . الاسـروع : دودٌ يكون في البقل . تشبّه به أنامل النساء . ظبي : موضع بعينه . المساويك : جمع مسواك . إسحل : شجرة ذات غصون دقيقة مستوية .

(٥) المنارة : المسرجة . المممسى : بمعنى المساء . متبتّل : المنقطع إلى الله تعالى بنيته وعمله .

(٦) يرنو : ينظر . اسبكرّت : طالت وامتدت . الدرع : قميص المرأة. المجول: ثوب الجارية الصغيرة.

(٧) تسلت : سلا فلان عن حبيبه : زال حبه من قلبه . مُنسل : ناسٍ .

(٨) الوى : شديد الخصومة . نصيح : صيغة مبالغة من « ناصح » . تعذاله : العذل . اللوم . مؤتـل : مقصرٌ .

(٩) سدوله : ستوره . والارخاء : ارسال الستر وغيره . الابتلاء : الاختبار .

(١٠) تمطّى : التمطّي : مدُّ الظهر والتمدُّد . أردف : اتبع . اعجاز : مـآخير . نـاء : مقلوب نأي بمعنى بعد . الكلكل : الصدر .

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انجلي بصُبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمثلِ[1]

فَيَا لَكَ من ليلٍ كأنَّ نُجومَهُ بكلِّ مَغارِ الفتلِ، شُدَّتْ بيذْبُلِ[2]

كأنَّ الثريا عُلِّقتْ في مصامِها بأمراسِ كتانٍ إلى صُمِّ جَندلِ[3]

وقِرْبةِ أقوامٍ جَعلْتُ عصامَها على كاهلٍ مني ذَلولٍ، مُرَحَّلِ[4]

ووادٍ كجوفِ العَيْرِ قَفرٍ قَطعتُهُ به الذِّئبُ يعوي كالخليعِ المُعيَّلِ[5]

فقلتُ لَهُ لَمّا عَوَى إنَّ شأننا قليلُ الغنى إنْ كنتَ لَمّا تَموَّلِ[6]

كِلانا إذا ما نالَ شيئاً أفاتَهُ ومن يحترثْ حرثي وحرثَكَ يهزلِ[7]

وقَدْ أغتدي والطيرُ في وُكُناتِها بمنجرِدٍ قيدِ الأوابدِ هَيكلِ[8]

مِكَرٍّ مفرٍّ مُقبلٍ مُدبرٍ معاً كجلُمودِ صخرٍ حطَّه السيلُ من عَلِ[9]

كُمَيْتٍ يزلُّ اللبدَ عن حالِ متنهِ كما زَلّتِ الصفواءُ بالمُتنزِّلِ[10]

---

(١) الأنجلاء : الانكشاف . الأمثل : الأفضل .

(٢) مغار الفتل : الأمراس المحكمة الفتل . يذبل : اسمٌ لجبل .

(٣) مصامها : موضعها . الأمراس : : جمع مرس أي الحبل . صُمِّ جندل : الصخر الصلبة .

(٤) العصام : وقاء القربة . الكاهل : أعلى الظهر عند مركب العنق فيه . مرحَّل : الترحيل مبالغة الرحل : يقال : رحلته إذا كررت رحله .

(٥) الجوف : باطن الشيء . والقفر : المكان الخالي . العير : الحمار . الخليع : الذي خلعه أهله لخبثه . المعيل : الكثير العيال .

(٦) قوله : « إن شأننا قليل الغنى » يريد أن شأننا أننا قليل الغنى . تموّل الرجل : إذا صار ذا مالٍ . ولمّا بمعنى لم .

(٧) أفاته : فوّته على نفسه . من يحرث حرثي وحرثك : من يسعَ سعيي وسعيك يهزل : أي كان مهزول العيش .

(٨) اغتدي : أُبكِّرُ . وكناتها : مواقعها وأعشاشها . المنجرد : الماضي في السير . وفيل هو قليل الشعر . الأوابد : الوحوش . الهيكل : الفرس العظيم الجرم .

(٩) مكرٍّ مفرٍّ : هاجمٍ ناكصٍ . جلمود : حجرٌ صلبٌ . حطّه القاه من علوٍ إلى أسفل . من علِ : من فوق .

(١٠) كميت : الذي خالط حمرته سواد . يزلُّ : ينزلق . اللباد : ما يوضع تحت السرج على ظهر الفارس . الحال : مقعد الفارس من ظهر الفرس . الصفواء : الصخرة الملساء . المتنزلِ : الذي ينزل عن الأشياء ، وقيل هو المطر .

على الـذَّبل جيَّاش كـأنَّ اهتـزامَـهُ إذا جاشَ فيه حَميُـهُ غَليُ مُرجـل[١]
مسحٍ إذا ما السابحاتُ على الـونى أثـرْنَ الغبارَ بـالكـديـد المُـركَّـل[٢]
يـزلُّ الغـلامُ الخِفُّ عن صهـواتـه ويُلوي بـأثـواب العنيف المثقَّـل[٣]
دَريـرٍ كخـذرُوف الـوليـد أمـرَّه تتـابـع كفيّـه بخيطٍ مُـوصَّـلِ[٤]
لـه أيطلا ظبيٍ وسـاقـا نعـامـةٍ وإرخـاء سرحـان وتقـريبُ تَتفـل[٥]
ضليعٍ إذا استـدبـرتـه سـدَّ فَـرجَـهُ بضافٍ فُوَيقَ الأرض ليس بأعزل[٦]
كـأنَّ على المَتنين منـه إذا انتحى مَـدَاكَ عروس أو صَلايَةَ حنظل[٧]
كـأنَّ دمـاءَ الهـاديـات بنحـره عُصـارةُ حِنَّـاءٍ بشيب مُـرَجَّـل[٨]
فـعنَّ لـنـا سـربٌ كـأنَّ نعـاجـه عـذارى دوار في مـلاء مُـذيـل[٩]

---

(١) الذبل : الذبول . جياش : شديـد الغليان . اهتـزامه : تكـرّه . جاشت القـدر : غلت . الحميُ : حرارة الغيظ . المـرجل : القدر من حديدٍ أو صفرٍ أو نحاس .

(٢) سحٍ يسحُّ : قد يكون بمعنى صبَّ يصبُّ . السابح من الخيل : الذي يمدُّ يديه في عدوه شبه بالسابح في الماء . الونى : الفتور . الكديد : الأرض الصلبة المطمئنة . المركل : من الـركل وهـو الدفـع بالرجل والضرب بها .

(٣) الخفُّ : الخفيف . صهـوات : مقاعـد الفوارس من ظهـور الأفراس . يلوي : يـرمي . المثقـلِ : الثقيل .

(٤) الدرير : من درّ يدرُّ يُقال درّت الناقة اللبن ، ثم الدرير هنا بمعنى الدار . خـذروف : حصاة مثقـوبة يجعل الصبيان فيها خيطاً فيديرها الصبي على رأسه يشبه سرعة هذا الفرس بسرعة دوران الحصاة على رأس الصبي . الوليد : الصبي . جمع ولدان . والامرار : احكام الفتل .

(٥) الأيطل : الخاصرة . الإرخاء : ضربٌ من عدو الذئب . السرحان : الذئب. التقريب: وضع الرجلين موضع اليدين أثناء العدو . تتفل : ولدُ الثعلب .

(٦) ضَليعٌ : عظيم الأضلاع منتفخ الجنبين . استدبْرتَهُ : نظرت إلى مؤخره . الفرجُ ، الفضاء بين اليدين والرجلين . ضافٍ . الضفو : السبوغ والتمام . فويق : تصغير فوق . الأعزل : الذي يميل عظم ذنبه إلى أحد الشقين .

(٧) المتنين : ما كان عن يمين الفقار وعن شماله . الانتحاء : الاعتماد والقصد . المداك : الحجر الذي يُسحق به الطيب وغيره والذي يُسحق عليه . الصلاية : الحجر الأملس الذي يُسحق عليه كـل شيء كالهبيد .

(٨) الهاديات : المتقـدمات والأوائـل . وسُميَ المتقدم هـادياً لأن هـادي القوم يتقـدمهم ومنه قيـل لعنق الفرس . عصارة الشيء : ما خرج منه عصره . المرجّل : المسرّح بالمشط .

(٩) عنّ : عـرض وظهر . السـراب : القطيـع من الظبـاء أو النساء . النعـاج : أسمٌ لأناث الضـأن وبقر ـ

فأدبرنَ كالجزع المفصّل بينه بجيدٍ مُعمٍّ في العشيرة مخول[1]

فألحقَنا بالهاديات ودونه جواحرهُا في صَرّةٍ لم تُزيّل[2]

فعادى عِداء بين ثور ونعجة دِراكاً ولم ينضح بماء فيغسل[3]

فظلّ طُهاةُ اللحم من بين منضج صَفيف شِواء أو قديرٍ مُعجل[4]

ورُحنا يكادُ الطرفُ يقصُرُ دونهُ متى ما تَرَقَّ العينُ فيه تَسفَّل[5]

فبات عليه سَرجهُ ولجامُهُ وبات بعيني قائماً غير مُرسل[6]

أصاحِ تَرى برقاً أُريك وميضهُ كلمع اليدَين في حَبِيٍّ مُكلّل[7]

يُضيءُ سناهُ أو مصابيحُ راهب أمالَ السليطَ بالذُّبال المُفتل[8]

قعدتُ له وصحبتي بين ضارج وبين العُذيب بَعْدَ ما متأملي[9]

على قَطن بالشَّيم أيمنُ صَوبه وأيسرُهُ على السِّتار فيذبل[10]

= الوحش . الدوار : حجر كان أهل الجاهلية ينصبونه ويطوفون حوله ، تشبيهاً بالطائفين حول الكعبة . ملاءٍ : جمع ملاءة . المذيّل : الذي أطيل ذيله .

(١) أدبر : الإدبار نقيض الإقبال . الجزع : الخرز اليماني . الجيد : العنق . جمع أجياد . المعمّ : الكريم الأعمام . المخول : الكريم الأخوال .

(٢) الهاديات : الأوائل المتقدمات . الجواحر : المتخلفات . الصرّة : الصيحة . لم تزيّل : لم تفرّق .

(٣) عادى عداءً : والى موالاةً . الدراك : المتابعة . المعنى : فوالى بين ثور ونعجة من بقر الوحش في طلق واحدٍ ولم يعرق عرقاً مفرطاً يغسل جسده ، يريد أنه أدركهما وقتلها في طلقٍ واحدٍ .

(٤) منضجٍ : طابخٍ أو شاوٍ للحم . صفيف: المصفوف على الحجارة لينضج . القديد: اللحم المطبوخ في القدر .

(٥) الطرف : النظر . القصور : العجز . الترقي : الارتقا . تسفَّل: تنظر إلى أسافله . المعنى : إنه كامل الحسن ، رائع الصورة تكاد العيون تقصر عن كنه حسنه ، ومهما نظرت العيون إلى أعالي خلقه اشتهت النظر إلى اسافله .

(٦) يقول بات مسرجاً وملجماً قائماً بين يدي غير مرسل إلى المرعى .

(٧) أصاح : ترخيم « صاحب » أي يا صاحب . وميضه : لمعانه . حبِيّ : سحاب متراكم . مكلل : كأنه الأكليل .

(٨) سناه : ضوؤه . السليط : الزيت ، ودهن السمسم . إنما سميا سليطاً لإضاءتهما السراج ، ومنه السلطان لوضوح أمره . الذبال : جمع ذبالة وهي الفتيلة .

(٩) ضارج والعذيب: موضعان. بعد ما: أصله بُعد ما فخففه وقال: بعد وما زائدة وتقدير: بُعَدَ متأملي .

(١٠) على قطني : ويُروى: « علا قطناً » من علا يعلو . وقطن : اسم جبل . الشيم : الحدس والتقدير . الصوب : المطر . يذيل : اسم جبل .

فأضحى يسُحُّ الماءَ حول كتيفةٍ ... يكبُّ على الأذقان دوحَ الكنهبل[١]
ومَرَّ على القنَان من نَفيانه ... فأنزلَ منه العُصمَ من كل منزل[٢]
وتَيماءَ لم يترُكْ بها جذع نَخلة ... ولا أُطُماً إلاَّ مَشيداً بجندل[٣]
كأنَّ ثَبيراً في عرانين وبله ... كبيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مُزمَّل[٤]
كأنّ ذُرى رأسِ المُجيمر غُدوةً ... من السيل والغُثّاء فَلْكةُ مِغزل[٥]
وألقى بصحراء الغبيط بَعاعَهُ ... نُزول اليماني ذي العياب المحمَّل[٦]
كأنّ مكاكِيَّ الجواء غُديَةً ... صُبِحْنَ سُلافاً من رحيق مُفلفل[٧]
كأنّ السِّباعَ فيه غَرْقَى عشيَّةً ... بارجائه القُصوى أنابيش عُنصُل[٨]

---

(١) يسحُّ : يصبُّ . كتيفة : اسم موضع . الذقن : مجتمع اللحيين . والأذقان في البيت مستعار للشجر . الدوحة : الشجرة العظيمة . الكنهبل : ضربٌ من شجرة البادية .

(٢) القنان : اسم جبل لبني أسد . النفيان : ما تطاير من قطر المطر . العُصم : جمع اعصم وهو الذي في إحدى يديه بياض . من الأوعال وغيره . والمنزل : موضع الأنزال .

(٣) تيماء : قرية عادية في بلاد العرب . الأطمُ : القصرُ . الشيد : الجصُّ ، أو الرفع وعلو البنيان . الجندل : الصخر والجمع : جنادل .

(٤) ثبير : اسم جبل . العرنين : الأنف . استعار العرانين لأوائل المطر لأن الأنوف تتقدم الوجوه . البجاد : كساءٌ مخطط . التزميل : التلفيف بالثياب . وبلْه : الوبل : المطر الشديد .

(٥) الذروة : أعلى الشيء . المجيمر : أكمةٌ بعينها . الغثاء : ما جاء به السيل من الحشائش والتراب .

(٦) الغبيط : أكمةٌ قد انخفض وسطها ، وارتفع طرفاها . البعاع : الثقل . قوله : نزول اليماني : نزول التاجر اليماني . العياب : جمع عيبة : الثياب .

(٧) المكاء : ضربٌ من الطير والجمع مكاكي . الجواء : الوادي . غدية : تصغير غدوة أو غداة . صبحن : شربن الخمرة عند الصباح . السلاف : أجودُ الخمر وهو ما انعصر من العنب . مفلفل : الذي القي فيه الفلفل .

(٨) الغرقى : جمع غريق . العشيّة : ما بعد الزوال إلى طلوع الفجر . الارجاء : النواحي . القصوى والقصيا : تأنيث الأقصى وهو الأبعد . الأنابيش : أصول النبت سُميت بذلك لأنها ينبش عنها واحدتها أنبوشة . العنصل : البصل البرّي .

تحليل المعلّقة

تلك هي معلّقة امرىء القيس كما ذكرتها أكثر المصادر الأدبية ، بصورتها التامة وأغراضها المتعدّدة ، والتي يمكننا أن نلمح فيها صورةً شبه صادقة للقصيدة الجاهلية بمختلف فنونها وجوانبها ، تلك الصورة التي أصبحت نمطاً متّبعاً عند كثير من الشعراء ، ليس في زمن الشاعر فحسب ، بل تعدته إلى حقبٍ طويلة من التاريخ والأجيال .

يبدأ الشاعر قصيدته طالباً من مرافقيه الوقوف معه ، أو من مرافقه على زعم من ذكر أن العرب تخاطب الواحد مخاطبة الاثنين ، أو تخاطبه تثنيةً على سبيل التوكيد[1] . ومشاركته البكاء على الأطلال والدّمن ، تلك التي أثارت في نفسه العديد من المشاعر والذكريات ، وحملته من السعادة والأنس إلى الشقاء والتحسُّر والدموع ، فهذه الرسوم التي ما زالت آثارها في الأرض بادية المعالم ، ظاهرة الخطوط والقسمات ، صامدة في وجه الريح السّافية للرمال والمعفية للآثار ، دليلٌ على أنّ رحيل الأحبة عنها كان حديث العهد ، وهذا ما أحدث في نفس الشاعر التبدّل ، وولّد الخيبة المريرة ، لأنه لم يتمكن من تحقيق الغاية والقصد ، فانكفأ مذهولاً أمام تلك الصدمة الشعورية القويّة ، وأطرق مستعيداً ذكريات الحبّ واللقاء ، محمّلاً إياها بثّه وشكواه وفيض دموعه ، حتى رقّ له الصحب ، وعلّلوه بالتصبُّر والتجمّل خوفاً عليه من الهلاك والضياع .

بعد هذا الوقوف الحزين الذي تقول الروايات : إن امرأ القيس أوّل من ابتدأه في

(١) راجع شرح القصائد المشهورات لابن النحاس ص ٣ ـ ٤ .

شعـر ، وأوّل من استوقف على الـطلول[1] والذي أصبـح سنّة متبعـة عنـد أكثـر الشعـراء الجاهليين ، نجد انتقالاً مفاجئاً ربّما كان بإمكاننا أن نستخلص منـه تبريـراً لذلـك الحزن العميق الذي كاد يذهب بنفس الشاعر التي كانت تصبو لمغامرة عاطفية جديدة ، كان لهـا مثيلها في الماضي ، والتي ربما كان يقصد وصحبه تحقيق واحدةٍ منها ، ولكن فاته الوصول في الموعد المناسب ، ومنعه الرحيل عن الدّيار من التلهّي والإنغماس في المتعة واللذة ، فانبرى عندئذٍ يصوّر غمّه على لذيذ ما فاته ، ويتأسّف على أويقات من السعادة كـان يعلّل النفس بامتلاكها ، ولذا فإنه ينتقل كما ذكرت معدّداً أيامه اللاهية ، مصوّراً عبثه ومجونه ، مع فتياته اللائي كنّ هدفاً لمتعتـه وغايـة لحلّه وترحـاله ، فيقصّ علينـا تفاصيـل مغامـراته وحكايات لقاءاته بأسلوبٍ نلمح اكتماله فيما بعد ، عند عمر بن أبي ربيعة ، مع فارقٍ لا بدّ من الإشارة إليه ، وهو إنّ الإسلام قد حدّ بتعاليمه من تهوّر عمر وانسياقه في ذكر مغامراته وفحشه ، بينما نجد امرأ القيس يسترسل في ذكر ما يشـاء دون أن يحدّ من استـرسالـه في وصف شهواته ومغامراته أي حد .

فمثلكِ حُبلى قـد طـرقت ومـرضـعٍ
فـألهيتهـا عـن ذي تمـائم مُحـول
إذا مـا بكى من خلفهـا انصـرفت لـه
بـشـقٍّ وتـحـتي شـقّـهـا لـم يـحـوّل

ولعل الذي وصلنا من ذلك الوصف ، هو الشيء القليل ، لأنه من الممكن أن يكون الرواة قد أسقطوا تورّعـاً ذكر كثيـرٍ من الأمور التي لم يتـورّع الجاهليّ عن ذكـرها وتعـداد تفاصيلها ووصف دقائقها . .

ومهما تضاربت آراء الباحثين حول صحة هذه المغامرات ، أو حول عدم صحتها فإنّنا نميل إلى اعتبارها غير بعيدة عن طبيعة الشاعر وعن حقيقة مشاعره وعواطفه ، وخصوصاً بعد الـذي عرفنـاه من المصادر التي أوردت تفـاصيل حيـاته وأشـارت إلى تهـالكـه على اللذة والمجون ، فمغامراته إذن ليست خيالية لا حقيقة لها ولا واقع ، أو تغطيـة لخللٍ جسديٍّ حاول التعويض عنه بهذه الأقوال[2] ، بل هي أفعال حقيقية لها نظائرها في كلّ عصر عنـد

---

(١) راجع العمدة ص ٧٢ ج ١ .

(٢) راجع بكري الشيخ أمين المعلّقات السبع ص ٣٣ .

أناس كامرىء القيس ممّن يملكون الجاه والثروة ، وينساقون مع نزواتهم إلى أبعد الحدود سواء كانوا مفرّكين أم غير مفركين ، وعصر امرىء القيس بكل ظروفه الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، كان مِمّا يساعد على ذلك الانسياق مع الشهوات وليس مِمّا يساعد على ضبطه والحد منه .

بعد ذلك يعود الشاعر ليعدّد الأهوال والمصاعب التي اعترضته في تنقلّه وترحاله ، فيخصّ الليل بوصف جميل ، ويحمّله كثيراً من همّه وأشجانه وقلقه فصورة الليل عند البدويّ الذي كان يقطن الصحراء ، كانت صورة قائمةً في مجملها لأنها تمثّل في نفسه الرعب والخوف والوحشة ، هذا فضلاً عمّا يخلّفه الظلام في ذات الإنسان من أبعاد مأساوية مؤثّرة ، ولذلك نجد امرأ القيس يستعير للّيل صورة البحر ، ممزوجة بصخب الموج وتلاطمه ، ذلك الموج الذي لا يعرف النهاية والاستقرار فهو في حركيّة دائمة كليل امرىء القيس الذي لم يعرف السكون ، فغدا ليلاً لا يطاق وسرمداً لا يتزحزح ، هذا بالإضافة إلى أن صورة البحر « عند الجاهليين تعكس القوّة والعظمة والامتداد والخوف ، كما تعكس الضعف الإنساني تجاهه ، والبحر كالصحراء ، كلاهما واسعٌ عريض ، ولكنّ البحر يبقى مخوفاً أكثر من الصحراء ، لأنّهم اعتادوها ولم يعتادوا عليه »[1] .

ويعرّج الشاعر بعد ذلك ليحكي تفاصيل ارتحاله في البيداء المقفرة ، فيذكر لنا وادياً قفراً مليئاً بالوحوش والسّباع وينقل لنا صورة نلمحها فيما بعد عند الفرزدق الذي تذكر الروايات أنه كان أكثر الشعراء وقوفاً واطلاعاً على شعر امرىء القيس[2] وهي صورة الذئب والإنسان :

وواد كجوف العير قفرٍ قطعته
به الذئب يعوي كالخليع المعيّل
فقلت له لمّا عوى إنّ شأننا
قليلُ الغنى إن كنت لمّا تموَّل
كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته
ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

---

(١) المعلقات السبع ص ٤٢ .

(٢) جاء في الشعر والشعراء ص ٦٠ عن راوية الفرزدق قوله : « إنه لم ير رجلاً كان أروى لأحاديث امرىء القيس وأشعاره من الفرزدق » .

إنّنا نستطيع أن نستشف من خلال هذه الصورة أبعاد الحياة الجاهلية القاسية التي لم تكن في مجملها بعيدة عن شريعة الغاب ، حيث القوّي يفتك بالضعيف والمتموّل بالفقير ، وحيث وجب على الإنسان فيها أن يتقمصّ صورة الذئب ، تلك الصورة المرتبطة في الأذهان ، بصورة اليقظة والانتباه وسرعة الانقضاض ، وإلاّ أصبح الضحية السهلة التناول لكثيرٍ من المفترسين .

ويستطرد الشاعر إلى وصف صيده الذي نلمح فيه صورة الحياة الصعبة القائمة على الغزو والسلب والاقتناص ، لا فرق إن كان الصيد طائراً أو حيواناً أو قبيلةً من القبائل ، فالمهمّ الحصول على القوت ، ولو كان الموت سبيلاً لذلك ، ولذا فإنّ الشاعر يركّز هنا في وصفه على الحصان الذي هو الوسيلة الأولى التي تصل بصاحب الحاجة إلى حاجته ، وينعته بكلّ النعوت التي تتوافق مع التصوّر الذهني والنفسي القائمين في ذات الجاهليّ عنه ، فالقوّة والسرعة والتحمُّل من الصفات التي أغدقها الشاعر على حصانه ، وهي بالتالي نفس الصفات التي أحبّ الجاهلي امتلاكها ، ورغب في اقتنائها ، نظراً لما توفّره له من فرصٍ للانقضاض والخلاص في آن واحد ، ولذا فإننا نجد أكثر الصور التي جاءت في الشعر العربي عن الحصان ، لا تختلف في قليل أو كثيرٍ عمّا جاء في معلّقة امرىء القيس .

وأخيراً يذكر الشاعر البرق والمطر ، وذكره لهما هنا ليس ببعيد قطُّ عن ذكر ما تقدّم نظراً لما يخلفه المطر في نفس العربي من أملٍ بالبقاء ، فالحياة القاسية الصعبة هي التي جعلت العربي يسمّي المطر غيثاً وحياً ، كما جعلته يسمّي احتباسه جدباً وقحلاً ، ولذا فإن الشاعر في وصفه للمطر يستبشر بالخير العميم ، ويتوقّع عاماً يغاث الناس فيه ويعصرون ، وتلبس الأرض زينتها بما ينبت فيها من الكلأ والأعشاب والزهور ، تلك هي مجمل الموضوعات التي كوّنت قصيدة امرىء القيس ، والتي هي نموذج كامل للقصيدة الجاهلية التي كان الشاعر يستهلها بالوقوف على الأطلال والدّيار ، ومن ثم ينتقل إلى مختلف الموضوعات التي تزحم وجدانه فكيف استطاع امرؤ القيس أن يعبّر لنا عن أحاسيسه ، ويوصل إلينا ما جال في نفسه من أفكار ومشاعر .

لا شك أن أوّل ما يستوقفنا في القصيدة هو فقدان الوحدة الموضوعية وهذا الافتقاد كان كما أشرنا سمة من سمات الشعر الجاهلى ، وهو الذي جعل القصيدة مشاعر متفرّقة ، أو صوراً متفرّقة إذا جاز التعبير ، وليس هناك ما يربط بين موضوعاتها إلاّ إذا حاولنا تعسُّفاً أن نُوجد ذلك الرابط ، وإلاّ فما هو الذي يربط بين الوقوف على الأطلال ووصف المرأة

والصيد والأودية والليل والمطر ؟ إلا إذا افترضنا أن الوحدة الموضوعية تعني هنا المواقف المختلفة لحياة البادية القاسية وما كان يدور فيها من أحداث وأشياء وعادات أو أنها ظاهرة الحزن التي « كانت الطابع الأصيل الذي يشدُّ معاني المعلّقة بعضها إلى بعض »[1] .

ولكن الوحدة الموضوعية في نظرنا هي الوحدة الشعورية التي تجعل من الموضوع والشعور كلّاً واحداً لا يمكن لنا فصم عراه ، بحيث يصعب علينا أن نفرّق بين تلك المشاعر التي تنصبُّ انصباباً متصلاً نتيجة لانفعالات قوية وبين اللفظ الذي يشكّل إطاراً مجسّداً لتلك المشاعر ، ويغدو الفصل هنا مستحيلاً لأنه يعني عندئذٍ الخلل البنائي أو تحويل ذلك الانصباب عن مجراه ، ولذا فإن الوحدة الموضوعية لم تعرف طريقها إلى الشعر الجاهلي بحيث نجد معلّقة امرىء القيس تشبه أحجاراً مبعثرة وبناءً مسطحاً نستطيع بكل سهولة ويسر أن نفرد البيت الشعري عن سابقه ولاحقه ، وأن نحلّ مكانه بيتاً آخر دون أن يحدث أيّ خللٍ في السياق أو المعنى ، لأن الأساس الذي ارتكزت عليه في بنائها كان أساساً فرديّاً بحيثُ أن كل بيت من أبياتها كان يمثّل بناءً خاصاً أو صورة خاصة مستقلة لا تربطها مع السابق واللاحق أية روابط ، اللهمّ إلا روابط الوزن والقافية ، ولذا فإن الشعر العربيَّ بمجمله لم يعرف قط الوحدة العضوية بالمفهوم الحديث لها لأن الوحدة العضوية ليست « أن تتوالى أبياتٌ في موضوع بعينه ، ولكنّها أبعد من ذلك عمقاً ، إذ لا بدّ أن تصوّر الأبيات في قصيدتها حدثاً وجدانياً تاماً تتدرّج فيه ، بل قل تتخلّق تخلّقاً نامياً على نحو ما يتخلّق الجنين تخلّقاً كاملاً »[2] .

فالقصيدة الجاهلية من هذه الناحية تكاد تمثّل أصدق تمثيل الحياة التي عاشها العربي آنذاك ، تلك الحياة التي لم تعرف الاستقرار والتركيز ، لأنها كانت حياة جاريةً متنقلة من مكان إلى مكان ، ومن مرعىً إلى مرعى سعياً وراء المطر والكلأ والأمان ، وهذا التشرّد أو عدم الاستقرار ، انعكس على القصيدة الجاهلية ، أيضاً فجعلها مفكّكة متنقلة من موضوع إلى موضوع ، ومن غاية إلى غاية وكأنها قيلت في مناسبات عدة وأعوامٍ متفرقة ، ومن ثم جمعت ضمن قصيدة واحدة ، لأن أبياتها تنتمي إلى نغم واحد وقافيةٍ واحدة . وهذا ما نلاحظه في معلّقة امرىء القيس التي يستهلها بالوقوف على الأطلال وذكر رسومها ومعالمها ، ومن ثم يذرف دموعه حسرات على أيام قضّاها هنالك ، وينتقل بعدئذٍ إلى

---

(١) المعلّقات السبع ص ٦٣ .

(٢) في النقد الأدبي شوق ضيف ص ١٦٠ .

وصف مغامراته العاطفية فيذكر مواقف له في دارة جلجل ويتحدث عن عنيزة وفاطمة وأخرى لم يصرّح باسمها ، مغدقاً على فتياته أوصافاً حسّيّة ومستعيراً لإظهار جمالهنّ كل ما تقع عليه العين في الصحراء العربية من شجر وظباء ومشاهد متفرّقة ، ثم يتبع تغزله ذاك ، بوصف أسفاره وقطعه الفيافي والوديان ومقارعة الوحش والخوف والظلام ، منتقلاً بعد ذلك إلى وصف صيده ووصف حصانه ووصف الليل والمطر ، كلّ ذلك بأسلوب نلمح فيه النقل الأمين لمجريات الأحداث والوقائع ، دون أن يكون هناك جامعٌ يوحد بين موضوعاته المتعدّدة ، أو سبب لتعليق بعضها ببعض ، فإذا بالمعلّقة تمثّل فضاءً واسعاً يضمّ أشياء متباعدة لا تتلاصق ، ولعلّ هذا الفضاء الرحب المترامي الأطراف هو الذي أملى على الشاعر وعلى غيره من الشعراء صور قصائدهم فتوالت الموضوعات فيها جنباً إلى جنب دون نسق أو توجيه فكريٍّ منظم يوحّد بين أجزائها توحيداً شعوريّاً يبدأ مع البداية وينتهي مع النهاية . . .

أما أسلوب القصيدة فإنه أسلوبٌ واضح وبسيط ، فهو يقوم على نقل المشاهد الحسية دون إغراق في المعاني والأبعاد ، بحيث تغيب عنه المعاني الذهنية ، والخيال المحلّق والصور المركّبة ، فلا نلمح فيه إلا تشابيه لصور حسّية مستعارة من الواقع المادي المحسوس الذي يجسّد صورة الحياة بكلّ قيمها الواقعية خير تجسيد ، فمن المعروف عن الخيال الشعري أنه « لا يتلوّن في صوره وأساليبه إلّا في بيئة خصبة بالمشاهد الطبيعية المتلوّنة وفي حياة متعدّدة الوجوه زاخرة ، وأين الصحراء من هذا ؟ وهجُ شمسٍ إلى وهجِ شمس ، ومنبسطات رمالٍ إلى منبسطات رمال ، ورعيان تحلّ وترحل ، إلى رعيان تحلّ وترحل »[1] . ولذا فإننا نستطيع القول بأن القصيدة الجاهلية تكاد تمثل وثيقة حيّة للمكان وللأحداث ، ولا تعدو في مختلف جوانبها صورة الحياة الحقيقية لذلك الإنسان ، فهي بعيدة كل البعد عن الغلوّ والاغراق في الخيال والسّوح في المتاهات النفسيّة والوجودية ، وظلتّ ترسف في التقريرية التي لا تكاد في صورها تفارق أبعد ما تراه العين وما تقع عليه الحواس ، وهذه التقريرية المتمثّلة بالصور الحسية جعلت الشعر العربي الجاهلي متشابهاً في تفاصيله وأحداثه ، بحيث نجد نفس الصور التي ذكرها الشاعر في معلّقته تتكرّر عند أكثر الشعراء الجاهليين ، ولكن في صياغة مختلفة ، وليس هذا يعني أن الشعر الجاهلي كان شعراً مملاً تنفر منه النفس لأنه يردّد صوراً تعورف عليها ، فهو وإن كانت المحاكاة

---

(١) رئيف خوري : امرؤ القيس ص ٨٢ ـ ٨٣ .

أساسه ، فإنه شعر ينبض بالحركة والحياة ، ويبتعد عن الجمود والرتابة ويزخر بالتشبيهات الحسّية الملونة التي تترك في النفس أصداء محببة وتلامس أحاسيسنا بتؤدة ورفق ، وتجعلنا نتعرف إلى حياة أولئك الأسلاف وما كان يعتمل فيها من مجريات وأحداث ، فالحسّ كما هو معروف باب الفن « فلا فنّ إطلاقاً بدون حسّ ، ومن هنا ندرك أن الطابع الحسي في الشعر الجاهلي وشعر امرىء القيس خاصة ، لهو دليل على أصالته الفنية ، ولقد كان لارتقاء الحواس عند صاحبنا قدرة مكّنته من أن يفكّر ويشعر وينقل أفكاره ومشاعره بمجرد الصور ، ومن هذا الحسّ الدقيق العميق تولّدت خصال امرىء القيس الفنّية وتطورت وارتقت إلى المرتبة التي قد لمسناها وهي الإبداع »[1] .

وإذا نحن حاولنا أن ننظر إلى الصور التي رسمها امرؤ القيس في معلّقته فإنها بدون شك ستحظى بإعجابنا ، لأنها صور أصيلة تجسّد الحياة والعصر بكل قيمه المادية والحضارية فصورة الليل التي يرسمها في قوله :

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله
عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له، لما تمطّى بصلبه
وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيّها الليل الطويل ألا انجلِ
بصبحٍ وما الاصباح منك بأمثل
فيا لك من ليلٍ كأن نجومه
بكلّ مغار الفتل شدّت بيذبل
كأنّ الثريا علّقت في مصامها
بأمراس كتّان إلى صمّ جندل

هي صورة لكلِّ إنسان عبثت في صدره الوساوس والظنون ، ومنعه الرُّقادَ مانعٌ تملّك أفكاره وأحاسيسه ، فغدا ضجراً قلقاً مهموماً ، تتقاذفه أمواج الوحدة واليأس إلى شواطىء نائية لا يجد فيها إلا أمواجاً جديدة تضجّ وتزبد ، وأشواكاً مسنّنة تقضّ وتسهد ، إنها صورة تخطّت الزمان والمكان لأنها وليدة المعاناة الصادقة والإحساس الأصيل .

---

(١) رضوان الشهال امرؤ القيس ص ١٥٧ .

وتأمّل معنا ، أيضاً تلك الصورة الرائعة التي رسمها للحصان في قوله :

مكـرٍّ مفـرٍّ مقبـلٍ مـدبـرٍ مـعـاً كجلمود صخرٍ حطّه السيل من علِ

فإنّك حتماً سوف تلاحظ صورة حيّة نابضة بالحركة والرشاقة والقوة وسيعجبك فيها ذلك الجمع بين الأضداد التي تعبّر بصدقٍ عن صورة الإنسان نفسه ، تلك الصورة التي تؤلف في مختلف جوانبها مزيجاً من التناقضات التي تشكل جوهر وجوده وواقعه ، فامرؤ القيس في تلك الصورة لم يصف جواده بل أبدع فيها ذاته ، وجسّد واقعه وحياته في إطارٍ من الحركيّة النامية التي تتجدّد وتتغيّر ولا تقبل القبوع والخضوع ، اللذين يفقدان الحياة معناها ويحوّلانها إلى ليلٍ من الأسى طويل ، فهذه الصورة بشطريها تصوّر « حياة الشاعر بشطريها المعهودين ما قبل دّمون وما بعد دّمون ، يكفي أن نذكر ما قد علمناه من حياة امرىء القيس في الشطر الأول ، وأنّه كان مرحلة لهوٍ ومرح وانطلاق ، كانطلاق المهر الأرعن على فطرة الغرائز والسّجايا ، ثم ما قد علمنا من حياته في الشطر الثاني وقد كان انقضاضاً كجلمودٍ من الصخر في ميدان معركته مع بني أسد وحلفائهم ومن ورائهم جميعاً صاحب الحيرة وعاهل فارس »[1] . . فهذه الصورة يمكن أن تختصر حياة امرىء القيس فهي ليسة نبوءة تشهد للشاعر بالعبقرية ورهافة الحس وقوّة الحدس ، بل هي في اعتقادنا رسم لمسار الشاعر ، رسم اختطه بملء ذاته وإرادته ، رسمٌ يجسد حقيقة ما انطوت عليه نفسه من عزم وتصميم وقرار ، وأيٌّ منا لا يرسم لذاته منهجاً ويختط طريقاً ويقسم حياته بين لهو وجد ، وراحة وعمل ؟

وإذا كنا نحس اليوم صعوبة في الدخول إلى أعماق القصيدة الجاهلية بشكل عام ، نظراً لما نجده فيها من لغة غريبة ومعانٍ غامضة ، وصورٍ تبدو في الظاهر لنا معقدة ، فالحقيقة أن الأمر ليس كما نتصوّر ، فتلك الصعوبة مردّها إلى تطوّر لغتنا وابتعادها كثيراً عن اللغة التي استعملها الأجداد من قبل ، فاللغة كما هو معروف تتغيَّر مع الزمن في أساليبها ومفرداتها حتى يبدو ذلك الذي كان مألوفاً من قبل في القديم ، وكأنه اليوم بعض الأحاجي والألغاز بالنسبة لنا نحن اليوم ، فاللغة العربية آنذاك لم تكن قط غريبة عن الإنسان الجاهلي ، لأنها كانت لغة الحياة العادية البسيطة يفهمها الجميع دون مشقة أو عناء ، كما نفهم نحن لغتنا اليوم ، فمعانيها بالنسبة لهم معانٍ واضحة وبسيطة وبعيدة في مجملها عن الغرابة والغموض والتعقيد ، ولكن لمّا قلّ استعمال تلك اللغة شيئاً فشيئاً مع ابتعاد الزمن

---

(١) امرؤ القيس : رضوان الشهال ص ٧٤ ـ ٧٥ .

في دورانه ، أخذت تفقد حياتها وتنحصر في دائرةٍ ضيّقةٍ من الاستعمال ، وهذا ما أضفى عليها نوعاً من الغموض والصعوبة اللذين نتصور وجودهما الآن .

وهكـذا فإننـا ننتهي إلى القول ، بـأن معلّقة امـرىء القيس تعبّر بصـدق عن الحياة القاسية التي عاشها العربي آنذاك ، وهي في بنائها الفني مستوحاة من البيئة المادية الضيقة التي حصرت وجدان الشاعر وخياله ضمن أطرٍ محدّدة لا تكاد تفارق المحسوس وتتجاوزه إلى أبعد مما تقع عليه العين ، ولكنّنا رغم ذلك كله نستطيع أن نلمح فيها ومضات وجدانية بارقة ، تمثّل شعوراً إنسانياً عاماً يتخطى في أبعاده الزمان والمكان ، كما نستطيع أن نلمح إحساساً عميقاً « بمأساة التغيُّر واللحظات التي تنقرض انقراضاً صامتاً ، وتنسلُّ اسلالاً رهيباً إلى خلايا الحياة وأشيائها ، إلا أننا لا نبصر فيهـا صـورة بارزة المعالم لمأساة الضياع الذي عاناه ، فهو قد خطر بها وعرض لها في عرضٍ سريع ولم يتردّد عليها ويعمّق أغوارها »[1] .

---

(١) إيليا حاوي : امرؤ القيس ص ٢٣ . دار الثقافة ١٩٨١ .

طرفة بن العبد

هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة[١] البكريّ الوائلي[٢] . وقد نسبه المفضّل الضبّي ، إلى معدّ بن عدنان[٣] واسمه عمرو ، وقال أبو سعيد السكّري : اسمه عبيد ، ويقال : عبد ، ولُقّب طرفة ببيت شعر قاله[٤] . وطرفة بالتحريك في الأصل واحد الطرفاء ، وهو الأثل ، قال في القاموس : الطرفة واحدة الطرفاء وبها لقّب طرفة بن العبد[٥] ، وقال أبو عمرو : الطرفاء من الحمض قال : وبها سُمِّي الرجل طرفة[٦] وكنيته أبو إسحاق ويقال : أبو سعد ، وقال ابن دريد : كنية طرفة أبو عمرو ، أمّا أُمّه فهي وردة بنت قتادة بن مشنوء بن عمرو بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة[٧] وقد ورد ذكرها في شعره عندما رفض أعمامه أن يقسما ماله بعد موت أبيه فقال معاتباً ومهدداً :

ما تنظرون بحقّ وردة فيكمو صغر البنون ورهط وردة غيّب

---

(١) معجم الشعراء للمرزباني ص ٢٠١ .
(٢) فهرس الأعلام للزركلي مجلد ٣ .
(٣) شرح المعلقات السبع للزوزني ص ٤٣ .
(٤) معجم الشعراء للمرزباني ص ٢٠١ .
(٥) خزانة الأدب للبغدادي ج ١ ص ٤١٤ .
(٦) لسان العرب مادة طرف ص ٢٢٠ .
(٧) راجع معجم الشعراء للمرزباني ص ص ٢٠١ وفهرس الأعلام للزركلي مجلد ٣ .

أدّوا الحقوق تفرْ لكم أعراضكمْ إنّ الكريم إذا يحرَّب يغضب[1]

وهو ابن أخت الشاعر المتلمّس ، وابن أخي الشاعر المعروف بالمرقش الأصغر فالتقى إليه الشعر من طرفيه[2] .

وقد روي أنّ أوّل شعر قاله طرفة كان عند خروجه مع عمه في سفر له ، وهو ابن سبع سنين ، فنزلوا على ماء هناك ، وذهب طرفة بفخٍّ له إلى مكان اسمه « معمر » فنصبه للقنابر ، وبقي عامّة يومه لم يصد شيئاً ، فلما أراد الرحيل ، رفع طرفة فخّه وقال :

يا لك من قبرّةٍ بمعمري خلا لك الجوّ فبيضي واصفري
ونقّري ما شئت أن تنقّري قد رفع الفخّ فماذا تحذري
لا بدّ يوماً أن تصادي فاصبري[3]

وكان مولد طرفة في البحرين حوالي سنة ٥٣٨ م على سبيل الظنّ والترجيح ، والبحرين : « اسم جامعٌ لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعُمان ، قيل : هي قصبة هجر ، وقيل : هجر قصبة البحرين ، وقد عدّها قومٌ من اليمن ، وجعلها آخرون قصبةً برأسها ، وفيها عيون ومياه وبلاد واسعة ، وربّما عدّ بعضهم اليمامة من أعمالها »[4] . ولا يعرف الكثير عن نشأته وتفاصيلها ، ولكن الذي ذكره الرواة ، هو أن طرفة كان في حسب ورفعة من قومه ، فجدّه كان موصوفاً بالشرف والرئاسة ، أمّا أبوه فكان شابّاً قويّاً ظاهر الفتوّة والجرأة ، وقد مات في سنّ مبكّرة وطرفة طفل صغير ، وترك من الأبناء آخر له غير طرفة ، اسمه معبد ، وورد ذكره في معلّقة طرفة حيث يقول :

إذا متّ فانعيني بما أنا أهله وشقّي عليَّ الجيب يا ابنة معبد[5] .

ويظهر أن طرفة قد ورث عن أبيه خصالاً عدةً ، فقد ذكر أنه « كان أبّياً معتدّاً بنفسه مدلّاً على قومه ، واثقاً بمنزلته منهم ، جريئاً بمقدار ما تدفع هذه الثقة ، مترفّعاً إلّا عن

---

(١) راجع ديوان طرفة ، ص ١١ ـ ١٢ ، دار صادر ـ بيروت .
(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ص ٢٢٥ ج ٣ .
(٣) راجع شعراء النصرانية ج أول ص ٢٩٨ والشعر والشعراء ص ١٠٥ ، وديوان طرفة ص ٤٦ .
(٤) معجم البلدان لياقوت الحموي ج ١ ص ٣٤٧ .
(٥) راجع أشعار الشتة الجاهليين ج ٢ ص ٦ .

الملوك يرجوهم ويهجوهم »[1] .

وقد ظهرت علامات الفطنة والذكاء على طرفة في سن مبكّرة ، ونستطيع أن نستشف ذلك من خلال حادثة جرت له وهو طفل صغير ، فقد ذكر أن المتلمّس خاله قد اصطحب طرفة معه إلى الحيرة عندما ذهب إليها كي يمدح ملكها عمرو بن هند ، فلمّا دخلا على الملك « كان عنده المسيّب بن علس ينشد شعراً في وصف جمل ، ثمّ حوله إلى نعت ناقة ، فقال طرفة : استنوق الجمل ، فسار قوله مثلاً في التخليط ، ويقال : إنّ المنشد كان المتلمّس ، أنشد في مجلس لبني قيس بن ثعلبة ، وكان طرفة يلعب مع الصبيان ويتسمّع ، فأنشد المتلمّس :

وقد أتناسى الهمّ عند احتضاره ... بناجٍ عليه الصيعرية مكدم

والصيعرية : سمة توسم بها الناقة في اليمن « والناج هو الجمل » ، فلما سمع طرفة البيت قال : « استنوق الجمل »[2] ، ويُروى أن هذه الحادثة جرت مع عمرو بن كلثوم ، ومهما يكن الأمر ، فإن ذلك يدلُّ على نبوغ الرجل المبكّر ، وعلى دقّة ملاحظته وصفاء شاعريته وتفكيره .

وقد نشأ طرفة يتيماً فكان لذلك اليتم أثرٌ ظاهرٌ على تكوين شخصيته وانفراده بقراراته ، واعتماده على نفسه ورأيه في كلّ أمر ، وهذا ما جعله يقع فريسة أخطاء كثيرة كان أكبرها ذلك الخطأ الجسيم الذي أودى بحياته ، فضلاً عن انصرافه الكلّيّ إلى اللهو ومعاقرة الخمرة ، ومعاشرة النّساء ، وإنفاقه كلّ ما يملك في أمورٍ كرهها قومه فيه ؛ فأبعدوه لأجلها إبعاد البعير الجرب ، وقد صوّر طرفة ذلك في معلّقته فقال :

وما زال تشرابي الخمور ولذّتي ... وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلّها ... وأفردت إفراد البعير المعبّدِ[3] .

ولذا نرى طرفة بعد ذلك الإبعاد يتنقل في كثير من الأماكن والدّيار ، ويخالط الصعاليك وقطّاع الطرق حتى شُهر ذلك عنه ، ومن ثم نراه يحلُّ اليمامة وينيخ راحلته بفناء قتادة بن سلمة الحنفيّ ، ويمدحه ، ويطول بعدها تنقلّه في البلاد فيذهب إلى اليمن ثم

---

(١) تاريخ اداب العرب ج ٣ ص ٢٢٥ .

(٢) شعراء النصرانية ج أول ص ٣٠٤ ، كذلك راجع الشعر والشعراء ص ١٠١ .

(٣) راجع ديوانه ص ٣١ ـ دار صادر .

يرحل منها إلى النجاشي في الحبشة[1] إلا أن الحنين أخذ يشدّه إلى ديار قومه ، فيقفل عائداً إليها ، ويحاول أخوه معبد أن يغيّر من سيرته ، فيمدّه بقسم من ماله ، أو يسرّحه في إبل يرعاها له ، إلاّ أن طرفة يهملها وينصرف إلى نظم الشعر فيقول له أخوه معبد عندئذٍ معاتباً : « لِمَ لا تسرح في إبلك ، ترى أنها إن أخذت تردّها بشعرك هذا ، قال : فإنّي لا أخرج فيها أبداً حتى تعلم أن شعري سيردّها إن أخذت ، فتركها وأخذها ناسٌ من مضر ، وقيل : بل إن الإبل التي ظلّت هي إبلُ معبد ، فسأل طرفة ابن عمّه مالكاً أن يعينه في طلبها فلامه وقال : فرّطت فيها ثمّ أقبلت تتعب في طلبها ، فقال قصيدته وهي تربى على مائة بيت وتختلف بعد المائة باختلاف الرواة »[2] .

وقد مدح طرفة في معلّقته سيّدين من سادة قومه ، هما : قيس بن خالد ، وعمرو بن مرثد ، فلمّا بلغ عمرو قول طرفة :

فلو شاء ربيّ كنت قيس بن خالدٍ ولو شاء ربيّ كنت عمرو بن مرثد

وجّه إلى طرفة رسولاً فأتاه ، وقال له عمرو عندئذ : « يا ابن أخي ، أمّا الولد فالله يعطيكم ، وأمّا المال فسنجعلك فيه أسوتنا ، فدعا ولده وكانوا سبعة فأمر كلّ واحدٍ فدفع إلى طرفة عشراً من الإبل ، ثم أمر ثلاثة من بني بنيه فدفعوا له مثل ذلك »[3] . عندها أعاد طرفة لأخيه إبله وأنفق ما تبقى له منها على لهوه وملذّاته ، حتى ضاقت به الحال ، فقصد عندئذٍ عمرو بن هند ملك الحيرة ، وكان الشعراء يرحلون إليه فيمدحونه ويجزل لهم بدوره العطاء ، وقد وفد عليه طرفة برفقة خاله المتلمّس « فأحسن وفادتهما وجعلهما في حاشية أخيه قابوس بن المنذر ، وكان مرشّحاً للملك بعده ، وكان شاباً يميل إلى اللهو والترف ويخرج إلى الصيد ، فكان يخرج معه طرفة إذا خرج ، وينادمه على الشراب ، وهكذا اطمأنت به الحال ، واستقرّت حياته بعض الاستقرار »[4] وتذكر الروايات أن طرفة كان يوماً ينادم عمرو بن هند ، فأشرفت أخته عليهما ، فرأى طرفة ظلّها في الجام الذي في يده ، فقال بها مشبّباً :

ألا بأبي الظبي الذي يبرق شنفاهُ ولولا المللك القاعد قد ألثمني فاهُ

(١) راجع أشعار الستة الجاهليين ج ٢ ص ١٢ .
(٢) تاريخ آداب العرب ، ج ٣ ، ص ٢٢٩ .
(٣) شعراء النصرانية ص ٣٠٤ ج أول .
(٤) شعراء الستة الجاهليين ج ٢ ص ١٢ .

فحقد عليه عمرو عندئذ ، وأضمر له الشرّ وتحيَّن الفرص المواتية للقضاء عليه ، ولكنه لم يظهر غضبه خوفاً من أن يفوته الاقتصاص منه ، وممّا عمل على تعجيل الإيقاع به هجاؤه العلنّي له ، وحادثة أخرى روتها كتب الأدب في خلاف يسير ، أما عن هجائه ، فقد ذكر أن طرفة والمتلمّس أتيا قابوس يوماً ليمدحاه ، وكان في مجلس شرابٍ له ، فانتظراه طيلة النهار ولم يصلا إليه ، فأنشد طرفة في هجائه قصيدة يقول فيها :

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثاً حول حجرتنا تخورُ
قسمت الدّهر في زمنٍ رخيٍّ كذاك الدهر يعدل أو يجور
لعمرُك إن قابوس بن هندٍ ليخلط ملكه نوكٌ كبير
لنا يومٌ وللكروان يومٌ تطير البائسات ولا يطير
فأمّا يومهنَّ فيوم سوءٍ تطاردهن بالخشف الصقور
وأمّا يومنا فنظلُّ ركباً وقوفاً لا نحلُّ ولا نسيرُ[1]

واستمرّ طرفة في هجائه لعمرو بن هند ولأخيه قابوس ، ونعته لهما بأقبح الألفاظ وأدنى الصفات ، فكان ممّا قال فيهما :

إنَّ شرار الملوك قد عُلموا طرّاً وأدناهمُ من الدنسِ
عمرو وقابوسُ وابنُ أمّهما من يأتهم للخنا بمحتبس
يأت الذي لا تخاف سبّته عمروٌ وقابوس قينتا عرس
يصبحُ عمروٌ على الأمور وقد خضخض ما للرجال كالفرس[2] .

أما الحادثة ، فهي أنه كان لطرفة ابن عمٍّ عند عمرو بن هند ، واسمه عبد عمرو بن بشر بن عمرو بن مرثد بن سعد بن مالك بن ضبيعة ، وكان عبد عمرو هذا سيّد أهل زمانه ، كما كان سميناً بادناً وزوجاً لأخت طرفة فشكته يوماً لأخيه فقال فيه شعراً :

ولا عيب فيه غير أن له غنىً وأن له كشحاً إذا قام أهضما
وأنّ نساء الحيّ يعكفن حوله يقلن عسيبٌ من سرارة ملهما[3]

---

(١) راجع تاريخ اليعقوبي المجلد الأول ص ٢١٠ .

(٢) راجع تاريخ اليعقوبي المجلد الأول ص ٢١٠ ـ ٢١١ .

(٣) العسيب جريدة نخل ، مستقيمة ، والسرارة من الشيء : وسطه وأفضله ، والملهم : موضعٌ كثير النخل .

وقد بلغ ذلك الشعر عمرو بن هند فبينما كان ذات يومٍ في صيدٍ له ، برفقة عبد عمروٍ ، عرض لهما حمارٌ وحشيٌّ فرماه عمروٌ وأصابه ، وقال لعبد عمر إنزل إليه ، فنزل إليه فأعياه ، فضحك عمرو بن هند وقال : لقد أبصرك طرفة حين قال :

ولا عيب فيه غير أن له غنىً   وأنّ له كشحاً إذا قام أهضما

فقال عبد عمرو عندئذٍ : « أبيت اللعن ، الذي قاله فيك أشدّ مما قال فيَّ ، قال : وقد بلغ من أمره هذا ، قال : نعم ، وأسمعه الأبيات التي هجاه بها فغضب لذلك غضباً شديداً وصمّم على قتله »[1] .

وقد روى صاحب الخزانة هذه الحادثة بأسلوبٍ آخر ، إلّا أنها في النهاية تتفق مع غيرها من الروايات التي ذكرت في سبب مقتل طرفة[2] .

بعد هذه الحادثة استقدم عمرو بن هند طرفة والمتلمّس ، وأبدى نحوهما ودّاً مفاجئاً ، وكتب لهما كتابين أوهمهما ، أن فيهما عطاءً وحباءً لهما ومن ثمّ أرسلهما إلى عامله في البحرين ربيعة بن الحارث العبدي كي يحصلا منه على ما أمر لهما من عطاء ، وانطلق طرفة والمتلمّس في طريقهما إلى البحرين حتى إذا بلغا الحيرة قال المتلمّس لطرفة : تعلم أن ارتياح عمروٍ لي ولك لأمرٌ عندي مريب ، وأن انطلاقي بصحيفة لا أدري ما فيها عملٌ لا آمن شرّه « فهلمّ ننظر في كتابنا ، فإن يكن أمر لنا بخير مضينا فيه ، وأن يكن أمر فينا بغير ذلك لم نهلك أنفسنا ، فأبى طرفة أن يفكّ خاتم الملك وحرص المتلمّس على طرفة ، فأبى ، وعدل المتلمس إلى غلامٍ من غلمان الحيرة ، عبادي فأعطاه الصحيفة فقرأها ، فلم يصل إلى ما أمر به في المتلمّس حتى جاء غلام بعده ، فأشرف في الصحيفة لا يدري من هو ، فقرأها ، فقال : ثكلت المتلمّس أمه ، فانتزع المتلمّس الصحيفة من يد الغلام ، واكتفى بذلك من قوله ، وألقى الصحيفة في نهر الحيرة ثم أنشأ يقول :

وألقيتها بالثني من جنب كافرٍ   كذلك يلقى كلّ قطٍّ مضلّل
رضيت لها بالماء لمّا رأيتها   يجول بها التيّار في كلّ جدول

فقال المتلمس لطرفة : تعلمن والله أن الذي في كتابك مثل الذي في كتابي ، فقال طرفة : لئن كان اجترأ عليك ما كان بالذي يجتريء عليَّ ، وأبى أن يطيعه فسار المتلمّس

---

(١) راجع الشعر والشعراء ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٢) راجع خزانة الأدب ج ١ ص ٤١٤ .

من فوره حتى أتى الشام ، وسار طرفة حتى قدم على عامل البحرين ، وهو بهجر ، فدفع إليه كتاب عمرو بن هند فقرأه ، فقال : هل تعلم ما أمرت به فيك ، قال : نعم ، أمرت أن تجيزني وتحسن إليَّ ، فقال لطرفة ، إنّ بيني وبينك لخؤلةً أنا لها راعٍ ، فأهرب من ليلتك هذه فإنّي قد أمرت بقتلك ، فاخرج قبل أن تصبح ويعلم بك الناسُ ، فقال له طرفة : اشتدّت عليك جائزتي وأحببت أن أهرب ، وأجعل لعمرو بن هند عليَّ سبيلاً كأنّي أذنبت ذنباً ، والله لا أفعل ذلك أبداً ، فلمّا أصبح أمر بحبسه ، وجاءت بكر بن وائل فقالت : قدم طرفة ، فدعا به صاحب البحرين ، فقرأ عليهم كتاب الملك ، ثم أمر بطرفة فحبس ، وتكرّم عن قتله ، وكتب إلى عمرو بن هند أن أبعث إلى عملك ، فإني غير قاتل الرجل ، فبعث إليه رجلاً من بني ثعلب يقال له : عبد بن هند بن جرذ ، واستعمله على البحرين ، وكان رجلاً شجاعاً وأمره بقتل طرفة وقتلِ ربيعة بن الحارث العبدي ، فقدمها عبد بن هند ، فقرأ عهده على أهل البحرين ولبث أيّاماً ، واجتمعت بكر بن وائل فهمّت به وكان طرفة يحضّهم ، وانتدب له رجل من عبد القيس ثمّ رجلٌ من الحواثر يقال له : أبو ريشة ، فقتله ، فقبره اليوم معروف بهجر[1] . ويقال أيضاً : إنّ الذي قتله المعلّى بن حنش العبدي ، والذي تولى قتله بيده معاوية بن مرّة الأيفلي ، حيّ من طسم وجديس[2] . .

ويقال : إن مقتله كان سنة ٥٥٢ م ، وقيل سنة ٥٦٤ م ، وقيل أيضاً سنة ٥٦٠ م . وقيل غير ذلك[3] وكان له من العمر آنذاك ستٌّ وعشرون سنة ، واستدلّ على ذلك بقول أخته في رثائه :

عددنا له ستاً وعشرين حجّةً فلمّا توفّاها استوى سيّداً ضخماً
فجعنا به لما رجونا إيابه على خير حالٍ لا وليداً ولا قحماً[4]

وقيل أيضاً : ان عمره يوم قتل كان خمساً وعشرين سنة[5] ، وقيل عشرون في بعض الروايات[6] .

(١) راجع خزانة الأدب ص ٤١٥ ـ ٤١٦ . والمعلقات السبع للزوزني ص ٢٤ ـ ٤٥ والجمهرة ص ٣٣ .
(٢) راجع الشعر والشعراء ص ١٠٤ ـ .
(٣) راجع تاريخ آداب العرب ، للرافعي ج ٣ ص ٢٢٨ ، وتاريخ آداب العربية لزيدان ص ١١٣ ج ١ وفهرس الأعلام للزركلي مجلد ٣ .
(٤) راجع العمدة ص ٧٧ .
(٥) راجع الجمهرة ص ٣٣ .
(٦) راجع الشعر والشعراء ص ١٠٥ .

تلك هي سيرة طرفة التاريخية ، كما وردت في كتب التاريخ والأدب ، أمّا سيرته الأدبية فقد حظيت بالعناية الفائقة ، وأفردت لها تلك الكتب الصفحات الطوال ، وأثنت جميعها على شاعريته ونبوغه ، وسوف نذكر هنا بعضاً ممّا سطرته تلك الصفحات ، فقد وضع ابن سلام الجمحي طرفة في عداد الطبقة الرابعة من الشعراء الجاهليين ، وبرّر ذلك بقلّة شعره في أيدي الناس ، وقال عنه : فأمّا طرفة فأشعر الناس واحدةً وهي قوله :

لخولة أطلالٌ ببُرقة ثهمد ... وقفت بها أبكي وأبكي إلى الغد

ويليها أخرى مثلها وهي :

أصحوت اليوم أمْ شاقتك هرّ ... ومن الحبّ جنونٌ مستعر

ثمّ بعد له قصائد حسان جياد[1] .

وقد عدّه صاحب العمدة من الشعراء المقلّين ، وأضاف إلى ذلك قوله : طرفة أفضل الناس واحدة عند العلماء ، وهي المعلّقة[2] .

وجاء في العقد الفريد أنّ أبا عمرو بن العلاء قال : طرفة أشعرهم واحدة يعني قصيدته :

لخولة أطلالٌ ببُرقة ثهمد

وفيها يقول :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

وأنشد هذا البيت للنبيّ ﷺ فقال : هذا من كلام النبوّة[3] .

أمّا صاحب كتاب الشعر والشعراء ، فقد عرّف طرفة بأنّه أجود الشعراء طويلة .

وجعله لبيد بن ربيعة أشعر الشعراء بعد امرىء القيس ، ونعته بابن العشرين .

وقال أبو عبيدة عنه : طرفة أجودهم واحدة ، لا يلحق بالبحور ، يعني امرأ القيس وزهير والنابغة[4] .

---

(١) طبقات الشعراء ص ٥٨ .

(٢) العمدة ص ٧٧ .

(٣) العقد الفريد ج ٦ ص ١٢ .

(٤) الشعر والشعراء ص ١٠٣ و ١٠٦ .

وقد أجمل بروكلمان فيه رأي النقاد العرب حين قال : « وفضّل النقاد العرب طرفة على سائر الشعراء بإجادته وصف الناقة في معلّقته على نحوٍ لم يسبق إليه ، ويميل بعضهم إلى عدِّه أشعر شعراء الجاهلية »[1] .

أمّا سيرته الشخصية ، فقد ذكرت كتب الأدب بعضاً منها ، وهي أن طرفة كان « آدم أزرق أوقص أفرع أكشف ، أزور الصدر متأوّل الخلق ، ويقال : إنه أخرج لسانه فإذا هو أسود كأنه لسان ظبي فأخذه بيده ثم أومأ إلى رقبته فقال : ويلٌ لهذا ممّا يجني عليه هذا ، فكان هو الذي جنى عليه فقتل »[2] .

ويقال : إنّ المتلمّس هو الذي طلب منه أن يخرج لسانه وذلك عند إنشاده قوماً من قيس ثعلبة قصيدته :

ألا أنعم صباحاً أيّها الربع وأسلم نحييك عن شحطٍ وإن لم تكلّم

فلما بلغ قوله :

وقد أتناسى الهمّ عند ادِّكاره بناجٍ عليه الصيعريّة مكدم

فقال طرفة ، وهو صبيٌّ يلعب مع الصبيان : استنوق الجمل ، ويقال : إنَّ المسيّب بن علس صاحب الأبيات ، وأنّه قال لطرفة : يا غلام اذهبْ إلى أمّك بمؤيّدة ، أي داهية ، فقال طرفة : لو عاينت فعل أمك خالياً نهاك ، فقال المسيّب : من أنت ؟ قال : طرفة بن العبد ، قال : ما أشبه اليوم بالبارحة ، يريد ما أشبه بعضكم في الشرّ ببعض[3] .

وتذكر كتب الأدب أن طرفة كان معتدّاً بنفسه متشوّفاً بها واثقاً منها مترّفعاً إلّا عن الملوك يرجوهم ويهجوهم في آن واحد ، كما كان ميّالاً إلى اللهو ومعاقرة الخمرة ، ومنفقاً ماله عليهما وعلى ملذّاته ، وصاحب شخصيةٍ واضحة تظهر بكلّ تفاصيلها في شعره ، فقد جمع إلى عبثه ومجونه حكمة الشيوخ وتفكيرهم ، وإلى فتوة الشباب وطموحاتهم قوّة الفطرة وصدق النظر .

هذه هي شخصية طرفة المتلافة المتألّمة التي رأت العمر قصيراً ، إلى الحدّ الذي يكون الحرص عليه نوعاً من التفاهة ، فانساقت تعبّ من الدنيا ما أمكن لها في حركة دائمة

---

(١) تاريخ الأدب العربي ص ٩٢ .

(٢) معجم الشعراء للمرزباني ص ٢٠٢ .

(٣) الموشح للمرزباني ص ١٠٩ .

محاولة أن تحظى منها بأكثر ممّا قسم لها من قوتٍ وزمن .

أمّا عن ديانته ، فقد عدّه لويس شيخو واحداً من شعراء النصرانية ، وفي عرفنا أنّ ذلك وهمٌ انجرّ إليه الرجل بغير سببٍ أو برهان ، فالرجل كان عريقا في جاهليته ووثنيته ، بحيث انعكست في شعره كلّ قيم الجاهلية ومفاهيمها التي لا ترتبط بأيّ سببٍ من أسباب السماء ! .

معلقة طرفه بن العبد البكري

لخَـولـة أطـلالٌ ببُـرقـةِ ثهمـد   تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليـد[1]
فـروضـة دعميٍّ، فـأكنـاه حـائـلٍ   ظللتُ بها أبكي وأبكي إلى الغد[2]
وقـوفـاً بهـا صَحبي عليَّ مـطيّهم   يقـولـون : لا تَهلِك أسىً وتجلّد[3]
كـأنّ حُـدوجَ المـالكيـة غُـدْوةً   خـلايا سفينٍ بـالنـواصف من دَدِ[4]
عـدَوليَّـةٌ أو من سفين ابن يـامـن   يجور بها المَلّاح طوراً ويهتـدي[5]
يشقُّ عبابَ الماء حيـزوَمُها بهـا   كمـا قسم التُّرب المُفـايلُ بـاليـد[6]

(١) خولة : اسم امرأة كلبية . الطلل : ما شخص من رسوم الدار . البرقة : مكان اختلط ترابه بحجارة وحصى . ثهمد : موضع . تلوح : تلمع . الوشم : غرز ظاهر اليد وغيره بإبرة . .

(٢) هذا البيت لم يرد في عدد من الروايات ، لكن الشنقيطي أورده في هامشه ، لكننا نشكُ في صحة نسبته إلى طرفة .

(٣) تفسير هذا البيت كتفسيره في قصيدة امرىء القيس التجلد : التصبر . .

(٤) الحدج : مركب من مراكب النساء . المالكية : منسوبة إلى بني مالك قبيلة من كلب .

(٥) عدولية : نسبة إلى عدولي وهي قبيلة من البحرين . ابن يامن : رجلٌ من أهلها . الجور : العدول عن الطريق . الطور : التارة .

(٦) حباب الماء : أمواجه . الحيزوم : الصدر . الفيال : ضرب من اللعب .
قال الزوزني : وهو أن يجمع التراب فيدفن فيه شيء ثم يقسم التراب نصفين ويسأل عن الدفين أيهما هو ؟ فمن أصاب قمر (ربح) ومن أخطأ قُمر (خسر) يقال : فايل هذا الرجل . إذا لعب بهذا الضرب من اللعب . .

وفي الحيِّ أحوى ينفض المَرْد شادن — مُظاهِرُ سِمطَيْ لؤلؤ وزبرجد[١]

خذولٌ تراعي ربرباً بخميلة — تناول أطرافَ البرير وترتدي[٢]

وتبسمُ عن ألمَى كأنّ مُنوِّراً — تخلَّل حُرَّ الرملِ دعص له ندِ[٣]

سقَتهُ إياةُ الشمس إلا لِثاتِه — أُسِفَّ ولم تكدم عليه بإثمِدِ[٤]

ووجهٌ كأنّ الشمس ألقتْ رداءهَا — عليه، نقيُّ اللّون لم يتخدّد[٥]

وإني لأمضي الهمّ عند احتضاره — بعوجاءَ مرقالٍ تروحُ وتغتدي[٦]

أمونٍ كألواح الإرانِ نَصَأْتُها — على لاحب كأنه ظهرُ بُرجُدُ[٧]

جُمالية وجناءَ تَردي كأنها — سفنَّجَةٌ تبري لأزعرَ أربَد[٨]

تُباري عتاقاً ناجيات وأتبعَتْ — وظيفاً وظيفاً فوق مَوْر مُعبَّد[٩]

---

(١) الأحوى : الذي فيه شفتيه سمرة وأيضاً : ظبي في لونه حوة . الشادن : الغزال الذي قوي واستغنى عن أمه . المظاهر : الذي لبس ثوباً فوق ثوب أو درعاً فوق درع أو عقداً فوق عقد . السمط : الخيط الذي نُظمت فيه الجواهر .

(٢) خذول : أي خذلت أولادها . تراعي : ترعى معه . الربربُ : القطيع من الظباء وبقر الوحش : الخميلة : رملة منبتة . أو أرض ذات شجر . البرير : ثمر الآراك . جمع بريرة . الارتداء والتردّي : لبس الرداء .

(٣) ألمى : مؤنثه لمياء : الذي يميل لون شفتيه إلى السواد . كأن منوراً يعني : إقحواناً منوراً . حرُّ كل شيء : خالصه . الدعص : الكثيب من الرمل . الجمع ادعاص . ندي : الندى يكون دون الابتلال . والمعنى ندي عليه الندى .

(٤) أياة الشمس : شعاعها . لثاتِه : مغرز أسنانه . أسِفّ : ذرّ نثر . تكدمَ : الكدم : العض . الإثمد : الكحل .

(٥) التخدُّد : التشنج والتغضن .

(٦) العوجاء : الناقة التي لا تستقيم في سيرها لفرط نشاطها . المرقال : مبالغة من مرقل من المرقال وهو بين السير والعدو .

(٧) أمونٍ : التي يؤمن عثارها . الإران : التابوت العظيم . نصأتها : زجرتها . لا حب : طريق واضح . برجد : ثوب مخطط .

(٨) جمالية : كالجمل . الوجناء : المكتنزة اللحم . تردي : تعدو . سفنّجة : نعامة . تبري : تعرض . الأزعر : القليل الشعر . الأربد : الذي لونه لون الرماد .

(٩) تباري : يُقال باريت الرجل : فعلت مثل فعله مغالباً له . العتاق : الخيول الكريمة . ناجيات : مسرعاتٍ في السير . الوظيف : ما بين الرسغ إلى الركبة . المور : الطريق . المعبّد : المذلّل .

تـربَّعت القُفّين في الشـول تـرتعي — حـدائق مَـوليٍّ الأسِـرّة أغيَـد[١]

تَـريـعُ إلى صـوت المهيب وتتّقي — بذي خُصَل روعـات أكلف مُلبِد[٢]

كـأنّ جنـاحي مضـرحيٍّ تكنّـفـا — حِفا فيه شُكا في العسيب بمسرد[٣]

فـطوراً بـه خلف الـزميـل، وتـارة — على حشف كـالشنِّ ذاوٍ مجدّد[٤]

لهـا فخـذان أكمـل النحض فيهمـا — كـأنهمـا بـابـا منيف مُمـرَّد[٥]

وطيُّ محـال كـالحنيِّ خلوفُـه — وأجـرنـةٌ لُـزّتِ بـدأيٍ منضـدّ[٦]

كـأن كِنـاسَي ضـالـة يكنُفـانهـا — وأطْـر قِسِيٍّ تحت صلب مؤيـد[٧]

لـهـا مِـرفقـان أفتـلان كـأنهـا — تـمـرُّ بسلَمَيْ دالـج متشـدِّد[٨]

---

(١) التربُّع : رعي الربيع . القفُّ : ما غلظ من الأرض وارتفع . الشـول : النوق التي جفّت ضـروعها وقلّت ألبانها . ترتعي : ترعى . المولي : الذي أصـابه الـولي وهو المـطر الثاني من أمـطار السنة . الأغيد : جميل الخلق .

(٢) الريع : الرجوع، الاهابة : صوت الإبل . الاتقاء : الحجز بين شيئين . بذي الخصل : أراد بذنب ذي خصل والخصل : جمع خصلة الشعر . الـروع : الإفزاع . الأكلف : الـذي يضرب إلى السـواد . ملبد : ذو وبرٍ متلبدٍ من البول وغيره .

(٣) المضرحيّ : الأبيض من النسور وقيل : هو العـظيم منهـا . تكنّفا : كانـا في كنفه أي في نـاحيته . الجفاف : الجانب . العسيب : عظم الذنب . المسرد : الإشفى . والجمع مسارد ومساريد .

(٤) الزميل : الرديف . الحشف : الأخلاف التي جفّ لبنها فتشنّجت أو هو الثوب الخلق . الشنّ : القربة الخلق البالية . الذوي : الذبول . مجدّد : منقطع اللبن .

(٥) النحض : اللحم . باباً منيفٍ : أي باباً قصرٍ منيف فحذف الموصول والمنيف : العالي . الممرّد : المملّس : من قولهم وجه امرد : لا شعر عليه . .

(٦) الطيُّ : طيُّ البئر . المحال : فقار الظهر . الحنيّ : القسي . الخلوق : الأضلاع . الأجرنة : جمع جران وهو باطن العنق . اللزُّ : الفم . الدأي : خـرز الظهـر والعنق . النضيد : وضـع الشيء على الشيء .

يقول الزوزني : لها فقار مطوية متراصفة متداخلة كأن الأضلاع المتصلة بها قسي ، ولهـا باطن عنق ضُمٍّ وقُرن إلى خرز عنق قد نضد بعضه على بعض .

(٧) الكناس : بيت يتخذه الوحش في أصل الشجرة . ضالـةٍ : الضال ضـرب من شجر السـدر البري . الأطر : العطف والإنئطار : الانعطاف . المؤيّد : القوي . شبّه إبطيها في السعة ببيتين من بيـوت الوحش في أصل شجرة وشبه أضلاعها بقسي معطوفة .

(٨) الأفتل : القوي الشديد . السَّلْم : الدلو . الدالج : الذي يأخذ الدلو من البئر فيفرغها في الحوض . متشدِّد : قوي .

كقنطرة الرُّوميِّ أقسم ربها لتُكْتنفنْ حتى تُشادَ بقرمد[1]
صُهابيةُ العثنون مُوجدة القرا بعيدةُ وخد الرِّجل، موَّارةُ اليد[2]
أُمِرَّتْ يداها فَتْلَ شَزْرٍ وأجنحتْ لها عضُداها في سقيف مُسنَّد[3]
جَنوحٌ دِقاقٌ عندلٌ ثم أُفرِعَتْ لها كَتِفاها في مُعالىً مُصعَّد[4]
كأن عُلوبَ النِّسع في دأياتها مواردُ من خلقاء في ظهر قَرْدَد[5]
تلاقى وأحياناً تبين كأنها بنائِقُ غُرٌّ في قميص مقدَّد[6]
وأتلعُ نهَّاض إذا صعدتْ به كسُكان بُوصِيٍّ بدَجلَةَ مُصعِد[7]
وجُمجمةٌ مثلُ العَلاةِ كأنَّما وعى الملتقى منها إلى حرف مِبرَد[8]
وخَدٌّ كقِرطاس الشآمي ومِشْفَرٌ كسِبْتِ اليماني قَدُّه لم يُجَرَّد[9]

---

(١) الرومي : أي الرجل الرومي . الكنف : الكون في نواحي الشيء . القرمد : الآجرّ . شبه الناقة في تراصف عظامها وتداخل أعضائها بقنطرة تبني لرجل رومي قد حلف صاحبها ليحاطن بها حتى ترفع .

(٢) صهابية : حمراء بلون الخمرة . العثنون : شعرات تحت اللحي الأسفل . المؤجدة : المقواة . القرا : الظهر . الوخد : الزميل . المور : الذهاب والمجيء .

(٣) الإمرار : أحكام الفتل . فتل الشزر : ما أُدير عن الصدر . الإجناح : الإمالة . المسنّد : الذي أسند بعضه إلى بعض .

(٤) الجنوح : مبالغة الجانحة . وهي التي تميل في أحد الشقين لنشاطها في السير . الدفاق : المندفقة والمسرعة في سيرها . العندل : العظيمة الرأس . الإفراغ : التعلية ، يقال : فرعت الجبل : علوته ، والمعالاة والاعلاء والتعلية : واحد والتصعيد مثلها .

(٥) علوب النسع : آثار السيور التي تشدُّ بها إحمال الرواحل . دأياتها : جنباتها . موارد : جمع مورد . وهو الماء الذي يورد . الخلقاء : الملساء ، والمعنى : من صخرة خلقاء . القردد : الأرض الغليظة الصلبة .

(٦) تلاقي : تتلاقى . تبين : تظهر . البنائق : الدخارس في القميص واحدتها بنيقة . مقلّد : مقلّم ومقطّع . المعنى أن هذه الطرق تجتمع أحياناً ، وتارة تتفرّق .

(٧) الأتلع : الطويل العنق . النهّاض : مبالغة الناهض . بوصيّ : ضرب من السفن . السكان : ذنب السفينة . المعنى : هي طويلة العنق ، فإذا رفعت عنقها أشبه ذنب السفينة في دجلة تصعد .

(٨) وعي الملتقي : اجتمع الملتقي . إلى حرف مبردِ : المقصود به أنه في غاية الحسن .

(٩) المشفر للبعير بمنزلة الشفة للإنسان . السِبت : جلود البقر المدبوغة . لم يجرّدِ : أي أن شعره عليه . قال الزوزني : التجريد اضطراب القطع وتفاوته . فقد شبّه خدها في الانملاس بالقرطاس . ومشفرها بالسِبت في اللين والاستقامة في القطع .

وعينـان كـالمـاويَّتَيـن أسـتْكـنَّتـا بكهْفَيْ حجاجَي صَخرة قَلْتِ مورد(1)
طحـوران عُـوّار القـذى فتـراهمـا كمكحـولَتي مـذعـورة أُمِّ فَـرقـد(2)
وصـادقتـا سَمْـع التـوجُس للسُّـرى لهجس خَفِيٍّ أو لصـوت منـدِّد(3)
مُؤَلَّلَتـان تـعـرفُ العِتقَ فـيهـمـا كسامِعَتي شاة بحـوْمـل مُفْـرَدِ(4)
وأرْوَعُ نـبَّـاضٌ أحـذُّ مُـلمـلـمٌ كمِرداة صخر في صَفيح مُصمَّد(5)
وأعلمُ مَخـروتٌ مـن الأنف مـارنٌ عتيقٌ متى ترْجُمْ بِه الأرض تـزدَد(6)
وإنْ شئتُ لم تُرقِلْ وإن شئتُ أرقلتْ مخـافـةَ ملويٍّ من القـدِّ مُحصـد(7)
وإن شئتُ سامَى واسطَ الكور رأسُها وعـامت بضبعيها نَجـاءَ الخَفيْـدَدَ(8)
على مثلِهـا أمضي إذا قال صـاحبي ألاَ لَيتني أُفـديكَ منهـا وأفتـدي(9)
وجـاشت إليه النفسُ خـوفاً وخـالَـهُ مُصاباً ولوْ أمسى على غَير مَرصد(10)

(1) الماويّة : المرآة . الكهف : الغار. الحجاج: العظم المشرف على العين . قَلْتِ : القَلْت النقرة في الجبل يستنقع فيها الماء . الموردِ : الماء هنا .

(2) الـطرح والطحـر والدحـر : واحد . والـطحور مبـالغـة الـطاحـر . والعـوّار والقـذى : واحـد . أراد بالمكحولتين : العينين . الفرقد : ولد البقرة الوحشية .

يقول الزوزني في شرح هذا البيت : عيناها تطرحان وتبعدان القذي عن أنفسهمـا ثم شبههما بعيني بقرة وحشية لها ولدٌ وقد فزعها صائد أو غيره وعين البقرة الوحشية في هذه الحالة أحسن ما تكون .

(3) التوجُّس : التسّمَع . السُّرى : سير الليل . الهجس . الحركة . التنديد : رفع الصوت .

(4) مؤللتان : محددتان . العتق : الكرم والنجابة ومنه قولهم : الخيـل العتاق . السـامعتان : الأذنـان . حومل : اسم موضع .

(5) الأروع : الذي يرتع لكل شيء لفرط ذكائه ، النبّاض : الكثير الحركة . أحذّ : خفيف . الململم : المجتمع الخلق ، الشديد الصلب . المرداة : الصخرة التي تكسر بها الصخور . الصفيحة : الحجر العريض . المصمّد : المحكم الموثق .

(6) الأعلم : المشقوق الشفة العليا . المخروت : المثقوب . والخرت : الثقب . المـارن : ما لان من الأنف .

المعنى : لها مشفرٌ مشقوق ، ومارن أنفها مثقوب وهي متى تضرب الأرض بأنفها ورأسها ازدادت في سيرها .

(7) ترقل : تعدو . ملويّ : سوط ملويّ . محصد : محكم الفتل .

(8) المساماة : المباراة في السمو ، وهو العلو . الكور : الرحل بأداته . العـومُ : السباحـة ، ضبعيها : عضديها . النجاء : الإسراع. الخَفَيْدَد : الظليم .

(9) المعنى على مثل هذه الناقة أمضي في أسفاري .

(10) خاله : ظنّه . المرصد : الطريق .

إذا القومُ قالوا : « مَنْ فتىً ؟ » خلتُ أنني عُنيتُ، فلم أكسل ولم أتبلَّد[١]
أحلْتُ عليها بالقطيع فأجذمت وقد خَبَّ آلُ الأمعز المتوقد[٢]
فذالت كما ذالت وليدةُ مجلس تُري ربها أذيالَ سحل مُمدَّد[٣]
ولست بحَلال التلاع مخافةً ولكن متى يسترفِد القومُ أرفد[٤]
فإن تبْغِني في حلقة القوم تلقَني وإن تلتْمِسني في الحوانيت تصطْدِ[٥]
متى تأْتني أصبحك كأساً رويّةً وإن كنتَ عنها ذا غنىً فأغْنَ وازدَد[٦]
وأنْ يلتقِ الحيُّ الجميعُ تُلاقني إلى ذِروْة البيت الشريف المصمَّد[٧]
نداماي بيضٌ كالنجوم وقيْنةٌ تروحُ إلينا بين بردٍ ومُجْسَد[٨]
رحيبٌ قطابُ الجيب منها ، رقيقةٌ بجسِّ الندامى بَضةُ المتجرِّد[٩]
إذا نحنُ قُلنا أسْمعينا ، انبرَتْ لنا على رِسْلها مطروفة لمْ تَشدَّد[١٠]
إذا رجَّعتْ في صوتها خلْتَ صوتها تجاوُبَ أظْآرٍ على رُبعٍ ردي[١١]
وما زال تشرابي الخمورَ، ولذَّتي وبَيعي وإنفاقي طريفي ومُتلَدي[١٢]

---

(١) يقول : إذا القوم قالوا من يدفع الشرّ ؟ خلت إنني المراد بقولهم : فلم أكسل ولم أتبلّد . .

(٢) أحلت : أقبلتُ . القطيع : السوط . أجذمت : أسرعت . الآل : ما يرى شبه السراب طرفي النهار والسراب الأمعز المتوقد : المكان اللاهب الذي اختلطت في أرضه الحجارة بالتراب .

(٣) ذالت : تبخترت . الوليدة : صبية أو جارية . السحل الممدد : ثوب قطني أبيض طويل .

(٤) الحلّال : مبالغة الحال من الحلول . التلاع : التلعة ما ارتفع من مسيل الماء وانخفض عن الجبال . الرّفد والإرفاد : الإعانة .

(٥) البغاء : الطلب . الحانوت : بيت الخمّار .

(٦) روى الخطيب : « غانياً » بدل « ذا غنىً » .

(٧) الصمد : القصد . والفعل صمد يصمد .

(٨) الندامى : جمع الندمان وهو النديم وصفهم بالبياض تلويحاً إلى أنهم أحرار . القينة : الجارية المغنية . المجسد : الثوب المصبوغ بالزعفران . وقال بعضهم المجسد : الثوب الذي يلي الجسد .

(٩) قطابُ الجيب : مخرج الرأس منه . بضّة : ناعمة البدن . المتجرّد : التعرّي .

(١٠) اسمِعينا : أي غنينا . رِسلها : وقارتها . المطروفة : التي بها ضعف والمسترخية .

(١١) رجّعت : غرّدت . الأظآر : جمع الظئر ، أي التي لها ولد . ربع الإبل : ولد في أول النتاج . الردى : الهلاك .

(١٢) التشراب : الشرب . الطريف : المال الحديث . التليد : المال القديم الموروث . =

إلى أن تحـامتني العشيـرةُ كـلهـا ... وأُفـرِدْت إفراد البعيـر المعبَّـد(١)

رأيتُ بني غبـراءَ لا يُنكـرونـني ... ولا أهـلُ هذاك الطِّراف المُمَدَّد(٢)

ألا أيُّهـذا الزاجري أحضُرَ الـوغى ... وأن أشهدَ اللذَّات هل أنت مُخلدي (٣)

فـإن كنت لا تستطيـعُ دفـعَ منيَّتي ... فدعني أُبادرْهـا بما ملكت يـدي(٤)

ولـولا ثـلاثٌ هنَّ من لـذَّة الفتى ... وجدِّكَ لم أحفِل متى قـام عوَّدي (٥)

فمنهنَّ سبقي العـاذلات بشَـرْبـةٍ ... كُمَيْتٍ متى مـا تُعْلَ بـالماء تُزبد(٦)

وَكَـرِّي إذا نـادى المُضـافُ مُجَنَّبـاً ... كسِيـد الغَضـا، نَبَّهْتَـهُ، المتـورِّد(٧)

وتقصيرُ يوم الدَّجنِ ، والدَّجنُ مُعجِبٌ ... ببهْكنـةٍ تحت الخِبـاءِ المعمَّـد(٨)

كـأنَّ البُـرين والـدَّمـاليـجَ عُلِّقت ... على عُشَـرٍ أو خِروعٍ لم يُخَضَّـد(٩)

كـريمٌ يُـروِّي نفسـه في حيـاتـه ... ستعلم أن مُتنـا غداً أيُّنا الصدي(١٠)

أرى قبـرَ نحـامٍ بخيـلٍ بمـالِـه ... كقبـر غـويٍّ في البـطالـة مفسدِ(١١)

= يقول الزوزني : لم أزل أشرب الخمر واشتغل باللذات وبيع الأعلاق النفيسة وإتلافها حتى كأن هذه الأشياء لي بمنزلة المال المستحدث والموروث .

(١) تحامتني : تجنبتني . البعير المعبّد : المذلل المطلي بالقطران .

(٢) بني غبراء : بني الأرض . الطُراف : البيت من الأدم ، وكُني بتمديده عن عظمه . .

(٣) الوغي : أصله صوت الأبطال في الحرب ثم استعيرت للحرب ذاتها . الخلود : البقاء .

(٤) تسطيع : تخفيف تستطيع . المعنى : أن الموت لا بد منه . فلا معنى للبخل بالمال ، وترك اللذات .

(٥) الجدّ : الحظ . الحفل : المبالاة . العوّد : جمع العائد ، وهو الذي يزور المريض لدى اشتداد المرض .

(٦) العاذلات : اللائمات . شربة كميت : شربة خمر . متى ما تُعْلَ بالماء : متى صبَّ الماء عليها .

(٧) كرّي : عطفي . المضاف : الخائف والمذعور . محنّباً : المحنّب الذي في يده انحناء أو في ساقه . السِيد : الذئب . الغضى : اسم نوع من الشجر ، وذئابه أخبث الذئاب . المتورّد : الذي يطلب أن يرد الماء .

(٨) يوم الدجن : يوم تتلبد السماء بالغيوم . البهكنة : المرأة الجميلة السمينة . الطرّاف المعمّد : الخباء القائم على أعمدة .

(٩) البرين : الحلقات التي توضع في أنف الناقة . الدملج : والدملوج : المعضد . العَشر والخروع : ضربان من الشجر . التخضيد : التشذيب من الأغصان والأوراق .

(١٠) الصدي : العطشان .

(١١) نحّام : حريص. الغوي : الضال . المعنى : أرى قبر البخيل بماله كقبر الضال في ضلالته المفسد بماله .

تـرى جُثـوتَين من تـراب عليهمـا صفـائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنضَّـد[1]
أرى الموتَ يعتام الكـرام ويصطفي عقيلةَ مـال الفـاحش المتشـدِّد[2]
أرى العيش كنـزاً نـاقصـاً كـل ليلةٍ ومـا تنقُص الأيام والـدهـرُ ينفَـد[3]
لعمـرُكَ إنَّ المـوت مـا أخـطأ الفتى لكالطَول المُـرخي، وثِنياهُ بـاليد[4]
متى مـا يشأْ يـومـاً يَقُـده لحتفـه ومن يـكُ في حبـل المنيـة ينقـد[5]
فمـا لي أراني وابْنَ عمّيَ مـالكـاً متى أدنُ منـهُ ينْـأ عني ويبعُـد[6]
يـلوم، ومـا أدري عـلام يلومُـني؟ كما لامني في الحيِّ قُرطُ بنُ معبد[7]
وأيـأسَني من كـلِّ خيـرٍ طلبتُـه كـأنّـا وضعنـاه إلى رمس ملحَـد[8]
على غيـر شيءٍ قُلتـهُ غـيـر أنني نَشـدْتُ فلم أغفل حمـولَـة مَعبَـد[9]
وقـرَّبتُ بـالقُـربى وجـدَّكَ إنـه متى يـكُ أمرٍ للنكيثـة أشهد[10]
وإن أدْعَ للجُلّى أكُن مِن حُمـاتهـا وأن يأتِكَ الأعداءُ بالجَهد، أجهَد[11]
وأن يقذِفوا بالقَذع عـرضَك أسقِهم بشُرْب حياض الموت قبل التهدُّد[12]
بِـلا حـدث أحْـدَثْتُهُ وكمُحـدثٍ هجائي وقذفي بالشكاةِ ومـطردي[13]
فلو كـان مـولاي امـرءاً هـو غيـرهُ لفـرَّج كربي، أو لأنـظرني غدي[14]

---

(١) الجثوة : الكومة من التراب .
(٢) يعتام : يختار . العقائل : كرائم المال والنساء . الفاحش : البخيل .
(٣) النفاذ والنفوذ : الفناء . شبّه البقاء بكنز ينقص كل ليلة .
(٤) الطِّوَل : الحبل الذي يطوّل للدابة فترعى فيه . المرخى : المرسل . الثنيّ : الطرف .
(٥) هذا البيت لم يرد في روايتي الأعلم والخطيب .
(٦) النأي : البعد .
(٧) يلومني مالك وما أدري السبب في لومه ، يريد أن لومه ظلمٌ كما كان لوم قرط بن معبد .
(٨) الرمس : القبر . مُلحد : الحَدْتُ الرجل : جعلت له لحداً .
(٩) النشدان : طلب المفقود . الأغفال : الترك . الحمولة : الإبل التي تطيق أن يحمل عليها . معبد : أخوه . يقول : يلومني على غير شيء قلته ، وجناية جنيتها ولكنني طلبت إبل أخي ولم أتركها .
(١٠) النكيثة : المبالغة في بذل الجهد . يقال : بلغت نكيثة البعير : أي أقصى ما يطيق السير .
(١١) الجلّي : الأمر العظيم . الحماة : جمع الحامي من الحماية .
(١٢) القذع : الفحش . والقذفُ : السبُّ .
(١٣) الشكاة والشكوى والشكاية واحدة . المطرد : بمعنى الاطراد . أطردته : صيرته طريداً .
(١٤) الكرب : المكروه . أَنْظَرَ : أمهل .

ولكنَّ مـولاي امـرؤٌ هـو خـانقي على الشُّكـرِ والتَّسآل أو أنـا مُفتدِ[١]
وظُلمُ ذوي القـربى أشـدُّ مضاضـةً على المرء من وقع الحُسام المهنّد[٢]
فـذرني وخُلْقي إنني لـك شـاكـرٌ ولـو حلَّ بيتي نـائياً عنـدَ ضرغـد[٣]
فلو شـاء ربي كنتُ قيس بن خـالـد ولو شاء رَبّي كنتُ عمرو بن مرثد[٤]
فـأصبحتُ ذا مـال كثيـرٍ وزارني بَنـونَ كِـرامٌ سـادةٌ لِـمُسـوَّدِ[٥]
أنـا الرجُـلُ الضرْبُ الـذي تعرفـونه خَشـاشٌ كرأس الحيَّـة المتـوقّـدِ[٦]
فـآلَيتُ لا ينفـكُّ كشْحي بـطانـةً لعضْبٍ رقيق الشّفـرتين مهنَّـد[٧]
حُسـام إذا مـا قُمتُ منتصـراً بـه كفى العَودَ منه البدءُ ليس بمعضد[٨]
أخي ثقـة لا يَنثني عـن ضـريبـة إذا قيلَ: «مهلاً» قال حاجزهُ: «قَديْ»[٩]
إذا ابتـدر القـومُ السِّـلاح وجـدْتَني منيعـاً إذا بَلَّتْ بقـائمـة يـدي[١٠]
وَبَـرْكٍ هُجـود قـد أثـارت مخـافتي بـواديهـا أمشي بعضبٍ مُجـرَّد[١١]
فمرَّت كهـاةٌ ، ذاتُ خيفٍ، جُـلالَةٌ عقيلةُ شيـخ كـالـوَبيـلِ يَلْنـدد[١٢].

---

(١) خنقت الرجل : عصرت حلقه . التسآل : السؤال .
(٢) أشدُّ مضاضة : أشدُّ إيلاماً وتأثيراً . الحسام المهنّد : السيف القاطع .
(٣) ضرغد : جبل .
(٤) هذان سيدان من سادات العرب مذكوران بوفور المال ونجابة الأولاد وشرف النسب .
(٥) يقول الزوزني في شرح هذا البيت : « فصرتُ حينئذٍ صاحب مالٍ كثيرٍ ، وزارني بنون موصوفون بالكرم والسؤدد لرجل مسود ، يعني به نفسه . والتسويد : مصدر سودته ، فساد » .
(٦) الضرب : الخفيف اللحم . وقد شبه تيقظه وذكاء ذهنه بسرعة حركة رأس الحية .
(٧) البطانة : نقيض الظهارة . العضب : السيف القاطع .
(٨) منتصراً : منتقماً . المعضد : سيف يقطع به الشجر . والعضد : قطع الشجر .
(٩) الثني : الصرف الضريبة : ما يضرب بالسيف . قدي : حسبي . وكذلك قدني . وقد جمع الراجز هاتين الكلمتين في قوله :

قدني من نصر الخبيبين قدي .

(١٠) ابتدر : استبق . الذي لا يقهر ولا يغلب . بلَّ بالشيء : ظفر به .
(١١) البرْك : الإبل الكثيرة الباركة . هجود : جمع هاجد وهو النائم . بواديها : أوائلها .
(١٢) الكهاة والجلالة: الناقة الضخمة السمينة. الخيف : جلد الضرع وجمعه أخياف . العقيلة : كريمة المال والنساء . الوبيل : العصا الضخمة : اليلندد : الشديدة الخصومة .

يقول وقدْ تَرَّ الوظيفُ وساقُها ... ألسْتَ ترى أن قد أتيتَ بمُؤيد[1]

وقال ألاَ ماذا تَرُون بَشارب ... شديد علينا بَغيُهُ مُتعمَّد[2]

وقال : ذروهُ إنما نَفعُهُا لَهُ ... وإلا تكفُّوا قاصي البرك يزدَد[3]

فظلَّ الإماءُ يمتللْنَ حُوارَها ... ويُسعى علينا بالسديف المسرهد[4]

فإن متٌّ فانعيني بما أنا أهلُهُ ... وشُقّي عليَّ الجَيبَ يا ابنةَ معبْدِ[5]

ولاَ تَجعليني كأمْرىءٍ ليسَ هَمُّهُ ... كهمّي ولا يُغني غنائي ومَشهدي[6]

بطيءٍ عن الجُلّى سريعٍ إلى الخَنا ... ذلول بأجماع الرِّجال مُلهَّد[7]

فلو كنتُ وغْلاً في الرِّجال لَضرّني ... عداوةُ ذي الأصحاب والمُتوحِّد[8]

ولكِنْ نفى عني الرِّجالَ جراءتي ... عليهم، وإقدامي وصدقي ومَحْتِدي[9]

لَعمْرُكَ ما أمري عليَّ بغُمّة ... نهاري، ولا لَيْلي عَلَيّ بسرْمد[10]

ويَومَ حبستُ النفس عند عراكه ... حفاظاً على عوراته والتهدُّد[11]

على مَوطِنٍ يخشى الفتى عنده الرَّدى ... متى تعتركْ فيه الفرائصُ تُرعَدِ[12]

---

(١) ترّ : سقط . الوظيف : مستدقُّ الذراع والساق من الخيل والإبل . المؤيد : المصيبة العظيمة .

(٢) يقول : قال الشيخ للحاضرين : أي شيء ترون أن يُفعل بشارب خمر اشتدّ بغيهُ علينا عن تعمدٍ وقصدٍ ؟. ترون : من الرأي .

(٣) ذروه : اتركوه ، دعوه . الكفّ : المنع .

(٤) الإماء : جمع أمة ، وهنا النساء عامة . يمتللن : من الامتلال وهو جعل الشيء في الملة أي الجمر والرماد الحار . الحوار : ولد الناقة . السديف : السنام . المسرهد : المربيّ .

(٥) النعي : إشاعة خبر الموت . أهله : أي مستحقهُ . ابنة معبدِ : ابنة أخيه معبد .

(٦) أي لا تسوّي . بيني وبين رجل لا يكون همه مطلب المعالي ولا يشهد الوقائع مشهدي . الغناء : الكفاية . والمشهد في البيت بمعنى الشهود وهو الحضور .

(٧) البطء : ضدّ العجلة . الجلي : الأمر العظيم . الخنا : الفحش . التلهيد : مبالغة اللهد وهو الدفع بجمع الكف .

(٨) وَغْلاً : ضعيفاً وهنا بمعنى اللئيم . المتوحّد : المنفرد الذي لا أتباع له .

(٩) المحتد : الأصل .

(١٠) الغمّة والغم : واحد . سرمد : خالد .

(١١) العراك : القتال .

(١٢) الموطن: الموضع. الردى : الهلاك . الفرائص : جمع فريصة وهي لحمة عند مجمع الكتف ترعد عند الفزع .

وأصفـرَ مضبـوحٍ نـظرْتُ حـواره	على النار واستودعْتُهُ كفَّ مُجْمِدِ[١]
أرى الموتَ أعدادَ النُّفوس ولا أرى	بعيداً غداً ما أقرَب اليـومَ من غد[٢]
لَـعَـمْـرُكَ مـا الأيّـامُ إلَّا مُـعـارَةً	فما أسطَعْتَ مِنَ مَعْـروفها فتـزوَّد[٣]
عن المـرءِ لا تسـأَلْ وأبصـرْ قـرينَـهُ	فـإنَّ القـرينَ بـالمُقـارَنِ يقتـدي[٤]
ستُبـدي لك الأيـامُ ما كنتَ جـاهلاً	ويـأتيـك بـالأخبـارَ مَن لَم تُـزَوِّدِ[٥]
ويـأتيـك بـالأخبـار من لَم تَبـعْ لَـهُ	بتـاتاً ولَـم تضـربْ لَهُ وقت مـوعد[٦]

---

(١) مضبوح : قربته من النار حتى أثرت فيه . الحوار والمحاورة : مـراجعة الحـديث ومنه قـولهم حار : رجع .

(٢) الأعداد : جمع عد وهو الماء الذي لا تنقطع مادته ، وكلُّ أحد يرده .

قال الأصمعي : حدثني رجل من اضاخ قال : قدم علينا جرير فقلنا له : من أشعر الناس قال : الذي يقول : بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد .

(٣) أسطعت : مخففة من استطعت .

هذا البيت والذي يليه لم يردا إلا في رواية الخطيب ويقال إنهما لعدي بن دريد .

(٤) ويروي صدر البيت : « عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينه » .

(٥) يقول :

ستـطلعـك الأيـام على مـا تغفـل عنـه ۔۔۔ وسينقـل إليـك الأخبـار من لم تـزوده.

(٦) باع : قد يكون في هذا البيت بمعنى : اشترى . البتات : كسـاء المسافر وأداته . لم تضرب له : أي لم تبين له . كقوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ .

تحليل المعلقة

هذه هي معلّقة طرفة بن العبد التي نكاد نلمح فيها سيرة الرجل الشخصية ، تلك السيرة التي تضمّنت آراءه وسلوكه ومفاهيمه للحياة والوجود ، فهي ليست ردّاً على اعتقاد من ذكر أنّ سبب نظمها يعود لخلاف جرى بينه وبين أخيه إثر إهماله لإبله ، وقول أخيه له : ترى إن أخذت تردّها بشعرك هذا ؟ وإجابته له : سوف تعلم أن شعري سيردّها إن أخذت[1] بل هي في نظرنا أكبر من هذا السبب وأبعد لأن المتمعّن فيها يلمح أنها ليست حصيلة حادثة طارئة أو نتيجة تفجّر عاطفةٍ آنيّة مفاجئة ولكنها في الحقيقة وليدة فكر وعاطفة وزمن ، وليدة حدث عانى منه الشاعر طوال عمره القصير وحياته الغنيّة بالأدوار والمشاهد ، حدثٍ عاشه بكلّ أبعاده الماديّة والحسّية والوجدانية ، وانبرى يعبّر عنه في أبيات ترسمه ، وتحاول أن تصل إلى جوهره الذي تراءى له ، وأنكشف أمام بصيرته ، وراود مخيلته واعتقاده .

يبدأ طرفة بالوقوف على الأطلال ، ولكنه وقوف قصير يكاد يمثّل نفسيّة الرجل التي لا تقبل الهدوء والسكون ، وتحاول أن تمسك بالزمن وحتى اللحظات قبل أن تتفلّت أو تتلاشى ، فهو عند طرفة غير وقوف امرىء القيس بل ومختلفٌ عنه، ولعلّ ذلك يعود إلى اختلاف كلٍّ منهما في الطبيعة والنهج الذي يصل بهما إلى المتع الحسّيّة ، تلك المتعٍ التي كانت عند امرىء القيس غايةً في حدّ ذاتها، وكانت عند طرفة عابرة غير مستقرّة، كحياته التي لم تعرف الهدوء والاستقرار، ولذا فإننا نرى طرفة يختطف الحديث عنها وينتقل إلى حديث آخر ، حديث عن الناقة ، نلمح فيه إطالةً وامتداداً وطول أناة ، وهذا ما لم نتعوّده من طرفة

---

(١) راجع تاريخ آداب العرب ، للرافعي ص ٢٢٩ .

الذي لا يكاد يثبت أو يستقر ، أو نعهده فيه ، ولذلك وجب علينا أن نفسّره ونردّه إلى تلك الأسباب التي جعلت طرفة مرتبطاً بالإبل منذ الصغر ، فضلاً عن ارتباطه بها في سفره الدائم وحركته التي لا تكاد تنقطع ، وهذا الارتباط الوثيق هو الذي جعل طرفة يستقري كلّ أوصاف الناقة ، ويتتبعها واحداً واحداً مستعيراً لها كلّ ما استقرّ في ذاكرته ، من صورٍ عنها ، وتصوّرته العين عند الاستحضار من مشاهد وأشياء، ولم يغادر فيها أيّ صغيرة أو كبيرة إلاّ ورسمه بريشة فنان بارع ولوّنه بألوان زاهية نلمح فيها كلّ الحضور والحبّ والابداع . . . ولِمَ لا يفعل طرفة ذلك ، وهو الذي تعلّق بناقته تعلّق الصديق والرفيق ، وولّدت بينهما العشرة تآلفاً متبادلاً شدّت أواصره طبيعة الحياة وظروفها آنذاك ، فالناقة بالنسبة لطرفة وغير طرفة ، هي كالحصان ، وسيلة تصل بصاحب الحاجة إلى حاجته ، فضلاً عن توفيرها الأمن والغذاء له ، ولذلك كانت العلاقة حميمة بينهما ، ودائمة ما شاء لها الإنسان أن تدوم .

فلا غرو بعد ذلك أن يقبل طرفة على وصف الناقة ، ويقف عند كلّ عضوٍ فيها وقفة المتأمّل العارف ، ويرسم لها لوحّة تراعي أدقّ التفاصيل فهي سفينة الصحراء القويّة النشيطة التي تحمل الأحباب إلى مضاربهم ، والأماني إلى مراتعها ، وتشق رمال الصحراء كما تشق السفينة أمواج البحر بقوة ، في مأمنٍ من العثار ، وطريقها واضح بيِّنُ المعالم ، وهي كالجمل في وثاقة الخلق واكتناز اللحم ، لأنها رعت أكلاء الربيع ، وكالنعامة في سرعة عدوها وإرقالها ، ذنبها كجانحيّ النسر ، وفخذاها كبابيّ صرحٍ ممرّد ، وإبطاها واسعان كبيتين من بيوت الظّباء في أصول شجر الضال ، ومرفقاها شديدان قوّيان مرتفعان كأنهما قنطرة روميٍّ مجصّصة بالآجر ، وعنقها طويلٌ أتلع كأنه ذنب سفينة تجري في مياه دجلة ، أمّا عيناها فهما أشبه بمغارتين حفرتا في صخر جبل منيع ، وهكذا يمضي طرفة في وصفه لها ، فلا يدع عضواً فيها إلا ويقارنه بما وقعت عليه العين من صورٍ حسّيّة ماديّة ممزوجة بالحبّ والدفء والارتياح ، ولا ينسى أن يتطرق إلى غير أوصافها الظاهرة ، فنراه يخصّ خصالها وطبائعها بوصفٍ نلمح فيه رهافة الحسّ ودقة التأمل وبعيد المعرفة والاتقان ، وهذا الوصف للناقة ، وبتلك اللغة القوية التي تتطلب منّا عودةً إلى معاجم اللغة حتى نصل إلى فهمها وإدراكها ، حمل بعض النقاد على اعتبار أن هذه الأوصاف من عمل علماء اللغة لأنها لا تتآلف في الشعر الذي وردت فيه مع بقية الشعر الذي حملته إلينا المعلقة[1] .

---

(١) راجع طه حسين ـ في الأدب الجاهلي ص ٢٢٩ ، كذلك راجع تاريخ آداب العرب ، للرافعي ص ٢٢٨ ج ٣ .

وهذا الشك عند هؤلاء ، لا يؤيّده أيُّ دليل سوى صعوبة اللغة ، ولذا يبدو ضعيفاً وواهياً ، لأن هناك قصائد جاهلية بل وغير جاهلية ، نجد في فهمها صعوبة ، وتلزمنا قراءتها العودة إلى المعاجم لتلك الغاية ، كما أنّ أساليب الشعراء تختلف وفق الأغراض والموضوعات ، ومن ثمّ تنعت بالجزالة والسهولة تبعاً لذلك ، كما يجب علينا أن لا ننسى حادثة طرفة مع المسيّب بن علس أو خاله المتلمّس ، وقوله : « استنوق الجمل » تلك الحادثة التي إن صحّت وثبتت ، فإنّها تؤكّد أن ما جاء على لسان طرفة أصيل ، وليس بدخيلٍ منتحل .

وينتقل طرفة بعد وصفه للناقة إلى وصف نفسه ورسم خلاله ومزاياه ، فإذا هو كريمٌ شجاع يخالط الناس ويقيم معهم ، يقري الضيف ، ويجابه الأعداء ، وقسّم وقته بين جدٍّ وعمل ولهوٍ وراحة وعظيم وبسيط .

فإن تبغني في حلقة القوم تلقني وإن تقتنصني في الحوانيت تصطدِ

تلك هي حياة طرفة ، حياة خاصة به ، ترفض معايير زمانها ، ولا تقبل إلّا ما ارتآه طرفة لها ، إقبالٌ على اللذّة واللهو والخمر والقيان ، وإسراف إلى حدّ التبذير والاتلاف لكلّ ما يملك من طريفٍ وتالد ، ولكنّ كلّ ذلك عنده مصحوب بمعادلةٍ أخرى ، هي معادلة القوة والشرف والمنعة ، فلا يرضى قط أن يتنازل عن إبائه ، أو يتهاون عن نصرة قومه والدفاع عنهم ، ولذا نراه يرسم خطّه في الحياة والوجود ، ويبرّر ذلك بآراء اعتقدها ورأى صوابيتها وصلاحها :

ألا أيُّها اللائمي أحضر الوغى وأن أشهد اللذّات هل أنت مخلدي
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أُبادرْها بما ملكت يدي

إنّه يعجب من أولئك اللائمين له لاندفاعه نخوةً ولذّة ، لأن لومهم ليس له ما يبرّره إطلاقاً سواءً ارتبط ذلك اللوم بالخوف عليه أو بالحرص على مالِه، فهم في كلتا الحالتين غير قادرين على توفير الخلود له في هذه الدنيا لو ابتعد عن ساحات القتال وانصرف عن مراتع اللذّة واللهو ، فما دام لا يملك أحدٌ ردّ الموت أو دفعه ، فلم لا يبادر إلى انفاق ما في ذات اليد قبل أن يمنعه الموت المحتّمُ من انفاقه ، ومن ثم نراه بعد ذلك التفسير لحقيقة ذاته يرفع صوته ويعلن موقفه من الحياة ، وغايته من الوجود فيقول :

ولولا ثلاثٌ هنّ من عيشة الفتى وجدّك لم أحفل متى قام عوّدي

فمنهنّ سبقي العاذلات بشربة ... كميتٍ متى ما تُعلَ بالماء تزبد
وكرّي إذا نادى المضاف محنّباً ... كسيد الغضا نبّهته المتورّد
وتقصير يوم الدّجن والدّجن معجب ... ببهنكةٍ تحت الخباء المعمّد

تلك هي مفاهيم طرفة في الحياة ، شراب يسبق العواذل إليه ، وكرٌّ يؤمّن الخائفين ويغيث المستغيثين ، واستمتاع بأوقات اللهو والمتع إلى حين ، وقد راح طرفة يبث مفاهيمه تلك ، ويطبّقها قولاً وعملاً ، ويتمسّك بها إلى الحدّ الذي يجعل الحياة بدونها موتاً حقيقياً ، فالحياة في نظره لا تساوي مجرد التفكير بها ، فلماذا يحرص عليها ، ويعدّ لها ؟ وهي مهما طال أمدها فنهايتها معروفة ، موتٌ أكيد يساوي بين الغنيّ والفقير ، بين القويّ والضعيف ، بين الكريم والبخيل ، ورقدة طويلة في رمسٍ يلفّه الظلام والمجهول .

أرى قبر نحّام غويٍّ بماله ... كقبر غويٍّ في البطالة مفسد
ترى جثوتين من ترابٍ عليهما ... صفائح صمٍّ من صفيح منضد

إنّ هذا التفكير في الموت والحياة قد بدأ مبكراً عند طرفة ، ولعلّه وليد ذلك اليتم الذي أحسّ به منذ صغره ، فأصبح هاجسه الدائم ، ومعاناته المستمرة ، فإذا صحّ ذلك الشعر الذي نسب إليه في فجر صباه عن القبرة ، والذي نستشف منه نظرة مبكرة للحياة والموت ، يصبح معها كلّ ذلك الشعر الذي ورد عنهما في معلّقته أمراً متوقعاً منه ، لأنه دليل حقيقي على تلك المعاناة التي كان الموت هاجسها ، أو حدسٌ صادق يتوقع فيه أن يصيده الموت ولا يمهله طويلاً ، فالمعاناة من الشيء تنمُّ عن الاحساس بوجوده أو بقربه الملازم لذلك الوجود ، ولذا فإن آراء طرفة ليست غريبة عن طبيعته ومعتقده ، ولا عجب بعد ذلك أن تتعمّق وتتجذّر لتصل إلى هذا المستوى الشمولي الذي نحسّ به في معلّقته :

أرى العيش كنزاً ناقصاً كلّ ليلةٍ ... وما تنقُص الأيّامُ والدّهرُ ينفد
لعمرك إنّ الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطول المرخى وثنياه باليد

فتأمّل معنا تلك الصورة الرائعة التي صوّرت الحياة الإنسانية كنزاً يحرص عليه ، ومن منّا لا يعتبر حياته كما يعتبرها طرفة ، أليست الحياة عندنا ثمينة إلى الحدّ الذي يجعلنا نتمسك بها ونحرص عليها ونذبُّ عنها بما نستطيع ونملك ؟ إن طرفة لم يصوّر الحياة بالكنز إلا ليبيّن لنا مقدار المرارة العظيمة التي أحسّ بها في أعماق ذاته ، وهو ينظر إلى ذلك الكنز الثمين ، تنقصه الأيّام يوماً بعد يوم ، وتأكله السنون والدهور شيئاً فشيئاً حتى النّفاد ، أيّ

صورة أمرّ من هذه الصورة ، وأي أسىً أشدّ على النفس من هذا الأسى ، حياة تتبدّد ولا يستطيع الإنسان مهما جهد أن يمنع ذلك التبدُّد عنها ولذلك كانت الصورة التالية عند طرفة تتمةً للصورة الأولى وتكملةً لها :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى   لكالطّول المرخى وثنياه باليد

فاذهبْ أيها الإنسان أنّى شئت، واجعل الأرض نهباً لطموحك ومراميك، ولكنّك مهما ابتعدت في افكارك وأمانيك ، فإنّك لن تفلت من شركٍ نصب لك ، ومن حبلٍ قد لا تحسُّ بوجوده في بعضِ لحظاتك . ولكنّه في الحقيقة معلّقٌ بك ، مُمسِكٌ بزمامك ، مقيِّدٌ لك ، إنّه حبل الموت الطويل الذي لن يخطىء المرء مهما حاول أو عمل ، فهو مقودٌ إليه ، ولا مفلت من شراكه .

هذه هي آراء طرفة في الحياة والموت ، إنها تمثّل حكمة ناضجة من شاب حدث ، وتدلُّ « على عقلٍ حصيف وفكرٍ نيّر أكبر من عمره الزّمني ، وجمال هذه الحكمة بصدقها الشعوري ، ذلك لأنّ طرفة لم يطلقها فكراً ذهنيّة باردةً باهتة ، بل غمسها بحوضه النفسيّ المتأجج بحميّا الانفعال ، وبخاصة حينما كان يقدّ الحكمة تعقيباً على الفكرة التي يعالجها وتعليقاً ، فتأتي متوهّجة حارة قريبة من النفوس لصيقة بالقلوب لا يعوزها وضوح ولا يؤودها تعقيد »[1] .

وحكمة طرفة هذه ليست وليدة مذهب فلسفيٍّ معين اعتنقه الشاعر بل هي خطرات فكرية محورها التأمّل ، الطويل في الذات الإنسانية حياةً وصيرورة ، لأنّ المذهب الفلسفي ينتج عن البحث المنظم « وهذا يتطّلب توضيحاً للرأي وبرهنةً عليه ، ونقضاً للمخالفين »[2] . وهذه منزلة لم يصل إليها طرفة في شعره ، لأننا نراه يربط هذه الحكمة بمبرّرات تبعدها عن جوهر الفلسفة الحقيقية التي ترتفع بالوجود الإنساني وتسمو به إلى درجاتٍ من الألق الفكري المنظّم ، وطرفة لم يفعل شيئاً من ذلك ، بل ربط ذلك التأمّل بالحياة والموت بتصوّر يحطّ من قيمة الحياة الإنسانية ، ويتجه بها نحو العبث والاستهتار ، ولذا نراه نتيجة ذلك التصوّر الخاطىء لمعاني الحياة والوجود، يرمي بنفسه في تيّار الشهوات واللذّات ، وهذا الارتماء الذي أبعده عن الطريق القويم ، وأفرده عن العشيرة والقبيل ، لم

---

(١) محمد علي الهاشمي ـ طرفة بن العبد ص ١٦٦ عالم الكتب ١٩٨٠ .
(٢) أحمد أمين فجر الإسلام ص ٤٩ دار الكتاب العربي .

يكن وليد فلسفة جاهليّة سائدة ، بل هو في نظرنا كان وليد ذلـك التسيُّب والفراغ الـديني الذي يؤدي بالإنسـان إلى سلوكيّة معيّنـة أساسهـا اللامبـالاة والعبثيّة التي تبعـد الحياة عن جوهرها وأصالتها وتحوّلها إلى حياةٍ هامشيةٍ لا تعبأ بالوجود الفاعل للإنسان ، ولا تقيم وزناً لغاياته ومثله وقيمه ، ولذا ظلّت آراء طرفة خواطر وجدانية ، وتساؤلاتٍ نلقى لها مثيلاً في كلِّ زمان وعند كلّ إنسان ؟ .

ويمضي طرفة بعد ذلك ليتحدَّث عن قبيلته ، وعن ذوي القربى فيها ، أولئك الذين قلبوا له ظهر المجن ، ومنعوا عنه الرفد والعطاء ، رغم أنـه قد وهب حيـاته لهم ، ويعتبـر تصرّفهم معه بهذا الشكل نوعاً من الظلم الذي لا يمكن أن يقابل بظلم من مثله ، وهذا ما يبعث في نفسه الأسى والمرارة لأنها نفسٌ نعوّدت أن تفتك قبل أن تهدِّد ، وتقتصّ قبل أن تنذر ، وعليها الآن أن ترضى بالظلم وتسكت عليه لأنها لا تملك درءاً له ، ولا سبيـلاً إلاّ التحمُّل لتبعاته :

وظلم ذوي القـربى أشـدُّ مضـاضـة على المرء من وقع الحسـام المهنّد

ونتيجةً لهذا الظلم الممضّ ، وتعويضاً عنه ، ينتقل إلى الفخر بنفسه والإشادة ببطولته وشجاعته ونجدته ، ويلتفت إلى مزيّة خاصة من مزايا شخصيته الفريدة ، يعتزّ بها ، ويؤكّد عليها ، وهي مزيّة ليست ببعيدةٍ عن سيرة طرفة ولا غريبةً عن مفاهيمها ، وهي مزّيّة الكرم الذي بلغ حدّ الإتلاف لكلّ طارفٍ وتليد ، فـأيّ شيء يعادل كـرم طرفـة ؟ إنه كـرمٌ يجود بالمال إضافةً إلى الجود بالنفس ، وهو غاية الجود ومنتهاه ، ولذا كان البكاء واجباً على مثله ووقفاً عليه ، لأنه ليس من العدل أن يتساوى الناس في البكاء عند الموت ما دام هناك فرق بين من يموت نجدة لملهوف ، ودفاعاً عن شرفٍ وكرامة وبين من يموت ذلًّا وخضوعـاً أو يدفع إلى الموت دفعاً :

ولا تجعليني كـامـرىءٍ ليس همّـه كهمّي ولا يغني غنـائي ومشهـدي
بـطيءٍ عن الجلّى سريـع إلى الخنا ذلـول بـأجمـاع الـرجّـال مُلهّـد

بعد ذلك يعود إلى ما يشغل فكره ويكدّر عليه حياته ، يعـود إلى الموت ذلـك التّيار المتجدّد ، والنهر المتدّفق ، الذي لا بدّ من وروده اليوم أو غداً ، ولا بدّ من ترشّف كأسه حتى الثّمالة والإنتهـاء ، تلك الكأس المـرّة التي تخنق الأنفاس وتـزهق الأرواح ، وتحوّل الحركة إلى سكون أبديٍّ مطلق ، ومن ثمّ يتبع ذلك بحكمةٍ يضمّنهـا خلاصـة تجاربـه في الحياة ، ويحّملها ما اعتنقه من رأي وما ارتضاه من مذهب وقرار . . .

تلك هي معلّقة طرفة التي تبدو كغيرها من أخواتها الجاهليات ، فهي لم تخرج في موضوعاتها عن مألوفهم وتقاليدهم ، ولكنها رغم تعدّد موضوعاتها ، فإننا نستطيع أن نلمح فيها خيطاً فكرياً جامعاً لها ، وهذا الخيط هو الموت ، الذي يجعل طرفة يسرح هنا وهناك ، ولكنّه في النّهاية يشدُّه إليه ، ويجذبه دون أن يكون له رأي في ذلك الجذب البغيض الذي يمسك بطرفة جسماً وروحاً ، حتى غدا معه الإفلات شيئاً من المستحيل .

أمّا من حيث بنائها الفنّي ، فإنّها تميّزت بالصور الحسّية الصادقة التي عكست مشاعر طرفة وأحاسيسه ، وكان خياله فيها خصباً وغنياً وخلّاقاً في بعض الأحيان ، لأن صوره وإن كانت مستمدّة من واقع بيئته ، وأنها في أكثرها لم تفارق المادِّي والمحسوس ، إلّا أن طرفة أضفى عليها كثيراً من روحه وفكره وتأملاته ، فزادها بذلك حيويّة وتألّقاً وحركة ، كما استطاع أن يحكم صنعتها فبدت غير قلقة ولا نابية ، وتراءت رغم ذلك الاحكام وكأنها فيض خاطر ووليدة عفويّة وذوبان مشاعر . . .

زهير بن أبي سُلمى

هــو زهيـر بن أبي سُلمى ، واسم أبي سُلمى ، ربيعــة بن ربـاح ، بن قــرض بن الحارث بن مازن بن ثعلبة ، بن ثور بن هذمة بن لاطم بن عثمان بن عمرو بن أُدّ[1] . وقد جاء في اللسان : وليس في العرب سُلمى ـ بالضّم ـ غيره[2] . وجاء في الشعر والشعراء أن الناس ينسبونه إلى مزينة ، وإنّما نسبه في غطفـان ، وليس لهم بيت شعر ينتمـون فيه إلى مزينة إلاّ بيت كعب بن زهير وهو قوله :

هم الأصــلُ منّي حيث كنت وإنّني ... من المُـزَنيِّين المصفَّين بـالكـرم[3]

ولكن صاحب الشعر والشعراء عاد في ترجمته الثانية لـه وأصلح ما كـان قد ظنّـه ، وأعاد نسبه إلى مـزينة فقـال : هو زهيـر بن أبي سلمى ، واسم أبي سلمى ربيعة بن زيـاد المزني ، من مزينة مُضر[4] .

وأيّد صاحب خزانة الأدب الرواية الثانية في نسب زهير فقال : وكـانت محلتهم في بلاد غطفان ، فيظن الناس أنه غطفاني ، أعني زهيراً ، وهو غلط ، كذا في الاستيعاب لابن عبد البرّ ، وكأنّ هذا ردّ لما قاله ابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء[5] .

(١) راجع الأغاني الجزء التاسع ، ص ١٤٦ ، وتاريخ اليعقوبي ، ص ٢٦٢ الجزء الأول وطبقات الشعراء ص ٤٠ .

(٢) لسان العرب مادة سلم ص ٢٩٩ .

(٣) الشعر والشعراء ص ٦٩ .

(٤) الشعر والشعراء ص ٧١ .

(٥) خزانة الأدب ص ٢٧٥ .

وهو أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء ـ في الجاهلية ـ وإنما اختلف في تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه ، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة[1] . وقد ذكر ابن الأعرابي ما يلي : كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره ، كان أبوه شاعراً وخاله شاعراً وأخته سلمى شاعرة ، وابناه كعبٌ وبجير شاعرين ، وأخته الخنساء شاعرة وهي القائلة ترثيه :

وما يغني توقّي الموت شيئاً ... ولا عقد التميم ولا الغضارُ[2]

إذا لاقى منيّته فأمسى ... يساق به وقد حقّ الخدارُ

ولاقاه من الأيام بومٌ ... كما من قبل لم يخلد قدارُ[3]

وهكذا فإن زهير قد ورث الشعر من طرفيه ، وورّثه أبناءه وأحفاده من بعده[4] .

أمّا مولده فلا يعرف تأريخه ، وكلّ الذي يُعرف عنه أنه كان في مزينة في نواحي المدينة ، وأمّا إقامته فكانت في الحاجر من ديار نجد ، واستمر فيه بنوه بعد الإسلام[5] . والحاجر : اسمٌ لموضع ، وهو في لغة العرب ما يمسك بالماء من شفة الوادي[6] .

وكان أبو سلمى قد تزوّج إلى رجلٍ من بني فهر بن مرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان يقال له الغابر ، فولدت له زهيراً وأوساً[7] .

أمّا عن نشأته فلم تذكر المصادر شيئاً وافياً عنها ، وكلّ الذي ذكرته أنّه « عاش في منازل بني عبد الله بن غطفان ، وأخواله من بني مرّة الذبيانيين ، وفي كنف خاله بشامة بن الغدير ، وكان شاعراً مجيداً كما كان سيّداً ثريّاً »[8] .

ويروى أن زهيراً قد أخذ عنه الشعر ، وأنه كان « منقطعاً إليه معجباً بشعره ، وكان بشامة أحزم الناس رأياً ، فكانت غطفان إذا أرادوا أن يغزوا أتوه فاستشاروه وصدروا عن

---

(١) الأغاني الجزء التاسع ص ١٥٨ .

(٢) الغضار : كان أحدهم إذا خشي على نفسه يعلّق في عنقه خزفاً أخضر .

(٣) الأغاني ص ١٥٨ وقدار : هو قدار بن سالف : الذي يقال له أحمرُ ثمود عاقر ناقة صالح عليه السلام « لسان العرب مادة قدر ص ٨٠ » .

(٤) من أحفاده الشعراء : المضرّب بن كعب راجع خزانة الأدب ص ٣٧٥ .

(٥) فهرس الأعلام للزركلي مجلد ٣ ص ٥٢ .

(٦) راجع معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٧) شعراء النصرانية ج ٢ ص ٥٢٦ .

(٨) العصر الجاهلي ص ٣٠١ . كذلك راجع شعراء النصرانية ص ٥٥٦ .

رأيه ، فإذا رجعوا قسموا له مثل ما يقسمون لأفضلهم ، فمن أجل ذلك كثر مالـه ، فلمّا حضره الموت جعل يقسم مالـه في أهل بيتـه ، وبين بني أخوتـه ، فأتـاه زهير فقـال : يا خالاه ، لو قسمت لي من مالك ، فقـال : والله يا ابن أختي لقـد قسمت لك أفضـل ذلك وأجزله ، قال : وما هو؟ قال : شعري ورثتنيه . وقد كان زهير قبل ذلك قال الشعر ، وكان أوّل ما قاله ، فقال له زهير : الشعر شيء ما قلته ، فكيف تعتدُّ به عليَّ ؟ فقال له بشامة : ومن أين جئت بهذا الشعر ، لعلّك ترى أنّك جئت به من مُزينـة ، وقد علمت العـرب أن حصاتها وعين مائها في الشعر لهذا الحيّ من غطفان ، ثمّ لي منهم ، وقد رويته عنّي »[(١)] .

وقد ذكر صاحب العمدة أن زهيـراً « كان راويـة أوس بن حجر وكـان أوس زوج أمّ زهير »[(٢)] . فإذا صحّ أن زهيراً « روى شعر بشامـة أيضاً ، وأنّ بشـامة كـان بالمنـزلة التي وصفوا من أصالة الرأي ، فيكون زهير قد احتذاه في حكمه ، وأمثاله ، لأنه لا يعرف لشاعر جاهلي ما عرف من ذلك لزهير »[(٣)] .

وهكذا نستطيع أن نلمح من هذه الروايات المتعدّدة أن زهيراً قد نشأ في محيط يكتنفه الشعر من كلّ الجوانب ، فلا غرو بعد ذلك إذا ما رأينا زهيراً واحـداً من شعراء الجـاهليّة الأوائل ، وصاحب مذهب في الشعر له كلّ الخصائص والمميّزات .

أما غالب شعره فإنه كان في مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف ، وكان هرم أحد الأجواد المشهورين ومن شعره فيه قصيدته التي مطلعها :

صحا القلب عن سلمى وقد كان لا يسلو

قال صاحب الأغاني : هذه القصيـدة أوّل قصيدةٍ مـدح بها زهيـر هرمـاً ، ثم تتابـع بعده ، وكان هرماً حلف أن لا يمدحه زهيرٌ إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ولا يسلّم عليه إلا أعطاه ، عبداً أو وليدةً أو فرساً ، فاستحيا زهيرٌ منه ، فكان زهير إذا رآه في ملأٍ قـال : انعموا صباحاً غير هرم ، وخيركم استثنيت[(٤)] .

ويقال : إن معلّقته التي تحدث فيها طويلاً عن الحرب ، كانت أيضاً في مدح هرم بن

---

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٤٦ .

(٢) العمدة ج ١ ص ٦٨ .

(٣) تاريخ آداب العرب ص ٢٣٧ .

(٤) خزانة الأدب ص ٣٧٦ .

سنان والحارث بن عوف ، اللذين تحمّلا ديات القتلى في حرب داحس والغبراء ، التي دارت رحاها على أرض غطفان ، تلك الحرب التي أنتجت قصائد كثيرة تتحدّث عن الحرب والسلام ، فعن أبي عبيدة أنه قال : كان ورد بن حابس العبسي قتل هرم بن ضمضم المرّي ، فتشاجر عبسٌ وذبيان قبل الصلح ، وحلف حصين بن ضمضم أن لا يغسل رأسه حتّى يقتل ورد بن حابس ، أو رجلاً من بني عبس ثمّ من بني غالب ، ولم يطلع على ذلك أحد ، وقد حمل الحمالة الحارث بن عوف بن أبي حارثة ، فأقبل على رجل من بني عبس ثمّ أحد بني مخزوم ، حتى نزل بحصين بن ضمضم فقال : من أنت أيّها الرجل ؟ فقال عبسي ، قال : من أيّ بني عبس ؟ فلم يزل ينتسب حتى انتهى إلى غالب فقتله حصين ، فبلغ ذلك الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، فاشتدّ ذلك عليهما ، وبلغ بني عبس فركبوا نحو الحارث ، فلمّا بلغ الحارث ركوب بني عبس ، وما قد اشتدّ عليهم من قتل صاحبهم ، وإنما أرادت بنو عبس أن يقتلوا الحارث ، بعث إليهم بمائة من الإبل معها ابنه ، وقال للرسول : اللبنُ أحبُّ إليكم أم أنفسكم ، فأقبل الرسول حتى قال لهم ما قال : فقال الربيع بن زياد : يا قوم إنّ أخاكم قد أرسل إليكم : الإبل أحبّ إليكم أم ابنه تقتلونه ؟ فقالوا : نأخذ الإبل ونصالح قومنا ويتمّ الصلح »[1] . فقال زهير في ذلك معلّقته :

أمن أمّ أوفى دمنةٌ لم تكلّم بحومانة الدُّرّاجِ فالمتثلّمِ

وهكذا ارتبطت سيرة زهير التاريخية بسيرة تلك الحرب التي بدا فيها زهير رجلاً حكيماً مرّسته الشدائد ، وعلمته التجارب، فمضى بذمّ الحرب وأهوالها ويدعو إلى السلام ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وقد عاش زهير طويلاً حتّى قال البعض أنه أدرك الإسلام ، « وأنّ الرسول ﷺ نظر إلى زهير وله مائة سنة فقال : اللهمّ أعذني من شيطانه ، فما لاك بعد ذلك بيتاً حتى مات »[2] . إلاّ أن أكثر الروايات تذكر أنّ زهيراً مات ولم يدرك الإسلام ، وأنّه مات قبل البعثة النبويّة الكريمة بقليل ، وكان قد رأى كما يقال قبيل مماته : « أنّ آتياً أتاه فحمله إلى السماء حتى كاد يمسُّها بيده ثمّ ترك فهوى إلى الأرض ، فلمّا احتضر قصّ رؤياه على ولده كعب ، ثم قال : إنّي لا أشك أنه كائن من خبر السماء من بعدي ، فإن كان

---

(١) شرح شعر زهير بن أبي سلمى للإمام أبي العباس ثعلب ص ١٥ تحقيق . د. فخر الدين قباوة دار الآفاق ، بيروت .

(٢) المعلقات العشر وأخبار شعرائها للشنقيطي ص ٢٩ .

فتمسّكوا به ، وسارعوا إليه ، ثم توفي قبل المبعث بسنة »[1] . وقدّر البعض وفاته بين سنتي ٦٠٩ و ٦١٥ للميلاد[2] .

تلك هي مجمل سيرة زهير التاريخيـة التي اختصرتهـا كتب التاريـخ والأدب بشكل ملحوظ في الحين الذي أسهبت فيه بذكر سيرته الأدبية ، وسوف نشير هنا إلى أهم ما ذكرته تلك الكتب عنها حتى نتعرّف عن كثب على شاعر كبير من شعراء الجاهلية المشهورين ، ونبدأ هذه السيّرة بما ذكره ابن سلام في طبقاته عنها ، فقد عدّه الرجـل من شعراء الـطبقة الأولى وقال : إنّ أهل الحجاز والبادية كانوا يقدّمون زهيراً والنابغة » . وأيّد ذلك بحـديث عن ابن عباس رضي الله عنه ، ومفاده أن عمر رضي الله عنـه قال لـه : « أنشدني لأشعـر شعرائكم ، قلت : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير ، قلت : وبما كان كذلك ؟ قال : كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتّبع حوشيّـه ، ولا يمدح الـرجل إلاّ بمـا فيه » ثم أتبـع هذا الحديث بأحاديث أُخر تسند كلّها المحلّ الذي اختاره له ، فقد ذكر أنّ أهل النظر ، وهم لا شك أهل العلم والأدب ، قالوا: كان زهيراً أحكمهم شعراً وأبعدهم من سخفٍ وأجمعهم لكثيـر من المعنى في قليل المنـطق ، وأشدّهم مبـالغـة في المـدح ، وأخبـرني أبـو قيس العنبري ، ولم أر بدويّاً يزيد عليه ، عن عكرمة بن جرير قال : قلت لأبي يابَه : من أشعر الناس ؟ قال : أعن أهل الجاهلية تسألني أم الإسلام ؟ قلت : ما أردت إلاّ الإسلام فإذ قد ذكرت الجاهلية ، فأخبرني عن أهلها ، قال : زهير شاعرهم »[3] .

وقد ذكرت أكثر كتب الأدب حديث ابن عباس وعمر رضي الله عنهما ، وأضافت إليه بعض التفصيلات[4] .

وعلّق أبو عبيدة على ما ذكره عمر رضي الله عنه فقال : صدق أمير المؤمنين ، ولشعره ديبـاجة إن شئت قلت شهـدٌ إن مسسته ذاب، وإن شئت قلت صخـر لو ردّيت بـه الجبال لأزالها »[5] .

وليس هذا الحديث الوحيد الذي أثر عن عمر رضي الله عنه ، فقد ذكر الجاحظ في

---

(١) خزانة الأدب للبغدادي ص ٣٧٧ .

(٢) راجع فهرس الأعلام للزركلي ج ٣ ، وتاريخ آداب العربية لجرجي زيدان ص ١٠١ الجزء الأول .

(٣) طبقات الشعراء ص ٤٠ و ٤٤ .

(٤) راجع الجمهرة ص ٢٥ والعمدة ص ٢٧٤ والعقد الفريد ج ٦ ص ١١٩ .

(٥) الجمهرة ص ٢٥ .

حديثه عن علم عمر بالشعر نقلاً عن العايش أنه قال : « ولقد أنشدوه شعراً لزهير ، وكـان لشعره مقدّماً ، فلما انتهوا إلى قوله :

وإن الحقّ مقطعه ثلاثٌ   يمينٌ أو نفارٌ أو جلاء

قال عمر كالمتعجّب من علمه بالحقوق ، وتفصيله بينها وإقامته أقسامها :

وإنّ الحق . . . يردّد البيت من التعجُّب »[1] .

وكذلك ذكر أنّ عمر رضي الله عنه ، قال لبعض ولد هرم : أنشدني بعض ما قال فيكم زهير ، فأنشده فقال : لقد كان يقول فيكم فيحسن ، فقال يا أمير المؤمنين : إنّا كنّا نعطيه فنجزل ، فقال رضي الله عنه : ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم »[2] .

كما أنّ الشعراء قدّموا زهيراً أيضاً فقد روي أن الحطيئة سُئل عنه ، وكان زهير أستاذاً له ، فقال : ما رأيت مثله في تكفّيه على أكناف القوافي وأخذه بأعنّتها حيث شاء من اختلاف معانيها امتداحاً وذمّاً »[3] .

وقال أبو عبيدة : يقول من فضّل زهيراً على جميع الشعراء : إنّه أمدح القوم وأشدهم أسر شعر »[4] .

وقال ثعلب وهو ممّن قدّم زهيراً وشرح ديوانه : كان أحسنهم شعراً وأشدّهم مبالغةً في المدح وأكثرهم أمثالاً في الشعر »[5] .

وقد أشاد أكثر النقاد بمذهب زهير في الشعر ، لأنه مذهب حوّل الشعر إلى صنعة تتطلّب كثيراً من الخبرة والرويّة والدراية ، وهذه الصنعة لم تخرج به عن العفوية والصدق في المشاعر فهي ليست تكلّفاً لأن هدفها الاتقان والتهذيب وتصفية الشعر من الشوائب والسقطات ، ولذلك كان زهير يراجع شعره مراجعة طويلة ويدقق فيه النظر تهذيباً وتثقيفاً وكأنه يصوغ عقداً أو قلادة ، أو ينسج ثوباً قشيباً محلّى بالخطوط والألوان .

---

(١) البيان والتبيين الجزء الأول ص ١٣٥ .
(٢) الشعر والشعراء ص ٧٣ ج أول .
(٣) الشعر والشعراء ص ٧٣ .
(٤) الشعر والشعراء ص ٧٣ .
(٥) خزانة الأدب ص ٣٧٥ .

وقد صوّرت كتب الأدب مقدار عنايته في شعره ، وعناه الجاحظ حين قال : ومن شعراء العرب من كان يدع القصائد تمكث حولاً كريتاً[1] . وزمناً طويلاً يردّد فيها نظره ، ويقلّب فيها رأيه اتهاماً لعقله ، وتتبّعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوّله الله من نعمته »[2] .

هكذا كان زهير في شعره ، رائد مذهب التصنيع في الشعر العربي ، ذلك التصنيع الذي حلّق بالشعر وأبدع أجمل القصائد ، فإذا بالشعر يتحوّل إلى قلائد متقنة ، تشعُّ رونقاً وجمالاً ومتانة ، وهذا المذهب هو الذي جعل النقّاد يعدّون زهيراً ومن نهج نهجه « عبيد الشعر » فكان الأصمعيُّ يقول : « زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر »[3] لأنهم نقّحوه ولم يذهبوا به مذهب المطبوعين ، وكان زهير يسمّي كبرى قصائده الحوليّات .

وروي أيضاً « أن زهيراً كان ينظم القصيدة في شهر وينقّحها ويهذّبها في سنة ، وكانت تسمّى قصائده حوليات زهير ، وقد أشار إليها زهير في قوله من قصيدة :

هذا زهيرك لا زهير مزينة ... وأخاك لا هرماً على علاّته

دعه وحوليّاته ثم استمع ... لزهير عصرك حسن ليلياته[4].

لقد صفّى زهير شعره ونقحه وأحسن اختيار ألفاظه ، وتصرّف بها تصرّف المالك القادر فألقت إليه عصا الترحال ، ومزجها في ذوقه وحسّه المطبوع فتحوّلت إلى نسيج خاص يحمل طابع زهير وفرادته .

أمّا سيرته الشخصية ، فبإمكاننا أن نرسمها من خلال شعره الذي حمل إلينا كثيراً من تفاصيلها ، فهو على ما يبدو كان رجلاً وقوراً نبيلاً ذا صدرٍ رحب وأخلاقٍ فاضلة ، بدليل خلو شعره من الفحش والتعهُّر ، كما كان في سعة من العيش يزينها ورعٌ وحصافة رأي وبعد نظر ، فقد أكثر الرجل من ذمّ الحرب التي لا تخلّف إلّا العداوة والبغضاء والآفات والشرور وزيّن للناس السلام الذي يحقق الأمن والدّعة والرخاء ، وكثرت الحكمة والأمثال في شعره ، فبدا من خلالهما رجلاً غنيّ التجارب واسع الخبرات صادق التوقّع ، حلب الدهور

---

(١) كريتاً : كاملاً .

(٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ٤ .

(٣) البيات والتبيين ج ٢ ص ٦ .

(٤) خزانة الأدب ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧ .

شطرها وعارك الأيام صروفها فغدا بذلك نافذ البصيرة ورداً وإصداراً يرجع إليه في كلّ الأمور ليحكم ويفصل ويأمر وينهى ، فيسمعُ له ويطاع ، وقد أشارت بعض الروايات إلى أنه كان من الأحناف ، الذين يتألّهون ويتعففون في شعرهم وأقوالهم[1] . ويدلُّ شعره على إيمانه بالبعث والحساب فمن ذلك قوله في معلّقته :

فلا تكتمنّ الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يُكتم الله يعلمِ

يؤخَّر فيودعْ في كتابٍ فيدَّخر ليوم الحساب أو يعجَّل فينقم

وقد ذكر أبو عبيدة عن قتيبة بن شبيب بن العوام بن زهير عن آبائه الذين أدركوا بجيراً وكعباً ابني زهير ، قال : كان أبي من مترهّبة العرب ، وكان يقول : لولا أن تفنّدون ، لسجدت للذي يُحيي هذه بعد موتها ، قال : ثم إنّ زهيراً رأى قبل موته بسنة في نومه كأنّه رفع إلى السماء حتى كاد أن يمسّ السماء بيده ، ثمّ انقطعت به الحبال ، فدعا بنيه فقال : يا بنيّ رأيت كذا وكذا ، وأنّه سيكون بعدي أمر يعلو من اتبعه ويفلح ، فخذوا بحظكم منه ، ثم لم يعش إلّا يسيراً حتى هلك ، ولم يحل الحول حتى بعث رسول الله ﷺ »[2] .

وهكذا يبدو زهير في سيرته وأشعاره واحداً من الذين فكّروا في الموت والحياة ، وأمعنوا النظر في الخلق والوجود ، وفارقوا نتيجة لذلك دين آبائهم ، أو شكوا فيه ، وحاولوا أن يكوّنوا لأنفسهم معتقداً بعيداً عن معتقد الجاهلية ، وقريباً من أسباب السماء .

أما سائر ولد زهير فكان من امرأةٍ من بني سُحيم ، غير أُمّ أوفى التي ذكرها في معلّقته ، لأن أم أوفى « ولدت منه أولاداً ماتوا ، ثم تزوّج بعد ذلك امرأة أخرى ، وهي أم بنيه كعب وبجير ، فغارت من ذلك وآذته فطلّقها ثم ندم فقال :

لعمرك والخطوب مغيّراتٌ وفي طول المعاشرة التقالي

لقد باليت مطعن أمّ أوفى ولكن أمّ أوفى لا تبالي[3]

ذلك هو زهير تاريخاً وأدباً وسيرةً ذاتية ، إنسان استطاع أن يوازن بين قلبه وعقله ، في عصرٍ كانت العاطفة الجامحة هي المسيطرة على كلّ قولٍ وسلوك .

---

(١) راجع الشعر والشعراء ص ٧٠ ج أول .

(٢) الجمهرة للقرشي ص ٢٦ .

(٣) شعراء النصرانية ج ٢ ص ٥٦٧ .

معلّقة زهير بن أبي سُلمى المزنيّ

أمِنْ أُمِّ أوفى دِمنــة لَم تــكلَّمِ	بـحـومـانـةِ الـدّرّاج فالمتثلّم(١)
ودارٌ لـهـا بـالـرّقمتيـن كـأنهـا	مـراجيعُ وشم في نـواشرِ مِعصم(٢)
بهـا العِينُ والآرآمُ يمشينَ خِلْفـةً	وأطـلاؤها ينهضْنَ من كـلِّ مجثم(٣)
وقفتُ بهـا من بَعـد عشـرينَ حجّـةً	فـلأياً عـرَفتُ الـدّارَ بعـدَ تَـوَهُّم(٤)
أثـافيَّ سفعـاً في مُعـرّسِ مِـرْجـلٍ	ونُؤيـا كجذْم الـحـوض لم يتثلّم(٥)
فلمَّـا عـرَفتُ الـدارَ قلتُ لـربعهـا	ألا أنْعم صباحاً أيها الرّبْع وأسلم(٦)
تبصّـر خليلي هَلْ تـرى من ظعـائن	تَحمَّلْنَ بـالعلياء من فَـوق جُـرثمُ(٧)

(١) أم أوفى : الحبيبة التي يتشبب زهير بها . الدمنة : آثار الديار التي علاها سواد البعرِ والرماد . حومانة الدرّاج والمتثلم : موضعان .

(٢) الرقمتان : حرّتان تقع إحداهما بالقرب من البصرة . والثانية بالقرب من المدينة . مراجيع : بقـايا . نواشر المعصم : عروقه : والمعصم : موضع السوار من اليد .

(٣) العين : بكسر العين . البقر الواسعات العيون . الآرام : جمع رئم وهـو الظبي الخـالص البياض . خلفة : أي يخلف بعضها بعضاً . الاطلاء : جمع الطلا وهو ولد الظبية والبقرة الوحشيـة . مجثم : مكان الجثوم .

(٤) الحجّة : السنة . اللأي : الجهد والمشقة .

(٥) الأثافي : جمع الأثفية وهي حجارة توضع عليها القدر . سفعاً : سوداً . معرس : منزل أصلاً . وقد استعير هنا لمكان الأثفية . المرجل : القدر . النؤي : نهر يحفر حول البيت ليجري فيه الماء الذي ينصب من البيت عند المطر . الجذم : بمعنى أصل .

(٦) أي داعياً لها طاب عيشك في صباحك وسلمتِ .

(٧) الظعائن : الرواحل . التحمل : الترحُّل . العلياء : الأرض المرتفعة . جرثم : ماءٌ بعينه .

جَعَلْنَ القَنانَ عن يَمينٍ، وحَزنهُ — وكم بالقنان من مُحلٍّ ومُحرِمِ[1]

علوْنَ بأنطاكيَّةٍ فوقَ عِقمةٍ — ورادٍ حواشيها مُشاكهةُ الدَّمِ[2]

ظَهَرنَ من السُّوبانِ ثُمَّ جَزعنهُ؟ — على كلِّ قينيٍّ قشيبٍ ومُفأَمِ[3]

ووَرَّكْن في السوبانِ يعلُون مَتنهُ — عليهنَّ دَلُّ الناعمِ المُتنعِّمِ[4]

بكَرْنَ بُكوراً واستحرْنَ بِسُحرةٍ — فهُنَّ ووادي الرَّسِّ كاليدِ للفمِ[5]

وفيهنْ ملهًى للصديقِ ومنظرٌ — أنيقٌ لعينِ الناظرِ المُتوسمِ[6]

كأنَّ فتاتَ العِهنِ في كلِّ منزلٍ — نزَلنَ بهِ حَبُّ الفنا لم يُحطَّمِ[7]

فلما وَرَدْنَ الماءَ زُرقاً جمامُهُ — وَضَعنَ عصيَّ الحاضرِ المُتخيِّمِ[8]

سعى ساعياً غيظ ابن مُرّةَ بعدما — تبزَّلَ ما بينَ العشيرةِ بالدَّمِ[9]

فأقسمتُ بالبيتِ الذي طاف حوله — رجالٌ بنوْهُ من قُريشٍ وجُرْهُمِ[10]

---

(١) القنان : جبلٌ لبني أسد . عن يمين : يريد الظعائن . الحَزْن : ما غلظ من الأرض . محل ومحرم : يقال حلَّ الرجل من احرامه وأحلّ . وقال الأصمعي : من له حرمة ومن لا حرمة له . وقال غيره : دخل في أشهر الحلّ ودخل في أشهر الحرام .

(٢) أنطاكية : نسبة إلى انطاكية . العقمة : كلُّ ثوب أحمر . المشاكهة : المشابهة ، والورد : الذي يضرب لونه إلى الحُمرة .
ورواه الزوزني : « علون بأنماطٍ عتاقٍ وكلّةٍ » الأنماط : ما يُبسط من صنوف الثياب . عتاق : كرام . الكلّة : السِّتر الرقيق .

(٣) السوبان : الأرض المرتفعة . وهو هنا اسم جبل . جزعن : قطعن واديه . قينيّ : نسبةً إلى القين أي الحداد الذي يصنع السيوف . قشيب : جديد . مفأم : موسع .

(٤) ورّكن : ركبن أوراك المطايا . والدلّ : والدلال والدلالة : واحد . النعمة : طيب العيش .

(٥) بكرَ : سار بكرة . استحر : سار سحراً . وادي الرّسّ : اسم وادٍ بعينه .

(٦) اللطيف : المتأنق الحسن المنظر . الأنيق : المعجب . التوسّم : التفرّس : واصله من الوسام والوسامة وهما الحسن .

(٧) الفتات : أسمٌ لما انفتّ من الشيء . العهن : الصوف المصبوغ . الفنا ، شجرٌ يثمر ثمراً أحمراً ثم يتفرق في هيئة النبق الصغار . التحطمُ : التكسرُ .

(٨) الزُرق : شدّة الصفاء . جمامه : ما اجتمع منه في البئر والحوض وغيرهما . وَضع العصي : كناية عن الإقامة . التخيُّم : بناء الخيمة .

(٩) تبزّل : بزّل : شقَّ .

(١٠) حلفت بالكعبة التي طاف حولها من بناها من القبيلتين جُرهم : قبيلة قديمة ، وقريش اسمُ لولد النضر بن كنانة .

يميناً لَنِعمَ السيّدان وُجِدتُما على كلِّ حالٍ من سَحيلٍ ومُبرمِ [1]
تداركْتُما عبساً وذُبيانَ بعدما تفانَوْا، ودَقُّوا بينهم عِطرَ مَنشمِ [2]
وقد قُلتما أنْ نُدْرِكِ السِّلمَ واسعاً بمالٍ ومعروفٍ من القولِ نسْلَمِ [3]
فأصبحتُما منها على خيرِ موطِنٍ بعيدَين فيها من عُقوقٍ ومأْثَمِ [4]
عظيمين في عُليا مَعَدٍّ هُدِيتُما وَمَنْ يستبح كَنْزاً من المجدِ يعظُمِ [5]
تُعَفَّى الكلُومُ بالمئين، فأصبحت يُنجِّمُها مَن لَيس فيها بمُجرمِ [6]
يُنجِّمُها قومٌ لقومٍ كرامةً ولم يُهريقوا بينهم مِلءَ مِحجمِ [7]
فأصبح يجري فيهمُ من تِلادِكم مغانمُ شتّى من إفالٍ مُزَنَّمِ [8]
ألَا أبلغ الأحلافَ عني رسالةً وذُبيان هل أقسمْتُمُ كلَّ مُقسمِ [9]
فلَا تكتمنَّ الله ما في نفوسكم ليخفى، ومهما يُكتم اللّهُ يعلمِ [10]

---

(١) السيدان : المقصود بهما هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذان اصلحا بين عبس وذبيان إثر حرب داحس والغبراء . سحيل ومبرم : ضعيف وقوي .

(٢) التدارك : التلافي . التفاني : التشارك في الفناء . منشم : قيل أنه اسمُ امرأةٍ عطارة اشترى قومٌ منها جفنة من العطر وتعاقدوا وتحالفوا وجعلوا آية الحلف غمس الأيدي في ذلك العطر فقاتلوا العدو الذي تحالفوا على قتاله فقتلوا عن آخرهم . فتطيّر العربُ بعطر منشم .
وقيل : بل كان عطاراً يُشترى منه ما يحنط به الموتى ، فسار المثل بعطره .

(٣) السَّلم والسِّلم : الصلح .

(٤) العقوق : العصيان . ومنها قوله ﷺ : « **لا يدخلُ الجنة عاقٌّ لأبويه** » . المأثم : الإثم .

(٥) العليا : تأنيث الأعلى . مثل الكبرى في تأنيث الأكبر . الاستباحة : وجود الشيء مباحاً . وأيضاً : الاستئصال .
والمعنى يقول الزوزني : هديتما إلى طريق الصلاح ، ومن وجد كنزاً من المجد مباحاً واستأصله عظم أمره بين الكرام .

(٦) تعفّى الكلوم : تُمحى الجروح . بالمئين : بالمئات . والمقصود هنا المئين من الإبل ينجمها : كانت الدّيات تعطي بإخراجها نجوماً .

(٧) لم يهريقوا : لم يريقوا : لم يسكبوا . محجم : آلة الحجام ، وهي صغيرة جداً .

(٨) التلاد : المال الموروث . مغانم : غنائم . إفال : جمع أفيل وهو الصغير السن من الإبل . المزنم : المعلّم بزنمة .

(٩) الاحلاف والحلفاء : الجيران . تقاسم القوم : أي تحالفوا .

(١٠) كتم : أخفى . أي لا تخفوا من الله ما تضمرون من الغدر ونقض العهد فإن الله عالمٌ بالخفيات والسرائر .

يُؤَخَّرُ فيوضع في كتاب فَيدَّخرْ ... ليوم الحساب، أو يُعجَّل فَينقم[1]

ومـا الحربُ إلّا ما علمتم وذُقتم ... وما هو عنها بالحديث المُرجَم[2]

متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً ... وَتضرَ إذا ضَرَّيتموها فَتضرمَ[3]

فتعرُكُكمْ عركَ الرَّحى بثِفالها؟ ... وَتَلْقحْ كِشافاً ثمَّ تُنتجْ فتُتئم[4]

فتُنتِجْ لكمُ غِلمان أشأمَ كلُّهم ... كأحمرِ عادٍ ثُم تُرضِعْ فتَفطِم[5]

فَتُغْلِل لكم ما لا تُغِلّ لأهلها ... قُرى بالعراق من قفيز ودرهم[6]

لَعمري لنِعمَ الحي جرَّ عليهم ... بما لا يؤاتيهم حُصَين بن ضمضم[7]

وكان طَوَى كشحاً على مُستكنَّةٍ ... فَلا هو أبداها ولم يتقدَّم[8]

وقال سأقضي حاجتي ثم أتّقي ... عَدُوِّي بألف من ورائي مُلجم[9]

فشدَّ ولم يُفزِع بُيوتاً كثيرة ... لدى حيثُ ألقَتْ رَحلَها أُم قشعم[10]

لدى أَسَدٍ شاكي السلاح، مُقذَّفٍ ... له لَبِدٌ، أظفارُهُ لم تُقَلَّم[11]

---

(١) أي يؤخر عقابه : ويرقم في كتاب فيدخر ليوم الحساب .

(٢) ذقتم : جرّبتم . الحديث المرجم : الذي يرجم فيه بالظنون .

(٣) تضرى الحرب : يشتعل أوارها . واضرمت النار : الهبتها . المعنى أنه يحثّهم على التمسك بالصلح . ويعلمهم سوء عاقبة إيقاد نار الحرب .

(٤) الثّفال : جلدٌ يوضع تحت الرحى ليقع عليه الطحين . تلقح : تحمل . الكشاف : أن تلقح النعجة في السنة مرتين . تتئم : أي تلد توأمين .

(٥) أشأم : من الشؤم . عكس اليُمن . أحمر عاد : أحمر ثمود وهو عاقر الناقة واسمه قدار بن سالف .

(٦) أغلّت الأرض : إذا كانت لها غلّة .

وتلخيص المعنى أن المضار المتولدة من هذه الحرب ، تزيد على المنافع المتولدة من هذه القري . كل هذا حثٌ منه إياهم على الاعتصام بحبل الصلح .

(٧) جرّ عليهم : جنى عليهم . حصين بن ضمضم : رجلٌ من بني ذبيان كان قد قتل أخوه هرم بن ضمضم على يد ورد بن حابس العبسي ، فلما كان الصلح بين القبيلتين استتر حصين لئلّا يطالب بالدخول في الصلح وكمن حتى ظفر بأحد العبسيين فقتله . فثارت بنو عبس ولكن الأمر استقرّ بين القبيلتين على عقل القتيل .

(٨) الكشح : منقطع الأضلاع . والكاشح المضمر العداوة في كشحه . الاستكنان : الاستتار .

(٩) ألف ملجَم : بفتح الجيم : ألف فرس ملجم .

(١٠) الشدُّ : الحملة . أمُّ قشعم : كنية المنيّة .

(١١) شاكي السلاح: أي تام السلاح . مقذَّف : أي يقذف به كثيراً إلى الوقائع . اللّبْدُ : جمع لبدة الأسد . وهي ما تلبد من شعره على منكبيه .

جريءٌ متى يُظلَمْ يُعاقِبْ بظلمه سريعاً، وإلاّ يُبدَ بالظلمَ يظلم [1]

رعوْا ظِمأهُمْ حتى إذا تَمّ أورَدوا غِماراً تفرَّى بالسلاح وبالدَّم [2]

فقضَّوْا منايا بينهم ثم أصدروا إلى كلأٍ مُسْتَوبَلٍ مُتوخّم [3]

لَعمرُكَ ما جَرَّت عليهم رماحُهُم دمَ آبْنِ نَهيكٍ أو قتيلِ المُثلَّم [4]

ولا شاركَتْ في الموت في دم نَوفَلٍ ولا وَهَبٍ منهم ولا ابنِ المُخَزَّم

فَكُلاًّ أراهُم أصبحوا يعقلونَهُ صحيحات مال، طالعاتٍ بمَخْرِم [5]

لِحَيٍّ حِلالٍ يعصِمُ الناسَ أمرُهُم إذا طَرقَتْ إحدى الليالي بمُعظم [6]

كِرامٍ فلا ذو الضِّغْنِ يُدرِكُ تَبْلَه ولا الجارمُ الجاني عليهم بمُسْلَم [7]

سَئِمْتُ تَكاليفَ الحياةِ وَمَنْ يَعِش ثمانينَ حَولاً لا أبا لَكَ يَسأم [8]

وأعلمُ عِلمَ اليومِ والأمس قبلَهُ ولكنّني عن عِلمِ ما في غدٍ عم [9]

رأيتُ المنايا خَبطَ عشواءَ، مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ، ومَنْ تُخطىء يُعَمَّرْ فَيهرم [10]

ومن لم يُصانِعْ في أُمورٍ كثيرةٍ يُضَرَّس بأنيابٍ، ويوطأْ بمنْسِم [11]

---

(١) يقول الزوزني : « وهو شجاع متى ظُلِمَ عاقب الظالم بظلمه سريعاً وإن يظلمه أحد ظلم الناس إظهاراً لغنائه وحُسن بلائه . والبيت من صفة أسد في البيت الذي قبله . وعنى به حصيناً . ثم أضرب عن قصته ورجع إلى تقبيح صورة الحرب والحثّ على الاعتصام بالصلح .

(٢) الغمار : وهو الماء الكثير . التفرّي : التشقق .

(٣) اصدروا : ضد أوردوا . مستوبلٍ متوخم : ما كان وبيلاً وخيماً .

(٤) وروي العجزُ : « دم ابن نهيك أو دم ابن الملزم » .

(٥) عقلت القتيل : وديّته وسمّيت الدية عقلاً لأنها تعقل الدم عن السفك أي تحقنه وتحبسه . المخرم : منقطع أنف الجبل والطريق فيه .

(٦) حلال جمع حال مثل صاحب وصحاب . الطروق : الإتيان ليلاً . معظم : أمر عظيمٌ .

(٧) الضغن والضغينة : ما استكنّ في القلب من عداوة . التبلُ : الحقد . الجارم : ذو الجرم . الجاني . بمسلم : بمخذول . والإسلام : الخذلان .

(٨) سئمت : مللتُ . التكاليف : المشاق والشدائد . لا أبالك : كلمة جافية لا يراد بها الجفاء ، إنما يُراد بها التنبيه والإعلام . الحول : السنة .

(٩) المعنى : قد يحيط علمي بما مضى وبما حضر ولكني عميٌّ عن الاحاطة بما هو متوقع ومنتظر .

(١٠) الخبط: الضرب باليد. العشواء : الناقة التي لا تبصر ليلاً . ويقال في المثل : خابط خبط عشواء : أي قد ركب رأسه في الضلالة .

(١١) صانع : داري. يضرس: الضرّسُ : العض على الشيء بالضرس . المنسم للبعير هو بمنزلة السنبك للفرس .

ومنْ يجعل المعروفَ من دون عِرْضه | يفِــرْهُ، ومن لا يتّقِ الشَّتْمَ يُشتـم[1]
وَمَنْ يَـكُ ذا فَضـلٍ فيبخـلْ بفضله | على قـومِـهِ يُسْتَغنَ عنـه ويُـذمم[2]
ومَنْ يُـوفِ لا يُذممْ، ومَنْ يهْـد قَلْبَه | إلى مُـطْمئنِّ البِـرِّ لا يتجمـجم[3]
وَمَنْ هـابَ أسبـابَ المنـايـا يَنَلْنـهُ | وإنْ يَـرْقَ أسبـابَ السمـاء بسُلَّم[4]
وَمَنْ يجعلِ المعروفَ في غيـر أهلهِ | يَكُن حَمْـدَهُ ذَمّـاً عليـه ، وينـدم[5]
ومن يعصِ أطـراف الـزِّجـاج فـإنـه | يُـطيع العـوالي رُكّبتْ كُلَّ لهـذَم[6]
ومن لم يـذُد عن حوضـه بسـلاحـه | يُهدّمْ ومَن لا يَظلِم النـاسَ يُظلمِ[7]
وَمَن يغتـربْ يحسب عدوًّا صـديقـه | ومن لا يُكـرِّمْ نفسَـهُ لا يكـرَّم[8]
ومهمـا تكن عند امـرىءٍ من خليقة | وإن خالها تخفى على الناس، تُعلم[9]
وكائن ترى من صـامت لك مُعجب | زيـادتُـهُ أو نقصُـه في التـكلّم[10]
لســانُ الفتى نصفٌ ونـصفٌ فـؤادُهُ | فلم يبقَ إلّا صـورةُ اللّحم والدم[11]
وإنَّ سفـاه الشيـخ لا حلم بعـده | وإن الفتى بعـد السفـاهـة يحلم[12]
سـألنـا فـأعـطيتم، وعـدنـا فعـدتم | ومن أكثـر التّسآل يـومـاً سيحرم[13]

---

(١) يريد أن من بذل معروفه صان عرضه . يفره : يحفظه لنفسه .
(٢) أي من كان ذا فضلٍ ومالٍ فيبخل به استُغني عنه وذمَّ .
(٣) يتجمجم : أي لا يتردد في الصلح .
(٤) رقي السلّم : صعد به .
(٥) أي من وضع اياديه في غير من استحقّها . وضع الذي أُحسِنَ إليه الذم موضع الحمد .
(٦) الزِّجاج : جمع زج . وهو الحديد المركّب في أسفل الرمح .
(٧) الذود : الكفّ والردعُ .
(٨) المعنى : من سافر واغترب حسب الأعداء أصدقاء لأنه لم يجربهم ، ومن لا يكـرم نفسه لم يكـرمه الناس .
(٩) الخليقة : الأخلاق .
(١٠) يقول : وكم صامت يعجبك صمته . وإنما تظهر زيادته على غيره ، أو نقصانه على غيره عند تكلمه .
(١١) هذا كقول العرب : المرء بأصغريه : قلبه ولسانه .
(١٢) الحلم : العقل . والمعنى : إذا كان الشيخ سفيهاً لم يرجع حلمه لأنه لا حال بعد الشيب إلا الموت ، والفتى : وإن كان سفيهاً أكسبه شيبه حلماً ووقاراً .
(١٣) سألنا : أي طلبنا الرفد والعطية . التسآل : السؤال .

تحليل المعلّقة

يستهلّ زهير معلّقته بالوقوف على ديار الأحبّة ، على عادة الشعراء الجاهليين التي صارت عرفاً وتقليداً ، إلاّ أن وقوف زهير هنا يختلف كلياً عن وقوف امرىء القيس ، لأنه وقوف من نوعٍ آخر حاول به الشاعر أن يسترجع ذكريات حبّه الأول ، ذلك الحبّ الذي شهد فجر صباه ، وكان ثمرته زواجٌ من أمّ أوفى ، إنّه وقوف يحمل شخصية زهير ، تلك الشخصية الوقورة التي أظهرت تفاصيل حياتها الخاصة نوعاً من الانسجام في القول والعمل ، ونوعاً من الالتزام في الخُلق والمبدأ ، ولذلك نرى زهيراً يـيمِّم وجه راحلته شطر ديار الأحبّة وفاءً لها وباحثاً فيها على مواضع الذكريات ليعاين ما تبقّى منها وما فعلته فيها يد الزمن والبوار ، ذلك الزمن الذي استطاع أن ينال من الدّيار وآثارها ، ولم يبقِ إلاَّ على أثافي ونؤيٍ وأخاديد راح الشاعر يتقرّاها واحدة واحدة ويتفقّدها تفقّد المستطلع الباحث عن شيءٍ عزيز مخبوء في جنباتها ، إلاَّ أنه لم يستطع أن يمحو من قلبه وذاكرته الوفاء والحنين لأمِّ أوفى رغم أن أمّ أوفى تنكّرت له كما تقول الروايات وأبدلته وصلاً بصدود ، وإقبالاً بجفاء ، فراح يسترضيها ويتودّد إليها في شعر نلمح فيه أخلاق زهير ومثاليته في الحبّ والعلاقات :

لعمرك والخطوب مغيّراتٌ　　　وفي طول المعاشرة التقالي

لقد باليت مطعن أمّ أوفى　　　ولكن أمُّ أوفى لا تبالي

ويمضي زهير بعد تعرّفه على ديار الأحبة واستئناسه برحابها ، رغم خلوّها من الأحبّة ، وتحوّلها إلى قفر تسرح فيه العين والآرام بعد أن كانت مسرحاً للأحبّة وملتقىً للعاشقين والمعجبين ، فيحيّي تلك الديار ويطلب لها السلامة والأمان ، وفي نفسه قول الشاعر :

ومـا حبّ الـديـار شغلن قلبي ولكن حبُّ من شغـل الـدّيـارا

ولذا نراه بعد تلك التحيّات ، يسرح في الماضي البعيد ، ذلك الماضي الذي أخذ شريطه يطل على ذاكرته ، فراح يستعرض مشاهده ويستوقف منها أمام ناظريه مشهداً لرحيل الأحبّة لم تستطع سنوات طوال من عمر الزمن أن تمحو صوره ومعـالمه ، أو تنسيـه دقائق تفاصيله ، فارتسم أمامه حيّاً بكل أبعاده الفاتنة ، تلك الأبعاد التي أشعلت في قلبـه وجداً ولوعةً ، وأثارت في نفسه تباريح هوىً وصبابةً ، فأخـذ يتتبع صـور ذلك الـرحيل ويقصّ حكاياته ، ويذكر تفاصيله ودقائقه بدءاً من انطلاقه حتى إلقائه عصا الترحال ، بصورٍ حسيّةٍ « تمرّ بك في أناةٍ وهدوء فتملأ منها عينيك ، وتفهم ما أراد الشاعر من عرضها عليك ، بل تحسّ ما أراد الشاعر أن يثير في نفسك بهذا العرض ، وهو هذا الألم الذي نجـده عندمـا يرتحل عنك من تحب ، والذي يشتدّ في نفسك ويسيطر عليها حتى تتّبع المرتحل في سفره وفي المنازل المختلفة التي ينزل فيها ، تتّبعه نفسك وأنت مقيم »[1] .

بعد هذا الوصف ينتقل الشاعر إلى موضوع آخر يشده إلى الـذي مضى رابطٌ يتجدّد في كل الموضوعات ، وهو رابط الوفاء الذي اشتملت نفس زهير عليه ، وفاء للزوجة والدّيار والصديق والقبيل والإنسان ، وهذا الموضوع هو مدح سيدين عظيمين من سادة العرب في الجاهلية ، رأى فيهما الشاعر صورة نفسه ، وجسّدا في أفعالهما كلّ أحلامه وأمانيه ، فهذان السيدان هما : الحارث بن عوف وهرم بن سنان المرّيـين اللذين استوفيا خلال الشرف في كلّ الأحوال الموجبة لها بذلاً وحزماً وبعد نظر ، فوطّدا دعائم السلام بين عبس وذبيـان ، وتحمّلا كرماً منهما ديات القتلى فحقّقا بفعلهما صورة الكرم الأصيل ، البعيد عن كلّ غايةٍ ومصلحة إلاّ غاية إحلال السلام والوئام بين الناس ، وتدعيمهما بكلّ الوسـائل التي تتيـح لهما البقاء والاستمرار ، وتوفّر بالتالي على الناس أهوال الحرب ومرارتها ، ولـذلك نـرى الشاعر بعد ذلك يشدّد على التمسك بالصلح وعدم الحنث بمواثيقه ويطالب الأحلاف بخلع الشرّ من النفوس ، لأن عاقبة الشرّ وخيمة ومن ابتدأ بالشرّ بدأ الشرُّ به .

ومن ثم ينتقل إلى الحديث عن الحرب التي تشغل عليه فكره وتقضّ مضاجعه وهـو من خـلال حديثـه عنها يحـاول أن يدخـل إلى قرارة النفـوس ليثير فيهـا جوّاً من الكـراهية والاشمئزاز لها ، وذلك عن طريق بثّ الصور المرعبة التي تجعل الحرب ناراً تلتهم الناس

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

كما تلتهب الحطب حتى يصير رماداً لا يختلف في لونه كثيراً عن لون السّواد الذي تخلّفه الحرب بين الناس حزناً وألماً ودموعاً ، كما تجعلها رحىً تطحن الحبَّ وتعمل فيه تفتيتاً وتكسيراً :

ومـا الحـرب إلاّ مـا علمتم وذقتُم	ومـا هـو عنهـا بـالحديث المـرجّم
متى تبعثـوهـا تبعثـوهـا ذميمـةً	وتضـرى إذا أضـريتمـوهـا فتُضـرَّم
فتعـرككم عـرك الـرحى بثفالهـا	وتلقـح كشـافـاً ثمّ تنتـج فتـتئم
فتنتـج لكم غلمـان أشـأم كـلُّهم	كـأحمر عـادٍ ثم تـرضـع فتفـطم
فتغلُل لكـم مـا لا تغـلُّ لأهـلهـا	قـرىً بـالعـراق من قفيـزٍ ودرهم

إنّ تصوير الحرب بهذه الصورة الحسيّة ما هو إلاّ تمثيل واعٍ لحقيقتها ، يضعه الشاعر أمام المتقاتلين بكلّ نتائجه وأبعاده ، ومن منهم لا يعرف النار والتهامها لكلّ شيء يقع فيها ، ومن منهم أيضاً لا يعرف الرّحى تلك التي تأكل وتأكل ولا تهدأ إلاّ إذا هدأت الأيدي المطعمة لها ، فما دامت الأيدي تمدّ النار والرّحى ، أي ما دام كلٌّ من الفريقين يسعران نار الحرب ويضرمان جذوتها ، فإن النار والرحى ستظلان في عمل مستمر وطحن مستمر ، طحن يكون وقوده الأنفس والأموال فضلاً عن الحزن والألم والتشريد والدّمار .

إنَّ زهيراً عن طريق هذه الصور الحسيّة البسيطة ، يحاول أن يقرّب صورة الحرب من العقول كي يطفىء جذوتها ، لأن السلام فعل العقل المستنير الناضج ، والحرب فعل العاطفة الغاضبة الجامحة ، وهو هنا يحاول أن يخاطب العقول إقناعاً لها بضرورة السلام عن طريق إبراز مساوىء الحرب بصورٍ واضحة مجسّمة ، صور تدرك الحواس أثرها ، وتعرف نتائجها لسعاً وقتلاً وتفتيتاً ، ومن ثم نراه بعد ذلك يحاول أن يزيّن للناس السلام عن طريق المقارنة بين النتائج ، فالحرب لا تنتج إلاّ بالشرّ والويلات مثلها كمثل الناقة التي تلقح ومن بعد تلد ، ورغم أن هناك زمناً بين فترة الحمل والولادة ، إلاّ أن هذا الزمن لا يعرف في شريعة الحرب هدوءاً ولا سكينة ، لأنه فترة الاستعداد التي تتضخّم عداوة وإعداداً وغيظاً ، وتنفرج بعد ذلك عن ولادة مشؤومة مضاعفة بالآلام والأهوال والمصائب ، تجرُّ وراءها اليتم والتشريد والفاقة ، إنّ هذا التمثيل الرائع الذي يشبه الحرب بالأمومة الفاجرة التي تلقي أبنائها في أحضان الشرّ والبؤس ، ويحوّل الأطفال وهم رمز السعادة ومصدرها إلى مصادر الشؤم والتعاسة ، لأن ولادتهم ترافقت مع قتل آبائهم في ساحات الحروب ، لهو تمثيل يرمي الشاعر من خلاله إلى تحريك الضمائر الإنسانية بأنجع الطرق

المثيرة للعواطف ، وإلى تصوير مضار الحرب بأقرب الصور التي تثير في النفوس الخوف والجزع وتجعلها تنتفض مذهولة أمام يقظة الضمير والمشاعر ، فالحرب ، لا تجرُّ إلاَّ الحرب ، ولا تغلّ إلاَّ الأحقاد والضغائن ، بينما السلام يغلّ الأمان وينتج الخير والسعة والربح . هذه هي نتيجة السلام رسمها الشاعر على سبيل التهكّم محاولاً فيها عن طريق إبراز المتناقضات وتجسيمها أن يصل إلى إقناع العقول بضرورة السلام وعميم فائدته .

إلاَّ أن تهكُّم زهير في رسمه لنتيجة السلام ليس سخرية وهزءاً ، بل هو نهاية الألم من أجل الإنسان الذي يعذّب نفسه بيديه ، وبإمكانه فيهما أن يبني الحياة والسلام .

إنَّ حديث زهير عن السلام في ذلك الزمن ، زمن القوة التيَّاهة والعنجهيَّة الفارغة والمباهاة بالفروسيّة والقتل والسبي ، والذي كان يعتبر الحديث آنذاك عنه ضعفاً ، يدلُّ على أن زهيراً قد أحسّ بقيمة الوجود الإنساني ، ذلك الوجود الذي لا يستقر ولا يتدعّم إلاَّ في ظلالٍ من الأمن والمحبة والتفاهم ، وهذه الظلال لا يوفّرها إلاَّ السلام ، ولذلك نذر نفسه له ، وعمل جهده عن طريق إيقاظ الضمير والعقل كي يتوصّل إلى زرع بذوره في النفوس واقتلاع الشرور منها حتى يمتلىء الوجود سعادة ، وحتى يستشعر الإنسان في حياته القصيرة لذّة السلام وراحة الأمان .

بعد ذلك ينتقل زهير إلى الحديث عن ذلك الرجل الذي رفض الصلح بين عبس وذبيان ، وأضمر الانتقام لمقتل أخيه ففعل ، وكاد بفعله أن يقوّض دعائم السلام لولا تدارك ذانك الشيخين الحكيمين للأمر وافتداء السلام بما أمكن من مالٍ ونفوذ ، ونرى زهير هنا يعود ليرسم للحرب صورة أخرى لا تقلّ أبعاداً عمّا تقدّم لها فيقول :

رعوا ظمأهم حتى إذا تمّ أوردوا غماراً تفرّى بالسّلاح وبالدّم
فقضّوا منايا بينهم ثمّ أصدروا إلى كلإٍ مستوبلٍ مستوخم

هذه الصورة الجديدة للحرب التي يصوّر فيها معارك القوم المتتالية التي لم تكن الراحة فيها إلاَّ استعداداً لمعركة أخرى ، وذلك عن طريق تشبيهات حسيّة تحمل كلّ معاني الرمز ودلالاته ، فالرعاء رمز للأمان والخصب والدّعة والحياة ، وكذلك الورد والكلأ ، إلاَّ أن الحرب قد سلبت هذه الرموز معانيها الخيّرة ، وجرّدتها من دلالاتها الأصيلة لها فتحوّلت إلى أدوات تخدم الحرب وتسير في فلكها العام .

لقد استطاع زهير في هذين البيتين من الشعر أن يرسم صورة الحرب الحقيقية بكل

أبعادها المأساوية الخانقة ، تلك الصورة التي لا تختلف عن صورة الطحن الذي لا يوفّر كل المتناقضات والأشكال المتنافرة ويوظفها في زمن الحرب لصالح الحرب وخدمتها ، ولذلك نرى زهير يتأسف على مكوّنات المجتمع الإنساني كيف تقضمها الحرب شيئاً فشيئاً بل ويتعجّب من ذلك الإنسان الذي يبني ويهيىء ويلد من أجل الموت والخراب .

بعد هذا الحديث المستفيض عن الحرب وتجسيدها بذلك الأسلوب الذي يجعلنا نحسُّ فيه بجسامتها ، والذي يحاول زهير من خلاله أن يأخذ بأيدي الناس إلى ما فيه صالحهم وخيرهم ، يعود فينتقل إلى حديث آخر مرتبط فيه ولا يقلّ عنه أهمية وبعداً ، لأنه حديث مليء بالحكمة والنصيحة وخلاصة التجارب ، فكما نفَّر زهير الناس من الحرب وزيّن إليهم السلام نراه هنا يحاول أن يدخل إلى العقول عن طريق الاستنتاجات التي تمثّل ثمرة خبرة طويلة في الناس والأيام ، ولذلك نراه يتحدّث عن الحياة حديثاً مليئاً بالسأم والملل والضجر منها ، فقد عاين فيها كثيراً من الأهوال والغير ورأى فيها طغيان المادّة على كلّ ما هو سامٍ ونبيل ، وسأم زهير هنا ليس هروباً من الحياة وبرماً منها بوجهٍ عام ، ولكنه سأم من ذلك الجانب السلبي الذي طبع الحياة بطابعه ، وحوّلها إلى حياةٍ مملّة مليئة بالأشواك والآلام والدموع ، أليست الحرب وأهوالها دليلاً على ذلك الجانب السلبي المظلم فيها ؟ أليس التسارع على الشرور والتسابق على المصالح والتقاتل على أتفه الأشياء من الجوانب المحطّة لشرف الحياة وقدسيتها ؟ أليس رفض الاحتكام إلى العقل والأخذ بالنصائح والعمل على وأد الفتن من الأسباب التي تثبط الهمم وتزرع اليأس والسأم في النفوس ؟ ألا يكفي الحياة برماً ذلك الموت المحدق بها والقابض على أنفاسها حتى نمنع عنها لحظات قصيرة من الأمان والهناء والسعادة ؟

إنَّ لزهير كلُّ الحق في أن يتململ من تلك الحياة التي وجد نفسه غريباً فيها ، فهو يرفض أن ترتبط الحياة بمعايير القوّة والاستبداد والطغيان ، يرفض أن تقتصر الحياة على السلب والنهب والقتل والدمار ، يرفض أن يسيطر الشرُّ عليها ويطمس الجانب الخيّر والمضيء فيها ، إن سأم زهير كان من أجل الإنسان الذي امتهن في عصره ، وتحوّل إلى ألعوبة أو أداة مسيّرة في يد الشرّ والمضرمين لناره ، لذلك كان زهير محقّاً في سأمه ، وأيّ عظيم ومفكّرٍ أو مصلح لم ينتابه السأم في حياته ، فلولا « السأم الذي لازم كبار المفكّرين لما تحوّلت الحياة عن خطّها الغوغائي ، ولما أوتي لها أن تتفتق على جمال الرؤى الصاحية »[1] .

---

(١) الفرد خوري : زهير بن أبي سلمى ص ٧٩ .

إن سأم زهير إذاً لم يكن نزوة عابرة ، أو هروباً من واقعٍ مرّ مرفوض ، بل هو يمثل ثورة إيجابية تحمل معول الهدم لذلك الواقع الفاسد وتحاول أن ترسي الحياة على قواعد خيّرة تساهم في بناء المجتمع والإنسان ولذلك نرى زهيراً يتبع حديثه عن السأم بحديث يحاول فيه أن يصوغ دستوراً للعلاقات بين بني البشر ، دستوراً يحمّله خبراته الطويلة التي استقاها من التأمل العميق في الناس والأيام ، وزهير حين يفعل ذلك ، إنّما يفعله بدافع الحرص الشديد على الإنسان الذي أحبّ والوجود الذي تصوّر وأراد ، ولذلك كان حديث زهير نابعاً من أصيل طباعه وسجاياه الخيّرة ، ويمثل الفكر الذي آمن به ووهب له القول والحياة .

إنّ تلك الحكم والمواعظ والأمثال التي اختتم بها زهير معلّقته هي ذلك الدستور الذي أراد زهير أن يبثّه بين الناس ، عن طريق مخاطبة العقل مخاطبة مقنعة ، وهي في مجملها رغم وضوح استقلاليتها لم تخرج عن ذلك الخط الذي أسميناه دستوراً والذي أراد له زهير أن ينتشر عن طريق الإيصال المبنيّ على مخاطبة العقل مخاطبة مباشرة ، لأنّ الغاية كانت هي الاقناع ، والاقناع كما نعلم سبيله الوحيد هو العقل ، ولذا فإننا نرى غياباً واضحاً لعنصر العاطفة وحرارتها ، وهذا ما جعل كلّ تلك الحكم والأمثال تبدو وكأنها موضوعات مستقلة أو أبنية متجاورة لا رابط بينها إلاّ ذلك الرابط الذي يحاول إيصالها إلى العقل .

إنّ غياب تلك الومضات الوجدانية ، وسيطرة الفكر سيطرة مطلقة على تلك الحكم والأمثال حوّلها إلى مجرد نصائح وألبسها ثوباً عقلياً قد يعجبنا وقد يقنعنا ، إلاّ أنه لا يرضي فينا ذلك التكامل الإنساني الذي جعل الإنسان من روح وجسد من عقلٍ وعاطفة ، فزهير لم يستطع أن يحوّل حكمه التي حمّلها خبراته وتجاربه إلى زفراتٍ وآهاتٍ تتردّد على الألسن كلّما اعترضت سبل الناس مصاعب الدنيا وهموم الحياة ، ولذلك ظلّت بناءً عقلياً لم يصل إلى مستوى تلك الحكم التي جاءت على لسان المتنبي في شعره ، تلك الحكم التي نراها تنبعث من أعماق النفس مثقلةً بهموم الإنسان وطموحاته وتتدّفق في زخمٍ عظيمٍ يحمل ألق الفكر ودفء العاطفة .

لقد استطاع زهير في شعره الحكمي أن يزيح الستار المضروب على العقل العربي بفعل التقاليد والعصبيات ، وأن يضع العقل العربي على طريق التحرّر والتملّص من البداءة والسذاجة المطبقتين عليه ، ولذلك نراه في ختام معلّقته يتحدّث عن الإنسان وعن العقل الذي هو جوهره ، فالإنسان في نظره ليس جسداً ومظهراً بل هو عقل يفكر ويخطط وينشر

الوعي والخير بين الناس ، ولذلك ظلّت حكمه قاصرةً عن إحداث ذلك الوهج الذي يلفح وجودنا بدفئه والذي نحسّ به من خلال ترديدنا لحكم المتنبي التي فهمت جوهر الإنسان ووازنت بين عقله وميوله .

ومهما يكن الأمر ، « فإن العربية الجاهلية لا تعرف شاعراً أوغل في الحكمة والموعظة والمثل مثل ما صنع زهير ، ولا شاعراً فاض شعوره الإنساني وكان داعية سلمٍ وبشير خيرٍ مثل ما كان زهير »[1] .

تلك هي معلّقة زهيرٍ كغيرها من المعلّقات، موضوعات متعدّدة تتجاور وتتقارب ، ولكنها لا تتحد ولا تترابط ، ورغم ذلك كله فإننا نستطيع أن نلمح فيها خيطاً يشدّها إلى بعضها البعض ، هذا الخيط في نظرنا هو العقل الناضح بالحكمة والنصيحة ، والذي يصوغ التجارب والخبرات ، في شعر تبدو عليه آثار الصنعة بوضوح وجلاء .

أمّا أسلوب زهير فليس غريباً قطّ عن شخصيته الوقورة ، وقديماً قيل : إنّ الأسلوب هو الرجل نفسه ، ولم يكن أسلوب زهير مغايراً لشخصيته تلك ، بل كان يمثّلها خير تمثيل ، فهو يمتاز بالرصانة والرّوية والتخيّر الجاد للألفاظ ، ذلك التخيُّر الذي يدلّ على فائق العناية التي كان يوليها زهير شعره مراجعةً وتنقيحاً وتلويناً بالتشابيه والاستعارات وكلّ أنواع التوشية ، حتى يصل به إلى مرتبة عالية من الكمال والاتقان . ولذلك كان زهير صاحب مدرسة خاصة في الشعر العربي تتميّز عن غيرها بذلك الجهد الظاهر في الصنعة والانتقاء والرّوية التي توظّف الزمن ، بل وتمسكه خوفاً من أن يفلت الشعر فيه قبل نضوجه واكتمال ميلاده ، فيلحق به من التشويه ما يلحق بالمخلوق الذي لم يستكمل حينه وأوانه ، ولذا كان زهير أحكم الشعراء « وأبعدهم من سخف وأجمعهم لكثيرٍ من المعنى في قليل من المنطق »[2] .

---

(١) جميل سلطان ـ زهير شاعر الجاهلية ص ٥٦ .

(٢) طبقات الشعراء ص ٥٥ .

لبيد بن ربيعة

هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري[1] الصحابي ، قدم على النبي ﷺ سنة وفد قومه بنو جعفر بن كلاب ، فأسلم وحسن إسلامه[2] ، فهو من الشعراء المخضرمين الذين أدركوا الإسلام إلاَّ أن ميقات إسلامه يصعب تحديده بشكلٍ يقيني ، ولكننا يمكننا تحديده على وجه التقريب في فترةٍ تقع ما بين السنة الرابعة سنة بئر معونة والسنة الثامنة من الهجرة النبويَّة المباركة ، « ففي هذه السنة أعطي لبيد من غنائم هوازن يوم حنين على أنه من المؤلَّفة قلوبهم ، وقد وزعت هذه الغنائم بالجعرانة بعد حصار الطائف سنة ثمان هـ »[3] .

ويكنى لبيد أبا عقيل ، وهو من الفرسان المعدودين ، فقد شارك في معارك قومه الذين لم يظهروا على صفحة التاريخ إلاَّ بعد أن ظهر زعيمهم خالد بن جعفر الذي قتل زهير ابن جذيمة سيّد عبس الذي كان يستبدُّ بقبيلته ، فقد طغت غطفان وشخصية زعيمها زهير ذاك على « بني عامر وأخضعتهم لتبعيَّة ذليلةٍ ، وذلك أنهم كانوا يدفعون إتاوةً سنويّة لزهيرٍ العبسي ، وكذلك قيل : إن النعمان كان يقول لعصيمة بن سنان ، وقد أجار بعض بني عامر : إبعث إليَّ بعبيدي »[4] .

كما أنَّ الحارث بن أبي شُمَّر الغساني وهو الأعرج ، أمّره على مائة فارسٍ ووجّههم

(١) الشعر والشعراء ص ١٦٧ .

(٢) خزانة الأدب ص ٣٣٧ ج أول .

(٣) يحيى الجبوري ـ لبيد بن ربيعة العامري ص ١٣٦ .

(٤) عن المصدر السابق ص ٢١ .

إلى المنذر بن ماء السماء في الحيرة « فصاروا إلى عسكر المنذر وأظهروا أنّهم أتوه داخلين في طاعته ، فلمّا تمكنوا منه قتلوه وركبوا خيلهم فقُتل أكثرهم ونجا لبيد حتى أتى ملك غسان ، فأخبره الخبر ، فحمل الغسانيون على عسكر المنذر فهزموهم وهو يوم حليمة ، وكانت حليمة بنت ملك غسان ، وكانت طيّبت هؤلاء الفتيان حين توجّهوا ، وألبستهم الأكفان والدروع وبرانس الإضريج »[1] .

أمّا أبوه فكان يقال له : ربيع المقترين لجوده وسخائه ، قُتل ولبيد صغير السنّ ، لم يبلغ التاسعة من عمره بعد ، قتله بنو أسد في يوم ذي علق ، وهو يومٌ جرى بينهم وبين قومه[2] . فمعرفة لبيد لوالده إذاً كانت عن طريق الذكريات التي كان يقصها أهله وأعمامه عليه ، وقد ذكر لبيد هذه الخصلة في أبيه حين قال :

ولا من ربيع المقترين رزئته   بذي علقٍ فاقني حياءك واصبري[3]

وكرّر لبيد في أشعاره هذه الخصلة التي صارت لقباً لأبيه فقال :

وجدت أبي ربيعاً لليتامى   وللأضياف إذ حبّ الفئيد[4]

وقال أيضاً :

وأبي الذي كان الأراملُ في الشتاء له قطيناً[5]

أمّا عمّه فهو أبو براء عامر بن مالك « ملاعب الأسنّة » سمّي بذلك لقول أوس بن حجر فيه :

فلاعب أطراف الأسنّة عامرٌ   فراح له حظّ الكتيبة أجمع

وأُمّ لبيد تامرة بنت زنباع العبسيّة ، إحدى بنات جذيمة بن رواحة[6] وكان قد تزوجها

---

(١) الشعر والشعراء ص ١٦٧ .
(٢) راجع الأغاني ص ٣٦١ ج ١٥ ط ساسي ، والشعر والشعراء ١٦٧ .
(٣) ديوان لبيد ص ٦٨ دار صادر بيروت .
(٤) ديوان لبيد ص ٤٥ ، والفئيد : خبز الملّة أو الشوّاء ، وقيل : النار يحبها الناس في الشتاء دفعاً للبرد .
(٥) ديوان لبيد ص ٢١٤ .
(٦) راجع الأغاني ص ٣٦١ ج ١٥ .

أولاً قيس بن جزء بن خالد بن جعفر ، فولدت له أربد ، ثم خلفه عليها ربيعة فولدت لبيداً ، وقد تعصّب لبيد لقومه ، ودافع عنهم وشهد مواقعهم وأشاد بأيّامهم وبكى قتلاهم في شعر جميل ، وعمل جهده على الإيقاع بخصومهم .

وقد روت المصادر أخبار العداوة التي كانت قائمة بين قومه وبين قوم أخواله من بني عبس وذكرت تلك القصّة التي استطاع فيها لبيد أن يفرّق بين النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، والربيع بن زياد سيّد عبس ، ومفادها أنّ العامريين كانوا يفدون كل سنة إلى ديار النعمان في الحيرة ، إلاّ أنّ الربيع بن زياد كان يستصغر مكانتهم ويسيء إليهم لمكانته وحظوته عند النعمان وتوصّل إلى درجة أن ينزع عنهم القبّة التي ضربها النعمان لأبي براء زعيم العامريين وحدث يوماً أن دخلوا على النعمان فرأوا منه جفاءً ، وكان قبل ذلك يكرمهم ويقدّم مجلسهم ، فخرجوا من عنده غضاباً وهمّوا بالانصراف ، ولبيد في رحالهم يحفظ أمتعتهم ويغدو بإبلهم ويرعاها ، فإذا أمسى انصرف بها ، فأتاهم تلك الليلة وهم يتذاكرون أمر الربيع فقال لهم : ما لكم تتناجون ؟ فلم يجيبوه استصغاراً لسنه وشأنه ، فأقسم أن لا يحفظ لهم متاعاً ولا يسرح لهم براحلة إن لم يخبروه بأمرهم ، فقالوا له : « إن خالك الربيع بن زياد يسيء إلينا عند الملك ، وصدّ وجهه عنا ، فقال لهم : وهل تقدرون أن تجمعوا بيني وبينه غداً حين يقعد الملك فأرجز به رجزاً ممضّاً مؤلماً لا يلتفت إليه النعمان بعده أبداً ، فقالوا له : وهل عندك ذلك ؟ قال : نعم ، قالوا : إنّا نبلوك بشتم هذه البقلة ، وقدّامهم بقلة دقيقة القضبان قليلة الورق لاصقة فروعها بالأرض تدعى التّربة ، فاقتلعها من الأرض وأخذها بيده وقال : هذه التّربة التّفلة الرذلة التي لا تذكي ناراً ولا تسرّ جاراً عودها ضئيل وفرعها ذليل وخيرها قليل ، بلدها شاسع ونبتها خاشع وآكلها جائع ، والمقيم عليها قانع ، أقصر البقول فرعاً وأخبثها مرعىً وأشدها قلعاً فحربٌ لجارها وجدعاً ، ألقوا بي أخا عبسٍ أرجعه عنكم بتعس ونكس وأتركه من أمره في لبس ، فقالوا له : نصبح ونرى فيك رأينا ، فقال لهم عامر : انظروا إلى غلامكم هذا ، فإن رأيتموه نائماً فليس أمره بشيء ، إنّما تكلّم بما جرى على لسانه ، وإن رأيتموه ساهراً فهو صاحبكم ، فرمقوه بأبصارهم فوجدوه قد ركب رحلاً يكدم واسطته حتى أصبح ، فلمّا أصبحوا قالوا : أنت والله صاحبه فحلقوا رأسه وتركوا له ذؤابتين ، وألبسوه حلّة وغدوا به معهم ، فدخلوا على النعمان ، فوجدوه يتغدّى ومعه الربيع وليس معه غيره ، والدار والمجالس مملوءة بالوفود ، فلمّا فرغ من الغداء أذن للجعفريين فدخلوا عليه والربيع إلى جانبه فذكروا للنعمان حاجتهم فاعترضهم الربيع في كلامهم ، فقام لبيد وقد دهن إحدى شقّي رأسه ، وأرخى

مئزره وانتعل نعلاً واحدة ، وكذلك كانت الشعراء تفعل في الجاهلية ، إذا أرادت الهجاء فمثل بين يديه ثم قال :

يـا رب هيجا هي خيـرٌ من دعـه ... إذ لا تـزال هـامـتي مـقـزّعـه
نـحن بـني أم الـبنيـن الأربـعـه ... ونحن خيـر عـامـر بن صعصعـه
المـطعمـون الجفنـة المـدعـدعـه ... والضـاربون الهام تحت الخيضعـه
مهـلاً أبيت اللعن لا تـأكـل معـه ... إنّ اسْتـه من بـرصٍ مـلمّعـه
وإنّـه يـدخـل فيـهـا إصبعـه ... يـدخلهـا حتى يـواري أشجعـه
كـأنّـمـا يـطلب شـيئـاً أودعـه[1]

فلمّا فرغ لبيد ، التفت النعمان إلى الربيع يرمقه شزراً وقال : كذلك أنت يا ربيع ؟ فقال : كذب والله ابن الفاعلة ، ولقد فعلت بأمه كـذا وكذا ، فقـال له لبيـد : مثلُك فعل بربيبة أهله والقريبة من أهله ، وإنّ أمّي من نساءٍ لم يكنّ فواعل ما ذكرت ، فأمـر النعمان بإخراجهم جميعاً وأعاد على أبي البراء القبّة وقضى حوائج الجعفريين[2] .

هذه نبذة عن حياته في الجـاهلية ، أمـا في الإسلام فـإن لبيداً كمـا أشرنـا كان من المسلمين الـذين حسن إسلامهم ، وقيـل : إنه وفـد على النبي ﷺ أوّل أمره مـع أسد بن معونة بهدية من قبل عمه أبي براء بن مالـك ـ ملاعب الأسنـة ـ الذي « أهـدى له فـرسين ونجائب ، وكان صديقاً للنبي ، فقال رسول الله ﷺ : « والله لا أقبل هدية مشرك ، فقـال لبيد بن ربيعة : ما كنت أرى رجلاً من مُضر يردُّ هدية أبي براء ، فقال ﷺ : لو كنت قابلاً من مشركٍ هدية لقبلتها منه ، قال : فإنه يستشفيك من ذبيلة في بطنه قد غلبت عليه ، فتناول رسول الله ﷺ جبوبة من تراب ، فأمرّها على لسانه ثمّ دفّها بماء ثم سقاه إيـاها ، فكـأنما أنشط من عقال »[3] .

والظاهر أن في هذه الرواية بعض الاضطراب الذي يظهره السّياق وخاصة في ناحية الاستشفاء ، فأبو براءٍ لم يكن موجوداً في الوفد ، والرواية تذكر أن الـرسول عليـه الصلاة والسلام سقاه الدواء فشفي لتوّه ، إلاّ أن بعض الـروايات تـذكر أن أبـا براء هـو الذي زار

---

(١) راجع ديوان لبيد ص ٩٢ ـ ٩٣ .
(٢) راجع الأغاني ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ج ١٥ والمعلّقات العشر للشنقيطي ص ٣٢ ـ ٣٤ .
(٣) تاريخ اليعقوبي مجلد ١ ص ٧٢ .

المدينة واصطحب الهديّة وعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام فتمهل ، وكان أبو براءٍ قد أشار على الرسول أن يرسل إلى بني عامرٍ نفراً من أصحابه كي يفقهوهم في الدين ، وتكفّل هو بحمايتهم ، إلاّ أنّ عامراً بن الطفيل وجماعةً من بني سُليم غدروا بهم وقتلوهم جميعاً ، ولم ينج إلاّ واحداً منهم وكان عددهم سبعين رجلاً ، فلعنهم رسول الله ، وكان عامر هذا قد سار برفقة أربد أخي لبيد من أُمه إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، وفي نيّتهما الغدر به ، ففشلا ، فهلك عامر في رجوعه بالغدة ، وأصابت أربد صاعقة فهلك فقال لبيد :

أخشى على أربد الحتوف ولا أرهب نوء السّماك والأسد[1]

والمهم أن لبيداً قد أسلم ، وأتى المدينة فأقام فترة فيها ، ثم هاجر إلى الكوفة أثناء خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهناك قضى بقيّة حياته ، فأقبل على القرآن يحفظه ويتدبّره ، وهجر الشعر حتى قيل : إن لبيداً لم يقل في الإسلام إلاّ بيتاً واحداً من الشعر اختلف فيه الرواة ، فمنهم من قال : إنه قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالاً

ومنهم من قال : إنه قوله :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح[2]

وقد علّق بروكلمان على ذلك فقال : وليس هذا بصحيح فإن كثيراً من شعره مطبوع بطابع الوحي ، ويبعد أن تكون كل هذه الأبيات منحولة وإن ظهر شيء من التزيُّد عليه[3] .

ونحن نميل إلى القول : إن لبيداً ظلَّ ينظم الشعر بعد إسلامه إلى زمنٍ متأخر ، ويظهر أنّ اعتكافه عنه وتفرّغه للقرآن كان في نهاية حياته ويؤيد ما نميل إليه تلك الحادثة التي ذكرت أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أرسل إلى عامله المغيرة بن شعبة بالكوفة أن استنشد من عندك من شعراء مُضر ما قالوه في الإسلام ، فأرسل إلى الأغلب العجلي أن أنشدني فقال :

لقد طلبت هيّناً موجوداً أرجزاً تريد أم قصيداً

---

(١) راجع المؤتلف والمختلف للآمدي ص ٢٥ .

(٢) راجع الأغاني ص ٣٦٩ ج ١٥ والشعر والشعراء ص ١٦٧ .

(٣) تاريخ الأدب العربيص ١١٥ .

ثمّ أرسل إلى لبيد أن أنشدني ما قلت في الإسلام ، فانطلق إلى بيته فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها فقال : أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر ، فكتب بذلك المغيرة إلى عمر ، فنقص من عطاء الأغلب خمسمائة وزادها في عطاء لبيد ، فكان عطاؤه ألفين وخمسمائة ، فكتب الأغلب إلى عمر : يا أمير المؤمنين تنقص عطائي أن أطعتك ، فردّ عليه خمسمائة وأقرّ لبيد على الألفين والخمسمائة »[١] . فَطَلَبُ عمر من واليه أن يستنشد الشعراء ما قالوه في الإسلام ، وطلبُ الوالي من لبيد أن يقدّم ما عنده هو دليلٌ على أن لبيداً كان ينظم الشعر قبل فترة اعتكافه تلك والتي يبدو أنها تزامنت أو تقدّمت يسيراً على طلب الوالي .

ويروى أن معاوية بن أبي سفيان أراد أن ينقصه عطاءه لمّا وليَ الخلافة وقال له : « هذان الفودان ما بال العلاوة ؟ (يعني بالفودين الألفين وبالعلاوة الخمسمائة ، وأراد أن حطه إياها ، فقال : أموت الآن وتبقى لك العلاوة والفودان ، فرقّ له معاوية وترك عطاءه على حاله ، فمات بعد ذلك بيسير »[٢] .

ويقال : إنَّ لبيداً لم يدرك خلافة معاوية وإنه توفي في خلافة عثمان بن عفان ، وذلك وهم تنقصه تلك الرواية التي أجمعت على ذكرها أكثر المصادر ، والصحيح أنه توفي في أوائل خلافة معاوية سنة إحدى وأربعين للهجرة[٣] . ودفن في صحراء بني جعفر بن كلاب ، وله من العمر مائة وسبعٌ وخمسون سنة[٤] ومنهم من قال : مات وله مائة وخمس وأربعون سنة ، منها تسعون سنة في الجاهلية وبقيّتها في الإسلام[٥] .

وممّا يدل على أنّ لبيداً كان من المعمّرين أشعار نسبها الرواة إليه ، فقد ذكروا أنه حين بلغ سبعاً وسبعين سنة قال :

قامت تشكّي إليّ النفس مجهشة ... وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا
فإن تزادي ثلاثاً تبلغي أملاً ... وفي الثلاث وفاءٌ للثمانينا[٦]

---

(١) خزانة ص ٣٣٧ ج ١ كذلك راجع الأغاني ص ٣٦٩ ج ١٥ .
(٢) الشعر والشعراء ص ١٦٨ ، كذلك راجع الأغاني ص ٣٧٠ ج ١٥ وخزانة الأدب ص ٣٣٧ ج ١ .
(٣) راجع فهرس الأعلام للزركلي مجلد ٥ ص ٢٤٠ .
(٤) راجع الشعر والشعراء ص ١٦٧ وخزانة الأدب ص ٣٣٧ ج أول .
(٥) راجع الأغاني ص ٣٦٢ ج ١٥ .
(٦) الأغاني ص ٣٦٢ ج ١٥ .

فلمّا بلغ التسعين قال :

كأنّي وقد جاوزت تسعين حجّةً ... خلعت بها عنّي عذار لجامي
رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يرمي وليس برامي
ولو أنّني أرمي بسهمي رميتها ... ولكنّني أرمي بغير سهام

وقال حين بلغ عشرين ومائة :

وغنّيت دهراً قبل مجرى داحسٍ ... لو كان للنّفس اللجوج خلود[1]

وقال حين بلغ أربعين ومائة :

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الناس كيف لبيد
غلب الزمان وكان غير مغلَّب ... دهرٌ طويلٌ دائمٌ ممدود
يومٌ إذا يأتي عليّ وليلةٌ ... وكلاهما بعد انقضاه يعود[2]

ويقال : إنه لم يمت حتى حرّم عليه نكاح خمسمائة امرأة[3] من نساء بني عامر[4] .

ويذكر أنه لمّا حضرته الوفاة قال مخاطباً ابنتاه ، ولم يكن له عقبٌ ذكور :

تمنّى ابنتاي أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلاّ من ربيعة أو مضر
فقوما فقولا بالذي قد علمتما ... ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذي لا خليله ... أضاع ولا خان الصديق ولا غدر
إلى الحول ثمّ اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر[5]

وقد روي أنهما نفذتا وصيته ، وظلّتا تبكيان عليه حولاً كاملاً من غير صياح ولا لطم ، كما قيل إنه كان قد أوصى ابن أخيه لما حضره الموت بوصيةٍ قال فيها : « إذا قبض أبوك فأغمضه واستقبل به القبلة ، وسجّه بثوبه ، ولا تصح عليه صائحة ، ولا تبكِ عليه باكية ، وانظر إلى جفنتي التي كنت أصنعها ، فأجد صنعتها ثم احملها إلى مسجدك لمن كان

---

(١) غنّيت : أي عشت .
(٢) الجمهرة ص ٣١ .
(٣) أي حرّمينّ لأنهنّ ما بين بناته وبنات بناته .
(٤) الجمهرة ص ٣١ .
(٥) ديوان لبيد ص ٢٤ .

يغشاني عليها ، فإذا سلّم الإمام فقدّمها إليهم ، فإذا فرغوا فقل : احضروا جنازة أخيكم لبيد ثم أنشأ يقول :

فإذا دفنت أباك فاجعل فوقه خشباً وطينا
وصفائحاً صمّاً رواسيها يسدّدن الغضونا
ليقين حرّ الوجه من عفر التراب ولن يقينا[١]

تلك هي بعض من سيرة لبيد التاريخية ، أمّا سيرته الأدبية فهي لا تقلّ أهميّة عن سيرته الآنفة الذكر ، فقد أسهبت المصادر في تفاصيلها وأولتها ما يستحق من العناية والمكانة ، فقد جعله ابن سلّام الجمحي في الطبقة الثالثة من الشعراء مع نابغة بني جعدة وأبي ذؤيب الهذلي والشّماخ بن ضرار ، وقال عنه : كان لبيد بن ربيعة أبو عقيل ، فارساً وشاعراً وشجاعاً ، وكان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام ، وكان مسلماً رجل صدق[٢] .

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد :

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل[٣] »

وجاء في العقد : إنّ أصدق بيتٍ قالته العرب قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكلّ نعيمٍ لا محالة زائل[٤]

وذكره الأصمعي ، ولم يعدّه من الشعراء الفحول ، إلاّ أنه قال : شعر لبيد كأنه طيلسان طبري ، يعني أنه جيد الصنعة ، وذكر أن أبا عمرو بن العلاء كان يقول : ما أحدٌ أحبُّ إليَّ شعراً من لبيد بن ربيعة ، لذكره الله عزّ وجلّ ولإسلامه ، ولذكر الدين والخير ، ولكنّ شعره رحى بَزْر »[٥] .

أمّا صاحب العمدة ، فقد ذكر أنّ ذا الرمة قال : لبيد أشعر الناس ، كما ذكر أن لبيداً سُئل عن أشعر الناس فقال : الملك الضليل ، قيل : ثمّ من ؟ قال : الشاب القتيل ، قيل : ثم من ؟ قال : الشيخ أبو عقيل يعني نفسه »[٦] .

---

(١) الجمهرة ص ٣١ ، والأغاني ص ٣٧٩ ج ١٥ .
(٢) طبقات الشعراء ص ٥٦ .
(٣) شرح المعلقات العشر للشنقيطي ص ٣٨ .
(٤) العقد الفريد ج ٦ ص ١٢٢ .
(٥) الموشح للمرزباني .
(٦) العمدة ص ٧٢ .

ويروى أن النابغة الذبياني كان قد التقى لبيداً وهو في مقتبل شبابه على باب النعمان بن المنذر، فنظر إليه وسأل عنه فنسب إليه فقال له : يا غلام إنّ عينيك لعينا شاعر، أفتقرض من الشعر شيئاً ؟ قال : نعم، قال : فأنشدني شيئاً مما قلته، فأنشده قوله :

ألم تربع على الدمن الخوالي [1]

فقال له : يا غلام، أنت أشعر بني عامر، زدني يا بني فأنشده :

طللٌ لخولة بالرّسيس قديم [2]

فضرب بيديه إلى جنبيه وقال : اذهب أنت أشعر قيسٍ كلها، أو قال : « هوازن كلّها » [3].

ويحكى أن الفرزدق مرَّ بمسجد بني أقيصر، بالكوفة، فوجد عليه رجلاً ينشد قول لبيد :

وجلا السُّيولُ عن الطلول كأنّها زُبُرٌ تجدُّ متونها أقلامُها

فسجد الفرزدق، فقيل له : ما هذا يا أبا فراس ؟ فقال : أنتم تعرفون سجدة القرآن، وأنا أعرف سجدة الشعر [4].

هذا بعض ما ذكرته المصادر عن لبيد وشعره، ونستطيع أن نستشف من هذه الأقوال صدق ابن سلام الجمحي الذي وضعه في المرتبة الثالثة من الشعراء الذين صنّفهم، وحيث وضع هو نفسه، بعد امرىء القيس وطرفة، كما أنه من الواضح، أنّ أخلاق لبيد وسلامة اسلامه، حملا العلماء من بعد علي تقديم ذكره والاعتداد بشعره لتضمّنه بعض الذي دعا إليه الإسلام من تعاليم وأخلاق، إلاّ أن رأيهم فيه يتوافق مع قول الأصمعي عندما سئل عنه وأجاب : « إنه ليس بفحل ».

أمّا سيرته الشخصية فيبدو أن الجانب الإسلامي فيها قد غطّى على الجانب الجاهلي منها، عملاً بقول الرسول الكريم : « إنَّ الإسلام يجبُّ ما قبله » ولذلك فقد صوّرت

(١) تتمة هذا الشطر : لسلمى بالمذانب فالقفال.
(٢) تتمة هذا الشطر : فبعاقلٍ فالأنعمين رسوم.
(٣) الأغاني ص ٣٧٧ ج ١٥.
(٤) الأغاني ص ٣٧١ ج ١٥.

المصادر لبيداً رجلاً عاقلاً رزيناً ، بعيد النظر ، ذا رأي رشيد وحكمة ناضجةٍ سديدة يعمل فكره في الحياة والوجود ، وهذا ما جعله يسارع إلى اعتناق الإسلام والالتزام به والتفرُّغ له ، فضلاً عن تصويره بالفارس الشجاع(١) ونعته بالشرف والكرم والفضيلة فقد ذكر المبرّد وغيره من العلماء أنّ لبيداً كان شريفاً في الجاهلية والإسلام ، وكان نذر أن لا تهبّ الصّبا إلاّ نحر وأطعم ، وأنّ الصبا هبّت يوماً وهو بالكوفة مقترٌ مملق ، فعلم بذلك الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، فخطب بالناس وقال : إنّ أخاكم لبيداً آلى ألاّ تهبّ له الصبا إلاّ أطعم الناس حتى تسكن ، وهذا اليوم من أيّامه ، فأعينوه ، وأنا أوّل من يعينه . ونزل فبعث إليه بمائة بكرة وكتب إليه :

أرى الجزّار يشحذ شفرتيه	إذا هبّت رياح أبي عقيل
أشمُّ الأنف أصيد عامريٌّ	طويل الباع كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعفريّ بحلفتيه	على العلّات والمال القليل
بنحر الكوم إذ سحبت عليه	ذيول صباً تجاوب بالأصيل

فلما أتاه الشعر قال لابنته : أجيبيه ، فقد رأيتني وما أعيا بجواب شاعر . فقالت :

إذا هبّت رياح أبي عقيل	دعونا عند هبّتها الوليدا
أشمّ الأنف أصيد عبشميّاً	أعان على مرؤوته لبيدا
بأمثال الهضاب كأنّ ركباً	عليها من بني حامٍ قعودا
أبا وهب جزاك الله خيراً	نحرناها وأطعمنا الثريدا
فعدْ إنَّ الكريم له معادٌ	وظنّي يا ابن أروى أن تعودا

فقال لها لبيد : أحسنت لولا أنك استطعمتيه ، قالت : إنه ملكٌ وليس بسوقة ، ولا بأس باستطعام الملوك(٢) .

ذاك هو لبيد الشاعر الإنسان ، الذي خبر الحياة وخبرته ، وأحسّ بقسوتها ومرارتها وزوالها ، فعمل جهده على أن يخفّف من آلامها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، يدفعه إلى ذلك رأيٌ راجح ونفسٌ أبية ، وسجايا كريمة جسّدت كل قيم الإنسان ومعانيه .

---

(١) راجع الشعر والشعراء ص ١٦٧ وطبقات الشعراء ص ٥٦٥ .

(٢) راجع الشعر والشعراء ص ١٦٨ ـ ١٦٩ ، وخزانة الأدب ص ٣٣٧ود ٣٣ ج ١ والأغاني ص ٣٧٠ ـ ٣٧١ ج ١٥ .

معلقة لبيد بن ربيعة العامري

عَفَت الـدِّيـارُ محلُّهـا فمُقـامُهـا — بمِنًى تـأبَّـد غـوْلُهـا فـرجـامُهـا[١]

فمـدافـعُ الـريّـان عُـرِّيَ رسمُهـا — خَلَقاً كما ضمِن الـوُحِيَّ سِلامُها[٢]

دِمَنٌ تجـرَّم بعـد عهـد أنيسهـا — حِجـجٌ خَلونَ حَلاَلُها وحـرامها[٣]

رزِقتْ مـرابيـعَ النجـوم، وصـابهـا — ودْقُ الـرَّواعدِ جـودُها فَـرِهـامها[٤]

مِن كـلِّ سـاريـة وغـاد مـدجنٍ — وعـشيّـةٍ مُتجـاوب إرزامـهـا[٥]

فعـلا فـروعَ الأيهقَـان وأطفلت — بـالجهلتين ظِبـاؤهـا ونعـامهـا[٦]

والعيـنُ عـاكفـةٌ عـلى أطـلائهـا — عُـوذاً تـأجَّـل بـالفضـاءِ بِهـامُهـا[٧]

(١) عفت : انمحت . المحلّ من الديار : ما حلّ فيه لأيام معدودة . المقام منها : ما طالت الإقامة فيه . منىً : موضع . تأبّد : توحّش . غولها ورجامها : جبلان معروفان .

(٢) مدافع : مسايل الماء . الرّيان : جبل معروف . الوُحيّ : الكتابة . السِلاّم : الحجارة . الواحدة : سلِمة بكسر اللام .

(٣) الدِّمن : الآثار . تجرّم : انقطع أو تكمل العهد : اللقـاء . حججٌ خلون : سنـون مضين . حلالها وحرامها : هي الأشهر الحرم وأشهر الحلّ .

(٤) مرابيع النجوم : أنواء الربيع ، وهي المنازل التي تحلُّها الشمس فصل الربيع . الصوب : الإصابة . وصـابها : أصـابها . الـوَدْق : المطر . الجـودُ : المطر التـام العام . والـرواعد : ذوات الـرعد من السحاب . والرِهام : المطر الخفيف اللين .

(٥) السارية : السحابة الليلية الماطرة . المدجن : الملبس آفاق السماء بظلامه . الأرزام : التصويت .

(٦) الأيهقان : الجرجير البرّي . اطفلت : صار لها أطفال . الجهلتين : جانبي الوادي .

(٧) العين : بكسر العين : واسعات العيون . الاطلاء : ولد الوحش حين يولد إلى أن يأتي عليه شهر . =

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها | زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونها أقلامُها[(١)]
أو رجْعُ واسمة أُسِفَّ نؤورها | كِففاً تعرّض فوقهنّ وشامها[(٢)]
فوقفتُ أسألها وكيف سؤالنا | صُماً خوالدَ ما يبين كلامها[(٣)]
عريَتْ وكان بها الجميعُ فأبكروا | منها، وغودِرَ نُؤيها وثمامها[(٤)]
شاقتك ظُعنُ الحيِّ حين تحمَّلوا | فتكنّسوا قُطناً تَصِرُّ خيامها[(٥)]
من كلِّ محفوف يُظِلُّ عِصيَّهُ | زوجٌ عليه كِلَّةٌ وقِرامُها[(٦)]
زجلاً كأنّ نِعاجَ تُوضحَ فوقها | وظباءَ وجرةَ عُطَّفاً أرآمها[(٧)]
حُفِزَتْ وَزَيَّلها السرابُ كأنها | أجزاعُ بيشةَ أثلها ورضامها[(٨)]
بل ما تذكَّرُ من نَوار وقد نأتْ | وتقطعتْ أسبابها ورمامها[(٩)]
مَرِّيّة حلَّت بفَيدَ، وجاورت | أهل الحجاز، فأين منك مرامها[(١٠)]

= عوذاً : حديثات النتاج . الأجل : القطيع من بقر الوحش . الجمع : آجال . الفضاء : الصحراء . البهام : أولاد الضأن .

(١) جلا : كشف . الزُبر : جمع الزبور : الكتب . تجدّ : تجدّد .

(٢) الرجع : الترديد . الاسفاف : الذرّ . نؤورها : دخانها . كففاً : مستديرات . تعرض : تظهر . الوشم : الكتابة على الجسم عن طريق الوخز بالإبر .

(٣) الصمُّ : الخوالد : الصلابُ البواقي . يبين : يظهر .

(٤) أبكروا : بكرت من المكان : سرتُ منه بكرةً . النؤي : نهير يحفر حول البيت لينصبّ إليه ماءُ البيت . الشمامُ : نوع من شجر اللين الذي يُسَدُّ به ما في البيوت من خلل .

(٥) الظُعن : الرواحل . تحمّلوا : ارتحلوا . تكنّسوا : دخلوا الكُناس واستكنّوا به . القَطَنْ : جمع قطين وهو الجماعة . الصرير : صوت الباب .

(٦) محفوف : حُف الهودج بالثياب : إذا غُطي به . وحفّ الناس حول الشيء : أحاطوا به . عصيّة : عيدان الهودج . الزوج : ضربٌ من الثياب . كلّة : ستر رقيق . القرام : الستر .

(٧) الزجل : الجماعات . النعاج : أناث بقر الوحش . توضح ووجرة : موضعان . عُطَّفاً : كثيري العطف أي الثني . آرامها : جمع رئم أي الظبي الخالص البياض .

(٨) الحفز : الدفع . الأجزاع : جمع جزع وهو منعطف الوادي . بيشة : اسمُ وادٍ . الأثل : شجرٌ . الرضام : الحجارة .

(٩) نوار : اسم المرأة التي يتشبُب بها الشاعر . النأي : البُعد . الرمام : قطعة من الحبل خلقةٌ ضعيفةٌ .

(١٠) مرّية : نسبة إلى بني مرّة . فَيْد : اسم بلدة .

بـمشـارق الـجبـلَين أو بـمحـجَّـر فتضمنتهـا فـردةٌ فـرُخـامـهـا[١]

فـصـوائقٌ إن أيـمـنـتْ فـمِـظنّـةٌ منهـا وحافُ القهـر أو طِلخـامُها[٢]

فـاقـطعْ لُبـانـةَ مَن تعـرَّض وَصلُه ولَشـرُّ واصِـلِ خُلة صَـرّامهـا[٣]

واحْبُ المجاملَ بالجزيل، وصرمُـهُ بـاقٍ إذا ظلعَتْ وزاغ قِـوامهـا[٤]

بـطليـح أسـفـار تـركْنَ بـقيَّـةً منهـا، فـأحنق صلبُهـا وسنـامها[٥]

فـإذا تغـالى لحمُهـا وتحسَّـرت وتقـطعتْ بعد الكلال خـدامهـا[٦]

فلهـا هبـابٌ في الـزِّمـام كـأنهـا صهباء خفَّ مع الجنوب جهامها[٧]

أو مـلمـعٌ وسقَـتْ لأحقـب لاحَـه طـرْدُ الفحول وضـربها وكِـدامها[٨]

يعلو بهـا حَـدَبَ الإكـام مسحَّـجُ قـد رابـه عصيـانهـا ووحـامهـا[٩]

بـأحـزَّة الثلبـوت يـربـأُ فـوقهـا قفـرُ المـراقب خـوفهـا أرْآمهـا[١٠]

---

(١) عنى بالجبلين جبلي طيء أجأ وسلمى . محجّر : اسم جبل . فردة : جبل منفرد عن سائر الجبال . رخام : أرض متصلة بالجبل المنفرد .

(٢) صوائق وحاف القهر وطلخام : أسماء أمكنة .

(٣) اللُّبانة : الحاجة . الخلّة : المودّة المتناهية . الصرام : القطاع .

(٤) حبوته : اعطيته . المجامل : الذي يجامل بالمودة . المَصانع . الظلع : غمز في الدواب . الزيغ : المَيْلُ . والازاغة : الإمالة . قوام الشيء : ما يقوم به .

(٥) طليح : معيي . الأحناق : الضمر .
يقول الزوزني : « فأنت تقدر على قطيعته بركوب ناقة قد اعتادت الأسفار ومرنت عليها . فضمر صلبُها وسنامها .

(٦) تغالى لحمها : ارتفع إلى رؤوس العظام . تحسّرت : كالّة عارية من اللحم . الخدام : سيورٌ تشدُّ بها النعال إلى ارساغ الإبل .

(٧) هباب : نشاط . الصهباء : الحمراء . أي كأنها سحابة صهباء . خفَّ : أسرع . الجهام : المطر .

(٨) المعت الأتان : أشرف طبيها باللبن . سقت : حملت . الأحقب : البعير الذي في وركيه بياض . لاحه ولوحه : غيره . الكدام : بمعنى الكدم وهو العض .

(٩) جدب الإكام : ما أحدودب من الآكـام . السحج : القشـر أو الخدش . الـوحام : اشتهـاء الحبلى بالشيء .

(١٠) الأحزة: القفّ. الثلبوت : اسم مكان . القفر : الخالي . المراقب : جمع مرقبة وهو الموضع الذي يقوم عليه الرقيب ويريد بها الأماكن المرتفعة . أرآم : أعلام الطريق .

حتى إذا سلخا جُمادى ستة جَزَآ فطال صيامه وصيامها[١]

رجعا بأمرهما إلى ذي مرّة حَصد، ونُجعُ صريمةٍ إبرامها[٢]

ورمى دوابرَها السفا، وتهيّجت ريحُ المصايف سومُها وسِهامُها[٣]

فتنازعا سَبِطا يطيرُ ظلاله كدُخان مشعلةٍ يشبُّ ضِرامها[٤]

مشمولةً غلِثت بنابت عرفج كدخان نار ساطع أسنامها[٥]

فمضى وقدّمها وكانت عادةً منه إذا هي عرّدت إقدامها[٦]

فتوسّطا عَرضَ السريِّ، وصدّعا مسجورةً مُتجاوراً قلاّمُها[٧]

محفوفةً وسط اليراع يُظلِهّا منه مُصرَّع غابة وقيامها[٨]

أفَتلكَ أمْ وحشيةٌ مسبوعةٌ خذلتْ، وهاديةُ الصّوارِ قِوامها[٩]

خنساءُ ضيَّعت الفَرير فلم يَرِمْ عُرضَ الشقائق طَوفُها وبُغامها[١٠]

لِمُعفَّر قهدٍ تنازع شِلْوَهُ غُبسٌ كواسبُ لا يُمنُّ طعامها[١١]

---

(١) سَلَخَا جُمادَى سِتّة : أي سلخا ستة أشهر من الشتاء جُمادى : اسم للشتاء . جزآ : اكتفى بالرطب عن الماء .

(٢) ذي مرّة : قوي . شديد البأس . حَصِدٍ : محكمٍ . الصريمة : العزيمة . الإبرام : الإحكام .

(٣) الدوابر : مآخير الحوافر . السفا : الشوك . تهيّجت : تحركت . المصايف : الصيف . السوم : المرور . السهام : شدّة الحر .

(٤) التنازع : التجاذب . السبط : هنا الدخان الطويل الممتد . الضرام : دقاق الحطب . وقد ضرمت النار : التهبت .

(٥) مشمولة : هبّت عليها ريح الشمال . غُلثت : خُلطت . العرفج : ضرب من الشجر . الأسنام : جمع سنام وهو الإرتفاع والرفع .

(٦) عرّدت : أخّرت . الإقدام : هنا بمعنى التقدمة أي تقدمتها . لذلك أنّث الفعل .

(٧) السريّ : النهر الصغير . التصديع : التشقيق . مسجورة : ملأى . القلاّم : النبات .

(٨) اليراع : القصب . المصرّع : مبالغة المصروع . الغابة : الأجمة . القيام : جمع قائم .

(٩) مسبوعةٌ : أي قد أصابها السبع بافتراس ولدها . هادية : متقدمة . الصوار : قطيع بقر الوحش .

(١٠) خنساء : متأخرة الأرنبة . الفرير : ولد البقرة الوحشية . لم يَرِمْ : لم يبرح . العُرضُ : الناحية . الشقائق : جمع شقيقة أرض صلبة بين رملتين . البُغام : الصوت الرقيق .

(١١) معفّر : ملقي على أديم الأرض . قهدٍ : أبيض . التنازع : التجاذب . شلوه : بقية جسده . غبسٌ : رمادية . المنّ : القطع .

صــادفْنَ مِنـهــا غِـرَّةً فـأصبنْهــا	إنّ المنايا لا تـطيش سهـامهــا[١]
بــاتت، وأسبــل واكفٌ من ديمــةٍ	يُـروي الخمائـل دائماً تَسجـامُها[٢]
يـعلو طــريـقــةَ مَتنهــا مـتــواتــرٌ	في ليلة كَفَــرَ النجـومَ ظَــلامها[٣]
تجتــاف أصــلاً قــالصــاً متنبِّـذاً	بـعُـجـوبِ أنـقــاء هُـيــامـهــا[٤]
وتضيءُ في وجــه الــظلام مُنيــرةً	كجُمـانة البحـريِّ، سُلَّ نِـظامها[٥]
حتى إذا حَسَــرَ الـظلامُ وأسفــرت	بكـرت تـزلُّ عن الثرى أزلامهـا[٦]
عِلِهَتْ تَــرَدَّدُ في نهــاء صعــائــد	سَبعـاً تُؤاماً كــامــلاً أيّــامُهـــا[٧]
حتى إذا يَئِستْ وأسحَقَ حــالقٌ	لم يُبْلِه إرضــاعهـا، وفـطامهــا[٨]
فتـوجست رِزَّ الأنيس، فــراعَـهــا	عن ظهـر غيب والأنيسُ سقامهـا[٩]
فغـدت كِـلا الفــرجَين تحسِب أنـه	مَـولى المخافـة خلفُهـا وأمـامها[١٠]
حـتـى إذا يئس الــرُّمــاةُ وأرســلوا	غُضفـاً دواجِن قـافـلاً أعصامها[١١]

---

(١) الغفلة والطيشُ : الانحراف والعدول .

(٢) وَكَفَ : قَطَر والوكف القـطر . ديمـة : المطرة التي تـدوم مـدة . الخميلة : الـرملة ذات النبت . تسجامها : انصبابها .

(٣) طريقة متنها : خطٌ من ذنبها إلى عنقها . كفر : غطىّ .

(٤) الاجتياف : الدخول في جوف الشيء . التنبذ : التنحي . العُجب : أصل الذنب . النقا : الكثيب من الرمل . الهيامُ : ما لا تماسك به من الرمل .

يقـول الزوزني في شـرحه : « وقـد دخلت البقرة الـوحشية في جـوف أصل شجـرة متنحٍ عن سـائر الشجر . وقد قلّصت أغصانها ، وذلك الشجر في أصول كثبان الرمل يميل ما لا يتماسك منها عليها . لهطلان المطر وهبوب الريح » .

(٥) وجه الظلام : أوله . جمانة : الدرّة المصوغة من الفضة . البحري : الصدف البحري .

(٦) الانحسار : الانكشاف والانجلاء . الاسفار : الإضاءة . الازلام : القوائم .

(٧) العَلَه والهلع بمعنى واحد . تردد . نهاء : جمع نهي أي غدير . صعائد : اسم مكان . تؤاماً جمع توأم .

(٨) السحق : الخلق . والاسحاق : الأخلاق . حالق : ضرع ممتلىءُ لبناً .

(٩) الرزّ : الصوت الخفي . راعَها : أفزعها . السقام : المرض . والسقيم المريض .

(١٠) الفرج : موضع المخافة. وما بين قوائم الدواب فرج . مولى : قـال ثعلب : « إن المولى في هـذا البيت بمعنى الأولى بالشي . كقوله تعالى : ﴿ **مأواكم النار هي مولاكم** ﴾ . أي : « أولى بكم » .

(١١) غضفاً : مسترخيات الآذان . الدواجن : المعلّمات . قافلاً اعصامها : بطونها يابسة ضامرة .

فلحِقِنَ واعتـكـرت لهـا مـدريَّـة ... كـالسمهـريَّـة حدُّهـا وتمـامهـا[١]

لِتــذودهنّ وأيـقـنـتْ إن لـم تــذُد ... أن قد أحمّ من الحتوف حمـامها[٢]

فتقصَّـدت منها كساب، فضُـرِّجتْ ... بدم، وغودر في المكَـرِّ سُخامهـا[٣]

فبتلكَ إذ رقص اللوامـعُ بـالضّحى ... واجتـاب أردية السراب إكامهـا[٤]

أَقـضي اللُّبـانَـةَ لا أفـرِّطُ ريبـة ... أو أن يلومَ بحـاجـةٍ لَـوّامـهـا[٥]

أوْ لم تكن تـدري (نـوارُ) بـأنني ... وصَّـالُ عقدِ حبائـلٍ ، جَـذّامهـا[٦]

تَــرّاكُ أمـكـنـة إذا لــم أرضـهـا ... أو يعتلق بعض النفوسِ حمامها[٧]

بـل أنـتِ لا تــدرين كـم من لـيلة ... طَلْقٍ لـذيـذٍ لهـوُهـا ونـدامهـا[٨]

قَـد بِتُّ سـامـرهـا، وغـايـةِ تـاجـر ... وافيتُ إذ رُفِعتْ وعـزّ مُـدامهـا[٩]

أُغلي السبـاءَ بكـلِّ أدكـنَ عـاتقٍ ... أو جـونةٍ قُـدحتْ وفُضَ ختامهـا[١٠]

وغـداةِ ريـحٍ قـد وزَعْـتُ وقِـرَّةٍ ... قد أصبحت بيدِ الشمـال زمامها[١١]

---

(١) عكر واعتكر : عطف . المدرية : طرف القرن . السمهرية : رماح منسوبة إلى قين يدعى سمهر في البحرين .

(٢) لتذودهنَّ : لتردّهنَّ . أحمَّ : قرُب . الحتوف والحمام : بمعنى الموت .

(٣) تقصّدت : قتلت . كساب وسخام : اسما كلبين . المكرّ : موضع الكرّ .

(٤) فبتلك : أي الناقة . اللوامع : لوامع السراب . اجتاب : لبس .

(٥) اللبانة : الحاجة . التفريط : التضييع . الريبة : التهمة . اللوّام : مبالغة اللائم .

(٦) الحبائل : مستعارة هنا للعهد والمودّة . الجذم : القطع .

(٧) أراد ببعض النفوس نفسه . والحمام : الموت .

(٨) ليلةٍ طلقٍ : ليلة ساكنة لا حرّ فيها ولا قرّ . الندام : جمع نديم .

(٩) الغاية : راية ينصبها الخمّار ليعرف مكانه . وأراد بالتاجر الخمّار . وافيت المكان : أتيته . المدام : الخمر . سميت بها لأنها قد أديمت في دنّها .

(١٠) السباء : الخمرة المشتراة . الأدكن : الذي فيه دكنة . الجونة : السوداء . والمعنى : أو خابية سوداء . قُدحت : غُرفت . فضّ : كُسِر .

(١١) وروي البيت أيضاً :

وغـداة ريـح قـد وزعـتُ وقـرَّة ... إذ اصبحت بيـدِ الشمـال زمـامهـا

القِر والقرّ : البرد . وشرح البيت : كم من غداة تهبُّ فيها ريح الشمال . قد كففت عادية البرد بنحر الجزر للناس .

بصبوحِ صافيةٍ وجذب كرينةٍ بمُوَتَّرٍ تأتالُهُ إبهامها[1]

بادرتُ حاجتها الدجاج بسُحرة لأُعَلَّ منها حين هبَّ نيامها[2]

ولقد حميت الحيّ تحمل شِكَّتي فُرُطٌ وشاحي، إذا غدوتُ لجامُها[3]

فعلَوتُ مرتقياً على ذي هبوة حرجٍ إلى أعلامهنَّ قتامها[4]

حتى إذا ألقت يداً في كافر وأجَنَّ عوراتِ الثُّغورِ ظلامها[5]

أسهلتُ وانتصبتْ كجذع منيفةٍ جرداءَ يحصُرُ دونها جُرَّامُها[6]

رفَّعتُها طرد النعام وشلَّه حتى إذا سخنت، وخف عظامها[7]

قلقتْ رحالتُها وأسبل نحرها وابتلَّ من زبد الحميم حزامها[8]

ترقى وتطعن في العنان، وتنتحي وِرْد الحمامة إذ أجدَّ حَمَامها[9]

وكثيرةٍ غرباؤها مجهولةٍ تُرجى نوافلها، ويُخشى ذامها[10]

غُلبٍ تشذَّر بالذحول كأنها جنُّ البَديِّ، رواسيا أقدامها[11]

---

(١) الكرينة : الجارية العوّادة . جمع كرائن . الأئتيال : المعالجة ، أراد بأوتار العود .

(٢) بادرت حاجتها الديوك بسحرةٍ : أي تعاطيت بشربها قبل أن يصدع الديك . لأعلّ : لأشرب منها مرّة بعد أخرى .

(٣) الشكّة : السلاح . فُرُطٌ : فرسٌ متقدم سريع خفيف . يقول : لقد حميت قبيلتي بفرسٍ متقدمٍ سريعٍ ووشاحي لجامها .

(٤) مرتقباً : المرتقب . المكان المرتفع الذي يقوم عليه الرقيب . الهبوة : الغبرة . الحرج : الضيق جداً . الأعلام : الجبال أو الرايات . القتام : الغبار .

(٥) الكافر : الليل والكفر : الستر . سمي به لكفره الأشياء أي لستره . الأجنان : الستر . الثغور : مواضع المخافة . عورات الثغور : أشدُّها مخافة .

(٦) أسهل : أتى السهل من الأرض . المنيفة : العالية الطويلة . جراد : قليلة السعف . الحصر : ضيق الصدر . جرّامها : الذي يجرم النخل أي يقطع احماله .

(٧) رفعتها : مبالغة رفعت .

المعنى : يقول الزوزني : حملت فرسي وكلفتها عدواً مثل عدو النعام حتى إذا جدَّت في الجري وخفّ عظامها في السير .

(٨) القلق : سرعة الحركة . الرحال : السرج . أسبل : أمطر . زبد الحميم : قطر العرق .

(٩) ترقى : تصعد . تنتحي : تعتمد .

(١٠) نوافلها : عطاياها . ذامها : عيبها .

(١١) الغلب: الغلاظ الأعناق. التشذر : التهدد . الذحول : الأحقاد ، الواحد ذحل . البديّ : اسم موضع . الرواسي : الثوابت .

أنكـرتُ بـاطلهـا وبؤتُ بحقهـا | عنـدي ولم يفخر عليَّ كـرامهـا[1]
وجـزَور أيسـارٍ دعـوت لحتفهـا | بمغـالقٍ مُتشـابـهٍ أجسـامهـا[2]
أُدعـو بـهنَّ لـعـاقـرٍ أو مـطفـل | بـذلت لجيران الجميـع لِحـامُهـا[3]
فـالضيف والجـار الجنيبُ كـأنمـا | هَبَـطا تبـالَـة مخصبـاً أهضـامهـا[4]
تـأوي إلـى الأطنـاب كـلُّ رذيَّـة | مثـلِ البليـة قـالصٍ أهـدامهـا[5]
ويـكلّلون إذا الـريـاح تنـاوحـت | خُلجـاً تُمَـد شـوارعـاً أيتـامهـا[6]
إنَّـا إذا التقَت المجامـع لم يَـزَلْ | منَّـا لِـزازُ عـظيمـة جَشّـامهـا[7]
ومقسّمٌ يعـطي الـعشيـرة حقَّهـا | ومُغـذمَـر لحقـوقهـا، هضّـامهـا[8]
فضـلاً وذو كـرمٍ يعين على النـدى | سمـحٌ كسـوب رغـائب غنّـامهـا[9]
مـن معشـر سنَّـت لهـم آبـاؤهـم | ولكـلِّ قـوم سُنـةٌ . وإمـامهـا[10]
إن يفـزعـوا تلق المغـافـرَ عنـدهم | والسنّ يلمـع كـالكـواكب لامُهـا[11]
لا يـطبعـون ولا يبـور فَعـالُهـم | إذ لا تميـل مع الهـوَى أحلامهـا[12]

---

(١) ابوء بالنعمة : اقرُّ بها ، وروي « يوماً » بدل « عندي » .

(٢) جزور : الشاة المعدّة للذبح . ايسار : جمع يسر وهو صاحب اليسر . المغالق : سهام .

(٣) العاقر : المرأة التي لا تلدُ . مطفل : التي لها أطفال . اللحام : جمع لحم .

(٤) الجنيب : الغريب . تباله : وادٍ خصيب من أودية اليمن . الهضيم : المطمئن من الأرض .

(٥) الأطناب : حبال البيت . الرذية : الناقة التي تتخلف في السفر لفرط هزالها . البلية : الناقة التي تشد على قبر صاحبها حتى تموت . قالص : القلوص من القصر . الاهدام : الأخلاق من الثياب ، الثياب البالية الرثة .

(٦) تناوحت : تقابلت . الخُلجُ : نهر صغير يخلج من نهر كبير أو من بحر . تُمدّ : تزاد . شوارع : جمع شارع : أي خائض .

(٧) اللزاز : الذي يلزم الشيء ويعتمد عليه يقال لُزّ فلان بفلان إذا لزمه .

والمعنى : إذا اجتمعت جماعات القبائل ، فلم يزل يسودهم رجلٌ مناً يقمع الخصوم عند الجدال ، ويجشم عظامهم .

(٨) مغذمرٌ : غاضب . الهضم : الظلم .

(٩) الندى : الجود . الرغائب : هي ما رغب فيه من خصلة أو غيرها . غنّام : مبالغة الغانم .

(١٠) سُنّةٌ : شرعةٌ .

(١١) يفزعوا : يستغيثوا ويلجأوا . السنّ : الأسنة . اللام : الدرع .

(١٢) الطبعُ : تدنّس العرض ولطخه . يبوز : يفسد .

فـاقنـع بمـا قسم المليـك، فـإنمـا قسم الخـلائقَ بيننـا عـلَّامهـا[1]
وإذا الأمـانـة قُسّمت في مـعشـر أوفى بـأوفـر حـظنـا قسّـامهـا[2]
فبنى لنـا بـيتـاً رفـيعـاً سمكـه فسمـا إليـه كهلهـا وغـلامهـا[3]
وهم السُّعـاة إذا العشيـرة افـظعت وهـم فـوارسُهـا وهم حُكّـامهـا[4]
وهـمُ ربـيـعٌ لـلمـجـاور فـيـهـمُ والمـرمـلاتِ إذا تـطاول عـامُهـا[5]
وهمُ العشيـرة أن يبـطّىء حـاسـد أو أن يميـل مـع العـدوِّ لئـامهـا[6]

(١) المليك : الله تعالى .
(٢) معشر : قومٍ . أوفى : كمل ووفر . والوفور : الكثرة .
(٣) وروي البيت : « فبنوا » بدل « فبنى » .
(٤) السعاة : جمع الساعي . أفظعت : بأمر فظيع .
(٥) أرمل القومِ : نفذ زادهم .
(٦) قوله أن يبطّىء حاسدٌ : يقول الزوزني : معناه على قول البصريين كراهية أن يبطىء حاسدٌ وأن يميل . وعند الكوفيين : « ألَّا يبطىءَ حاسدٌ . وألّا يميل كقوله تعالى : ﴿ يبين لكم الله أن تضلّوا ﴾ أي كراهية أن تضلوا . أو كي لا تضلوا ، أو ألّا تضلوا .
والمعنى : أنهم يتوافقون ويتعاضدون كراهية أن يبطىء الحساد بعضهم عن نصر بعض ، وميل لئامهم إلى الأعداء أو مظاهرتهم إياهم على الأقارب .

تحليل معلّقة لبيد

يبدأ لبيدٌ معلّقته بالوقوف على الأطلال والدّمن ، معدداً مواضعها ، ذاكراً ما أصابها من جرّاء رحيل الأحبة ، وما اعتراها من وحشة ولوعةٍ وضياع ، وكأن لبيداً بهـذا الوقـوف يحاول أن يؤنسن الجماد ، ويبثّ فيه الروح والحياة عن طريق التصوير الذي جعل العاطفة متبـادلةً بين الأهـل والدار ، بين القـاطن والمقـطون فيـه ، وهـذا ليس بغـريبٍ قطّ ، لأن الإحساس بذلك الرابط القويّ بين الإنسان والمكان ، هو إحساسٌ إنسانيٌّ عامٌ يشترك فيه البدائيُّ والمتحضر ، وإلا لما كانت الأوطان ، ولما كان الموت دفاعاً عنها شرفاً وشهادة ، ولبيد من هذا المنـطلق يتحدّث عن الـدّيار ، عن أطـلاها ورسـومها المتبقيّـة ، فيرسمهـا بالصورة التي نحسُّ من خلالها الكآبة والحزن ، ويضفي عليها طـابع التـوادّ الذي تخلّفـه المعاشرة وطول الإقامة ، فإذا هي أطلالٌ تحزن ، ودمن تستـوحش ، ومرابـع تتمنّى عودة الراحلين بعد طول غياب وهجران ، ليعود الأنس إليها ، ذلك الأنس الـذي لا يوجـده إلا الإنسان ، فدونه الفراغ القاتل والضياع الممل :

دمنٌ تجـرَّم بعـد عهـد أنيسهـا   حججٌ خلون حـلالهـا وحـرامهـا

لقد أراد لبيد من خلال هذا الوقوف أن يخلق حالة من التعاطف المتبادل بين المكان والإنسان يرمي من خلالها أن تستقرّ الحياة ، وأن يتفـاعل الطـرفان فيها ليـوجدا حـالةً من الارتباط والتجذّر ، بدلاً من تلك الحالة المتغيّرة بسببٍ وبغير سبب ، وإلاّ فما معنى ذلك الوصف الذي جعل الدّيار ممرعةً مخصبة تسقيها الأنواء في الشتاء والربيع ، إن لم نستشفّ من خلاله أنّ الارتحال عند الجاهلي كان سنّة وتقليداً متبعاً ليس إلا ، وهذا ما يريد له لبيد أن يتغيّر ، لأن الحياة لا تتقدّم إلاّ بالاستقرار والتفاعل الثابت بين الإنسان والمكان .

ويمضي لبيد فيصور لنا عزلة الدّيار وسكونها الموحش في شعر يستعير له الصور الحسّية التي تظهر تلك العزلة المطبقة بكلّ تفاصيلها المحزنة ، كما نلحظ فيه التحسُّر على ذلك التحوّل الذي جعلّ الدّيار مسرحاً للوحش الذي أربع وأقام وأطفل ، بعد أن كانت مربعاً للإنسان ومؤئلاً لحبه وتواجده .

ولا بدّ لنا في هذا المقام ، أن نشير إلى تلك الصورة التي جدّد فيها لبيد معالم الأطلال حين قال :

وجلا السيولُ عن الطلول كأنّها زُبُرٌ تجدُّ متونها أقلامها

إنّ هذه الصورة التي سجد لها الفرزدق حين سمعها تُتلى أمام مسجد بني أقيصر بالكوفة ، تدلُّ بوضوحٍ على قدرة الشاعر في استخدامه لحواسه وخاصةً العين منها ، تلك التي نراها متيقظةً متوثّبة تجول هنا وهناك لتغطي المكان بكلّ تفاصيله الدقيقة ، وتستحضر له ما علق في الذاكرة من صورها الماديّة الملتقطة ، حتى ترسم لنا صورة جديدة نحسُّ فيها التفاعل التام بين المكان والحواس ، فإذا بالسيول تتحوّل إلى أقلام تجدّد كتابة معالم الدّيار التي غطّاها التراب ، وتعيدها إلى صفحة الوجود لترتسم أمام العين بهذه الصورة التي نحسُّ فيها مهارة النقش والكتابة .

بعد ذلك الوصف للديار ومعالمها ، يعود الشاعر ليستكمل تلك الأنسنة عن طريق المخاطبة الفعليّة فيقول :

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صمّاً خوالد ما يبين كلامها
عريت وكان بها الجميع فأبكروا منها وغودر نؤيُها وثمامها

ففي هذه الصورة نلمح استرسالاً كليّاً مع المشاعر والأحاسيس ، نحسُّ من خلاله سروحاً روحيّاً يكاد يطغى على كل الجوانب المادِّيّة ، إلاّ أنه سروح لم يكتمل لأنه اصطدم بالواقع الذي جعل الشاعر يستفيق على مرارته من خلال ذلك التعارض الواضح بين الحلم والحقيقة ، بين الإرادة والفعل ، وهذا التعارض أدّى بالنتيجة إلى اليقظة النفسيّة المتوقعة التي أعادت للشاعر ذاته السّارحة في مسارب الحلم والتصوّر النفسيّ البحت ، فهذه اليقظة هي التي جعلت الشاعر يصحو إلى واقعه ، ولا يرجو أملاً عن مساءلة الدّيار عن أهلها ، لأن الجماد قد يتلبّس صورة الحياة ، ولكنه لا يمكن له أن يجسّدها بكل أبعادها المتحرّكة الفاعلة ، ولذلك نراه بعد ذلك الصحو الذي لم تزايله طبيعة الجوّ المأساوي العام ، ذلك الجو الذي لفّ الشاعر بكلّ كيانه كما لفّ الدّيار من خلال ذلك التصوير الرائع الذي جعلها

عارية من أهلها ، فبانت له على حقيقتها دون تمويهٍ أو تلفيق ، يعود ليعترف بأنّ الجماد لا يحير جواباً ، وأن مساءلته ليست إلا ضرباً من الترويح والسلوان ، فاستعمال العري هنا يعني أنّ الإنسان هو الذي يخلق في الدّيار البهجة والأمل والجمال ، فهو المزيّن لها ، وبدونه تبقى ذليلةً موحشة مقفرة . . .

لقد وفق الشاعر أيّما توفيق عندما جعل الرحيل عن الدّيار عرياً ، والإقامة فيها ثوباً ، لأن ذلك يعكس الجانب الحقيقي من الحياة ، ويكشف العلاقة الحميمة بين الأرض والإنسان ، تلك العلاقة التي أراد لها لبيد أن تتوطّد وتتواصل من خلال ذلك الرسم الذي يتبادل الأدوار والتحوّلات ، فالأرض ستر الإنسان ومقرّه ، وكذلك الإنسان ستر الأرض وزينتها ، معادلتان تكمن فيهما حقيقة الحياة ، لأنهما تمثّلان صورة التلاحم العضوي الفاعل بين الإنسان والمكان ، بين الوجود والمصير . . .

وينتقل لبيد بعد ذلك ليصوّر رحيل الأحبّة عن الدّيار ، فيصف مراكبهنّ وجمالهنّ ويتذكر نوار التي تقطّعت الأسباب بينها وبينه ، إلا أنه في تذكّره لها يظلّ محافظاً على منهجٍ له في الحبّ ارتضاه لنفسه ، وهو أن « الحب » يجب أن يكون متبادلاً بين الطرفين ، بين الرجل والمرأة ، فإذا أخلّ الجانب الآخر أي المرأة فيه أخلّ هو من جانبه أيضاً ، فهو محبٌّ لا ينساق مع عواطفه لأنه يرى أن الانسياق معها إلى الذروة يؤدي في كثير من الأحيان إلى فقدان التوازن والسقوط القويّ الذي يوازي ذلك الارتفاع .

وأحبُ المجامل بالجزيل وصَرْمهُ ... باقٍ إذا ظلعت وزاغ قوامها

فهذا المنهج شبيه بالمنهج الذي اختطه من بعد عمر بن أبي ربيعة والذي تمثّل في قوله :

سلامٌ عليها ما أحبّت سلامنا ... فإن كرهته فالسّلام على أخرى

وينتقل لبيد بعد يأسه من لقاء نوار لبعد ديارها وتعذّر الوصول إليها ، إلى الحديث عن ناقته التي تساعده على أسفاره وتعينه على قطع المهامه والمفازات بصبرٍ وقوّة وتحمل ، فهي ناقة قد اعتادت السفر ومرنت عليه ، وهذا دليل على أنّ لبيداً لا يقيم قطّ على قطع أو هجران ، فهو دائماً يرحل حيث يكون الوصل والعطاء ، ولذلك نراه يصورها في سفر دائم ورحيلٍ متصل يطوي التلاع والأودية ، ويشبهها حيناً بالسحابة ، وحيناً آخر بالأتان التي حملت من فحلٍ أحقب كثير الغيرة ، فأصابه الهزال من جرّاء ذلك وأخذ يصارع العير لأجلها ، ويسوقها بشدّة وعنف إلى ناحيةٍ نائيةٍ لكي تكون له وحده ، فيعلو بها الآكام معاقبةً

لها ، لأنّه أحسّ منها عصياناً بعد الزواج ، في الحين الذي كانت قبله موادعة مطيعة .

وهكذا يمضي لبيد في وصف ذلك الفحل وأتانه مستعيراً لهما صوراً ماديّة مختلفة نحسّ من خلالها وكأنّ لبيداً يحاول بها أن يرسم العشق الإنساني في جوانبه العامة التي تكاد تكون مطابقة لصور العشق عند ذلك الفحل وأتانه ، فالعشق قبل الزواج يختلف في العشق بعده ، لأنه في الحالة الأولى يكون أكثر أحلاماً وشفافيةً وانصياعاً وطاعة من كلا الطرفين ، إلّا أنّه في الحالة الثانية يكون أكثر واقعية وعقلانية ، وقد تحكمه تنوعات في العلاقات التي تظهر عادة بعد الزواج وبأشكال متعددة كالغيرة وعدم الإنسجام والندم ، إلى غير ذلك من الاشكالات التي تحوّل الحياة إلى نكدٍ وقطيعة بين الزوجين في بعض الأحيان ، ولعلّ الشاعر في قوله :

حتّى إذا سلخا جُمادى ستةً	جزآ فطال صيامُه وصيامها
رجعا يأمرهما إلى ذي مرّةٍ	حصدٍ ونجحُ صريمةٍ إبرامها
ورمى دوابرها السّفا وتهيجت	ريح المصايف سومُها وسهامها

قد رمز بالشتاء إلى حالة الاضطراب والتمرُّد ، وبالربيع إلى عودة الهدوء والصفاء ، وبالصيف إلى حالة السعي والجدّ الذي يمثله الورود إلى الماء ، أي إلى العمل من أجل الحياة ، التي لا يتمُّ صفاؤها إلّا بالتعاون المثمر والحرص المتبادل .

كما نراه أيضاً يستعير لتبيان سرعتها صورة بقرةٍ وحشيةٍ افترس السبع طفلها حين تركته ، وذهبت ترعى مع صواحبها ، وطلبته بين الرّبى والآكام فلم تعثر إلّا على بقايا أشلاءٍ ممزّقة تجاذبتها الذئاب ورمت بها هنا وهناك ، فراحت تذرف دمعاً سخيّاً متصبباً كتصبّب المطر الذي يبلّل الرمال والأتربة ، ثم راح يصف بصور متتالية انزواءها وعزلتها واستتارها بالشجر اليابس وكثبان الرمل ، وكأن لبيداً يحاول من خلال ذلك أن يرسم صورة المجتمع بكلِّ أبعاده الواقعية ، فالبقرة الوحشية ما هي إلّا رمزٌ للأم في ذلك الزمان ، والطفل ما هو إلّا رمزٌ لكل شيء يتطلّب حرصاً وعنايةً ويقظة في عصرٍ كثرت فيه الذئاب ، وغدت فيه الغفلة مرادفةً لمعنى الانتهاء والفقد والحزن ، وما أكثر الذئاب آنذاك ، إنّها ذئابٌ إنسانيّة لا تفترُّ عن الاصطياد ، لا فرق سواء كان الصيد حيواناً أم إنساناً أم قبيلة ، إنّه اصطيادٌ مباح يتمثل في الحروب والغزوات التي حوّلت الإنسان وما يملك إلى فريسة يتناوش لحمها من وجد في ذاته القوة وصلابة المخالب والأنياب .

ويعمد لبيد بعد ذلك إلى تصوير الأحزان الإنسانية من خلال تلك البقرة التي هي كما قلنا رمزٌ للمرأة والأم فيقول :

علهت تـردّد في نهـاءِ صعـائـدٍ　　سبعـاً تؤاماً كـامـلاً أيـامهـا

أليس هذا هو الحزن الإنساني ذاتـه ؟، والذي نحسّـه من خلال الأيـام السبعة التي يتردد فيها الناس على قبور موتاهم فيبلّلون ثراها بالدموع المتصبّبة ؟.

لقد حاول لبيد أن يرسم من خلال ناقته صوراً إنسانية حمّلها كلّ مشاعره وأحاسيسه ، فكانت الناقة عنده وسيلة إلى غاية ، وهي تصوير معاناة الإنسان في ذلك العصر وتقريبهـا إلى العقول عن طريق التمثيل البدائي الأكثر التصاقـاً بحياة الجـاهلي ، وواقعه ، علّه من خلال ذلك يستطيع أن يظهر مرارة ذلك الواقع الذي لا يرتفع فيه الإنسان ولا يتميّز عن واقع الوحش في غاباته ونزواته ، إنها ولا شك « نظرةٌ رحيمة إلى الإنسان ليست بنت عصرها ، لأنّ عصرها يعتقد أنّ أرخص ما في الوجود هو الإنسان وعواطفه ، يراق دمه من أجل شبرٍ من أرضٍ رعت فيها السّوام ، أو من أجل كلمة جارحة ، أو من أجلِ امرأة يصطحبها رجل فطمع الآخر بها ، أو من أجل رغيفٍ يقتات به أو من أجل لا شيء أبداً . . .

لقد وقف لبيد فكرّم الإنسان حين سما بالأتـان وبالمهـاة إلى مرتبـة الإنـسان المقـدّر المحترم ، وأشعر الآخرين أنه أعلى ما في الوجود »[١] .

لقد استطاع لبيد أن يرفض واقعه ويتمرّد ، على عاداته وتقاليده ، أو يهجرها مفتشـاً باحثاً متطلّعاً إلى ما يجسّد له إنسانيته الضائعة ، ما يحقّق له كمالها ولذلك نراه يسارع إلى اعتناق الإسلام عند سماعه بظهور دعوته الكريمة واطلاعـه على تعاليمـه التي حملت إلى الناس السلام والأمان والإحساس بالكرامة وقيمة الوجود ، فكـان لبيد بـذلك منسجمـاً مع نفسه ، ومع معتقداته عندما أقبل على الإيمان بتلك الدعوة والانقطاع لها ، لأنّها جسّدت له كل أحلامه وتطلعاته ، ونقلته وعصره الذي يعيش فيه نقلةً عظيمةً ، نحـو الارتباط الـوثيق بالمكان وبالقيم الإنسانية الأصيلة التي نمّت الجوانب الأخـلاقية والمـادية ونـظّمتها لـدى الناس ، فضلاً عن تنميتها الجوانب الروحية التي هي الجوهر والأساس .

وهكذا يمضي لبيد في تصوير تلك البقرة الوحشية وأنسنة صفاتها فيقول :

وتضيءُ في وجـه الـظلام منيـرةً　　كجمـانـة البحـريّ سُـلّ نـظامُهـا

---

(١) بكري الشيخ أمين المعلقات ص ١٦٥ .

فهو هنا لا يرسم صورة للبقرة ، ولكنّه يرسم صورة للمرأة نلمح لها مثيلاً عند امرىء القيس في قوله :

تضيءُ الظلام بالعشاء كأنّها　　منارةُ مُمسى راهبٍ متبتّل

تلك المرأة الجميلة التي يلاحقها الصيادون بأساليبهم المتنوّعة ، ويتصارعون في سبيل امتلاكها والحصول عليها ، دون أن يكون لها رأي ، ويتعاملون معها كما يتعاملون مع قنصٍ أو طريدة ، ولذلك نراها تستعدُّ للمقاومة عملاً بمنطق العصر ، الذي كان شعاره القتل من أجل دفع القتل ، والظلم من أجل دفع الظلم ، إنه ولا شكّ شعارٌ يبرِّر الوسيلة ، ويجرّد الإنسان من كلِّ حقٍ مشروعٍ له ، حتى حقّ الموت الذي لا يكون له فيه أدنى خيار .

إنّ لبيداً لا يصف البقرة في كلِّ هذا الشعر من أجل ناقةٍ أراد أن يتحدّث عن سرعتها وقوّتها ، إنه ولا شك أراد أن يفصح عن أشياء حبيسةٍ في نفسه فاختار متنفساً لها هذه الصور النقلية ليدلّل بها على واقعٍ اجتماعيٍّ مضطرب ، تتحكّم فيه الأهواء والأغراض ، ويتكالب فيه الناس على المتع الحسّيّة والمادّية ، دون أدنى وازعٍ من عرفٍ أو ضمير .

إنّ هذه الصور التي أسبغها لبيد على الناقة لم تكن قطّ بعيدةً عن صور رغباته وحاجاته ، ولذلك خصّها بكل ذلك الوصف الذي نلمح فيه كل الحب والحرص والغيرة ، لأن الناقة كانت وسيلته إليها ، فهي التي حملته إلى نوار ، تلك التي يعود إليها حيناً بعد حين ، مذكِّراً لها بصفاته التي ترفض الإذلال في العشق ، لأن الذلَّ والهوان ليسا من عاداته ، فهو الرجل المعتزّ بنفسه وكرامته ، والمتمسّك برجوليته الرافضة لأيّ تحكّم أنّى كان مصدره ، حتى ولو كان من نوار أقرب المقرّبين ، ولذلك نراه في نهاية معلّقته يذكّر نواراً ، علَّ الذكرى تنفع العاشقين ـ بأيّامه وأسماره ولياليه ، وجوده وإنفاقه ، كما يذكّرها بمزايا أخرى لا تقلُّ عن تلك أهمية ، وهي الشجاعة والإقدام الذي جعله درع القبيلة وعينها الساهرة ، ولا ينسى أن يبيّن لها منزلته في قومه تلك المنزلة التي خوّلته التكلّم باسمهم والدفاع عن حقوقهم بين أيدي من يملكون الحلّ والإبرام في ذلك العصر ، ثم يشرع في تصوير كرمه الذي شمل القريب والبعيد ، وجعل دياره ملجأ للفقراء والمحرومين ينتجعونها في أوقات الشدة والضنك ، فيجدون في ربوعها الدّعة والخصب والأمان ولا يفوته بعد ذلك أن يخصّ قومه بمدحه ، ويفخر بفعالهم ، ومناقبهم ، فهم أهل السيادة والعطاء والنجدة ، وأهل الرأي والحزم والمواثيق . . .

تلك هي معلقة لبيد بكلِّ موضوعاتها التي تظهر انفعال الرجل بحياة البداوة وما فيها

من مظاهر الطبيعة والحيوان ، وما يتمجّد به سراة العرب وأجوادهم من النجدة وقرى الضيف »[1] .

إلا أننا حاولنا قدر الإمكان أن نسبغ عليها أبعاداً أخرى ترباً بالشعر من أن ينحصر في زاوية ضيّقة لا تتعدّى حدود الزمان والمكان ، لأن الشعر في نظرنا تعبيرٌ عن معاناة إنسانية ، ولكنّ أساليب التعبير عن هذه المعاناة تختلف من عصر إلى عصر ، بل ويمكن أن تتحكّم فيها ظروفٌ خاصة ، يجد الشعراء أنفسهم مقيّدين بها ولا يستطيعون الإفلات منها ، ولبيد لم يكن قط بعيداً عن تلك المعاناة ، إلا أنه راح يستلهمها أو يستلّها من داخل البيئة الضيقة التي عاشها فبدت غريبة موحشةً بعض الشيء ، وتحتاج إلى كثير من الجهد والتأويل حتى يصل الإنسان إلى كشف أبعادها وسبر أغوارها ولذلك حاولنا منذ البداية أن نوجد ذلك الرابط الذي يجمع بين موضوعات القصيدة ويشدُّ أجزاءها بعضها إلى بعض ، فاستطعنا بعد تأملٍ وعناء أن نجعل الإنسان هو الرابط الذي تمحورت حوله موضوعات المعلقة بكل صورها المادية التي توخّى الشاعر من خلالها إظهار معاناة الإنسان عن طريق تشابيه حسيّة هي أدنى إلى البيئة البدوّية الآسرة إلا أنها لا تختلف في الجوهر والتفاصيل مع معاناته الحقيقية الشاملة .

أمّا أسلوب لبيد ، فيبدو لنا من خلال معلّقته صعباً مغرقاً في البداوة وتبدو تلك الصعوبة واضحة في وصف ناقته وتشبيهها بالصور المستمدّة من البيئة الصحراوية الجافة التي توحي لأول وهلة بالرهبة والحذر اللذين يحسّهما الإنسان عادة قبيل اقتحام شيء مجهول ، ولكنه بعيد الاقتحام سرعان ما تتكشف له حقيقة تلك الصعوبة فيعزوها إلى بيئة لبيد البدوية ، تلك التي تكثر فيها أسماء المواضع والأمكنة ، وصفات الوحش والحيوان ، وليس إلى خياله ومعانيه ، لأنهما لم يفارقا في صورهما حدود ذلك الواقع الماديّ الضيق .

وعلى العموم ، فإن أسلوب لبيدٍ هو ذلك الأسلوب القويّ المتين الجزل ، الذي يتفاوت في غرابته بتفاوت الموضوعات التي يتحدّث عنها ، فهو في الوصف والفخر غيره في الرثاء والنسيب ، لأنه في الفنّين الأولين يبدو فخماً قوياً غريب الألفاظ ، أمّا في الفنين الآخرين فيبدو سمحاً مأنوساً رقيق الحواشي والاستعمالات ؟ .

---

(١) بدوي طبّانة معلقات العرب ص ١٦٢ .

عمرو بن كلثوم

هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل[1] الشاعر الجاهلي المشهور ، ويكنّى أبا الأسود وقيل : أبا عمير[2] وأمّه ليلى بنت المهلهل أخي كليب[3] وقيل : أسماء[4] وأمّها هند بنت بعج بن عتبة بن سعد بن زهير ، تزوجها المهلهل بعد أن أهديت إليه فولدت له ليلى والدة الشاعر ، ويحكى أن المهلهل قال لامرأته هند بعد ولادتها : أقتليها فأمرت خادماً لها أن تغيّبها عنه ، فلما نام هتف به هاتف يقول :

كم من فتىً مؤمل وسيّدٍ شمردل
وعدّة لا تجهل في بطن بنت مهلهل

فاستيقظ فقال : يا هند أين ابنتي ؟ قالت : قتلتها ، قال : كلاّ وإلـه ربيعة ، فكان أوّل من حلف بها ، فأصدقيني ، فأخبرته ، فقال : أحسني غذاءها[5] ثم ربّاها وسمّاها أسماء ، وقيل : ليلى ، وتزوّجها كلثوم بن مالك بن عتاب ، فلمّا حملت بعمرو أتاها آتٍ

---

(١) راجع المؤتلف والمختلف للآمدي ص ١٥٥ ـ ١٥٦ وتاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢٣٦ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٢٠٢ والأغاني ج ٩ ص ١٨١ .

(٢) معجم الشعراء للمرزباني ص ٢٠٢ ، كذلك راجع خزانة الأدب ص ٥٢٠ ج ١ .

(٣) الأغاني ج ٩ ص ١٨١ .

(٤) خزانة الأدب ص ٥٢٠ ج ١ .

(٥) الأغاني ج ٩ ص ١٨١ .

في المنام فقال :

يا لكِ ليلى من ولد   يقدم إقدام الأسد
من جشمٍ فيه العدد   أقول قولاً لا فند

فلمّا ولدت عمرو أتاها ذلك الآتي فقال :

أنا زعيمٌ لك أمّ عمرو   بماجد الجدّ كريم النحر
أشجع من ذي لبدٍ هزبر   وقّاص أقرانٍ شديد الأسر
يسودهم في خمسةٍ وعشر

وكان كما قال : سادهم وهو ابن خمس عشرة سنة[1] .

وهكذا ترتبط حياة عمرو بن كلثوم منذ بدايتها بالأساطير التي تحاك لتتوافق مع سيرة حياته التاريخية التي روتها كتب التاريخ والأدب ، وكأنّ الرجل قد أعدّ غيبيّاً ليكون سيّد تغلب ، تلك القبيلة التي كانت من أشدّ قبائل الجاهلية وأظهرها رجالاً وخيلاً وسلاحاً حتى زعم بعضهم في قول منسوب لأبي عمرو الشيباني : لو أبطأ الإسلام قليلاً لأكلت بنو تغلب الناس[2] .

أمّا فيما يتعلّق بتفاصيل حياته ونشأته الأولى فلا نعرف عنهما شيئاً إلا ما ذكرناه عن حادثتي أمه وولادته ، ولكنّنا بعد أن نراه فجأة يتسلم قيادة قومه التغلبيين وإمارتهم في سن مبكرة لا تكاد تتجاوز الخامسة عشر من العمر ، ويتحوّل عندئذ عمرو بن كلثوم إلى بطل أسطوري يرأس تغلب ويستمد من قوّتها ومن تيهها وأنفتها شموخاً واستكباراً ، فيغدو ذلك الفارس المقدام الذي يتعالى على الملوك ويستخفّ من الموت ، وينتفض على الذلّ والدنيّة والمهانة ، ويسير بتغلب في خطى السيّادة والعزّة ، ترفده في ذلك نفس أبيّة ، وهمّةٌ مقدامة تتصاغر العظائم أمام تطلعاتها التي لا تجد في الوجود شيئاً أبعد من متناول يدها القادرة وقد جرّ ذلك التعالي الذي بلغ حدّ النزق على تغلب ما لا يحمد عقباه ، فقد ذكرت كتب التاريخ أنّ خلافاً جديداً وقع بين بكر وتغلب بعد الخلاف الذي ألهب من قبل حرب البسوس ، ومفاده أنّ أناساً من بني تغلب أتوا قبيلة بكر بن وائل يستسقونهم ، فطردتهم بكر

---

(١) خزانة الأدب ص ٥٢٠ ج ١ .

(٢) راجع شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر محمد بن قاسم الأنباري ص ٣٦٩ ، وراجع خزانة الأدب ج ١ ص ٥١٩ .

للحقد الذي كان بينهم بسبب تلك الحرب الآنفة الذكر فمات منهم سبعون رجلاً عطشاً ، ثم أن بني تغلب اجتمعوا لحرب بني بكر بن وائل ، واستعدّت لهم بكر حتى إذا التقوا كرهوا الحرب ، وخافوا أن تعود الحرب كما كانت ، فدعا بعضهم بعضاً إلى الصلح ، فتحاكموا إلى الملك عمرو بن هند ، فقال عمرو : ما كنت لأحكم بينكما حتى تأتوني بسبعين رجلاً من أشراف بكر بن وائل ، فأجعلهم في وثاق عندي ، فإن كان الحقّ لبني تغلب دفعتهم إليهم ، وإن لم يكن لهم حق خلّيت سبيلهم ، ففعلوا ذلك وتواعدوا ليومٍ بعينه ، يجتمعون فيه[1] فجاءت تغلب في ذلك اليوم يقودها عمرو بن كلثوم وجاءت بكر بن وائل يقودها النعمان بن هرم ، وحدث جدال بين الفريقين في حضرة عمرو بن هند الذي أظهر آنذاك ميلاً للتغلبيين وآثرهم على البكريين الذين بدورهم استبدلوا رئيسهم بالحارث بن حلّزة ، ولكن عمرو بن كلثوم لم يحسن توظيف ذلك الميل لصالح قومه ، فراح ينشد أبياتاً من معلّقته في حضرة الملك مليئة بالتيه والتعالي على الناس والحاضرين ، وهذا ما أحدث ردة فعل في نفس عمرو بن هند الذي نراه بعد أن يستمع إلى أبيات الحارث الهادئة الرزينة يحكم لصالح البكريين ، فتستشيط تغلب غضباً ، ويستشيط شاعرها حماساً ومغالاة ، وينفضّ المجتمعون على حزازات ظلّت كامنة في النفوس حتى وجدت لها متنفساً في حادثة ثانية ذكرتها كتب الأدب وأدّت إلى مقتل عمرو بن هند تقول كتب الآدب : إنّ عمرو بن هند قال ذات يومٍ لندمائه ، هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمّه من خدمة أمّي ؟ فقالوا : نعم ، عمرو بن كلثوم ، قال : ولِمَ ذلك ؟ قالوا : لأنّ أباها مهلهل بن ربيعة ، وعمّها كليب وائل أعزّ العرب ، وبعلها كلثوم بن مالك بن عتّاب أفرس العرب ، وابنها عمرو بن كلثوم سيّد من هو منه ، فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ، ويسأله أن يزير أمّه ، فأقبل عمرو بن كلثوم من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب ، وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعنٍ من بني تغلب ، وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا ، وأتاه عمرو بن كلثوم في وجوه بني تغلب ، فدخل عمرو بن كلثوم على عمر بن هند في رواقه ، ودخلت ليلى بنت مهلهل أم عمرو بن كلثوم على هندٍ في قبّةٍ في جانب الرواق ، وهند أمّ عمرو بن هند عمّة امرىء القيس الشاعر ، وليلى بنت مهلهل أم عمرو بن كلثوم هي بنت أخي فاطمة بنت ربيعة أمّ امرىء القيس ، وقد كان أمَرَ عمرو بن هند أمّه أن تنحّي الخدم إذا دعا

---

(١) راجع خزانة الأدب ج أول ص ٥١٩ .

بالطرف وتستخدم ليلى ، فدعا عمرو بن هند بمائدةٍ فنصبها ، فأكلوا ، ثم دعا بالطرف فقالت هند : يا ليلى ناوليني ذلك الطبق ، فقالت ليلى : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعادت عليها وألحّت ، فصاحت ليلى ، واذلاه ، يا لتغلب ؟ فسمعها عمرو بن كلثوم ، فثار الدم في وجهه ، ونظر إلى عمرو بن هند فعرف الشرّ في وجهه فقام إلى سيفٍ لعمرو بن هند معلّق بالرواق ، ليس هناك سيفٌ غيره ، فضرب به رأس عمرو بن هند حتى قتله ، ونادى في بني تغلب ، فانتهبوا جميع ما في الرواق ، وساقوا نجائبه وساروا نحو الجزيرة ، ففي ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

بأيِّ مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

تَهَدَّدْنا وأوعدنا رويداً ... متى كنّا لأمّك مقتوينا؟[1]

ويعلّق الدكتور طه حسين على هذه الحادثة التي روتها أكثر كتب الأدب والتاريخ مستبعداً حدوثها فيقول : وهل من المعقول أن يقتل ملك الحيرة هذه القتلة ، ويقف الأمر عند هذا الحد بين آل المنذر وبني تغلب من ناحية ، وبين ملوك الفرس وأهل البادية من ناحية أخرى ؟ أليس هذا لوناً من الأحاديث التي كان يتحدّث بها القصاص يستمدّونها من حاجة العرب إلى المفاخرة والتنافس »[2] إلا أن الجواب على تساؤلات الدكتور طه حسين يُظهر أن الأمر لم ينته بهذه السهولة التي يرى فيها ضرباً من الخيال واللامعقول ، فالذي يراجع رواية الشعر والشعراء لهذه الحادثة يدرك أنّ التغلبيين فعلوا فعلتهم تلك وفرّوا إلى البادية لأن عمرو بن هند أمر أن يضرب رواقه بعيداً عن مقرّ ملكه بعض الشيء بين الحيرة والفرات ، وقد أدّى ذلك إلى تمكّن التغلبيين من الفرار قبل أن تصل جنود الملك القتيل للاقتصاص واستعادة ما انتهب من أملاك ، كما أن تلك الحادثة جرت بعد أن حكم عمرو بن هند لصالح البكريين أعداء التغلبيين ، وهذا ما ترك في نفوسهم مضاضة شديدة ليس من السّهل على قومٍ أعزّاء أشداء كالتغلبيين غفرانها أو نسيانها ، ولذلك فإنّهم ترقّبوا الفرصة المواتية كي يقتصّوا من ذلك الرجل الذي عمل على إذلالهم والإساءة إليهم ، فكانت في ذلك المكان الذي خُصِّص لإذلالهم ثانيةً ، ثم أن مجريات الأحداث لم تقف عند هذا الحدّ ، فقد ظلّ التغلبيون بعذ هذه الحادثة « يعانون التشرّد زمناً ، يناوئهم المناذرة وأحلافهم ويحاربونهم ، فالمنذر الرابع شقيق الملك القتيل اضطرهم إلى الجلاء عن

---

(١) الشعر والشعراء ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٢) في الأدب الجاهلي ص ٢٢٠ .

الجزيرة ، فأمّوا الشام موطن الغساسنة ، ذكر ابن الأثير من حوادثهم هناك عدم استقبالهم للحرث بن أبي شمّر أحد ملوك غسان عند مروره يوماً بهم ، فنتج عن ذلك قتال بين التغلبيين وبين غسّان ذهب ضحيّته عدد كبير من الغساسنة المنهزمين بينهم شقيق الملك ، وإلى ذلك يشير عمرو بن كلثوم في قوله مخاطباً الحرث :

هلّا عطفت على أخيك إذا دعا بالثكل ، ويل أبيك يا ابن أبي شمر

وفي عهد أبي قابوس النعمان بن المنذر ، عاد التغلبيون إلى الجزيرة ، فتصدّى المناذرة لمحاربتهم بقيادة المنذر بن ملك الحيرة ، وفي هذه المرّة أيضاً كان الانتصار حليف تغلب »[1] .

ويستمرّ عمرو بن كلثوم في قيادة قومه وزعامتهم ، ينتقل بهم من نصر إلى نصر ومن مكرمة إلى مكرمة ، ومن معركة إلى غزاة ، يساعده على ذلك قوم رأوا في الحروب وامتطاء صهوات الخيل وحمل السيوف والأسنّة شرفاً ، وأعراف جاهليّة رأت في القوّة والبسالة طريقاً إلى العزّة والكرامة ، إلاّ أن الحرب كرٌّ وفرّ ، نصر وهزيمة معادلتان لا بدّ منهما ، ولذلك لم تكن دائماً لصالح عمرو وقومه ، فقد ذكر ابن الأعرابي أن عمرو بن كلثوم أغار « على بني تميم ، ثمّ مرّ من غزوه ذلك على حيّ من بني قيس بن ثعلبة ، فملأ يديه منهم ، وأصاب أسارى وسبايا ، وكان فيمن أصاب أحد بني جندل السّعدي ، ثمّ انتهى إلى بني حنيفة باليمامة وفيهم أناسٌ من عجل ، فسمع به أهل حجر ، فكان أوّل من أتاه من بني حنيفة بنو سحيم ، عليهم يزيد بن عمرو بن شمّر ، فلمّا رآهم عمرو بن كلثوم ارتجز فقال :

من عاذ منّي بعدها فلا اجتبر ولا سقى الماء ولا أرعى الشجر
بنو سحيم وجعاسيس مضر بجانب الدوّ يديهون العكر

فانتهى إليه يزيد بن عمرو فطعنه عن فرسه وأسره ، وكان يزيد شديداً جسيماً فشدّ في القدّ وقال له : أنت الذي يقول :

متى نعقد قرينتنا بحبلٍ نجذّ الحبل أو نقص القرينا

أما إنّي سأقرنك إلى ناقتي هذه ، فأطردكما ، فنادى عمرو بن كلثوم : يا لربيعة !

---

(١) جورج غريّب : الشعر الملحمي ص ١٩ ـ ٢٠ .

أمثلة ؟ قال : فاجتمعت بنو سحيم فنهوه ، ولم يكن يريد ذلك ، فسار بـه حتى أتى قصراً بحجر من قصورهم وضرب عليه قبّة ، ونحر له وكساه وحمله على نجيبه وسقاه الخمـر ، فلما أخذت برأسه تغنّى :

أأجمـع صحبتي السّحر ارتحـالا	ولـم أشعـر ببيـنٍ منـك هـالا
ولـم أر مثـل هـالـة في معـدٍّ	أشـبّـه حسـنهـا إلّا الـهـلالا
ألا أبـلغ بـني جشـم بـن بـكـر	وتـغـلب كـلّـما أتـيـا حـلالا
بـأنّ المـاجـد القـرم ابن عمـرو	غـداة نـطاع قـد صـدق القتـال
كـتـيبـتـه مـلمـلمـة رداحٌ	إذا يـرمـونـهـا تـفني النـبـالا
جـزى الله الأعـزّ يـزيـد خيـراً	ولـقّـاه المـسـرّة والـجـمـالا[1]

وطالت سنيُّ عمرو بن كلثوم فعاش حوالي مائةٍ وخمسين سنة ، رأى فيها من ولده وولد ولده خلفاً كثيراً[2] وكان إلى جانب كونه فارس تغلب وشاعرها خـطيباً حكيمـاً ، فقد روي أنّه لمّا حضرته الوفاة جمع بنيه حوله وقال لهم : يا بنيّ قد بلغت من العمر ما لم يبلغه أحدٌ من آبائي ، ولا بدّ أن ينزل بي ما نزل بهم من الموت ، وإنّي والله ما عيّرت أحداً بشيء إلّا عيِّرت بمثله ، إن كان حقّاً فحقّا ، وإن كان باطلاً فباطلا ، ومن سَبَّ سُبَّ ، فكفّوا عن الشتم فإنّه أسلم لكم ، وأحسنوا جواركم يحسنُ ثناءكم ، وامنعوا من ضيم الغـريب فربَّ رجلٍ خيرٌ من ألف وردٌّ خيرٌ من خُلف ، وإذا حُدِّثتم فعوا ، وإذا حدَّثتم فأوجزوا ، فإن مع الإكثار تكون الأهذار ، وأشجع القوم العطوف بعد الكرّ ، كما أنّ أكرم المنايا القتل ، ولا خير فيمن لا رويّة له عند الغضب ولا من إذا عـوتب لم يعتِبْ ، ومن الناس من لا يـرجى خيره ، ولا يخاف شرّه فبكؤه خيرٌ من درّه ، وعقوقه خيرٌ من برِّه ، ولا تتزوّجوا في حيّكم فإنّه يؤدّي إلى قبيح البغض »[3] .

بهذه الوصيّة التي ذكرتها كتب الأدب اختتم عمرو بن كلثوم حياته ، وهي وصيّة تبدو وكأنّها ردٌّ على معلّقته التي أفقدت قومه بحماستها وغلوّها رشدهم وتوازنهم ، فأراد أن يعيد إليهم بها ما افتقدوه من حكمةٍ ورويّة وبعد نظر ، وكانت وفاة عمرو في سنة ٦٠٠ م[4] ومن

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٨٣ .

(٢) راجع معجم الشعراء للمرزباني ص ٢٠٢ ، والأغاني ج ٩ ص ١٨٤ ، وخزانة الأدب ج ١ ص ٥٢٠ .

(٣) الأغاني ج ٩ ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٤) راجع جرجي زيدان تاريخ أدب اللغة العربية ج أول ص ١٠٩ .

عقبه العتّابي ، الشاعر المشهور واسمه كلثوم بن عمرو ، وكان كاتباً مجيداً في الرسائل ، وشاعراً مجيداً[1] .

تلك هي بعض من سيرة عمرو التاريخية ، أمّا سيرته الأدبية فقد طغت عليها معلّقته التي استأثرت بآراء النّقاد والدارسين نظراً لشهرتها وذيوعها بين الناس ، ولم تصل المعلّقة برمّتها إلينا ، بل وصلنا بعضاً منها ، ويروى أنها كانت تزيد على ألف بيت ، كما كان بنو تغلب يعظّمونها ويلقّنونها صغارهم ، ويتناقلونها أباً عن جدّ ، وكابراً عن كابر إلى مدّة طويلة من الزمن[2] فدخلها من جرّاء ذلك بعض الخلط والتزيُّد ، ويقول ابن قتيبة عنها : وهي من جيد شعر العرب القديم ، وإحدى السبع ، ولشغف تغلب بها وكثرة روايتهم لها قال بعض الشعراء :

ألهى بني تغلبٍ عن كلّ مكرمةٍ ... قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يفاخرون بها مذ كان أوّلهم ... يا للرّجال لفخر غير مسؤوم[3]

وقد جعل ابن سلّام الجمحي عمرو بن كلثوم في الطبقة السادسة من الشعراء الذين ترجم لهم ، وقال : أربعة رهطٍ لكلّ واحدٍ منهم واحدة ، أوّلهم عمرو بن كلثوم . . . وله قصيدته التي أوّلها :

ألا هبّي بصحنك فاصبحينا[4]

وذكر أنّ أبا عبيدة قال : أجود الشعراء قصيدة واحدة طويلة ثلاثة نفر :

عمرو بن كلثوم والحارث بن حلّزة وطرفة بن العبد[5] ويروي صاحب الجمهرة أن الذين قدّموا عمرو بن كلثوم قالوا : هو من قدماء الشعراء ، وأعزّهم نفساً وأكثرهم امتناعاً وأجودهم واحدة ، قال عيسى بن عمر : لله درّ عمرو بن كلثوم ، أي حلس شعر ووعاء علم ، لو أنّه رغب فيما رغب فيه أصحابه من الشعراء ، وإنّ واحدته لأجود سبعهم[6] وإلى هذا الرأي الأخير ذهب المفضّل الضبّي وزاد عليه فقال : لله درّ عمرو بن كلثوم ، لو أنّه

---

(1) راجع الشعر والشعراء ص ١٣٩ .

(2) راجع شعراء النصرانية ج أول ص ١٩٨ ، وتاريخ آداب اللغة العربية ج أول ص ١١٠ .

(3) الشعر والشعراء ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(4) طبقات الشعراء ص ٦٤ .

(5) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص ١٣٢ .

(6) الجمهرة ص ٣١ .

رغب في ما رغب فيه أصحابه من كثرة الشعر ، ولكنّ واحدته أجود من مائتهم[١] وذُكر أن معاوية بن أبي سفيان قال : قصيدة عمرو بن كلثوم وقصيدة الحارث بن حلّزة من مفاخر العرب ، كانتا معلّقتان بالكعبة دهراً[٢] .

وهكذا يبدو من الأقوال السابقة أنّ معلّقة عمرو قد حظيت بالاهتمام الزائد الذي جعل جهود العلماء منصبّة عليها ، فألغت بشهرتها كلّ شعر لعمرو غيرها ، وهذا ما حدا بأبي عمرو بن العلاء إلى القول : إن عمرو بن كلثوم لم يقل غير واحدته ، ولولا أنّه افتخر في واحدته وذكر مآثر قومه ما قالها[٣] .

وهذه القلّة حملت بعض النّقاد على التقليل من مكانة عمرٍو الشاعريّة ، فقد ذُكر أنّ أبا حاتم قال : سألت الأصمعي عن عمرو بن كلثوم ، أفحلٌ هو؟ فقال : ليس بفحل[٤] وحكم الأصمعي هنا ينطلق من معيارٍ يراعي بمنظورنا الكثرة والجودة ، لأنّ عمرو لم يؤثر عنه غير معلّقته تلك ، على العكس من الشعراء الفحول الذين أوثر عنهم إلى جانب معلّقاتهم كثيرٌ من الشعر الجيد .

أما سيرته الشخصية ، فلم تذكر المصادر إلا يسيراً عنها ، فقد أجمعت كلّها تقريباً على ذكر ذلك اليسير ، وتناولت في شخصيّة عمرو صفاتٍ ثابتة يمكن أن نستشفّها من خلال معلّقته ، وهذه الصفات تظهر أنّ الرجل كان سيّداً في قومه ، وفارساً مشهوراً من فرسان العرب ، إضافةً إلى كونه شاعراً وخطيباً ، وقد نعتته تلك المصادر بأنّه أحد فتاك الجاهلية ، أو فتاك العرب[٥] وهذا يدل على إقدام الشاعر وجرأته التي بلغت في بعض الأحيان حدّ التهور ، كالذي حدث عند إقدامه على الفتك بعمرو بن هند في رواقه .

ذاك هو عمرو بن كلثوم الذي نظر إلى نفسه فوجد أنّها تمتلك كلّ الأسباب التي تخوّلها أن تفتخر على الناس في مقاييس الجاهلية وأعرافها ، فهو صاحب الحسب والنسب ، والقوّة والسلطان ، والشجاعة والأدب ، ولذلك راح عمرو يتوعّد هذا ، ويهدد

---

(١) شعراء النصرانية ج أول ص ٢٠٣ .
(٢) خزانة الأدب ج أول ص ٥١٩ .
(٣) الجمهرة ص ٣١ .
(٤) الموشح للمرزباني ص ١١٩ .
(٥) راجع معجم الشعراء للمرزباني ص ٢٠٢ ، وخزانة الأدب ص ٥٢ ج أول .

ذاك ، ويفتك بآخرين ، دون أن يجد في ذلك غضاضة أو جهلاً ، لأنّ شرائع العصر فرضت عليه أن يكون دائماً في موضع المواجه الذي يصدِم قبل أن يُصدَم ، وينقضّ قبل أن ينقضّ عليه ، بل وأباحت له أن يستقـوي على الناس ويتعـالى عليهم ، لأنّ في ذلك الاستقـواء والتعالي يكمن الفخر وتتحقق العزّة ويرهب الجانب .

معلّقة عمرو بن كلثوم

ألَا هُبّي بصحنِكِ فاصبَحينا وَلَا تُبقي خُمورَ الأندرينا[١]

مُشَعشعة كأنَّ الحُصَّ فيها إذا ما الماء خالطَها سخينا[٢]

تَجورُ بذي اللُّبانةِ عن هواهُ إذا ما ذَاقها حتى يَلينا[٣]

تَرَى اللَّحِزَ الشحيحَ إذا أُمِرَّتْ عليه لماله فيها مُهينا[٤]

صَبَنْتِ الكأسَ عَنا، أمَّ عَمروٍ وكان الكأسُ مَجرَاها اليمينا[٥]

وما شَرُّ الثلاثة أُمَّ عَمْروٍ بصاحبك الذي لا تُصْبحينا[٦]

وكأسٍ قدْ شَرِبْتُ ببعْلبكٍّ وأُخرى في دمشْقَ وقاصرينا[٧]

وإنّا سوفَ تُدركُنا المنايا مُقدّرَةً لنا ومقدّرينا[٨]

---

(١) هبّ من نومه : استيقظ . الصحن : القدح العظيم . الصبح : سقي الصبوح . الاندرين : اسم قرية من قرى الشام .

(٢) شعشعت الشراب : مزجته بالماء . الحص : الورس نبت له زهر أحمر يشبه الزعفران . سخيناً : منهم من جعلها صفة بمعنى الحار، ومنهم من جعلها فعلاً بمعنى : سخى يسخى من الكرم والجود .

(٣) تجور : تميل . ذو اللبانة ذو الحاجة .

(٤) اللحز الشحيح : الضيق الصدر والبخيل .

(٥) صبنتِ : صرفتِ . والمعنى كان مجرى الكأس عن اليمين فأجريتها على اليسار .

(٦) تصبحينا : سقي الصبوح .

(٧) قاصرينا : اسم بلدة .

(٨) المنايا : جمع منية . الموت .

قفي قَبلَ التفرُّق يا ظعينا ... نُخبرك اليقينَ وتُخبرينا[(١)]
قفي نَسألك هلْ أحدثت صرْماً ... لوَشْك البين أمْ خُنْت الأمينا[(٢)]
بيوم كريهةٍ ضرْباً وطعْناً ... أقرّ به مَواليك العُيونا[(٣)]
وإنّ غداً ، وإنّ اليوم رهنٌ ... وبعدَ غدٍ، بما لا تعلمينا[(٤)]
تريك إذا دخلْتَ على خَلاءٍ ... وَقَد أمِنَتْ عيونُ الكاشحينا[(٥)]
ذراعَي عَيطل أدْماءَ بِكْر ... هِجان اللّونْ لم تَقرأْ جنينا[(٦)]
وثَدْياً مثلَ حُقّ العاج رخصاً ... حصاناً من أكُفّ اللامسينا[(٧)]
ومتني لَدْنةٍ سمقت وطالت ... روادفُها تنوءُ بما ولينا[(٨)]
ومأكمة يضيق البابُ عنها ... وكشحاً قد جُننْتُ به جُنونا[(٩)]
وساريتيْ بلنطٍ أو رُخام ... يرنُّ خشاشُ حَليْهما رنينا[(١٠)]
فما وَجَدَتْ كوَجدي أمُ سَقبٍ ... أضَلّتهُ فرَجّعتِ الجنينا[(١١)]

---

(١) ظعينا : ترخيم ظعينة : المرأة الراحلة في هودجها .
(٢) الصرم : القطيعة والهجر . الوشك : السرعة . والوشيك : السريع . الأمين : بمعنى المأمون .
(٣) الكريهة : من أسماء الحرب . سميت به لأن النفوس تكرهها .
(٤) أي بما لا تعلمين من الحوادث .
(٥) الكاشح : المضمر العداوة .
(٦) العيطل : الطويل العنق من النوق .
الأدماء : الناقة البيضاء . بكر : الناقة التي حملت بطناً واحداً . الهجان : الأبيض الخالص البياض . لم تقرأ جنيناً : أي لم تضم في رحمها ولداً .
(٧) رخصاً : ليّناً . حصاناً : عفيفة .
(٨) اللدن : اللين . سمقت : طالت . الروادف : جمع رادفة . والرادفتان فرعا الإليتين . النوء النهوض في تثاقل . ولينا : قربنا .
(٩) مأكمة : رأس الورك . الكشح : منقطع الأضلاع .
(١٠) سارية : أسطوانة . بلنط : عاج .
(١١) وجدتُ : حزنت . سقب : ورد في شرح الزوزني : قال القاضي أبو سعيد السيرافي : البعير : بمنزلة الإنسان ، والجمل بمنزلة الرجل . والناقة بمنزلة المرأة ، والسقب بمنزلة الصبي ، والحائل بمنزلة الصبية ، والحوار بمنزلة الولد والبكر بمنزلة الفتى ، والقلوص بمنزلة الجارية . رجّعت : رددت الصوت .

ولا شَمْطاءُ لم يَتركْ شقاهَا ... لها مِنْ تسعةٍ إلَّا جَنِينا[1]
تَذكَّرتُ الصبَا واشتقتُ لما ... رأيتُ حُمولَها أصلاً حُدِينا[2]
فأعرَضتِ اليمامةُ واشمخرَّتْ ... كأسيافٍ بأيدي مُصلِتينا[3]
أبَا هِندَ فَلاَ تَعجلْ علينا ... وأنظِرْنا نُخبِّرْكَ اليقينَا[4]
بأنّا نُورِدُ الراياتِ بيضاً ... ونُصدِرُهُنَّ حُمراً قد روينا[5]
وأيامٍ لنا غُرٍّ طِوالٍ ... عَصينا الملكَ فيها أنْ نَدينا[6]
وسَيِّدِ معشرٍ قَدْ تَوَّجوهُ ... بتاجِ الملكِ يَحمي المحجرينا[7]
تَركنا الخيلَ عاكفةً عليهِ ... مقلدةً أعنتها صُفونا[8]
وأنْزلنا البيُوتَ بِذي طُلوحٍ ... إلى الشاماتِ تنفي المُوعِدينا[9]
وَقَدْ هرَّتْ كلابُ الحيِّ مِنَّا ... وشَذَّبنا قتادَةَ مَنْ يَلينا[10]
مَتى ننقِل إلى قومٍ رحَانا ... يكونوا في اللقاءِ لَها طَحينا[11]
يَكُونُ ثِفالُها شَرْقيَّ نَجْدٍ ... وَلُهْوَتُها قُضاعَةَ أجمعينا[12]
نَزلتُمْ مَنزِلَ الأضْيافِ مِنّا ... فأعجلْنا القِرَى أن تشتِمونا[13]

---

(١) شمطاء : بيضاء الشعر . الجنين هنا بمعنى المستور في القبر .

(٢) الحمول : جمع حامل يريد إبلها . حُدينَ : سبقت في العشي .

(٣) أعرضت : ظهرت . اشمخرّت : ارتفعت . مصلتين : سالّين سيوفهم .

(٤) أبا هندٍ : يريد عمرو بن هند . أنظِرْنا : إمهلنا .

(٥) الراية : العلم . جمع الرايات .

(٦) الأيام : بمعنى الوقائع . غرٌّ : بمعنى المشاهير كالخيل الغرّ . أن ندينا : أي كراهية أن ندين . أي نطيع .

(٧) المحجرين : الملجئين .

(٨) عاكفة : قائمة . صفونا : جمع صفون وهو الرس القائم على ثلاث قوائم .

(٩) ذي الطلوح : اسم موضع . الموعدينا : أرعد : هدد .

(١٠) هرّت: نبحت نباح المنكر. شذّب : قطع الأغصان الزائدة عن الشجرة . القتاد : شجر ذو شوك . يلينا : يقرب منّا .

(١١) الرحى : أي رحى الحرب . استعار للحرب اسم الرحى ولقتلاها اسم الطحين .

(١٢) الثفال: جلدة تبسط تحت الرحى ليقع عليها الدقيق . اللهوة : القبضة من الحبّ توضع في فم الرحى .

(١٣) القِرى : الضيافة .

قَـرَيـنـاكُـمْ فَـعـجّـلَـنـا قِـراكُـمْ ... قُبَيْـل الصُبـح ِ مِـرداةً طَحُـونـا[١]

نـعُمُّ أُنـاسـنـا ، ونـعـفُّ عـنـهـمْ ... ونَـحمـلُ عـنهُـمُ مَـا حَمَّـلُونـا[٢]

نُـطاعنُ مـا تـراخى النـاسُ عنـا ... ونضـربُ بـالسيـوفِ إذا غشينـا[٣]

بِـسُمـرٍ مِـن قَـنـا الـخـطّيِّ لُـدْنٍ ... ذوابِـلَ أو بـبيضٍ يـختَـلينـا[٤]

نـشقُّ بـهـا رؤوسَ الـقـوم شَـقّـاً ... ونختـلبُ الـرِّقـابَ فتـختـلينـا[٥]

كـأنّ جـمـاجـم الأبـطال فـيـهـا ... وسـوقٌ بـالأمـاعـز يـرتمينـا[٦]

وإنَّ الضِّغْـنَ بعـد الـضّغـنِ يبـدو ... عليـكَ ويُخـرجُ الـداءَ الدفينـا[٧]

ورِثنـا المجْـدَ قَـد عَلِمَـتْ مَعَـدٌّ ... نُـطاعـنُ دونـهُ حتى يبينـا[٨]

ونـحنُ إذا عِـمـادُ الـحيِّ خَـرَّتْ ... عن الأحفـاص نمنـعُ مَنْ يَلينـا[٩]

نَـجُـذُّ رُؤوسَـهـم فـي غـيـر بِـرٍّ ... فـمـا يَـدرونَ مـاذا يَتـقـونـا[١٠]

كـأنّ سُـيـوفَـنـا فـيـنـا وفـيـهـم ... مـخـاريقٌ بـأيـدي لاعبينـا[١١]

كـأنّ ثـيـابـنـا مـنّـا ومنـهـمْ ... خُـضبْـنَ بِـأرجُـوانٍ أو طُلينـا[١٢]

إذا مـا عَـيَّ بـالإسـنـافِ حـيٌّ ... من الهَـوْل المُشبَّـه أن يكـونـا[١٣]

---

(١) قريناكم : قدمنا لكم القِرى . المرداة : الصخرة التي يكسر بها الصخور .

(٢) أناسنا : عشائرنا . يقول الزوزني : ونحمل عنهم ما حمّلونا من أثقال حقوقهم ومؤنهم .

(٣) التراخي : البُعد . الغشيان : الإتيان .

(٤) السُّمر : الرماح . اللدن : اللين . أي نطاعنهم برماح سمرٍ لينةٍ ، أو نضاريهم بسيوفٍ بيضٍ يقطعن ما ضُرب بها .

(٥) الأخلاب : قطع الشيء بالمخلب وهو المنجل . والاختلاء : قطع الخلاء وهو رطب الحشيش . المعنى : نشق بها رؤوس الأعداء شقاً ونقطع بها رقابهم .

(٦) الوِسوق : جمع وسق وهو حمْلُ البعير . الأماعز : الأماكن الكثيرة الحجارة .

(٧) الضِغن : الحقد . أي أن الضعن بعد الضعن تنشر آثاره ويبعث على الانتقام .

(٨) يبين : يظهر .

(٩) وروى « الاحفاض » بدل « الاحفاص » والاحفاض أو الأحفاض : هي الخيام أو الأمتعة .

(١٠) الجذُّ : القطع .

(١١) المخاريق : جمع المخراق ، وهو سيف من خشب .

(١٢) خضبتْ : طليت .

(١٣) عيَّ : عجز . الأسنان : الاقدام .

نصبْنا مثلَ رَهْوةَ ذاتَ حدٍّ ... مُحافظة، وكُنا السابقينا[1]
بشُبّانٍ يَرونَ القتلَ مَجداً ... وشيبٍ في الحروب مُجربينا[2]
حُدَيَّا الناس كلِّهم جميعاً ... مُقارعَةً بَنيهِمْ عَنْ بَنينا[3]
فأمَّا يومَ خَشْيتِنا عليهم ... فتُصبحُ خيلُنا عُصباً ثُبينا[4]
وأما يَوْمَ لا نَخشى عليهم ... فنُمعنَ غارةً مُتلبِّبينا[5]
برأسٍ مِنْ بَني جُشَمِ بن بَكْرٍ ... نَدق به السُّهولةَ والحُزونا[6]
ألا لا يَعْلم الأقوامُ أنَّا ... تَضعْضَعْنا، وأنَّا قَدْ وَنينا[7]
ألا لا يجهلنْ أحدٌ علَينا ... فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا[8]
بأيِّ مَشيئةٍ عَمرو بنِ هِندٍ ... نَكونُ لِقيلكمْ فيها قَطينا[9]
بأيِّ مَشيئةٍ، عَمرو بْنِ هندٍ ... تَرى أنَّا نكونُ الأرذلينا
بأيِّ مَشيئةٍ عَمروَ بْنَ هندٍ ... تُطيعُ بنا الوُشاةَ وتَزْدرِينا[10]
تَهَدّدْنَا وتوعدنا رُوَيداً ... مَتى كُنَّا لأُمِّكَ مَقتوينا[11]
فإنَّ قَناتنا يَا عمرُو أعيتْ ... عَلى الأَعْداء قبلكَ أنْ تَلينا[12]
إذا عَضّ الثقافُ بِها اشمأزّتْ ... وَوَلَّتهمْ عَشوزنةً زُبونا[13]

---

(١) رهوة : اسمُ جبلٍ أو كتيبة .
(٢) وروي « بفتيان » بدل « بشبانٍ » .
(٣) حُدَّيا : صيغة تصغير من « تحدّي » .
(٤) العُصبُ : جمع عصبة وهي ما بين العشرة والأربعين . الثبة : الجماعة .
(٥) الامعان : الإسراع والمبالغة في الشيء . التلبب : لبس السلاح .
(٦) رأس : رئيس . السهولة والحزونا : أي الضعاف والأشدّاء .
(٧) تضعضعنا : تكسرنا وتذللنا . ونينا : فترنا .
(٨) في هذا البيت إشارة إلى جاهلية عصر الشاعر .
(٩) القيل : بفتح القاف : الملك دون الملك الأعظم . القطين : الخدم .
(١٠) ازدراه وازدرى به : قصّر به واحتقره . .
(١١) القتو : خَدَمة الملوك .
(١٢) أعيت : صعبت .
(١٣) الثقاف: الحديدة التي يقوم بها الرمح . العشوزنة : الصلبة الشديدة . الزبون : الدفوع . وقولهم : زبنت الناقة حالبها : إذا ضربته بثقاف رجلها .

عـشـوزنـةً إذا انـقـلـبت أرنَّـتْ تشـجُ قَفـا المثقَّف والـجبـينـا[١]

فهــلْ حُــدِّثت في جُشم بْن بكـرٍ بـنقص ٍ فـي خُـطوب الأوّلـينـا[٢]

وَرِثْنـا مجـدَ عـلقمـةَ بـن سيفٍ أبـاح لنـا حُصـونُ المجْـدِ دينَـا[٣]

ورثـتُ مُـهلهـلاً والخيْـر منـهُـمْ زُهيـراً نعم ذُخْرُ الـذاخـرينـا

وعَـتَّـابـاً وكُـلثـومـاً جـميـعـاً بـهم نِـلنـا تُـراثَ الأكـرمينـا[٤]

وذا الـبُـرةِ الـذي حُـدِّثْتَ عَـنـهُ بـه نُحمى، ونَحمي المُحجرينا[٥]

ومـنّـا قَـبـلَهُ الـسَّـاعـي كُـلَيـبٌ فـأيُّ الـمجْـد إلاَّ قـد ولـينـا[٦]

مـتى نـعقِـدْ قـرينتنـا بـحبـلٍ نَجُـذ الحبل، أو نَقص ِ القـرينـا[٧]

ونـوجَـدُ نـحنُ أمـنـعـهـمْ ذِمـاراً وأوفـاهـمْ إذا عَقـدُوا يـمـيـنـا[٨]

ونـحنُ غَـداةَ أُوقِـدَ فـي خَـزازَى رَفَـدْنـا فـوقَ رِفْـدِ الـرَّافـدينـا[٩]

ونحن الحـابسـونَ بـذي أراطـى تَسُفُّ الجِلَّةُ الـخُـورُ الـدَّرينـا[١٠]

ونـحنُ الـحـاكمـونَ إذا أُطـعْـنـا ونحنُ العـازمـونَ إذا عُصِينـا[١١]

ونحنُ التـاركـونَ لِمـا سَخِـطنـا ونحن الآخـذُونَ لِمـا رَضِينـا[١٢]

وكُـنَّـا الأيـمـنِـينَ إذا الـتـقَـيـنـا وكـانَ الأيـسَـرينَ بـنُـو أبينا[١٣]

---

(١) أرنّت : أحدثت رنيناً .

(٢) الخطوب : الخطب . الشأن والأمر جمع خطوب .

(٣) الدين : القهر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فلولا أن كنتم غير مدينين** ﴾ أي غير مقهورين .

(٤) روي « الأجمعينا » بدل « الأكرمينا » .

(٥) ذو البرّة : رجل من بني تغلب سمي بهذا الاسم لشعر كان مستديراً كالحلقة على أنفه .

(٦) المعنى : أي مجدٍ إلاَّ وقد وليناه فحويناه .

(٧) قرينتنا : ناقتنا . نجذّ : نقطع الوقص : دقّ العنق ، والفعل وقص يقص .

(٨) الذمار : العهد ، والحلف ، والذمة .

(٩) خزازي : جبل كانو يوقدون عليه النار ، إعلاناً للغارة . رفدنا : الرفد : الإعانة .

(١٠) ذي أراطى: اسم موضع. تسفُّ : أي تأكل يـابساً . الجلّة : الكبـار من الإبل . الخور : الكثيرة الألبان . الدرينا : ما اسود من النبت وقدم .

(١١) وروي العجز : « ونحن العاصمون إذا عصينا » .

(١٢) السخط : ضد الرضا .

(١٣) روي العجز : « وكان الأيسرون بني أبينا » .

فصالُوا صولةً فيمن يَليهِم وصُلنَا صَوْلةً فيمن يَلينا[1]
فآبوا بالنّهابِ وبالسَّبايا وأُبْنا بالمُلوك مُصَفَّدينا[2]
إليكمْ يا بني بَكرٍ إليكمْ ألمَّا تعرِفوا مِنّا اليقينا[3]
أَلَمَّا تَعرفوا مِنّا ومِنكمْ كتائِبَ يَطَّعِنَّ ويرتمِينا[4]
علينا البَيْضُ واليَلَبُ اليماني وأسيافٌ يَقُمْنَ وينحنينا[5]
علينا كلُّ سابغةٍ دِلاصٍ ترى فوق النّطاق لها غُضونا
إذا وُضِعَتْ عن الأبطال يوماً رأيتَ لها جُلودَ القومِ جُونا[6]
كأنّ غُصونَهُنّ مُتونُ غُدْرٍ تُصفّقُها الرِّياحُ إذا جَرينا[7]
وتَحملنا غداةَ الرَّوْعِ جُرْدٌ عُرِفْنَ لنا نَقائِذَ وافتُلِينا[8]
وَرَدْنَ دوارعاً، وخَرَجْنَ شُعْثاً كأمثال الرَّصائع قد بَلِينا[9]
ورِثناهنّ عن آباءِ صِدْقٍ ونورِثها إذا مُتْنا بَنِينا[10]
على آثارنا بِيضٌ حِسانٌ نُحاذرُ أن تُقَسَّم أو تَهونا[11]
أخذْنَ على بُعولتهنّ عهداً إذا لاقَوْا كتائبَ مُعلَمينا[12]

---

(١) صال : حمل على الأعداء .

(٢) آبوا : عادوا . النهاب : الغنائم . مصفدين : مقيّدين بالأصفاد .

(٣) يُقال : إليك إليك أي تنحَّ .

(٤) يطَّعِنّ : بشدّ الطاء ، يطعن بعضها بعضاً .

(٥) اليلب اليماني : نسيجة من سيور تلبس تحت البيض وهي من صنع اليمن .

(٦) جون : جمع الجَون بفتح الجيم وهي تعني الأبيض والأسود .

(٧) الغُدُر : جمع غدير . تصفقه : تضربه . شبَّه غضون الدروع بمتون الغدران إذا ضربتها الرياح في جريها .

(٨) الرّوع : الفزع ، وهنا بمعنى الحرب . جُردٌ : أي التي رقّ شعر جسدها وقصُر . نقائذ : جمع نقيذة المخلصات من أيدي الأعداء . الفلو والافتلاء : الفطام .

(٩) دوارع : عليهم الدروع . شعثاً : متفرقين . الرصائع : جمع الرصيعة ، وهي عقدة العنان على قذال الفرس .

(١٠) آباء صدقٍ : آباءٌ شأنهم الصدق قولاً وفعلاً .

(١١) أي على آثارنا في الحروب نساء بيضٌ حسان ، نحاذر عليها من أن تسبيها الأعداء فتقسمها وتهينها .

(١٢) معلّمينا : لهم علامات يعرفون بها في الحروب .

لِيستلِبُنَّ أفراساً وبِيضاً وأسرى في الحديث مُقرَّنينا[1]

تَرانا بارزينَ وكلُّ حَيٍّ قد اتَّخذُوا مَخافتنا قَرينا[2]

إذا ما رُحْن يمشِينَ الهوَينى كما اضطرَبتْ مُتونُ الشاربينا[3]

يَقُتْنَ جيادنا ويقُلْنَ لستُمْ بُعولَتنا إذا لم تَمنعونا[4]

إذا لم نَحمِهنّ فلا بَقينا لِشيءٍ بَعدَهنّ ولا حَيينا[5]

ظَعائنَ من بَني جُشم بن بكرٍ خلطن بميسم حسباً ودينا[6]

وما مَنعَ الظَّعائِنَ مِثلُ ضرب تَرى مِنهُ السواعِدَ كالقُلينا[7]

كأنّا والسيوفُ مُسلَّلاتٌ وَلَدْنَا الناس طُراً أجمعِينا[8]

يُدَهدونَ الرؤوس كَما تُدهدى حَزاوِرة بِأبطَحِها الكُرينا[9]

وَقدْ عَلِمَ القبائِلُ مِنْ معدٍّ إذَا قُبَبٌ بِأبطحها بُنِينا[10]

بِأنَّا المطعمون إذا قَدَرْنا وأنا المهلِكون إذا ابتُلينا[11]

وأنا المانعونَ لِما أَرَدْنا وأنا النازِلونَ بحيثُ شينا[12]

وأنّا المانعون لما يَلينا إذا ما البيضُ زايلت الجفونا[13]

---

(١) مقرّنين : مصفّدين ومقيّدين .

(٢) بارزين : خارجين للمبارزة .

(٣) الهوينى : تصغير الهوني . والهوني تصغيراً الأهون . والمعنى : يمشي مشياً رفيقاً . الشاربينا : السكارى .

(٤) يقتن : يطعمن القوت . بعولتنا : أزواجنا . تمنعونا : تحمونا من الأعداء .

(٥) روي العجز أيضاً : بخير بعدهنَّ ولا حيينا .

(٦) الظعائن : الهودج فيه امرأة . الميسم : الحسن والوسامة .

(٧) القلينا : القلّة إذا ضربت بالمقلاة .

(٨) طرّاً : جميعاً .

(٩) يدهدهون : يدحرجون . حزور : جمع حذور وهو الغلام الشديد الغليظ . الأبطح : المطمئن من الأرض . الكرينا : الكرة .

(١٠) وروى محمد بن خطاب صدر البيت : « وقد علم القبائل غير فخرٍ » .

(١١) قدرنا : طبخنا في القدر .

(١٢) شينا : شئنا .

(١٣) معنى العجز : إذا ما الجفون البيض بارحت جفونها . والجفن هو قراب السيف .

وأنّا التاركُونَ إذَا سَخطنا ... وأنّا الآخذُونَ إذا رضِينا[١]
وأنا العاصمونَ إذا أُطِعنا ... وأنا العارمونَ إذا عُصينا[٢]
ونشربُ إنْ وردْنا الماء صفواً ... ويشربُ غيرُنا كدراً وطِينا[٣]
ألا أبلغْ بني الطَّماح عنا ... ودعميّاً فكيْف وجدتمُونا
إذا ما الملكُ سام الناس خسفاً ... أبينا أنْ نُقرَّ الذُّلَّ فينا[٤]
لَنَا الدُّنيا ومَنْ أمْسَى عَلَيْها ... وَنبطشُ حِينَ نَبطِشُ قَادِرينا[٥]
بَغاةً ظَالِمينَ وَما ظُلِمنا ... وَلَكِنَّا سنبدأُ ظَالِمينا[٦]
مَلأنا البرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنا ... وظهْرُ البحْرُ نملَؤه سفِينا[٧]
إذَا بَلغَ الرضيعُ لَنا فِطَاماً ... تَخِرُّ لَه الجبابرُ سَاجدينَا[٨]
تنادَى المصَعبان وآلُ بكر ... ونادَوا يا لكندَةَ أجمعينا[٩]
فإن نغلب فغلاّبونَ قِدْماً ... وإن نغلبْ، فغير مغلّبينا[١٠]

---

(١) يقول الزوزني في تفسير البيت : أي لا نقبل عطايا من سخطنا عليه ونقبل هدايا من رضينا عليه .
(٢) العاصمون : المانعون من الضيم . العارمون : من العرامة : أي الشراسة .
(٣) المعنى أننا نأخذ من كل شيء أفضله ، يريد أنهم السادة وغيرهم الاتباع .
(٤) السوم : أن تجشم إنساناً مشقة وشرّاً . سامه خسفاً : حمله وكلفه ما فيه ذلّة . الخسف : الذلّ .
(٥) وروي : « أضحى عليها » بدل « أمسى عليها » .
(٦) هذا البيت لم يرد في رواية محمد بن الخطاب : « ورويت « شمس » بدل « بغاة » .
(٧) وروي « ظهر البحر » و « ماء البحر » .
(٨) ورواه الخطيب : « إذا بلغ الفطام لنا صبيٌ » . خرّ : سقط .
(٩) و (١٠) هذان البيتان هما لفروة بن مسيك الصحابي ، ولكن محمد بن الخطاب أوردهما في روايته على أنهما لعمرو بن كلثوم .

تحليـل المعـلقة

يفتتح عمرو بن كلثوم معلّقته بذكر الخمرة على غير عادة الشعراء الجاهليين ، الذين افتتحوا قصائدهم بذكر الأحباب والأطلال ، وهذا ما جعل بعض القدماء يشكّون في تلك الافتتاحية ويعتبرون أنّ مطلع المعلّقة هو قول الشاعر :

قِفي قبل التفرّق يا ظعينا نخبّرك اليقين وتخبرينا

إلاَّ أن أكثر المصادر أثبتت تلك الافتتاحية التي ذهب عمرو فيها يصف الخمرة في أبياتٍ ربّما استطعنا من خلالها أن نستشف أن تلك الروح الثائرة التي كانت الخمرة وذكر أوصافها وفعالها وما تلحقه بالإنسان من سرورٍ ونشوة تمهيداً لها وتوطئةً لذكر ما يماثلها ، فليس التبكير إلى أماكن شرابها ببعيدٍ عن التبكير إلى الغايات التي يسعى الإنسان إلى تحقيقها والفوز بها في وقتٍ يجمع النشاط والمباغتة ، وليس الإقبال عليها حتّى نفاد الدّنان إلاَّ كالإقبال على الحرب وإفناء الأعداء وتركهم في ساحات الوغى مصرّعين كالدنان المطرّحة في حانات الشراب ، وليس لونها الأحمر ذاك إلاَّ لون الدماء الراعفة من جراح القتلى ، وهي تخالط رمال الصحراء ممزوجة بها ، وليس ذلك الجور والميل بذي الحاجة والهوى عن حاجته وهواه إلاَّ دليلٌ على تلك النشوة التي ينساق معها الشارب فينسى وجوده وذاته كما ينسى المحارب الشجاع وجوده وذاته في غمرة الحرب والدّفاع عن الشرف والحرمات والقبيل ، وهكذا تبدو الخمرة في نظرنا عند عمرو تمهيداً ضرورياً لما يليها من ذكر المفاخر والأمجاد التي راح الشاعر يصورها في نشوة لا تختلف عن نشوة الخمر ، وفي حماسٍ لا يختلف في نتائجه عن نتائجها .

إلّا أنّه بعد ذلك الوصف الذي ينساق معه الشاعر في سروح ينسيه اللبانات والهموم والأحزان ، كما ينسي الشحيح حرصه ، يعود ليستفيق على صحوة وجدانيةٍ تذكر الموت الذي ربّما كان الإقبال على الخمرة مظهراً من مظاهر مغالبته وقهره ، وهروباً من واقع التفكير فيه ، ومدعاة لإنفاق ما في ذات اليد وتبديده قبل أن تأتي يده لتبدّد العمر الذي لا يؤسف على شيءٍ بعد تبديده وإتلافه ، إلّا أنّ الشاعر لا يقف مع الموت طويلاً كما وقف طرفة وزهير وأضرابهما فنراه يختصر الحديث عنه وكأنه لا يريد أن يعكّر تلك النشوة أو يقطعها فينتقل إلى مخاطبة الحبيبة الظاعنة ويطلب منها الوقوف والتمهُّل في الرحيل ، ليطلعها على ما يعانيه من أشواق وما يكابده من حرق ، ويثبت لها وفاءه المنزّه عن كلّ خيانة ، ذلك الوفاء الذي لا يريد له أن يقطع ، لأنه وفاء لا يختلف عن الوفاء للأهل والعشير ، ثم يأخذ في وصف مفاتن تلك الحبيبة الظاعنة التي أثارت في نفسه الهموم والأحزان ، وجعلته يحنّ إلى ذكريات الهوى والشباب ، ويركز على مفاتنها الحسّيّة التي نجد لها مثائل في كلّ الشعر الجاهلي الذي يذكر المرأة ويتغزّل بها ، فهي بيضاء سمينة ممتلئة شحماً ولحماً ، وطويلة ليّنة تثقل أردافها ويدقّ خصرها حتى يكاد يتثنّى أمام ضخامة ما يعلوه وما يليه ، ثم يعود بعد ذكر تلك الحبيبة وإغداق التشبيهات المألوفة عليها إلى الموضوع الذي من أجله أنشأ المعلقة وهو موضوع الدفاع عن قومه بين يديّ عمرو بن هند ، ملك الحيرة ، فنراه في هذا الجزء الكبير من المعلّقة ينساق مع عواطفه المشبوبة الجامحة التي تنسيه ظروف الموقف ومتطلباته فيشرع في تعداد مآثر قومه مخاطباً عمرو بن هند فيقول :

أبا هندٍ فلا تعجل علينا	وانظرنا نخبّرك اليقينا
بأنّ نورد الرايات بيضاً	ونصدرهنّ حمراً قد روينا
متى ننقل إلى قومٍ رحانا	يكونوا في اللقاء لها طحينا
ورثنا المجد قد علمت معدٌّ	نطاعن دونه حتى يبينا
بشبانٍ يرون القتل مجداً	وشيب في الحروب مجرّبينا
بسمرٍ من قنا الخطيّ لدنٍ	ذوابل أو ببيض يختلينا
نشقُّ بها رؤوس القوم شقاً	ونختلب الرقاب فتختلينا

بمثل هذه الأبيات التي تفيض تعالياً وفخراً وتشمخ علاءً ورفعة حتى على الملوك والحاكمين ، راح عمرو بن كلثوم يصور أمجاد قومه أمام ملك الحيرة ، ويصف وقائعهم

وبسالتهم وصفاً نلمح فيه كلّ مقوّمات الجاهلية المعنويّة والماديّة فهو إلى جانب تصويره لذلك الإحساس المتضخّم بالذات ، والذي يغدو معه الفرد قبيلةً والقبيلة فرداً لا فرق ، فإنّه يصوّر الحرب بكل قيمها وأبعادها التي تستهوي نفوس أولئك القوم ، أو تجعلهم يسرحون معها في تيهٍ لا يعرف الحدود وحماس لا يقف بهم عند أيّ مجال ، فمنظر السيوف التي تقطر دماً ، والرّماح التي تخترق الصدور ، والرؤوس التي تفارق الرقاب ، إلى غير ذلك من أوصاف القتل والموت ، جعل الشاعر ينساق انسياقاً غريزياً مع عواطفه حتى كاد يفقد توازنه وينسى قضيته ، وبات معه لا يرى في الحاضرين من يعدل تغلب قوّة وبطشاً ، ومنعةً ورفعة ، فهي صاحبة المجد التليد ، والشرف الرفيع ، والحمى المنيع والبسالة النادرة التي يحسب الأعداء لها كلّ حساب ، ومن مثل تغلب في القبائل ؟ إنها سيدة الجزيرة ومرهبة الأقوام ، وصاحبة المواقع والأيام ، والسبّاقة إلى كل مجد وشرف ، فليعلم من فاته العلم ، أن تغلب لا تتغاضى عن الأذى ، ولا تهاب شوكة قومٍ مهما عظمت ، فهي فوق المترفعين واقتصاصها يفوق كل هولٍ وتصوّر .

بعد ذلك الفخر والتعالي يعود ليعاتب عمرو بن هند ، لا بل ليستهين من ولاته وعماله على القبائل ، فتغلب في نظره فوق الولاة والملوك ، ولا يستطيع أحد أن يتجرأ على مس كرامتها بسوء ، ثم يلفت نظر الملك بروحٍ لا تخلو من ذلك التعالي إلى أن مجرد استماعه إلى خصوم تغلب في قضيةٍ تخصها يعتبر انتقاصاً من مكانتها ، لأن قولها الفصل ، والجميع يعرف أن تغلب لن تقصّر في نجدة ، ولم تظهر ضعفاً في أي ظرف أو موقع ، حتى يطمع فيها الطامعون ، ويغمز من قناتها الوشاة والمحرّضون ، فالذي يراجع التاريخ وسير الرجال العظماء ، سوف يجد التغلبيين في الذروة والسنام الأعلى من المجد الذي توارثوه كابراً عن كابر ، وسيداً عن سيّد ، تشهد بذلك لهم المواقع كما يشهد لهم الأعداء أنفسهم ، فيوم خزازى ليس ببعيد ، والبكريون يعلمون حقّ العلم بلاءنا في ذلك اليوم ، ويعلمون قدرتنا الحربية التي تجعلنا نئوب بالملوك مصفّدين ، بينما يعود البكريون بالإنعام والسبايا ، ثم يوجّه الخطاب إلى البكريين فيقول :

إليكم يا بني بكر إليكم	ألمّا تعرفوا منّا اليقينا
ألما تعرفوا منّا ومنكم	كتائب يطّعنَّ ويرتمينا
علينا البيض واليلب اليماني	وأسيافٌ يقمن وينحنينا
علينا كلّ سابغةٍ دلاصٍ	ترى فوق النّجاد لها غضونا

وتحملنا غداة الروع جردٌ   عرفن لنا نقائذ وافتلينا
على أثارنا بيض حسان   نحاذر أن تقسّم أو تهونا
ظعائن من بني جشم بن بكر   خلطن بميسمٍ حسباً ودينا
وما منع الظعائن مثل ضرب   ترى منه السواعد كالقلينا

وهكذا يتوعد عمرو خصومه البكريين بقوّة عسكرية هائلة يشترك فيها الرجال والنساء معاً ، فالتغلبيون أبناء الحرب ورجالها الأشداء ، يعلم الجميع ذلك علم اليقين ، لذّتهم ركوب الخيل ، وعزّتهم إشهار السيوف ، تمنعهم من الأعداء دروعٌ تركت على الأجساد غضوناً سوداء لطول ارتدائها ، كما تمنعهم منهم خيلٌ كريمة ، ونساء حرائر يسرن على آثارهن إثارةً للنخوة وحفزاً للعزيمة ، حتى لا يتهاون أحد عن المكرمات ، ولا يقصّر متردّدٌ في الذبّ والدفاع عن الحرمات ، بعد ذلك التهديد الذي تلى تهديد عمرو بن هند ، يعود عمرو ليثور ثورته الأخيرة ، ويبطش بطشته الكبرى في شعر غنائيٍّ وجدانيّ يفيض عزيمةً ويتّقد حماساً وينثال جارفاً فلا يترك مفخرة أو مكرمة إلاّ ويجعلها لقومه دون العالمين .

فيقول :

وقد علم القبائل من معدٍّ   إذا قببٌ بأبطحها بنينا
بأنا المطعمون إذا قَدَرْنا   وأنّا المهلكونُ إذا ابتلينا
وأنا المانعون لما أردنا   وأنّا النازلون بحيث شينا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً   ويشرب غيرنا كدراً وطينا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها   ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البرَّ حتى ضاق عنّا   وماء البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الفطام لنا صبيٌّ   تخرُّ له الجبابر ساجدينا

في أجواءٍ من هذا الحماس والتعالي يختتم عمرو معلّقته جامعاً كلّ المكارم لقومه الذين تحوّلوا في نظره إلى سادة الدنيا ، فهم المطعمون ، وهم المهلكون ، وهم الذين يغيرون على الناس ولا يغير الناس عليهم بيدهم الحلُّ والإبرام ، والموت والحياة والإعزاز والإذلال ، سلطانهم لا يقاوم ، وعددهم لا يضاهى ، وعدتهم لا تقهر ، تسجد الجبابرة لصبيانهم عند الفطام ، وتذلّ أمام قوة شوكتهم كلّ الرقاب .

تلك هي مجمل أغراض معلّقة عمرو بن كلثوم التي لم تخرج عن المألوف إلاّ في

تلك المقدّمة الخمرية ، فهي صورة صادقة عن الشعر الجاهليّ المصور لطبيعة أولئك الجاهليين الذين تضخّم الإحساس بالذات لديهم إلى الحدّ الذي جعلهم يستسهلون الموت بل ويستطيبونه دفعاً لأيٍّ مسٍّ به ، أو انتقاصٍ له ، لأنه إحساس يمثل الكرامة والعزّة ، ويجسّد البطولة والكبرياء ، ولذلك راح عمرو في معلقته يصوّر ذلك الإحساس الذي أخذ يتعاظم شيئاً فشيئاً في خطٍ تصاعدي مترافقاً مع تسلسل الأمجاد التغلبيّة حتى تحوّل في نهاية القصيدة إلى سيل جارفٍ جاشت غواربه ، وأزبدت أواذيّه ، فراح يشقّ طريقه إلى غايته مستهزئاً بكل ما يعترض طريقه من موانع أو صعاب ، ولكنّ الملاحظ من سياق القصيدة ، أنّ ذلك السّيل لم يشطّ عن مسيله المحدّد ، بل ظلّ يتدفّق في مجراه الذي رسم له بعناية كي يصل به في النهاية إلى ذلك البحر المقرّر له ، بحر تغلب الذي يزخر بكل المفاخر والقيم والانتصارات .

وهكذا بدت معلّقة عمرو متعلّقة بخيط فكريّ قد تكون العاطفة طغت عليه بشكل واضح ، إلّا أنه يفقد تواصله ، رغم الكثير من التعرجات التي تتطلّب كرّاً وفرّاً كالحرب تماماً ، فهي إلى جانب كونها تضمّ كلّ قادرٍ على حمل السلاح ، إلّا أن هناك تفاوتاً بين حملته سواء في القوّة أو المهارة أو الإقدام ، وهذا التفاوت هو الذي أظهر القصيدة بناءً فكرياً كثير الممرات والشرفات ، حتى ظنّ البعض أنها افتقدت التخطيط الفكريّ وعزوا ذلك إلى ظروف ارتجالها التي لم تسمح له بالتهذيب والصقل وإعادة النظر .

أما أسلوب عمرو في معلّقته فكان ذلك الأسلوب السهل السلس الذي واكب العاطفة الثائرة في غير ضعفٍ أو تقصير ، وكان عمادة المبالغة التي تستثير النفوس وتدفعها إلى الإقدام والتضحيات صوناً للكرامة وحفظاً للشرف ، وهي ليست في مضمونها بعيدة عن الإيمان الذي لا يتزعزع بالقوّة وبسيادة القوّة في مجتمع لا يحترم إلّا الأقوياء ، وهذه المبالغة هي التي جعلت الشاعر يجمح في خياله إلى أبعد الحدود فترافقت مع تلك الثورة العارمة التي فرضت عليه إيثار قبيلته بكل الأمجاد والمناقب ، كما فرضت عليه الإكثار من التهديد والوعيد والتبجح والمباهاة في غير نظام ، ولذلك تعدّدت الصور والمواقف ، واختلط الجيّد بالرّديء ، وتعاظم الصخب والضجيج فتحوّلت المعلّقة إلى ملحمةٍ أو ما يشبه الملحمة ، وكاد التغلبيون يتحوّلون على لسان شاعرهم إلى أبطالٍ يحققون الخوارق ويفعلون المعجزات وقد ساعده الوزن الشعريّ واستعماله البحر العروضي « الوافر » على توفير ذلك النغم الذي أخذ ينثال في شدّةٍ ولين ، وينساب في رقّةٍ وعنف مترافقاً مع جرس الألفاظ السهلة الموحية الذي واكب العاطفة في تموّجاتها المتعدّدة فأضفى على المعلّقة

جوّاً من الانسجام المتولّد عن صدق المشاعر وحرارة البواعث والتدّفقات الوجدانية ، وقد أشار الدارسون إلى سهولة ذلك الأسلوب ، ورشاقة تلك الألفاظ التي تميّزت بهما معلّقة عمرو عن سائر المعلّقات الجاهليات ، فردّوا ذلك إلى مقتضيات الموقف الذي اعتمد إظهار المفاخر التي تتطلب ألفاظاً سهلةً مفهومة وسائغة ، كما ردّوا أسباب تلك السُهولة أيضاً إلى « أفق الشاعر العريض وتنّقله من مكان إلى مكان ، ومخالطته طبقات الناس جميعاً ، لا انعزاله في قريةٍ صغيرة أو في محيط محدود ، ولقد دلَّتنا تجارب الحياة أنّ لغة الإنسان ذي الأفق الواسع تختلف عن لغة الإنسان المحصور بحدود وحواجز ومحيط جماعة خاصة معيّنة ، وقد يكون مردُّ السهولة إلى طبيعة الشاعر ونفسيته السهلة غير المعقدة المنبسطة كانبساط الصحراء[1] كما أشاروا إلى كثرة اتكاء الشاعر على أسلوب التوكيد الذي يصوّر غالباً مقدار الثقة العالية التي يتكىء عليها الإنسان في كلامه ، وهي في نظرنا عند عمرو ثقةٌ ذات شقّين ، أحدهما يتعلّق بالقبيلة ، والآخر يتعلّق بالنفس والشاعريّة التي واكبت اعتدادها الواسع العريض . .

وهكذا فقد تحوّلت معلّقة عمرو بفضل تضافر عوامل عديدة ، إلى نشيد ملحميّ يجسد البطولة بكلّ أبعادها القبليّة ، فكانت بذلك مثاراً للفخر والاعتزاز والشمم عبر الدهور ، فلا عجب بعد ذلك إذا ما رأينا التغلبيين يقبلون على تناقلها حقباً طويلة ، أو يجعلونها مفخرتهم التي ألهتهم عن كلّ مفخرة غيرها ، كما لا عجب أيضاً إذا ما رأينا كثيراً من النقاد القدماء يغالون في تقويمهم لها ويجمعون على فرادتها وأصالتها حتى قال بعضهم : لو وضعت أشعار العرب في كفّه وقصيدة عمرو بن كلثوم في كفّه لمالت بأكثرها[2] .

(١) المعلّقات السبع ص ١٢٣ .

(٢) الجمهرة ص ٣٢ .

عنترة بن شداد

هو عنترة بن عمرو بن شداد بن عمران بن قراد بن مخزوم بن عوف بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض[1] من أهل نجد[2] .

وقيل : عنترة بن شداد بن معاوية بن قراد بن مخزوم إلخ[3] .

وقد ذكر صاحب الأغاني في ترجمته له القولين السابقين[4] . إلا أن ابن الكلبي قال : شدّاد جدّه أبو أبيه غلب على اسم أبيه فنسب إليه ، وإنما هو عنترة بن عمرو بن شداد[5] .

وقال آخرون :
شدّاد عمّه تكفله بعد موت أبيه فنسب إليه[6] .

وعنترة اسمهُ مشتقٌ من العنتر ، وهو الشجاع ، والعنترة الشجاعة في الحرب ، وعنترهُ بالرمح : طعنه ، وعنتر وعنترة اسمان منه ، فأمّا قوله :

يدعون عنتر والرّماح كأنها ... أشطان بئرٍ في لبان الأدهم

(١) الشعر والشعراء ص ١٤٩ .
(٢) فهرس الأعلام للزركلي المجلد الخامس .
(٣) طبقات الشعراء ص ٦٤ وخزانة الأدب الجزء الأول ص ٦٢ .
(٤) الأغاني ص ١٤٨ ج ٧ .
(٥) الشعر والشعراء ص ١٤٩ .
(٦) خزانة الأدب ج أول ص ٦٢ .

فقد يكون اسمه عنتراً كما ذهب إليه سيبويه ، وقد يكون أراد يا عنترة فرخّم على لغة من قال : يا حارُ[١] .

وقال آخرون : إن عنترة مشتقة من العتر الذي هو الذبح والنون فيه زائدة كذا قال ابن دريد[٢] . إلّا أن ابن جني يقول : ينبغي أن تكون النون في عنترة أصلاً ولا تكون زائدة كزيادتها في عنبس وعنسل ، لأن ذينك قد أخرجهما الاشتقاق ، إذ هما فنعل من العبوس والعسلان ، وأمّا عنتر فليس له اشتقاق يحكم له بكون شيء منه زائداً فلا بدّ من القضاء فيه بكونه كلّه أصلاً[٣] .

والعنترة أيضاً السلوك في الشدائد ، والعُنتر والعُنثر ، كلها بمعنى الذّباب .

ويتضحّ لنا ممّا تقدم أن عنترة أو عنتر اسمٌ لرجلٍ تغلب الشجاعة على معناه ، وهذا لا يختلف عن اسم عنترة الشاعر الذي ارتبط اسمه بالشجاعة فتحوّل إلى أسطورة شعبية تحمل كل مقوّمات البطولة والفروسية ، ولعنترة لقبٌ ذكرته المصادر هو عنترة الفلحاء ، لُقّب به لتشقق شفتيه[٤] ، ويكنى أبا المغلّس ، والمغلِّس بلام مشدّدة مكسورة السائر في الغلس .

وله أيضاً كنيتان لم يشيعا بين الناس ، وهما : أبو المعايش وأبو أوفى ، وقد ذكر أولاهما المستشرق أرنولد Arnold ص (٤٤) وذكر ثانيتهما المستشرق منيل Menil ص (٥) وكلاهما نشر معلّقة عنترة[٥] .

وأُمُّ عنترة أُمةٌ حبشية سوداء ، يقال لها زبيبة ، وكان لها ولدٌ عبيد من غير أبيه ، وكانت العرب في الجاهلية إذا كان للرجل منهم ولد من أمةٍ استعبدوه[٦] . أمّا سبب ادعاء أبيه له فيعود إلى أن بعض أحياء العرب كانوا قد أغاروا على قوم من بني عبس ، فأصابوا منهم ، فتبعهم العبسيون فلحقوهم ، فقاتلوهم عمّا معهم وعنترة فيهم ، فقالَ له أبوه : كرّيا

---

(١) اللسان مادة عنتر .
(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ١٧٠ ط أوروبا .
(٣) اللسان مادة عنتر .
(٤) الأغاني ص ١٤٨ ج ٧ .
(٥) ديوان عنترة ـ المقدمة دار الكتب العلمية ـ بيروت ص ح .
(٦) الأغاني ص ١٦٩ ج ٧ الشعر والشعراء ص ١٤٩ .

عنترة فقال : العبد لا يحسن الكرّ ، إنما يحسن الحلاب والصرّ ، فقال : كرّ وأنت حرّ ، فكرّ وهو يقول :

كـلُّ امـرىءٍ يحمـي حـره أسـوده وأحـمـره

والواردات مشفرة

وقاتل يومئذٍ فأبلى ، واستنقذ ما كان بأيدي عدوّهم « من الغنيمة » فادّعاه أبوه بعد ذلك ، وألحق به نسبه[1] .

ويذكر صاحب الأغاني رواية أخرى بهذا الصدد منسوبة إلى غير ابن الكلبي الذي روى ما تقدّم ، فيقول : إن السّبب في ادعاء والد عنترة لابنه ، أن عبساً أغاروا على طيء فأصابوا نعماً ، فلما أرادوا القسمة قالوا لعنترة : لا نقسم لك نصيباً مثل انصبائنا لأنك عبد ، فلما طال الخطب بينهم كرّت عليهم طيء فاعتزلهم عنترة وقال : دونكم القوم فإنكم عددهم واستنقذت طيء الإبل ، فقال له أبوه : كرًّا يا عنترة ، فقال : أو يحسن العبد الكرّ ، فقال له أبوه : العبد غيرك ، فاعترف به ، فكرّ واستنقذ النعم[2] .

أمّا عن نشأته ، فلا تذكر المصادر شيئاً عنها إلاّ تلك الروايات المتعلقة بعبوديته وبكيفيّة تحرّره منها ، إلا أننا نستطيع أن نستخلص من سياق ما تقدم بعض التفاصيل عنها ، وهي :

أن عنترة بحكم لونه وعدم اعتراف أبيه بأبوته له ، قد عومل معاملة العبد ، فكان يرعى إبل قومه وماشيتهم ويقوم على خدمتها وحراستها ، ونستشف من خلال شعره أنّه أحب ابنة عمه عبلة في فترة شبابه ، إلاّ أنّ عمه رفض تزويجها له في البداية ، بحجة أنه عبد ، ولذلك عمل كلّ ما في وسعه لتحرير نفسه ، كما أثار ذلك التمييز شاعريته وفجّرها بالشعر الجميل الذي يجمع بين الغزل والرجولة التي تنشد المعالي وتحرص على الاقدام والإباء .

وتذكر الروايات أن امرأة أبيه قد تحرشت يوماً به في صباه ، إلاّ أنه رفض الإذعان لإرادتها فاشتكته إلى أبيه زاعمة له السوء ، فغضب عليه غضباً شديداً وضربه ضرباً مبرحاً ، وضربه بالسيف فوقعت عليه امرأة أبيه وكفته عنه »[3] .

---

(١) راجع الشعر والشعراء ص ١٤٩ ص ٧ وخزانة الأدب ص ٦٢ .

(٢) الأغاني ص ١٥٠ ج ٧ .

(٣) شعراء النصرانية ص ٧٩٤ ج ٢ .

وظلّ عنترة يقدم البرهان تلو البرهان على أصالته ونجابته حتّى تمَّ له ما أراد ، وتحرّر من عبوديته ، وغدا بفضل شجاعته ومناقبه بطل عبسٍ وفارسها الذي يحمي حماها ويرهب أعداءها ، فقد ذكر أبو عمر الشيباني أن بني عبس غزوا بني تميم « وعليهم قيس بن زهير ، فانهزمت بنو عبس ، وطلبتهم بنو تميم ، فوقف لهم عنترة ولحقتهم كبكبة من الخيل ، فحامى عنترة عن الناس فلم يصب مدبرٌ ، وكان قيس بن زهير سيّدهم ، فساءه ما صنع عنترة يومئذٍ فقال حين رجع : والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء[1] .

وقد نوّه عنترة بأفعاله ، وافتخر بنفسه ودفع عنها ما أنيط بها من ذلٍّ ومهانة فقال :

إني امرؤٌ من خير عبسٍ منصباً ... شطري ، وأحمي سائري بالمنصل

وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ... ألفيت خيراً من معمٍّ مخوَّل

وقد شهد عنترة حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان وحمدت له مشاهده فيها ، وكان قد قتل خلالها ضمضماً المريّ أبا الحصين بن ضمضم وأبا أخيه هرم ، وأشار إلى ذلك في معلقته بقوله :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرةٌ على ابني ضمضم

الشاتمي عرضي ولم أشتمهما ... والناذرين إذا لم القهما دمي

إن يفعلا فلقد تركت أباهما ... جزر السّباع وكلّ نسرٍ قشعم

ويرى بروكلمان أن عنترة استطاع في تلك الحرب أن يمحو عن نفسه عار مولده بما أظهره فيها من شجاعة وبطولة جعلت والده يعترف به ويلحقه بنسبه[2] . وهو بذلك يناقض الروايات السابقة التي ذكرناها عن سبب ادعاء أبيه له ، أو أنه يجعل تلك الروايات جانباً من الإفرازات المتعلقة بسببٍ ما بتلك الحرب التي استمرت أكثر من أربيعن سنة .

ويظهر أن العمر قد طال بعنترة حتى بلغ مرحلةً من الكبر أعجزته عن ركوب الخيل ، ومع ذلك ظلَّ يغزو مع قومه ، إلاّ أنّ ذلك كان سبباً في موته وهلاكه ، فقد ذكر أبو عمر الشيباني أن عنترة « غزا طيئاً مع قومه ، فانهزمت عبس فخرّ عن فرسه ولم يقدر من الكبر أن يعود فيركب ، فدخل دغلاً ، وأبصره ربيئة طيء فنزل إليه ، وهاب أن يأخذه أسيراً فرماه وقتله »[3] .

---

(١) شعراء النصرانية ص ٧٩٥ ج ٢ .

(٢) راجع بروكلمان تاريخ الأدب العربي ص ٩١ ج ١ .

(٣) الأغاني ١٥٢ ج ٧ .

ولكنّ الروايات لا تتفق في الأسباب التي أدت إلى وفاته أو مقتله ، فعن أبي عبيدة أنه قال : إن عنترة بعد أن تأوّت عبس إلى غطفان بعد يوم جبلة ، وحملت الدماء احتاج وكان صاحب غارات فكبر وعجز عنها ، وكان له بكر على رجلٍ من غطفان ، فخرج قبله يتجازاه ، فهاجت رائحة من صيف ، وهبّت نافحة وهو بين شرج وناظرة ، فأصابت الشيخ فهرّأته ، فوجدوه ميتاً بينهما[1] .

وكذلك يروي صاحب الأغاني رواية أخرى تتعلق في حادثة وفاته منسوبة إلى ابن حبيب وابن الكلبي ، تقول الرواية : أغار عنترة على بني نبهان من طيء ، فأطرد لهم طريدة ، وهو شيخ كبير فجعل يرتجز وهو يطردها ويقول :

آثار ظلمانٍ بقاعٍ محرب

قال : وكان وزر بن جابر النبهاني في فتوّةٍ ، فرماه وقال : خذها وأنا ابن سلمى ، فقطع مطاه ، فتحامل بالرمية حتى أتى أهله فقال وهو مجروح :

وإن ابن سلمى عنده فاعلموا دمي ... وهيهات لا يرجى ابن سلمى ولا دمي
إذا ما تمشّى بين أجبال طيءٍ ... مكان الثريّا ليس بالمتهضّم
رماني ولم يدهش بأزرق لهذمٍ ... عشيّة حلّوا بين نعفٍ ومخرم[2] .

ويذكر ابن الكلبي أن الذي قتله رجلٌ من طيء يلقب بالأسد الرهيص ، وهو القائل :

قتلت مجاشعاً وقتلت عمراً ... وعنترة الفوارس قد قتلت
فإن تجزع بنو عبس عليه ... فإنّي لا وجدِّك ما جزعت
ضربت قذاله بالسيف صلتاً ... وكانت عادتي ذات استعدت[3] .

أمّا سنة وفاته فتختلف الآراء في تحديدها ، ولكنّ ربطها ببعض الأحداث التاريخية المعاصرة لعنترة يجعل تحديدها أقرب إلى الصواب ، ففي « نحو سنة ٦٥٠ م ٣٠ هـ مات الحطيئة ، وقبله في سنة ٦٤٢ م ٢١ هـ مات عمرو بن معد يكرب[4] . وقبل هذا بأعوام كانت حرب داحس والغبراء التي خبت نارها بين سنتي ٦٠٨ وسنة ٦١٠ م، وإلى ما

---

(١) الشعر والشعراء ص ١٥٠ ، وخزانة الأدب ص ٦٢ ج أول .
(٢) الأغاني ص ١٥٢ ج ٧ .
(٣) راجع المؤتلف والمختلف للآمدي ص ٩٩ ، وخزانة الأدب ص ٦٢ ج أول .
(٤) هذان الشاعران أدركا عنترة ورويا بعض أخباره .

بعد حرب داحس والغبراء يختفي اسم عنترة فلا نجد له ذكراً ، الشيء الذي جعل حاجي خليفة يذكر أنّ وفاة عنترة كانت سنة ٦١١ من ميلاد المسيح عليه السلام »[١] .

أمّا جرجي زيدان فقد جعلها سنة ٦١٥ م[٢] .

أمّا سيرته الأدبية فلم تتوسع المصادر في تفاصيلها ، وهي لا تذكرها إلا مقرونة ببعض سجاياه الخلقيّة والنفسيّة ، وقد دخلها فنّ القصص فتحوّلت إلى سيرة شعبية أسطورية تجمع بين الشعر والحبّ والبطولة[٣] .

وقد عدّه ابن سلّام الجمحي في الطبقة السادسة من الشعراء الذين ذكرهم وصنّفهم في كتابه إلى جانب عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وسويد بن أبي كاهل ، وأشار إلى معلّقته وقال : « وله شعر كثير إلاّ أن هذه نادرة فالحقوها مع أصحاب الواحدة »[٤] .

أمّا صاحب الجمهرة فقد أثبت قول أبي عبيدة فيه وجعله مع أصحاب الطبقة الثالثة من الشعراء إلى جانب المرقّش وكعب بن زهير والحطيئة وخدّاش بن زهير ودريد بن الصمة وعروة بن الورد والنمر بن تولب والشمّاخ بن ضرار وعمرو بن أحمر » الذين « قال عنهم المفضّل : هؤلاء فحول شعراء أهل نجد الذين ذمّوا ومدحوا وذهبوا في الشعر كلّ مذهب »[٥] .

وذكره صاحب العمدة في حديث حكي عن الأصمعي وقال فيه : كفاك من الشعراء أربعة ، زهير إذا رغب والنابغة إذا رهب والأعشى إذا طرِب وعنترة إذا كلب[٦] .

---

(١) ديوان عنترة ـ المقدمة ص ل .
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ص ١١٣ ج ١ .
(٣) لقد جمعت سيرته بمصر في أواخر القرن الرابع للهجرة في زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمي ، وقد جاء في سبب جمعها وتدوينها أن رجلاً اسمه الشيخ يوسف بن إسماعيل كان يتصل بالعزيز بالله وحدثت ريبة فأخذ يكتب قصة عنترة ويوزعها في الناس ، وأعجبوا بها واشتغلوا عن سواها ، ومن تلطفه في الحيلة أنه قسّمها إلى ٧٢ كتاباً والتزم في آخر كل كتاب أن يقطع الكلام في حادث مهم يشتاق القارىء والسامع إلى الوقوف على تمامه ـ راجع جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ص ١٦٦ ـ ج أول .
(٤) طبقات الشعراء ص ٦٤ .
(٥) الجمهرة ص ٣٥ .
(٦) العمدة ص ٧٣ .

وجاء في الأغاني عن ابن عائشة أنه قال : أنشد النبي ﷺ قول عنترة :

ولقد أبيت على الطّوى وأظلّه   حتى أنال به كريم المأكل

فقال ﷺ : « **ما وصف لي إعرابيٌّ فأحببت أن أراه إلا عنترة** »[١] .

ويحكى أن هارون الرشيد وفي حضور الأصمعي ذكر قول عنترة :

وخلا الذّباب بها فليس ببارحٍ   غرداً كفعل الشارب المترنّم

هزجاً يحكّ ذراعه بذراعه   فعل المكبّ على الزناد الأجذم

ثم قال : يا أصمعي : هذا من التشبيهات العقم التي لا تنتج[٢] .

تلك هي بعض الأقوال التي تذكر عنترة وتشير إلى شعره ومكانته الأدبية .

أمّا سيرته الشخصيّة فقد نقلت إلينا المصادر بعض تفاصيلها ، وركزت في نقلها على شجاعته وفروسيته ولونه الأسود الذي استطاع أن يمحو ما ألحقه به من عارٍ مزعوم عند العرب آنذاك بفضل إقدامة في الحروب وذبّه الدائم عن قومه ، وبسبب ذلك اللون دعي عنترة أحد أغربة العرب الثلاثة وهم : عنترة وأُمه زبيبة سوداء ، وخفاف بن عمير الشريدي وأُمه ندبة وإليها ينسب وكانت سوداء ، والسّليك بن عمير السّعدي ، وأُمه سلكة واليها ينسب وكانت سوداء[٣] .

أمّا شجاعته فقد نالت النصيب الأكبر من الذكر ، وأشار الاخباريون والرواة إليها وأسهبوا في ذكرها وأسبابها .

فعن النضر بن عمرو أنه قال : قيل لعنترة أنت أشجع العرب وأشدّها ؟ قال : لا ، قيل : فبماذا شاع لك هذا في الناس ، قال : كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً وأحجم إذا رأيت الأحجام حزماً ، ولا أدخل موضعاً لا أرى لي منه مخرجاً ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه ، فأقتله[٤] .

وسأل عمر بن الخطاب الحطيئة ، وهو ممّن عاصر عنترة وشهد مواقع له : كيف كنتم

---

(١) الأغاني ص ١٥١ ج ٧ .
(٢) الشعراء الستة الجاهليون ص ١٨٦ ج أول .
(٣) الشعر والشعراء ص ١٥٠ ، وكذلك راجع الأغاني ص ١٥٠ ج ٧ .
(٤) الأغاني ص ١٥٢ ج ٧ .

في حربكم ؟ قال : كنّا ألف فارس حازم ، قال : وكيف يكون ذلك ؟ قال : كان قيس بن زهير فينا وكان حازماً فكنّا لا نعصيه ، وكان فارسنا عنترة نحمل إذا حمل ونحجم إذا أحجم[1] وكان عمرو بن معد يكرب وهو أحد فرسان العرب المعدودين ، وممّن عاصر عنترة وعرفه يقول : ما أُبالي من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقني حرّاها وهجيناها ، يعني بالحرّين : عامر بن الطفيل وعتيبة بن الحرث بن شهاب وبالعبدين : عنترة والسّليك بن السلكة[2] وقد وصفه ابن قتيبة فقال : وكان عنترة من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة ، حتى سابّه رجل من بني عبس فذكر سواده وسواد أُمه وإخوته ، وعيَّره بذلك وبأنه لا يقول الشعر فقال له عنترة : والله إنّ الناس ليترافدون بالطعمة ، فما حضرت مرفد الناس أنت ولا أبوك ولا جدّك قطُّ ، وإنّ الناس ليدعون في الغارات فيعرفون بتسويمهم[3] . فما رأيناك في خيلٍ مغيرة في أوائل الناس قطّ ، وإن اللَّبْس ليكون بيننا فما حضرت أنت ولا أبوك ، ولا جدك خطّة فيصل ، وإنّما أنت فقع نبت بقرقر[4] .

وإني لأحتضر البأس وأوفي المغنم ، وأعفُّ عن المسألة وأجود بما ملكت (يدي) وأفصل الخطّة الصمعاء[5] . وأمّا الشعر فستعلم فكان أول ما قال قصيدة :

هل غادر الشعراء من متردّم

وهي أجود شعره ، وكانوا يسموّنها المذهَّبة[6] .

وقد ارتبطت فروسية عنترة وشجاعته بأخلاق كريمة ومزايا حميدة نستطيع أن نستشفَّها من شعره ، فهو في غزله يبدو رقيق العواطف عذري الهوى أبيَّ النفس كثير الحياء يمثل ذلك قوله :

وأغضُّ طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

---

(١) الأغاني ص ١٥٢ ج ٧ .

(٢) شعراء النصرانية ص ٧٩٩ ج ٢ .

(٣) التسويم : من التسوم وهو أن يتخذ المرء سمة أو علامة يعرف بها في الحرب .

(٤) مثل يضرب عند العرب ليدل به على المذلة .

(٥) الصمعاء : الماضية النافذة .

(٦) الشعر والشعراء ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

أني امـرؤٌ سمـح الخليقــة مـاجــدٌ   لا أتبـع النفس اللجوج هـواها[1].

وهو في شرابه وصحوه كريمٌ على رجولته ومقامه :

فـإذا شــربـت فـإنّنـي مسـتهـلكٌ   مـالي ، وعـرضي وافـرٌ لم تكلم
وإذا صحـوت فـلا أقصّـر عن نـدىً   وكمـا علمت شمـائلي وتكـرّمي[2]

وهو في حربه ووقائعه مقدامٌ مترفّع .

يخبــرك من شهــد الـوقيعــة أنّني   أغشى الوغى وأعفّ عند المغنم[3]

وهو في حبِّه مخلصٌ عفيفٌ يذوب وجداً ويتقلّب سهداً :

ومـا شاق قلبي في الـدّجى غيرُ طـائـرٍ   ينــوح على غصنٍ رطيبٍ من الـرّنـد
بـه مثلُ مـا بي فهـو يُخفي من الجـوى   كمثل الذي أُخفي ويُبدي الذي أبـدي
ألا قــاتــل الله الـهــوى كم بـسيفــه   قتيـل غـرامٍ لا يـوسـدُ في اللحـد[4]

ذاك هو عنترة الشاعر الفارس العاشق الذي اقترن اسمه بالبطولة فتحوّل إلى أسطورة خياليّة نلمح فيها كلَّ مقومات الرجولة التي تثير الاعجاب وتنال رضا النفس .

---

(١) ديوان عنترة ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .
(٢) ديوان عنترة : ص ١٤٩ .
(٣) ديوان عنترة ص : ١٥٠ .
(٤) ديوان عنترة : ص ٦٦ .

معلّقة عنترة بن شدّاد العبسيّ

هَلْ غادر الشعراءُ من متردَّمِ ... أمْ هلْ عرفتَ الدَّار بعدَ توهُّمِ[(١)]

أَعْياكَ رسمُ الدارِ لَمْ يتكلمِ ... حتَّى تَكلَّم كالأصمِّ الأعجَمِ[(٢)]

إلّا رواكد بينهن خصائصٌ ... وبقيّةٌ مِنْ نَؤيها المجرَنثمِ[(٣)]

ولقدْ حبستُ بِها طويلاً ناقتي ... أشكُو إلى سُفعٍ رواكِدَ جُثَّمِ[(٤)]

يَا دارَ عبْلَةَ بالجواءِ تَكلّمي ... وعِمي صباحاً دَارَ عَبلَةَ واسلمي[(٥)]

دارٌ لآنسةٍ غضيضٍ طرْفُها ... طَوْعِ العناقِ، لذيذَةِ المُتبسَّمِ[(٦)]

فَوَقفتُ فيها نَاقتي وكأنّها ... فدَنٌ لأقضي حَاجَةَ المُتلوِّمِ[(٧)]

---

(١) المتردَّم : الموضع الذي يستصلح على ما فيه من الوهن . أي : هل ترك الشعراء قبلي شيئاً يقال الشعر فيه ودون أن يقوله .

(٢) رسم الدار ما تبقى من آثاره . الأصمّ الأعجم : الأطرش والأخرس .

(٣) الرواكد : الأثافي . الخصائص : الفُرج بين الأثافي . النؤي الحفرة حول المسكن تحفر لئلّا يتجمّع فيه الماء . المجرنثم : المجتمع .

(٤) سُفْع : جمع سعفة . أي سعفة النخيل . رواكد جثم : راكدة جاثمة .

(٥) الجواء : الجوّ : الوادي . وبالجواء في البيت : اسم موضع . عبلة : اسم حبيبة عنترة وابنة عمه مالك .

(٦) غضِض طرفُها : حييّة . والآنسة : الفتاة الشابة يؤنس بحديثها . المتبسم : موضع التبسّم . وهو الفم .

(٧) الفَدْن : القصر . المتلوّم : المتمكث .

وتَحلُ عبلةُ بالجواء وأهلُنا بالحزْن، فالصمّانِ، فالمُتثلّم[1]

حُيّيتَ مِن طَللٍ تَقادَمَ عَهدهُ أَقوَى وأقْفرَ بعدَ أم الهيثمِ[2]

وتحلُّ عبلةُ في الخدورِ تجرُّها وأظلُّ في حلق الحديدِ المبهمِ[3]

حَلّتْ بأرْضِ الزائرينَ فأصْبحَتْ عَسِراً عليَّ طلابُكِ ابنَةَ مَخرَمِ[4]

عُلّقتُها عَرَضاً وأقتلُ قَوْمَها زَعماً لعمرُ أبيكَ ليسَ بِمزعمِ[5]

ولَقَدْ نَزلت، فَلا تَظنّي غيرَهُ منّي بمنزِلَةِ المُحبِّ المكرمِ[6]

كيفَ المَزار وَقَدْ تَربَّعَ أهلُها بِعُنَيزتينِ وأهلُنا بالغيلم[7]

إنْ كنتِ أزمعتِ الفرَاقْ فإنما زُمّتْ رِكابُكُمُ بليلٍ مظلمِ[8]

مَا راعني إلاّ حَمولةُ أهلها وَسْطَ الدِّيارَ تَسفُّ حَبَّ الخمخم[9]

فِيها اثنتانِ وأربعُونَ حلوبة سوداً كخافيةِ الغراب الأسحم[10]

فصغارُها مثلُ الدّبا، وكبارُها مثل الضفادِعِ في غَديرٍ مفعم[11]

ولقد نهرتُ غداةَ فارق أهلها نظَرَ المحبِّ بطرفِ عيني مغرمِ[12]

وأُحبُّ لوْ أشفيكِ غَيرَ تملقٍ واللّهُ من سقْمٍ أصابكِ مِنْ دَمي[13]

---

(١) ما في هذا البيت أسماء مواضع بعضها تحلُّ فيه عبلة ، والبعض الآخر يحلُّ فيه أهل عنترة .

(٢) الإقواء والإقفار : الخلاء . وأقوى : خلا . والطلل : الأثر الدارس . أم الهيثم : كنية عبلة .

(٣) الخدر : مسكن المرأة .

(٤) الزائرون : الأعداء . جعلهم يزأرون زئير الأسد .

(٥) عرضاً : فجأة . والتعليق هنا : من العلق والعلاقة : العشق والهوى . الزعم : الطمع . المزعم : المطمع .

(٦) أي : لقد نزلت مني منزلة الحبيب الذي أكرّمه . فلا تظّني أنك تنزلين غير هذه المنزلة .

(٧) التربُّع : الإقامة زمن الربيع . عنيزتان والغيلم : موضعان .

(٨) ازمعت الفراق : وطّنت النفس على الفراق . زمّت الركاب : اعدت الإبل للسفر . الركاب : الإبل .

(٩) الروع : الفزع . الحمولة : الإبل التي تطيق يُحمل عليها . الخمخم : نبت تعلفه الإبل .

(١٠) حلوبة: جمع الحلاب عند البصريين. هي بمعنى محلوب . الخافية : الخوافي من الجناح . أربعة من ريشها . الأسحم : الأسود .

(١١) مفعم : ممتلىء .

(١٢) نهر : زجر . مغرم : عاشق .

(١٣) غير تملّق : بصدق . سقمٍ : مرض .

إذْ تستبيك بذي غُروبٍ واضحٍ ... عذب مقبَّلُهُ لذيذ المطعمِ (١)

وكأنّما نظرتْ بِعيني شادنٍ ... رشأٍ من الغزلانِ ليسَ بتوأمِ (٢)

وكأنَّ فأرةَ تاجرٍ بِقسيمةٍ ... سبقتْ عَوارِضَهَا إليكَ من الفم (٣)

أوْ روضةً أُنفاً تضمَّنَ نَبتَها ... غيثٌ قليلُ الدِّمنِ ليسَ بِمعلمِ (٤)

نظرتْ إليهِ بمقلةٍ مكحولةٍ ... نَظَرَ المليلِ بطرْفِهِ المتقسِّمِ (٥)

وبحاجبٍ كالنونِ زيّنَ وَجهها ... وبناهدٍ حسنٍ وكشحٍ أهضم (٦)

ولَقَدْ مَرَرتُ بِدار عَبلةَ بعدما ... لعبَ الربيع بربعهَا المتوَسِّم (٧)

جَادتْ عَليهِ كلُّ بِكرٍ حُرَّةٍ ... فتَركْنَ كلَّ قرارةٍ كالدِّرهم (٨)

سَحّاً وتَسكاباً، فَكلُّ عشيةٍ ... يجري عَليهَا الماءُ لمْ يَتصرّم (٩)

وَخَلا الذبابُ بها فَليسَ بِبارحٍ، ... غرداً كفعلِ الشارب المترَنِّم (١٠)

هزجاً يَحكُّ ذِرَاعهُ بِذراعه ... قدح المُكبّ على الزنادِ الأجذم (١١)

---

(١) تستبيك : الاستباء والسبي واحد . والمعنى : تسحركك . ذو غروب : ثغرٌ ذو حدة . وغرب كل شيء : حدّه . واضح : أبيض . المقبّل : موضع التقبيل . المطعم : الطعام .

(٢) الرشأ : الظبي إذا قوي ومشى مع أمه .

(٣) التاجر : المقصود به العطار . فارة المسك : سميت كذلك لأن الروائح تفور منها . قسيمة : علامة الحسن في الوجه . العارض : صفحة الخد .

(٤) روضة أنفٍ : لم تُرع بعد . الدِّمن : جمع الدمنة وهي السرجين .

(٥) هذا البيت والبيتان اللذان يليانه ، لم ترد إلا في رواية محمد بن الخطاب ويبدو على الأبيات الثلاثة أثر النحل .

(٦) حاجب كالنون : النون : شفرة السيف . الكشح : منقطع الاضلاع ، ما بين الخاصرة والسرّة . اهضم : ضامر .

(٧) ربعها : دارها . منزلها . المتوسم : الوسمة نبات يصبغ بورقه . ربعها المتوسّم : منزلها المخضّب بالوسمة .

(٨) البكر من السحاب : أوائل المطر . الحرّة : الخالصة من البرد والريح . القرارة : الحفرة .

(٩) السحُّ : الصبُّ . التسكاب : السكب . التصرُّم : الانقطاع .

(١٠) البراح: الزوال والفعل: برح . يبرح . التغريد التصويت . الترنّم : ترديد الصوت بضرب من التلحين .

(١١) هزجاً : مصوتاً . المكبّ : المقبل على الشيء . الأجذم : الناقص اليد .

تُمسي وتُصبحُ فوقَ ظهرِ حشيةٍ وأبيتُ فوقَ سَراةِ أدهَمَ ملجمِ[1]

وحَشيّتي سرجٌ عَلَى عَبْلِ الشوَى نهدٍ مَراكلهُ نبيلِ المحْزِمِ[2]

هل تُبلغَنّي دارَها شَدنيّةٌ لُعنَت بمحرُومِ الشرابِ مُصرَّمِ[3]

خطّارةٌ غِبَّ السُّرَى، زيّافةٌ تطِسُّ الأكامِ بوخْدِ خفٍ مِيثمِ[4]

فكأنّما تطِسُّ الأكامَ عشيّةً بقريبِ بينَ المنسمين مُصلَّمِ[5]

تأوِي لهُ قُلص النعامِ كما أوتْ حزقٌ يمانيةٌ لأعجم طمطمِ[6]

يَتبعنَ قُلَّةَ رأسهِ وكأنّهُ حدجٌ على نَعشٍ لهنَّ مخيَّمِ[7]

صعلٍ يَعودُ بذي العشيرةِ بيضهُ كالعبدِ ذي الفرو الطويلِ الأصلمِ[8]

شَربتْ بماءِ الدحرضين فأصبحتْ زوراءَ تنفرُ عن حياضِ الديلمِ[9]

وكأنّما تنأى بجانبِ دَفّها الـ ـوَحشي مِنْ هَزجِ العشيِّ مُؤوَّمِ[10]

---

(١) الحشيّة : الفراش الوثير . السراة : أعلى الظهر . الأدهم الملجم : جواد عنترة .

(٢) حشيتي : الحشية من الثياب ما حشي بقطن أو صوف أو غيرهما . العبل : الغليظ . الشوى : الأطراف والقوائم . نهدٍ : ضخمٍ . مراكل : جمع مركل . وهو موضع الضرب بالرِجل . النبيل : السمين . المحزم : موضع الحزام من جسم الدابه .

(٣) شدنيّة : نسبة إلى شدن وهي أرض أو قبيلة . الشراب هنا بمعنى اللبن . التصريم : القطع .

(٤) خطر البعير بذنبه : شاله . والسُّرى السير ليلاً . زيّافة : متبخترة . تطسُّ وتوثم : تكسر . والوخد : السير السريع .

(٥) تطسُّ : تكسر . المنسم للبعير بمنزلة الحذوة للحصان . مصلّم : مستأصل . وهذه الصفة تطلق على الظليم لأنه لا أذن له . فكأنما هي مستأصلة .

(٦) القلوص من الإبل والنعام بمنزلة الجارية من الناس . الحزق : الجماعات مفردها حزقة ، والأعجم : الحبشي . الطمطم : العييّ الذي لا يفصح .

(٧) قلّة الرأس : أعلاه . الحدج : مثل الهودج . مركب من مراكب النساء . النعش : الشيء المرفوع . المخيم : المجعول خيمة .

(٨) صعلٍ : صغير الرأس . يعود : يتعهّد . ذي العشيرة : اسم مكان . الأصلم : الذي لا أذن له يشبه الظليم بعبدٍ لبس فرواً طويلاً .

(٩) شربت : أي الناقة . الدحرضين : اسم موضع . الزوراء . ذات الميل . حياض الديلم : مياه معروفة . وقيل العرب تسمى الأعداء ديلماً لأن الديلم صنف من أعدائها .

(١٠) الدفُّ : الجنب . الدف الوحشي : اليمين . هزج : صوت . المؤوم : القبيح الرأس العظيمة .

هـرٌّ جـنـيـبٍ كـلـمـا عـطـفـتْ لـهُ ... غَضبَى اتّقـاهـا بـالـيـدينِ وبـالـفم[1]

أبْقى لـهـا طُـولُ الـسِّـفـارِ مُـقـرْمَـداً ... سَـنـداً ومِـثْـلَ دعـائِـم الـمُـتـخـيِّـم[2]

بـركـتْ على جـنْـبِ الـرِّداع كـأنَّـمـا ... بـركـتْ على قـصـبٍ أجشَّ مـهـضَّـم[3]

وكـأن رُبّـاً أو كُـحـيْـلاً مُـعْـقـداً ... حشّ الـوقـودُ بـه جـوانـبَ قُـمْـقُـم[4]

ينـبـاعُ من ذفـري غـضـوب جسـرةٍ ... زيَّـافـة مـثـلِ الـفـنـيق الـمـكـدَم[5]

إن تُـغـدفي دُونـي الـقـنـاع، فـإنـني ... طَـبٌّ بـأخـذ الـفـارس الـمسـتـلئم[6]

أثـنـي عـلـيَّ بـمـا عـلـمتِ فـإنـنـي ... سمـحٌ مـخـالـقـتـي إذا لَـمْ أُظـلِـم[7]

فـإذا ظُـلـمتُ فـإنَّ ظـلـمـي بـاسـلٌ ... مُـرٌّ مـذاقـتُـه كـطَـعـم الـعـلـقَـم[8]

ولقـد شـربت من المـدامـة بَـعـدَمـا ... ركـد الـهـواجـرُ بـالمشُـوف المُعلَم[9]

بـزُجـاجـةٍ صـفـراءَ ذاتِ أسـرَّةٍ ... قُـرنتْ بـأزهـرَ في الشمـال مفدّم[10]

فـإذا شـربـتُ فـإنَّـنـي مسـتَـهـلِكٌ ... مـالي، وعـرضي وافـرٌ لـم يـكلم[11]

وإذا صـحَـوتُ فمـا أقـصِّـر عن نـدى ... وكـمـا علمت شمـائـلي وتـكـرُّمي[12]

وحـلـيـلِ غَـانـيـةٍ تـركـتُ مـجـدَّلاً ... تـمكُـو فـريصتُـهُ كشـدقِ الأعلَم[13]

---

(١) جنيب : مقود . أي مجنوب إليها . اتقاها : استقبلها .

(٢) مقرمداً : المقرمد : المجصص ، وهو هنا تمثيل . والمتخيم : صاحب الخيمة .

(٣) الرّداع : اسم موضع . أجش : له صوت . مهضّم : مكسّر .

(٤) الربّ : الطلا . الكحيل : القطران ، معقداً : مغلياً حتى الخثر . حشّ الوقود : وقد النار .

(٥) ينباع : أراد ينبع : فأشبع الفتحة لإقامة الوزن . ذفري : ما خلف الأذن . الجسرة : الناقة الموثقة الخلق . زيافة : متبخترة . الفنيق : الفحل من الإبل .

(٦) تغدفي : ترخي . طبٌّ : حاذق . المستلئم : لا بس اللأمة . أي الدرع .

(٧) سمحٌ مخالقتي : طيبة عشرتي . والمخالقة مفاعلة من الخلق .

(٨) باسل : كريه . العلقم : كل شيء مرٍّ .

(٩) المدامة : الخمرة . ركد : سكن . الهواجر : جمع الهاجرة . وقت الحر الشديد . المشوق المعلم : صفةٌ للدينار المجلو .

(١٠) الأسرة: جمع السر والسرر. وهي الخط من خطوط اليد والجبهة . ازهر : أبريق أزهر . مفدمٍ : مسدود الرأس بالفدام .

(١١) وافرٌ : كامل . أي انني استهلك مالي إن سكرت ولكن عرضي يبقى مصوناً .

(١٢) الندى : الجود . شمائلي : مزاياي .

(١٣) الحليل: الزوج. والخليل : العشيق . الغانية : ذات الزوج من النساء ، وسميت كذلك لأنها غنية =

سَبَقتْ يـداي لـهُ بعـاجـلِ طـعـنـةٍ ورشـاشِ نـافـذةٍ كـلونِ العَـنـدمِ [1]

هـلاّ سألتِ الخيـلَ، يـا ابنـةَ مـالـكٍ إن كنتِ جـاهـلةً بِمـا لـمْ تـعلَمي [2]

لا تَسـأليني، واسـألي في صُحبَتي يمـلأ يـديـكَ تَعفُّفي وتكَـرُّمي [3]

إذ لا أزالُ عـلى رحـالـة سـابـحٍ نـهـدٍ تَعَـاورهُ الـكـمـاة، مـكلَّم [4]

طـوراً يـجـرَّدُ لـلطّعـانِ، وتـارةً يـأوي إلى حَصِـدِ القِسيّ عـرمـرم [5]

يُخبِـرْكِ مَن شَهِـد الـوقـيعـة أنني أغشى الـوغى، وأعفُّ عنـد المغنم [6]

ولـقـد ذكـرتُـكِ والـرِّمـاحُ نـواهـلٌ منِّي، وبيضُ الهنـدِ تقـطرُ من دمي [7]

فـوددتُ تَقبيـلَ السـيـوفِ لأنـهـا لـمعت كـبـارِقِ ثغـرِك المـتبسّـم [8]

فـأرى مَغـانـمَ لـو أشـاءُ حَـوَيـتُـهـا فيصـدُّني عنهـا الحيَـا وتَكـرُّمي [9]

ومـدجَّـج كـرِهَ الـكُـمـاةُ نـزَالَـهُ لا مـمعـنٍ هَـرَبـاً ولا مُـسـتسلِم [10]

جَـادت لَـهُ كَفّي بِعـاجـلِ طَعنـةٍ بمُثَقّفٍ صَـدْق الكُعُـوبِ، مُـقـوَّم [11]

بِـرَحيبـة الفَـرْعين يهـدي جَـرسُـهـا بـالـلَّيْـلِ مُعتسَّ الـذِّئـاب الضُّـرَّم [12]

= بزوجها من الرجال . المجدل : الملقى على الأرض ، والجدالة : الأرض . تمكو : تصفر . الفريصة : اللحمة بين الجنب والكتف . الأعلم : المشقوق الشفة العليا .

(١) العندم : دم الأخوين . وقيل شقائق النعمان .

(٢) ابنة مالك : عبلة ابنة عمه مالك .

(٣) هذا البيت لم يرد إلا في رواية محمد بن الخطاب .

(٤) رحالة سابح : سرج فرسٍ سابح . تعاوره : تداوله . يقال تعاوروه ضرباً : إذا جعلوا يضربونه على جهة التناوب . الكماة : الفرسان . مكلّم : مجرّح .

(٥) الطور : التارة والمرّة . يقول : « مرّة أحمل عليه على الأعداء فأحس بلائي ، ومرّة انضمّ إلى قوم محكمي القسي الكثيرة . حصد الشيء حصداً : إذا استحكم والأحصاد : الأحكام . العرمرم : الكثير .

(٦) الوقيعة : من اسماء الحرب . الوغى : أصوات أهل الحرب .

(٧) نواهلٍ : جمع ناهلة ، أي : شاربة .

(٨) وددتُ : رغبتُ . وهذا البيت والذي قبله ، لم يردا في رواية الزوزني .

(٩) هذا البيت لم يرد في روايات الأعلم والخطيب والزوزني ولكن أورده محمد بن الخطاب فقط .

(١٠) المدجج : التام السلاح . الكماة : الشجعان . ممعن هرباً : مسرع في الهرب . مستسلم : منقاد .

(١١) صدق : صلب .

(١٢) الرحيبة : الواسعة . الفرغ : ما بين كل عرقوبين من الدلو هو فرغ . ومدفع الماء إلى الأودية فرغ ،

فَشَكَكتُ بالرُّمحِ الأصمِّ ثيابَهُ ... لَيسَ الكريمُ على القنا بِمُحرَّمِ [1]
فتركتهُ جَزَرَ السباعِ يَنشنهُ ... يَقضُمنَ حُسنَ بَنانِهِ والمِعصمِ [2]
ومِشكِّ سابغةٍ هتكتُ فُروجها ... بالسيفِ عَن حامي الحقيقةِ مُعلِمِ [3]
ربذٍ يداهُ بالقِداحِ إذا شَتا ... هتّاكِ غاياتِ التِّجارِ مُلوَّمِ [4]
لما رَآني قَدْ نَزلتُ أُريدُهُ ... أبدى نواجذَهُ لغيرِ تبسُّمِ [5]
فطعنتهُ بالرُّمحِ ثُمَّ عَلَوْتُهُ ... بمهندٍ صافي الحديدةِ مِخذَمِ [6]
عهدِي بهِ مدَّ النهارِ، كأنَّما ... خُضِبَ اللبّانُ ورأسُهُ بالعِظلمِ [7]
بطَلٍ كأنَّ ثيابَهُ في سرحةٍ ... يُحذى نعالَ السبتِ ليس بتوْأمِ [8]
يا شاةَ ما قَنَصٍ لمن حلَّتْ لهُ ... حرُمتْ عليَّ وليتها لمْ تَحرمِ [9]
فبعثتُ جاريتي، وقُلت لها اذْهَبي ... فتجسَّسي أخبارَها لي واعلمي [10]

= فضرب هذا مثلاً لمخرج دم هذه الطعنة فجعله مثل عصب الدلو . الجرس : الصوت . بفتح الجيم وكسرها . الذئب المعتسّ : أي الذي يطلب فريسة يأكلها . الضرّم : الجائع .

(١) الشك : الانتظام . الأصمّ . الصلب . القنا : الرمح . يقول : فانتظمت برمحي الصلب ثيابه ، أي طعنته طعنة انفذت الرمح في جسمه وثيابه كلّها .

(٢) جزر : جمع جزرة وهي الشاة المعدة للذبح . ينشنه : يتناولنه . يقضمن : القضم : الأكل بمقدم الأسنان .

(٣) المشك : الدرع التي شُك بعضها إلى بعض وقيل مساميرها . فروجها : أوساطها . الحقيقة : ما يجب حفظه . معلم : الذي يُشار إليه بأنه فارس الكتيبة .

(٤) ربذٌ : سريع . شتا : دخل في الشتاء . الغاية : راية ينصبها الخمّار ليعرف مكانه بها التجار : المراد بهم الخمارين . الملوّم : ملوّم مرةً أثر مرةٍ .

(٥) أبدي نواجذه : كشر عن أسنانه .

(٦) المهند المخذم : السيف القاطع البتّار .

(٧) حدَّ النهار : طوله وعهدي به : لقائي به . العظلم : نبت يختضب به .

(٨) السرجة : الشجرة العظيمة . يحذي : أي تجعل له حذاء . النعال : المقصود بها الأحذية . المعنى : يقول الزوزني : « هو بطل مديد القدّ . كأن ثيابه لبست شجرة عظيمة ، تجعل جلود البقر المدبوغة نعلاً له ولم تحمل أمه معه غيره ، فذا غير تؤم » .

(٩) شاة : كناية عن المرأة . . والمعنى « هي حسناء جميلة مقنعة لمن كُلف بها وشغف بحبها . ولكن حرّمت عليَّ وليتها لم تحرّمْ عليَّ ، أي ليت أبي لم يتزوجها حتى كان يحلُّ لي تزوُّجها » .

(١٠) ورويت : فتحسسي بدل « فتجسّسي » .

قَـالَـتْ رأيـتُ مـن الأعـادي غِـرَّة والـشـاةُ مُمكنـةٌ لِـمـنْ هـو مُـرتَـم[1]

وكـأنـمـا الـتـفـتَـتْ بـجـيـدِ جـدايـةٍ رشـأٍ مـن الـغـزلانِ حُـرٍ أرثَـم[2]

نُـبِّئْـتُ عَـمـراً غـيـرَ شَـاكِـرِ نـعـمَـتـي والـكفـرُ مـخبـثـةٌ لـنفسٍ الـمُـنـعـم[3]

ولَـقَـدْ حفـظـتُ وَصَـاةَ عمّي بـالـضحـى إذْ تقلُصُ الشفـتـان عنْ وضـح الـفم[4]

فـي حـومـة الحـرب الـتي لا تـشـتـكي غـمَـرَاتِهـا الأبـطالُ غـيـرَ تَـغـمْـغُـم[5]

إذ يـتَّـقُـونَ بـيَ الأسـنَّـة لَـمْ أخِـمْ عـنهـا، ولـكـنـي تضـايـق مُـقـدَمـي[6]

ولـقـد هَـمـمْـتُ بـغـارةٍ فـي لـيـلةٍ سـوداءَ، حـالـكـةٍ كـلونِ الأدلـم[7]

لَـمَّـا سـمـعـتُ نـداء مُـرَّةَ قـد عـلا، وابـنَيْ ربـيـعـة فـي الـغُـبـار الأقـتَـم[8]

ومـحـلَّمٍ يَـسـعَـوْن تـحـت لـوائِـهـمْ والـمـوتُ تـحـت لـواءِ آل مـحـلَّم[9]

أيـقنتُ أن سـيكـونُ عـنـد لـقـائـهـمْ ضـربٌ يـطـيـرُ عـن الفـراخ الـجُثَّم[10]

لـمـا رأيـتُ الـقـومَ أقـبَـل جـمـعُـهـمْ يـتـذامـرون، كـرَرْتُ غـيـرَ مُـذمَّـم[11]

يَـدعـون عـنتـرَ، والـرمـاحُ كـأنـهـا أشـطانُ بئـرٍ فـي لـبـانِ الأدهـم[12]

كـيـفَ الـتـقـدُّمُ والـرمـاح كـأنـهـا بـرقٌ تـلألأ فـي الـسَّحـاب الأرْكَـم[13]

---

(١) غرّة : غفلة . لمن هو مرتم : أي لمن أراد أن يرتميها .

(٢) الجداية : جمع جدايا : ولد الظبية . الرشأ : القوي من أولاد الظباء . حُرّ : خالص . أرثم : في شفته العليا وفي أنفه بياض .

(٣) نبئت : أخبرتُ .

(٤) الوصاة : الوصية . تقلص : تقصر . وضح الفم : الأسنان .

(٥) حومة الحرب : حيث تدور الحرب . غمرات الحرب : شدائدها . التغمغم : صياحٌ لا يفهم منه شيءٌ .

(٦) الإتقاء : الحجز بين شيئين . الخيمُ : الجبن . مقدمي : موضع الأقدام .

(٧) حالكة كلون الأدلم : شديدة السواد .

(٨) الأقتم : الأسود القاتم .

(٩) هذا البيت ، والبيت الذي سبقه ، والبيت الذي يليه ، كل هذه الأبيات لم ترد إلا في رواية الخطيب وابن خطاب .

(١٠) الجثم : جثم الطائر : لزم كنّه فلم يبرح .

(١١) التذامر : الحضّ على القتال . تذامر جمعهم : حضّ بعضهم بعضاً على القتال .

(١٢) أشطان : حبال . لبان الأدهم : صدر حصانه الأدهم .

(١٣) هذا البيت، والبيتان اللذان بعده، جميعها لم ترد إلا عند محمد بن الخطاب ، ويبدو عليها أثرا=

كيفَ التقدّم والسُّيوفُ كأنها ... غوغا جرادٍ في كثيب أهيم[(١)]
فإذا اشتكى وَقْعَ القنا بلبانِهِ ... أدنَيْتُهُ من سلِّ عضْبٍ مَخذَم[(٢)]
ما زلتُ أرميهمْ بثغرةِ نحرهِ ... ولَبانِهِ حتى تَسَرْبَلَ بالدم[(٣)]
آسيتُهُ في كلِّ أمرٍ نائباً ... هل بعد أسوةِ صاحب من مذمم[(٤)]
فتركتُ سيّدهم لأول طعنةٍ ... يكبو صريعاً لليدين وللفم[(٥)]
ركّبتُ فيه صعدة هنديةً ... سحماء تلمَعُ ذات حدٍّ لهَذَم[(٦)]
فازورَّ مِنْ وَقعِ القنا بِلَبانِهِ ... وشكى إليَّ بعبرة وتحمْحُم[(٧)]
لوْ كانَ يدري ما المُحاوَرَةُ اشتكى ... ولكانَ، لو علم الكلام، مكلِّمي[(٨)]
ولقدْ شفى نفسي وأبرَأ سُقمها ... قيلُ الفوارس: «ويكَ عنتر أقدم»[(٩)]
والخيلُ تقتحمُ الخبارَ عوابساً ... من بين شيظمةٍ وأجرد شيظم[(١٠)]
ذللٌ ركابي حيثُ شئتُ مُشايعي ... لُبِّي وأحِفزُه بأمرٍ مُبْرَم[(١١)]
إني عَدَاني إن أزُورك فأعلمي ... ما قد علمتُ وبعض ما لَمْ تعلمي[(١٢)]
حالتْ رماح ابنَي بغيضٍ دونكمْ ... وزوتْ جواني الحرب من لمْ يُجرِم[(١٣)]

= النحل . السحاب الأركم : السحاب المتراكم .

(١) الكثيب الأهيم : ما لا يتمالك من الرمل فهو ينهار أبداً . غوغا جرادٍ : الجراد الكثير .

(٢) عضب مخذم : سيف قاطعٌ .

(٣) الثغرة : الوقبة في أعلى النحر . السربال : القميص أو كلّ ما يلبس . والمعنى أن الدم صار بمنزلة السربال .

(٤) ورد هذا البيت فقط في رواية ابن خطاب .

(٥) كبا يكبو : انكبَّ على وجهه .

(٦) الصعدة : القناة المستوية . سحماء سوداء . لهذم : القاطع من الأسنة .

(٧) ازورّ : مال . تحمحم : صهيل ممزوج بحنين .

(٨) المحاورة : الخطاب .

(٩) أبرأ : أذهب . السقم : المرض . ويك عنتر أقدمِ : أي احمل على الأعداء .

(١٠) الخبار : الأرض اللينة . الشيظمة والشيظم : صفتان للطوال من الخيول .

(١١) ذللٌ: جمع ذلول من الذل. الركاب : الإبل . المشايعة : المعاونة : أُخذت من الشياع . أحفزه : ادفعْه . الإبرام : الإحكام .

(١٢) هذا البيت وما بعده لم يردا في رواية الخطيب ومحمد بن الخطاب ولكنهما وردا في رواية الأعلم .

(١٣) حالت : قصرت . جواني الحرب : الذين هاجوها وأضرموها .

ولـقـدْ كـررتُ المـهـرَ يـدمي نـحـرُهُ ... حتى اتَّقتْني الـخيـلُ بـابـنَيْ حِـذيـم[1]

ولـقـدْ خشيـتُ بـأنْ أمـوتَ وَلَـمْ تَـدُرْ ... للحـربِ دائـرةٌ على ابـنَيْ ضـمضـم[2]

ألـشـاتمـي عـرضي ولـم أشـتـمـهـمـا ... والـنـاذرينَ، إذا لـم ألـقـهُـمـا دمـي[3]

إنْ يـفعـلا، فـلقـد، تـركتُ أبـاهُـمـا ... جـزر السبـاع، وكـل نـسـر قشعم[4]

---

(١) رويت : تركت بدل كررت .

(٢) دائرة : حادثة . ابنا ضمضم : حصين وهرم ابنا ضمضم .

(٣) في هذا البيت تعريض بابني ضمضم اللذين لا يجرؤان على توعدّه إلا أثناء غيابه .

(٤) إن يفعلا : إن يشتماني . جزر : الشاة المعدة للذبح . قشعم : مسنٍ .

تحليل المعلّقة

يفتتح عنترة معلّقته على غير ما ألفناه من شعراء عصره فهو قبل أن يخاطب الدّيار والأطلال ، يشير إلى شيءٍ بالغ الأهميّة ، وهو أنّ الشعراء لم يتركوا شيئاً من تلك الدّيار والأطلال إلّا ووصفوه وبينوا معالمه وتفنّنوا في صوره والحديث عنه ، حتى أنّهم لم يتركوا في ذلك لمتزيِّدٍ شيئاً يزيده أو يضيفه إليه ، ورغم أنّ عنترة يعترف بعدم جدوى مخاطبة الديار ، إلّا أن طابع التقليد يفرض عليه مخاطبتها بعد ذلك المطلع الاستفهامي الموحي بالرفض ، وهذا ما حدا ببعض النقاد وعلماء العربية كالأصمعي وابن الاعرابي وغيرهما إلى الشك في افتتاحية المعلّقة واعتبار البيت الأول منها منتحلاً على القصيدة[1] .

والحقيقة أن عنترة لم يكن في افتتاحه ذاك متعارضاً مع من سبقه من الشعراء ، ولكنّه من خلاله أراد أن يشير إلى واقعٍ مؤلم فرض عليه ، وغدا من المستحيل أن يغيّر فيه أو يجدّد في صوره ومناحي تفكيره ، مهما تلاعب بالألفاظ وغيّر في التعابير ، لأن الشعراء قبله قد استقصوا كلّ نواحيه ، وبيّنوه في قصائدهم المتعدّدة ، وصاغوه بقوالب مختلفة تظهر مهارة وتغيُّراً في الصياغة ، ولكنها لا تظهر مهارة في التفكير وتجديداً في الهدف والغاية ، إذ كان الثبات رائدها والتقليد غايتها ، ولذا فإننا نرى عنترة في معلقته ككل يختط لنفسه خطّاً جديداً يحاول فيه أن يخترق جدر ذلك الواقع ويفلت من شراكه الآسرة إلى حد يسمح له بالتعبير عن إحساساته الذاتية ومعاناته الداخلية ، ويتحدث عن آلامه وأحلامه وأمانيه دون أن تكون هناك قيود مانعة له ، والتزامات بقيم وتقاليد يرى عقمها وعدم جدواها ، إلّا أنه

(١) راجع جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ص ١١٣ ج أول .

يرى التحلُّلَ كلياً منها أو التمرُّد عليها أمراً صعباً بل ومستحيلاً بالنسبة له ، وهو الإنسان الذي خبر ذلك الواقع ، وعانى منه الكثير لإثبات شخصيته فيه والاعتراف بوجوده كإنسانٍ حرٍّ فاعل في قومه وعشيرته ، بل وعند أقرب الأقربين ، لقد أحسَّ عنترة باستقصاء الشعراء لمعاني الموضوعات المطروقة إلاَّ أنه لم يحسّ نضج الأفكار والمشاعر الإنسانية التي ظلّت أسيرة تتخبّط في دهياء العصبيّة والعرقيّة واللون ، ولذلك حاول أن يثبت وجوده في ذلك الخضم بطرقه الخاصة التي عزّزت موقعه في مجتمعه ولكنها لم تستطع أن تعزّز موقع الإنسان فيه ، لأنها طرق لم تفارق حدود الأنا ومطالب الذات .

بعد هذا يعود الشاعر إلى الوقوف على أطلال حبيبته ، ويخاطب ديارها التي ارتحل أهلها عنها ، فبدت مقفرة موحشة صمّاء لا تجيب داعياً ولا تردّ تحيّة ، وهذا ما أحدث في نفسه اللوعة والأسى ، فراح يخاطب الطلل ويبثّه أشجانه ولبانات قلبه ، ويحمّله ما شاء من نجوى وما قدر عليه من شكوى وعتاب ، وهو في خطابه لذلك الطّلل يعلم أنه يخاطب جماداً لا يحير جواباً ، ولكنّ التقليد حمله على ذلك ، فقد أصبح عرفاً أن تخاطب الحبيبة عن طريق ديارها .

وتحوّلت الأطلال عند الجاهليين إلى نصبٍ تذكاريةٍ يأتيها الشعراء العاشقون فيبثّونها لواعجهم وأشواقهم ، ويستعيدون بلقائها ذكرياتٍ من السنين الخوالي حملت في أكنافها كل بواعث الوجد والغرام ، فهي سنين العشق الأول ، ذلك العشق الذي يظلّ عالقاً في النفس متجذّراً فيها ، ولا تستطيع الليالي والأيام رغم الصروف والأحداث والغير ، أن تمحوه أو تستره ، لأنه التجربة البكر التي تنحفر في الذاكرة ، وتطلُّ بكل أطيافها الحالمة زاهيةً مرفرفة عند كل استحضار في هدأة خلوٍّ وتأمل ، ولذلك فإننا نرى عنترة يتأفّف من صعوبة اللقاء الحقيقي مع الحبيبة ، ويرى وصالها أمراً عسيراً بعد أن اكتنفها الأعداء من كل جانب ، وحالوا بينه وبينها بسبب العداوة والقتال ، إلاَّ أنّ حبها الذي حلَّ في قلبه كحلول الغيث في التربة الكريمة لا يمكن له أن يتغيّر أو يتحوّل ، فهو مقيمٌ عليه ، لأنه يرتبط بعلائق مقدسة لا تقلُّ أهميَّة عن شرف الدفاع عن القبيل والعشير :

علقتها عرضاً وأقتل قومها	زعماً لعمر أبيك ليس بمزعم
ولقد نزلت فلا تظنّي غيرَه	مني ، بمنزلة المحب المكرم

إنّنا هنا ولا شك ، نستشعر حراجة الموقف ودقته ، من خلال ذلك المزج بين العداوة

والحب ، بين الواجب والعاطفة ، ونتبين بوضوح عمق ذلك الصراع الداخلي الذي تقاسم قلب عنترة وشطره إلى نصفين توزّعهما قومه من جهة وحبيبته من جهة أخرى ، فغدا معهما لا يستطيع خلاصاً لأن حبالهما الآسرة جعلته أضعف من أن يتخذ موقفاً لصالح أي الطرفين ، ولذلك راح عنترة يصوّر رحيل الأحبة ، ويصور ما ترك ذلك الرحيل في قلبه من روع وحزن ، ويستحضر عن طريق الذاكرة صوراً لتلك الحبيبة الهاجرة التي سحرته بجمالها الطبيعي الفتان الذي أخذ يرسم معالمه مستعيراً له عالم الروض وأبعاده الرائعة فيقول :

إذ تستبيك بذي غُروبٍ واضحٍ	عذبٍ مقبّله لذيذ المطعم
وكأنّ فارة تاجرٍ بقسيمةٍ	سبقت عوارضها إليك من الفم
أو روضةً أُنفاً تضمن نبتها	غيثٌ قليل الدّمن ليس بمعلم
جادت عليه كلّ بكرٍ حرّةٍ	فتركن كلَّ قرارةٍ كالدّرهم
سحّاً وتسكاباً فكلّ عشية	يجري عليها الماء لم يتصرم

إنَّ عنترة في هذه الأبيات يفسر لنا صورة ذلك الصراع الداخلي الذي أشرنا إليه ، ويتلمّس لنفسه من خلالها الأعذار لذلك التقاسم القلبي الذي كاد أن يهزّ صورة الإباء والبطولة فيه ، فالحبيبة التي استطاعت أن تحتل من قلبه ذلك المكان ليست حبيبة عادية ، إنّما هي جمال رائع يستهوي النفوس كالبطولة تماماً ، بل ويستبيها كما تُستبى الفرسان في ساحات الوغى والنزال ، وأي استباء يعادل استباء الحب عند الشعراء ، إنه استباءٌ لا مثيل له ، استباء يفجّر العواطف الإنسانية في كلِّ عصر ، ويجعلها تتقطر رقةً وسحراً وعذوبة لتملأ الكون نغماً وظلالاً وأنداءً كما ملأت قلب عنترة في ذلك الزمن السحيق وجعلته يرتمي في أحضان الحب كما يرتمي في أحضان الوغى والقتال ، فلا عجب بعدُ أن نرى عنترة الفارس البطل يستبيه الفم الرقيق العذب الذي يضوع شذاً ويتألّق ضياءً ويتقطّر سكراً ، يستبيه الحبيب بكلِّ مفاتنه الحسيّة التي تتغلغل إلى أعماق الروح وتنصهر معها وتتوحّد فيها لتوجد ذلك الاستباء الذي يستشعره الإنسان كما استشعره عنترة من قبل ، وجعل حتّى الهوام تستشعره :

وخلا الذباب بها فليس ببارحٍ	غرداً كفعل الشارب المترنّم
هزجاً يحكّ ذراعه بذراعه	قدح المكبّ على الزناد الأجذم

إنها صورة رائعة تنقل الواقع نقلاً ماديّاً أميناً ، إلاّ أنه نقلٌ ممزوج ، بروح الشاعر ،

ممزوج بعينه اللاقطة وخياله الوثاب الذي استطاع أن ينتقل هنا وهناك ويحلّق ببراعةٍ فائقة في ذرى الشعر الأصيل تحليقاً جعل الهوام معه تترنّم وتتمايل تمايل الثمل الذي رنّحه السكر وأذهلته النشوة ، ولذا صار حريّاً بالإنسان الذي يعقل أن يحسّ ويستشعر ما أحسته الهوام واستشعرته ، وإلاّ كان أدنى منها ، وعند ذلك لا لومٌ يقبل منه ولا عتاب ، بل ولا سبيل إلى تلمّس الأعذار معه لأنّه فقد كلّ إحساسٍ بالجمال وكل نشوة تنبعث عن تذوّقٍ له أو ارتشاف لكأسه الأوفى .

إنّ عنترة من خلال وصفه للحبيبة يحاول أن يوجد المبرِّرات لذلك التعلّق الذي يجعله كثير التودّد والاستعطاف ، كما جعله كثير الهمّ والقلق ، حتى يبعد عن نفسه شكوكاً يمكن أن ينفذ منها المغرضون إلى شخصيته التي يقدّر ويعتزّ ، فيقال : إنّ عنترة شجاعٌ في القتال ضعيف في الحب ، ولذلك راح يغدق على حبيبته النعوت التي تظهر جمالها الفاتن ويربطها في كلّ آنٍ بالحديث عن بطولته وشجاعته ليثبت لنا أنّه قويٌّ في الحب والقتال معاً ، فحبيبته في راحةٍ ودعة لا تبالي ليلها ونهارها ، وهو في همٍّ دائمٍ وقتالٍ فوق فرسٍ أدهم تام الاستعداد متأهب لخوض غمار الحروب والشدائد والأسفار ، ولا ينسى أن يخصّ ناقته أو يزجُّها في معلّقته تقليداً وعادة ، بأبياتٍ يصوّر فيها قوّتها ونشاطها الذي يصل الليل بالنهار ويكسر الرُّبى والآكام ويشبّهها تارةً بالظليم وتارة بالفحل الذي كدمته الإبل ليبيّن قوتها وشدّتها وضخامتها .

بعد ذلك ينتقل إلى مخاطبة حبيبته ليؤكد لها أنّ الرحيل لا يمكن له أن يفرّق بينهما . أو أنه لن يمكّنه من التفريق ، فهو البطل الجاد في حبّه وفروسيته ، وباستطاعته أن ينتصر فيهما معاً لأن القادر على استلاب الفرسان المتلثمين في ساحات الوغى ، ليس بعاجزٍ قط عن استلاب الحسان الملثمات ، إلاّ أن الطريقة ليست واحدةً في كلتا الحالتين ، ففي الحالة الأولى استلاب بالسيف والرمح والنزال ، وفي الحالة الثانية استلاب بالخلق والصفات والمزايا الإنسانية التي تدخل القلوب وتوجد ذلك الرابط الذي يقرّب ويخلق حالةً من الارتياح والودّ والسكون ، ثم يأخذ في تعداد صفاته ومزاياه تلك فإذا هو كريمٌ سمحٌ طيب الخلق حسن المعاشرة يرفض الظلم وينتقم من الظالمين ويحافظ على شرفه وكرمه ومقامه .

ويستطرد فيصف لها أفعاله في الحروب ومقارعته الأبطال أولي النعمة والشرف والجاه ، ويطلب منها أن تسأل الفرسان عنه حتى تستيقن من قوله وبطولاته ، ويؤكد لها أنه

كرَّارٌ غير فرّار يقدم على المعارك ويخوض غمارها متنقّلاً هنا وهناك موقعاً الهزيمة بالأعداء أنّى اتجه ، وهذا ليس كلاماً بل فعلٌ وحقيقة يعترف بهما كلٌّ من شهد القتال وحضر اقتسام الغنائم والأسلاب .

ثم نراه يصف شجاعته لها ويعظّم من قدر أبطاله الذين يصرعهم في ساحات القتال ليبيّن قدرته الهائلة ، وبطولته النادرة التي أرهبت الأبطال وجعلتهم يتهيّبون نزاله لأن ذلك يعني لهم الموت والزوال .

ولا ينسى في غمرة هذه الحرب ، وفي جوّها المكفهر القاتم أن يخفف عن نفسه ويسترخي معها بوصلة تنسيه ما هو فيه من موت ورعب وصليل ، فيستحضر فيها صورة ذلك الفم الذي لا يفارقه سواءً في أوقات الهدوء أو الشدّة ، فهو معه في روضه من قبل وهو معه في معركته الآن يشعُّ ألقاً وضياء ويبرق كالسيف الصقيل فيضيء أرجاء القلب ويحمل إليه السعادة والقوة والتشبُّث بالحياة :

ولقد ذكرتك والرّماح نواهل ... منّي ، وبيض الهند تقطر من دمِ
فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسّم

ونرى هذا المشهد يتكرّر في معلقة عنترة بعد كل حديث عن بطولة ومعركة وكأنه استرخاء يحاول من خلاله أن ينسى الواقع ، أو استحضارٌ مقصودٌ يحفّز النفس ويجدّد فيها العزم والنشاط ، وكأني بعنترة من خلال هذا الاستحضار الذي يربط فيه بين البطولة والحب معاً ، يرمي إلى تصوير نفسه ، وكأنه البطل الذي لا يقهر ، لأنه جمع خلّتين اثنتين ، تكفي واحدة منهما لتحقيق النصر .

ويمضي عنترة في وصف بطولاته وحبّه الذي جعله يتلقط أخبار الحبيبة علّه يرى فرصة لوصال ، إلاّ أن ذلك الحب لا يمنعه قط عن الإقدام دفاعاً عن العشيرة والقبيل ، فنراه يخوض غمار الحروب ويصف بلاءه فيها ويذكر استحثاث قومه له وحاجتهم إليه واستنجادهم به في شعر نلمح فيه كل مقوّمات الملحمة والأصالة فيقول :

لمّا رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مذمّم
يدعون عنتر والرّماح كأنها ... أشطان بئرٍ في لبان الأدهم
ما زلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربل بالدَّم
فازورَّ من وقع القنا بلبانه ... وشكا إليَّ بعبرةٍ وتحمحم

لو كان يـدري ما المحـاورة اشتكى	ولكـــان لـــو علم الكـــلام مكـلّمي
والخيــل تقتحم الخبـار عـــوابســاً	مـــا بين شيــظمــة وأجـــرد شيـــظم
ولقـــد شفى نفسي وأبـــرأ سقمهـــا	قيــلُ الفـوارس: ويـك عنتـرة أقـدم

إنها ولا شك صورة رائعة لحـرب يتألق فيهـا عنترة فـارساً فـذاً ، وتحسّ نفسك من خلالها ، وكأنك أمام معركة حقيقية تسمـع فيها صليـل السيوف وصيـاح الأبطال وصـريخ المستنجدين ، ونرى فيها الخيل ضابحة في كل مجال ، فـرسانٍ تنتقـل هنا وهنـاك ، هذا يضرب وذاك يسقط وذلك يفر طالبـاً النجاة ، والغبـار يعلو والدمـاء تنزف والخيـل تشتكي وتتألم . ملحمة رائعة تجسّد البطولة والفروسية وترسم الشجاعـة والإقدام وتصـوّر الحرب رغم كراهيتها والنفور منها بصورة تستهوي النفـوس ، فتجعلك تتابـع مشاهـدها بحمـاسٍ شديدٍ آسر ، وتستعذب حتى منظر القتل والدماء وتكاد تجرُّك نشوة المتابعة إلى المشاركـة في الأحداث ، إنها أنشودة البطولة الذاتية التي تخاطب أشياء حميمة في نفس كلّ إنسانٍ ، وتضرب على أوتار حساسة تجد أصداء لها عند كل فرد ، فمن منا لا تعجبه البـطولة التي تخترق حدود الواقع الذي يقيّد الإنسان ويمنعه من التحليق المصحوب بالدّهشة والنسيان . من منّا لا يستهويه الكفاح الشخصي الذي يثبت الذات ويحقّق الطموحات ويجعل الجماعة تعترف بالواقع الجديد المكتسب ؟

من منّا لا يسترسل في أحلام نفسية تحاول في لحظات أن تغيّر الواقع وترسمه رسماً جديداً يتوافق مع الرغبات الحبيسة داخل الذات ، لذلك كله ، نستعذب ما جاء في هـذه الأبيات ، ونرى أنفسنا مشدودين إليها بأواصر خفيّة نحسُّها إلاّ أننا لا نتبيّن بصورة ملموسة حقيقتها لأنها تخاطب فينا ذلك الجانب الغامض الذي لا يتشكّل ، إنّه جانب النفس والرؤى والعواطف والأحلام ، الذي قد يتهـذّب إلاّ أنه سيـظلّ عصياً على كـلّ من يحاول تـأطيره وصياغته .

لقد سما عنترة في هذه الأبيـات إلى عالم الشعـر الحقيقي المليء بالحـركة والغنى والتنوع عندما جعل كل العناصر المكونة لها حيّة تشارك وتحاور وتتكلم ، كرٌّ وفرٌّ وجماعات تقدم وجماعات تتأخر وتتراجع ، رماحٌ ترد ورماحٌ تصـدر ، خيلٌ تغيـر وخيلٌ تحجم مـوت محدق ووجوه باسرة ، وعنترة في كل هذا الخضم الهائـل فارس مستبسـل يطلب المـوت فيفرّ الموت مذعوراً منه ، تراه في هجومٍ دائم على صهوة جوادٍ أسطوري ينصبّ به على الأعداء كالصـواعق المحرقـة ، حتى أصابـه الوهن والضعف ، وحـلَّ به الاعيـاء من كثرة

الجراح والدم النازف فإذا به يتطلع إلى عنترة مسترحماً شاكياً ، وكأنه يطلب منه الرحمة والرأفة والكف عن القتال .

إنها صورة رائعة يرسمها عنترة لذلك الجواد الذي أودعه العواطف وأسبغ عليه من نفسه ودنياه ، فجعله يتذمّر ويتأفّف ويتطلع ويتحمحم ، وكأنه يحاول أن يقول شيئاً ولكنه لم يستطع ، إلاّ أن عنترة عرف مراده من خلال تلك النظرة المستغيثة التي حملت كل معاناة الذات وكل مشاعر الرقة والاسترحام .

لقد أجاد عنترة في رسم صورة حصانه عندما أعطاه حياةً من حياته ، وإقداماً من إقدامه ، وجعله مشاركاً له في البطولة وتحقيق النصر ، هذا فضلاً عن إلباسه صورة الإنسان الذي يرى في الحرب عذاباً وألماً ، وفي القتل والدم مشهداً يستحق الاستنكار والاحتجاج .

ويختتم عنترة بعد ذلك معلقته بالحديث عن نفسه وعن رجاحة عقله واستقلال قراره ، فهو سيّد نفسه ، يفعل ما يريد ويرفض أي تهديدٍ ووعيد .

تلك هي معلّقة عنترة التي تبدو رغم تعدّد موضوعاتها وكأنها عملٌ فنيٌّ متناسق ، أضفى عليه اللحمة شعورٌ إنسانيٌّ عارم يظهر جليًا في كل مقاطع القصيدة التي توحّدت برابطٍ متين جمع أطرافها بعضها إلى بعض وهذا الرابط هو إثبات الذات المهتزة في نظر الحبيبة والقبيلة معاً ، ولذلك راح عنترة يؤكد ذاته عن طريق البطولة والشجاعة والافتخار بمزاياه النفسية التي يفتقدها الكثيرون ، ولا يمتلكها إلاّ قلّة من البشر هم عنترة ومن على شاكلته ، وهذه المزايا في مجملها مزايا معنوية ترضي النفوس لأنها تمثّل جوهر الإنسان ووجهه الخفيّ الذي لا يتكشّف إلاّ من خلال الفعل ، فالإنسان ليس بمظهره الذي قد يعجب أحياناً إلاّ أن الحكم على الإنسان لا يصحُّ أن يتمَّ من خلاله ، فكثيراً ما يكون المظهر سراباً فاتناً سرعان ما يتكشّف عن حقائق مرة وفراغٍ ممض .

وعنترة في تحقيق ذاته ، لم يترك وسيلةً من الوسائل إلاّ وأقدم عليها يدفعه إلى ذلك حبٌّ عذريٌّ عفيف وشجاعة وفروسيَّة قلَّ نظيرهما ، ولذلك تحوّلت معلّقته إلى نشيد من أناشيد الحب والبطولة ، يجد له معزفاً في كل نفس ، ووتراً يستعذب أصداءه كلَّ ضارب .

أمّا أسلوب عنترة في معلقته هذه ، فيبدو ذلك الأسلوب الجزل الرقيق الذي يتميز بالسلاسة والعذوبة والشفافية التي تلامس شغاف القلب وتستهوي النفوس المتعطّشة إلى تحقيق الذات ، فأنت لا تقع في القصيدة بمجملها تقريباً على شيء مستكره ، لأن كل

عناصر الأسلوب والصياغة تضافرت بعضها مع البعض لتؤلّف معاً عملاً شعرياً فذاً حقق لهذه المعلقة فرادة بين أخواتها في الإنسجام والاتساق ، وهذا مرده إلى ذلك الشعور النفسي الذي تصبّب في كلِّ أجزاء القصيدة بشكلٍ حماسيّ متأجج ، لم يفتر في أي جزءٍ منها ، بل ظلّ مشعاً متقداً من بدايتها إلى نهايتها ، فحقق لها نوعاً من الوحدة الشعورية التي بإمكانها أن تنظم شتيت الموضوعات بسلك يظهر مهارة النظم ، كما يظهر وهجه ودفأه وحرارته .

أمّا ألفاظ عنترة في معلقته فكانت في مجملها إلاَّ ما ندر ، ألفاظاً مأنوسة متألقة تشع نغماً وموسيقى ، وتنمُّ عن تخيّرٍ بارعٍ لا صنعة فيه لأنه كان وليد العفوية الصادقة والدّفق الشعوري الحار ، وتحسُّ فيها تآلفاً الحروف وتناسقها مع السياق العام ، فهي قوية في مواضع الحرب والقوة ، رقيقة في مواضع الحب واللين تخالها حيناً وكأنها ضربة سيف هاوية تنقضُّ انقضاضاً بشدة وعزم ، وتخالها حيناً آخر وكأنها ذوب نفس براها الحب وشفّها الوجد . .

أمّا صوره فقد حالفه التوفيق في أكثرها ، وكانت صوراً معبّرة حيّة متحركة تكاد تنطق وتفصح وتبين ، وقد أضفى عليها عنترة من نفسه وروحه ومشاعره فجاءت مليئة بالحماس والدفء والارتياح . وتحسُّ عند قراءتها نوعاً من الرابط الذي يشدّنا إليها لأنها كانت تعبيراً صادقاً عن العواطف الذاتية التي لا تختلف عن العواطف الإنسانية العامة في كل زمان .

لقد تضافرت كل العوامل الفنية والنفسية في معلقة عنترة فأوجدت لنا عملاً شعرياً متسقاً قلَّ نظيره في الشعر الجاهلي وأعجب النقاد والمتذوّقين في كلِّ عصر .

الحارث بن حلِّزة

هو الحارث بن حلِّزة بن مكروه بن يزيد بن عبد الله بن مالك بن عبد بن سعد بن جشم بن ذبيان بن كنانة بن يشكر بن بكر بن وائل ، الشاعر الجاهليّ المشهور[1] ومن أهل العراق[2] والحلّزة لقبٌ أطلق على أبيه فاشتهر به ، وهي من الحلّزة أي البخل يقال : رجلٌ حلّزٌ وامرأة حلّزة ، قال الجوهري ، وبه سمّي الحارث بن حلّزة ، والحلّزة أيضاً : القصيرة ، ودويبة معروفة ، وقال قطرب : إنها ضرب من النبات ، وبه سمّي الحرث بن حلّزة اليشكري[3] ويكنّى الحارث أبا ظليم ، أمّا تفاصيل مولده ونشأته فلا تذكر كتب الأدب والتاريخ شيئاً عنهما ، وكلّ ما ذكرته ، هو تلك الحادثة التي وقف فيها الحارث أمام عمرو بن هند ينافح عن قومه في قصيدة طويلة يردّ بها على عمرو بن كلثوم شاعر التغلبيين وسيّدهم ، فعن أبي عمر الشيباني أنه قال : كان من خبر هذه القصيدة والسبب الذي دعا الحارث إلى قولها ، أن عمرو بن هند الملك ، وكان جبّاراً عظيم الشأن ، لمّا جمع بكراً وتغلب ابني وائل وأصلح بينهم ، أخذ من الحيين رهناً ، من كلّ حيٍ مائة غلام ليكفّ بعضهم عن بعض ، فكان أولئك الرهن يكونون معه في مسيره ويغزون معه فأصابتهم سموم في بعض مسيرهم فهلك عامة التغلبيين وسلم البكريون ، فقالت تغلب لبكر ، أعطونا ديات أبنائنا ، فإن ذلك لكم لازم ، فأبت بكر بن وائل ، فاجتمعت تغلب إلى عمرو بن كلثوم

---

(١) راجع المؤتلف والمختلف للآمدي ص ٩٠ وطبقات الشعر ص ٦٤ والأغاني ج ٩ ص ١٧٧ .

(٢) شعراء النصرانية ج أول ص ٤١٦ .

(٣) راجع لسان العرب ج ٥ ص ٣٣٨ مادة « حلز » .

وأخبروه بالقصة ، فقال عمرو : أرى والله الأمر سينجلي عن أحمر أصلع أصمّ من بني يشكر ، فجاءت بكر بالنعمان بن هرم أحد بني ثعلبة بن غنم بن يشكر ، وجاءت تغلب بعمرو بن كلثوم ، فلمّا اجتمعوا عند الملك ، قال عمر بن كلثوم للنعمان بن هرم : يا أصمّ ، جاءت بك أولاد ثعلبة تناضل عنهم ، وهم يفخرون عليك ، فقال النعمان : وعلى من أظلّت السماء يفخرون ثم لا ينكر ذلك ، فقال عمرو بن كلثوم له : أما والله لو لطمتك لطمة ما أخذوا لك بها ، فقال النعمان : والله لو فعلت ما أفلت بها قيس بن أبيك ، فغضب عمرو بن هند . وكان يؤثر بني تغلب على بكر[1] ، وحدثت مشادة بين عمرو بن هند والنعمان بن هرم كاد فيها عمرو أن يفتك بالنعمان ، عندئذٍ قام الحارث بن حلّزة ، فارتجل قصيدته تلك ارتجالاً ، توكأ على قوسه وأنشدها ، واقتطم كفه وهو لا يشعر من الغضب حتى فرغ منها[2] وقيل : إنه كان متوكئاً على عنزة[3] فارتزت في جسده وهو لا يشعر[4] . وذكر أبو عبيدة أن عمرو بن هند هذا كان شريراً ، وكان يقال له : مضرّط الحجارة لشدّته ، وكان لا ينظر إلى أحدٍ به سوء ، وكان الحارث بن حلّزة أيضاً ينشد من وراء الحجاب ، لأنه كان أسلع أي أبرص ، فلما أنشده هذه القصيدة أدناه حتى خلص إليه[5] ويقال : إنّ هند أم عمرو كانت تستمع إلى الحارث بن حلّزة وهو ينشد قصيدته ، فقالت لابنها : بالله ما رأيت كاليوم قطّ ، رجلاً يقول مثل هذا القول يتكلّم من وراء سبعة ستور ، فقال الملك : ارفعوا ستراً وأدنوا الحارث ، واستمرّ الحارث بإنشاده وعمرو بن هند يرفع الستور واحداً واحداً بناءً لطلب أمه حتى أزيلت الستور السبعة وأجلس الملك الشاعر بقربه وأكرمه غاية الإكرام ، وأطعمه في جفنته ، وأمر أن لا ينضح أثره بالماء ، وذلك لإعجابه الشديد بقصيدته ، وبما ساق فيها من الثناء على آبائه وأجداده[6] .

تلك هي الحادثة الوحيدة التي ذكرتها كتب الأدب والتاريخ عن الحارث بن حلّزة ، ولولا هذه الحادثة لظلّ الرجل مغموراً في زوايا النسيان مثله كمثل كثير من الشعراء الذين لم

---

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٧٨ .
(٢) راجع الأغاني ج ٩ ص ١٧٨ وخزانة الأدب ج ١ ص ٢٢٣ .
(٣) العنزة : عصاً في قدر نصف الرمح لها سنامان .
(٤) الشعر والشعراء ص ١١١ .
(٥) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليّات لأبي بكر محمد بن قاسم الأنباري ص ٤٣٢ .
(٦) راجع شرح القصائد السبع الجاهليات ص ٣٧٠ .

يفسح لهم التاريخ مجالاً في صفحاته ، لأن حياتهم لم ترتبط بحادثة ذات شأن تستوجب الذكر والرواية ، ومما يجب ملاحظته في هذا الصدد ، أنه « كان لملوك الحيرة أعظم الأثر في تعريفنا بشيء من تاريخ أكثر شعراء الجاهلية ، ولولا انتجاع أولئك الشعراء قصورهم بالحيرة والأحداث التي اتصلوا بها ما عرفنا من أمره شيئاً[١] . . . فأهمّ مراحل حياة طرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلّزة والنابغة الذبياني وغيرهم من فحول الشعراء في العصر الجاهلي ، إنما عرف منها ذلك الشطر الذي وفدوا فيه على أولئك الملوك مختصمين أو محتكمين أو طالبي عطاء وصلة ، وكان هذا هو الذي وجه إليهم الأنظار ، ولولا ذلك لضاعت أخبارهم وعفت آثارهم ، كما عفت آثار الديار في صحراء العرب وباديتها[٢] .

ويبدو أنّ الحارث عندما أنشد قصيدته تلك ، كان في سن متقدمة ، يقال : إنه أنشدها وله من العمر مائة وخمس وثلاثون سنة[٣] ، ومما يقوي ذلك الزعم ما ورد في القصيدة من أحداثٍ وأخبار ووقائع ، صاغها الحارث بأسلوب هادىء رصين ينم عن حكمة ورزانة وبعد نظر ، وهذا يدل على أنه كان في مرحلة من النضج الذي لا يكتسب إلا بالخبرة الطويلة المستفادة من الزمن وتجاربه ، على العكس من قصيدة عمرو بن كلثوم التي صيغت بأسلوب نلمح فيه نزق الشباب وجهله ، فقد طغى على قصيدته الصياح والضجيج والتعالي ، فكان ذلك سبباً للنفور والأبعاد ، وتغيّر الحكم الذي تحول بعد الاستماع إلى صالح البكريين بعد أن كان لصالح التغلبيين ، ويعدّ الحارث من المعمّرين قيل : إنه توفيّ نحو سنة ٥٨٠ م وله من السنين مائة وخمسون سنة[٤] .

أما سيرته الأدبية فهي كسيرته التاريخية ، لم يولها النقاد والدارسون القدر الكافي من الاهتمام ، نظراً لأن الحارث لم يؤثر عنه من الشعر إلا تلك القصيدة التي ذكرها القدماء في عداد المعلّقات ، ومع ذلك فقد جعله ابن سلّام الجمحي في الطبقة السادسة من الشعراء الذين ترجم لهم إلى جانب عمرو بن كلثوم وعنترة بن شداد وسويد بن أبي كاهل ، وقال في ترجمته : وله قصيدته التي يقول فيها :

آذنتنا ببينها أسماء

---

(١) أي أمر الحارث .

(٢) بدوي طبانة معلّقات العرب ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٣) راجع خزانة الأدب ج ١ ص ٢٢٣ .

(٤) راجع شعراء النصرانية ج ١ ص ٤١٦ كذلك راجع جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ١١١ .

وله شعر سوى هذا ، وهو الذي يقول في بعض شعره :

لا تكسع الشّول بأغبارها[1] إنك لا تدري من الناتجُ[2]

فالحارث إذاً من الشعراء المقلّين ، إلّا أن صاحب كتاب شعراء النصرانية ذكر في ترجمته له أنه من شعراء الطبقة الأولى[3] ولعلّه يقصد في ذلك القدم الزمني وليس المكانة الشعرية التي عناها ابن سلّام عندما صنّف الشعراء إلى طبقات أمّا أبو عبيدة ، فقد جعله مع الشعراء الذين برزوا في واحدة جيّدة ، فقال : أجود الشعراء قصيدة واحدة جيّدة ثلاثة نفر ، عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلّزة وطرفة بن العبد[4] وقال يعقوب بن السكيت : كان أبو عمرو الشيباني يعجب لارتجال الحارث هذه القصيدة في موقف واحد ، ويقول : لو قالها في حولٍ لم يلم[5] وذكر صاحب الشعر والشعراء أن الأصمعي قال : قد أقوى الحارث بن حلّزة في قصيدته التي ارتجلها قال :

فملكنا بذلك الناس إذ ما ملك المنذر بن ماء السماء

قال أبو محمد : ولن يضرّ ذلك في هذه القصيدة لأنه ارتجلها فكانت كالخطبة[6] إلّا أن أكثر النقّاد والدارسين المحدثين لا يشاركون القدماء فيما ذهبوا إليه من القول بارتجالها ، ويرون أن قصيدة الحارث قد أعدت بإحكام وهيئت لتقال في يوم الاحتكام فهي أشبه ما تكون بمرافعة حوت كلّ الحجج المنطقية لإقناع الحكم ، وقد أفلح الحارث في عرضه الذي يدلّ على نضج وحنكة ودهاء سياسي قل نظيره ، ويشير الدكتور طه حسين إلى ذلك الاعداد المسبق فيقول : ويكفي أن تقرأ هذه القصيدة لترى أنها ليست مرتجلة ارتجالاً ، وإنما هي نظمت وفكر فيها الشاعر طويلاً ، ورتب أجزاءها ترتيباً دقيقاً وليس فيها من مظاهر الارتجال إلا شيء واحد ، وهو هذا الإقواء الذي نجده في قوله :

فملكنا بذلك الناس حتى ملك المنذر بن ماء السماء

---

(١) كسع الناقة بغبرها : أي ترك في خلفها بقيةً من اللبن ، يريد بذلك تغزيرها ، والمعنى العام : لا تغزر إبلك تطلب بذلك قوة نسلها واحلبها لأضيافك ، فلعلّ عدوّاً يغير عليها فيكون نتاجها له دونك « لسان العرب ص ٣١٠ ج ٨ مادة كسع .

(٢) طبقات الشعراء ص ٦٤ .

(٣) شعراء النصرانية ج ١ ص ٤١٦ .

(٤) شرح القصائد السبع الطوال : ص ٤٣٢ .

(٥) الأغاني ج ٩ ص ١٧٩ .

(٦) الشعر والشعراء ص ١١١ .

فالقافية كلها مرفوعة إلا هذا البيت ، ولكن الإقواء كان شيئاً شائعاً حتى عند الشعراء الإسلاميين الذين لم يكونوا يرتجلون في كل وقت » . . .

ومن ثم نراه يقارن بين قصيدتي عمرو والحارث فيقول : إنّ قصيدة الحارث أمتن وأرصن من قصيدة ابن كلثوم ، ولكنه مع ذلك يعتقد بأن القصيدتين منحولتان فيقول « على أن هذا لا يغيّر في رأينا في القصيدتين ، فنحن نرجحّ انهما منحولتان »[١] .

أما سيرته الشخصية فهي لا تقل ندرةً عن سيرتيه التاريخية والأدبية وقد استطعنا من خلال معلّقته وبعض ما ذكره الرواة عنه ، أن نتعرّف بإيجاز على شخصيّة ذلك الرجل الذي ذكر أنه كان أسلع أي أبرص ، إلا أنه مع ذلك كان يتمتع بشخصية قويّة تتمثل فيها كل مقوّمات القيادة الرّشيدة والرّئاسة الحميدة ، فقد جمع الرجل في شخصه إلى جانب الفخر الذي ضرب به المثل حتى قيل : أفخر من الحارث بن حلّزة[٢] الدّهاء والحنكة والحكمة ، فنراه في معلّقته يحسن التصرّف ويورد الأمور موردها الصحيح الذي يدلُّ على خبرة سياسيّة جديرة بالاحترام والتقدير ، فهو في دفاعه عن قومه لم يكن الرجل المتذلّل الذي يريق ماء الوجه ليكسب جانب الملك إلى جانبهم ، بل كان الرّجل الهادىء الرصين الذي عرض مواقفهم في نصره الملك وآبائه ، ودافع بإباءٍ عن كرامتهم وشجاعتهم ، وأحسن استغلال نقاط الضعف عند الخصم فأقرّ له الملك بالغلبة والتقديم ، وتوصّل إلى غايته من غير أن يلحق بنفسه أو بقومه انتقاصاً أو تفريطاً بالموقع والمكانة والكرامة .

ذاك هو الحارث بن حلّزة الشاعر الذي عرف أنّ القوة ليست عدداً وعدّةً فحسب ، بل هي إلى جانب ذلك عقل يخطط ، وعزم ينفّذ ، ورأي نيرٌ يستلهم تجارب الآخرين ويوظفها في سبيل تحقيق غاياته وأهدافه .

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

(٢) راجع تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ١ ص ١١١ .

معلّقة الحارث بن حلزة

آذنتـنـا بـبَـيْـنِـهـا أسـمـاءُ ... رُبَّ ثَـاوٍ يُـمـلُّ مـنـهُ الـثَّـواءُ[1]

آذنـتـنـا بـعـهـدِهَـا ثـمَّ وَلَّـتْ، ... لـيتَ شعْـري متى يكـونُ اللقـاءُ[2]

بَـعـدَ عَـهـدٍ لَـنَـا بـبـرقـةِ شَـمَّـا ... ءَ فـأدنـى دِيَـارِهَـا الـخَـلْصَـاءُ[3]

فَـالمُـحيّـاةُ فـالـصِّـفـاحُ، فَـأَعْـنـا ... قُ فِـتـاقٍ، فَـعـاذبٌ فَـالـوفـاءُ[4]

فـريـاضُ الـقـطا فـأوْديـةُ الـشُّـرْ ... بُـبِ فَـالـشِّـعـبتـانِ فـالأَبْـلاءُ[5]

لا أرى مَـنْ عَـهـدْتُ فـيـهـا فـأبـكـي ... الـيـومَ دَلهـاً، ومـا يُـحيـرُ الـبكـاءُ[6]

وَبِـعـيـنـيـكَ أوقـدَتْ هِـنـدُ الـنّـا ... رَ أخـيـراً تُـلوي بِـهـا الـعَـلْيـاءُ[7]

فَـتَـنـوَّرْتُ نَـارَهـا مِـنْ بَـعـيـدٍ ... بـخـزازى هَـيـهـات مِنـك الـصِّـلاءُ[8]

أوقَـدَتْـهـا بيـن الـعـقـيـقِ فـشـخـصـيـنِ ... بِـعُـودٍ كَـمَـا يَـلوحُ الـضِـيّـاءُ[9]

---

(١) آذنتنا ببينها : أخبرتنا بفراقها . ثاوٍ : مقيم .

(٢) هذا البيت لم يرد إلا في رواية عبد القادر البغدادي .

(٣) العهد : اللقاء . برقة شمّاء والخلصاء : اسم مكانين .

(٤) هذه كلّها أسماء مواضع .

(٥) هذه كلها أسماء مواضع .

(٦) الدله : فقدان الصواب . يحير : يجيب .

(٧) ألوى بالشيء : أشار به . العلياء : البقعة العالية .

(٨) التنوُّر : النظر إلى النار . خزازي : اسم موضع . هيهات : بَعُدَ الأمر . صلاء النار : اشتعالها .

(٩) العقيق وشخصين : اسماً موضعين . كما يلوح الضياء : أي لاحت كما يلوح الضياء .

غيـر أنّي قـد أستعيـنُ على الـهَمِّ ... إذَا خَـفَّ بـالـثـويِّ الـنّجـاء[1]

بـزفـوفٍ كـأنـهـا هِـقـلـةٌ أُمُّ ... رِئـالٍ دَوِيَّـةٌ سَـقـفَـاءُ[2]

آنـسـتْ نـبـأةً وأفـزَعـهـا الـقُـنّـاصُ ... عـصـراً وقـدْ دنـا الإمـسـاء[3]

فَتَـرَى خَلَفـهـا من الـرَّجـع والـوقـعِ ... مَـنـيـنـاً كـأنَّـه إهـبـاءُ[4]

وَطِـراقـاً مـن خَـلـفـهـنَّ طِـراقٌ ... سـاقـطاتٌ ألـوتْ بِـهـا الصحـرَاء[5]

أتَـلهَّـى بِـهـا الـهـواجـرَ إذ ... كـلُّ ابـن هَـمٍّ بَـلـيّـة عَـمـيـاء[6]

وأتـانـا مِـنَ الـحـوادِثِ والأنـبـاء ... خَـطبٌ نُـعـنـى بِـهِ ونُـسـاء[7]

إنّ أخـوانَـنـا الأراقـمَ يَـغـلُـو ... نَ عَـلـيـنـا فـي قِـيـلهـم إحـفـاء[8]

يَـخـلطونَ الـبـريءَ مـنّـا بـذي الـذَّ ... نـبِ ولاَ يـنـفـعُ الـخـليَّ الـخـلاءُ[9]

زعـمـوا أنَّ كـلَّ مـن ضَـرَبَ الـعَـيـ ... ـرَ مَـوالٍ لـنـا وأنّـا الـوَلاء[10]

(١) الثويّ أو الثاوي : المقيم . النجاء : الإسراع في السير .

(٢) الزفوف : صيغة مبالغة على وزن « فعول » ومعناها إسراع النعامة أو الدابة في سيرها . عقلةٌ : نعامةٌ . رئال : جمع رئل وهو ولد النعامة . دويّة : نسبة إلى الدّوّ ، وهو المفازة . سقفاء : طويلة على انحناء .

(٣) النبأة : الصوت الخفي يسمعه الإنسان . القنّاص : الصائد . العصر : العشي .

(٤) المنين : الغبار الرقيق . الإهباء : إثارة الغبار .

(٥) الطراق : اطباق النعل . ألوتْ بها : أفنتها .

(٦) أتلهّى : أتلعّب . الهواجر : جمع الهاجرة : أشدُّ ما يكون من الحر . البلية العمياء : الناقة العمياء .

(٧) الخطب : الأمر العظيم . نُعني به ونُساء : نهتمُ له ونحزن .

(٨) الأرقام : بطون من تغلب : سموا بها لأن امرأة شبهت عيون آبائهم بعيون الأراقم . الغلوّ : مجاوزة الحدّ . الإحفاء : الإلحاح .

(٩) الخليُّ : البريء .

(١٠) العير في هذا البيت يفسر بالحمار، والسيّد ، والوتد ، والقذف ، أو جبل بعينه . أنّا الولاء : أنا أصحاب ولائهم .

يقول الزوزني في شرحه: ثم أن فُسِّر العير بالسيد كان تحرير المعنى: زعم الأراقم أن كل من يرضى بقتل كليب وائل بنو أعمامنا، وأنّا أصحاب ولائهم تلحقنا جرائرهم، وإن فُسِّر بالحمار كان المعنى: إنهم زعموا أن كل من صاد حمر الوحش موالينا . وإن فُسّر بالوتد كان المعنى : زعموا أنه كل من ضرب الخيام وطنّبها بأوتادها موالينا . وإن فُسِّر بالقذى كان المعنى : زعموا أن كل من ضرب القذى ليتنحى فيصفو الماء موالينا . وإن فُسّر بالجبل المعيّن كان المعنى : زعموا أن كل من صار إلى هذا الجبل موالٍ لنا . .

أجـمَـعـوا أمـرَهُـمْ عِـشـاءً فَـلَمَّـا	أصبحـوا أصبحتْ لهُـمْ ضَـوضـاء[١]
مـن مُـنـادٍ ومـنْ مُـجـيـبٍ ومِـنْ	تـصهـالِ خَيـلٍ خـلالَ ذاكَ رُغـاء[٢]
أيّـهـا الـنـاطِـقُ الـمُـرَقِّشِ عَـنَّـا	عِـنـدَ عـمـروٍ وَهَـلْ لـذاكَ بَـقـاء[٣]
لا تَـخَـلـنـا عَـلى غَـزاتِـك إنَّـا	قَبـلُ مَـا قَـدْ وَشَى بِـنـا الأعـداء[٤]
فبقينـا عَلى الشـنـاءَة تنـمـيـنـا	حُـصـونٌ وعِـزَّةٌ قَـعـسـاء[٥]
قَبْـلَ مـا اليـوم بيَّضت بعيـون النـاس	فـيـهـا تَـغـيُّظُ وإبَـاءُ[٦]
وَكَـأنَّ الـمـنـونَ تَـرْدي بـنـا أر	عَـنْ جَـوْنـاً ينجـابُ عنـه العمَـاء[٧]
مُـكـفـهـراً عـلى الـحـوادِث لا تَـرْ	تُـوهُ لـلدَّهـر مُـؤيِّـدٌ صَـمّـاء[٨]
إرَمـيٌّ بـمـثـله جـالـت الـخـيـلُ	فَـآبـتْ لـخـصـمِـهـا الإجـلاء[٩]
مَـلكٌ مُـقـسطٌ وأفـضـلُ مَـنْ يـمـ	ـشي وَمِـنْ دُون مـا لـديـهِ الـثـنـاء[١٠]
أيّـمـا خُـطـةٍ أردتـم فَـأدّو	هـا إلـيـنـا تَـمـشـي بـهـا الأملاء[١١]
إن نـبـشـتـمْ مـا بيـن مـلحـةَ فَـالـصَّـا	قِـب فـيـه الأمـوَاتُ والأحـيـاء[١٢]

(١) الضوضاء : الجلبة والصياح .

(٢) التصهال : الصهيل . الرغاء : صوت الإبل .

(٣) المرقّش : الناطق بألوان الكذب والافتراء أمام الملك .

(٤) غراتك : اسم بمعنى الإغراء . والمعنى لا تظننا متذللين متخاشعين لإغرائك الملك بنا . فقد وشى بنا أعداؤك إلى الملوك قبلك .

(٥) الشناءة : البغضاء . تنمينا : ترفعنا . عزّة قعساء : عزّة ثابتة لا تزول .

(٦) تبيّض العين : كناية عن الإعماء . وابيضت العيون : عميت .

(٧) تردي : ترمي . الأرعن : الجبل الذي له رعن . الجون : الأسود يتخلله بياض . ينجاب : ينكشف . العماء : السحاب .

(٨) المكفهرُّ : الشديد العبوس . الرتوُ : الشدُّ والإرخاء . المعنى : نشدُّه ونرخيه معاً وهو من الأضداد ، ولكنّه في البيت بمعنى الإرخاء . مؤيّد صمّاء : داهية شديدة الوقع .

(٩) إرميٌّ : نسبة إلى إرم جدِّ عاد .

(١٠) مقسط : عادلٌ . الثناء : المدح .

(١١) الخطة: الأمر العظيم الذي يحتاج إلى مخرج منه . أدّوها : فوّضوها . الاملاء : الجماعات من الأشراف . جمع الملأ : ويعني بهم الأشراف الذين يملأون البصائر والقلوب جلالاً .

(١٢) نبشتم: بحثتم. ملحة فالصاقب : اسما موضعين . الأموات يقصد بهم القتلى الذين لم يُثأر لهم . والأحياءُ : من ثُئر لهم . والمعنى أن قوم الشاعر ثأروا لقتلاهم أما تغلب فلا .

أو نَقشتُم فـالنَّقشُ يَجشمـهُ النـا ... س وفـيـهِ الـصـلاحُ والإبـراء[1]

أو سكتُّم عَنّـا فكنّـا كـمن أغـمـ ... ـض عـينـاً فـي جفـنهـا أقْـذاء[2]

أوْ مَنَعْتُمْ مـا تُسـألـونَ فَمن حُـدِّ ... ثْـتـمـوهُ لـهُ عـلـينـا الـعـلاءُ[3]

هَـلْ عَـلمتـم أيـامَ ينـتـهـبُ النـا ... سُ غِـواراً لـكـلِّ حَـيٍّ عـواء[4]

إذْ ركبنـا الـجمـالَ مِن سعف البحـرَ ... يـن سَيـراً حَتّى نَـهَـاهَـا الـحِسـاء[5]

ثُـمَّ مـلنـا عـلى تَـمـيـمٍ فَـأحْـرَ ... مْـنـا، وفـيـنـا بَـنـاتُ مُـرٍّ إمـاء[6]

لَا يُـقيـمُ الـعـزيـزُ بـالـبلدِ الـسهـلِ ... ولَا يـنـفـعُ الـذَّلـيـلَ الـنـجـاء[7]

لَـيسَ يُـنـجـي مُـوائِـلاً مـن حِـذارٍ ... رَأسُ طـودٍ وحَـرَّةٌ رَجـلاء[8]

فَـملكْـنـا بـذلـك الـنـاسَ حـتّـى ... مَـلَكَ الـمـنـذرُ بْنُ مـاء الـسـمـاء[9]

مـلكٌ أضْـرَعَ الـبـريَّـة لا يُـو ... جـدُ فـيـهـا لِـمَـا لـديـه كـفـاء[10]

مَـا أصـابـوا مـن تـغـلـبـيٍّ فـمـطلو ... لٌ عـلـيـه إذا أُصـيـبَ الـعـفَـاء[11]

كَـتكـاليفِ قـوْمِنـا إذْ غَـزَا الـمُـنـذر ... هَـلْ نَـحـن لابـن هـنـدٍ رعـاء[12]

---

(١) النقشُ : الاستقصاء . يجشمه : يتكلفه . السقم هنا بمعنى الذنب . والبرء بمعنى براءة الساحة . يريد أن الاستقصاء يبيِّن براءتنا من الذنب وذنبكم .

(٢) اقذاء : جمع قذى وهو الغبار في العين .

(٣) يقول : وإن منعتم ما سألناكم من المهانة فأي قوم أخبرتم أنهم أعلى منا ؟ أي لا قوم أشرف منا ، فلا نعجز عن مقابلتكم ومنازلتكم .

(٤) الغوار : المغاورة . العواء : صوت الذئب . وهو هنا مستعار للضجيج والصياح . والانتهاب : الإغارة .

(٥) سعف : جمع سعفة وهي غصن النخيل . الحساء : اسم مكان .

(٦) أحرمنا : دخلنا الشهر الحرام . تميم ومرّ : قبيلتان . إماء : سبايا . أي أغرنا على بني تميم ثم دخل الشهر الحرام وعندنا سبايا القبائل .

(٧) النجاء : الإسراع في السير .

(٨) الموائل : الهارب . الطود : الجبل . حرّة رجلاء : الأرض الغليظة الشديدة .

(٩) يلاحظ أن في هذا البيت أقواء لاختلاف حركة الروي فيه عن سائر أبيات المعلقة : وهذا البيت لم يرد في رواية الزوزني .

(١٠) أضرع : قهر وذلل . كفاء : مثل .

(١١) مطلول : مهدور . العفاء : الدروس . وهو أيضاً التراب الذي يغطي الأثر .

(١٢) التكاليف : المشاق والشدائد . رعاء : رعيّة .

إذْ أحـلَّ الـعـلـيـاءَ قُـبـةَ مَـيـسُـو ... نَ فـأدنـى ديـارِهَـا الـعَـوْصـاءُ[1]

فَـتـأوَّتْ لَـهُ قَـراضـبـةٌ مِـنْ ... كـلِّ حـيٍّ كـأنَّـهُـمْ ألـقـاءُ[2]

فـهـدَاهُـمْ بـالأسْـوديـن، وأمَـرُ الـلَّهِ ... بـلغٌ تـشـقـى بـهِ الأشـقـيـاءُ[3]

إذ تَـمـنَّـوْنـهـمْ غُـروراً فَـسَـاقَـتـهُـمْ ... إلـيْـكُـمْ أُمْـنـيَّـةٌ أُشْـراءُ[4]

لـمْ يَـغـرّوكـمْ غُـروراً، ولـكـنّ ... رَفَـعَ الآلُ شـخـصـهـمْ والـضّـحـاءُ[5]

أيُّـهـا الـنّـاطـقُ الـمُـبـلِّغ عَـنّـا ... عـنـدَ عَـمـرو، وهَـلْ لـذاك انـتـهـاءُ[6]

إنَّ عـمـراً لـنـا لـدَيـه خـلالٌ ... غـيـرَ شـكٍّ، فـي كـلِّـهـنّ الـبـلاءُ[7]

مَـنْ لَـنـا عِـنـدَهُ مـن الـخـيـرِ آيـاتٌ ... ثـلاثٌ فـي كُـلِّـهـنَّ الـقـضـاءُ[8]

آيـةٌ شَـارق الـشـقـيـقـةِ إذْ جَـا ... ؤوا جـمـيـعـاً لـكـلِّ حَـيٍّ لـوَاءُ[9]

حَـوْلَ قَـيسٍ مُـسـتـلئِـمِـيـنَ بِـكـبش ... قَـرَظـيٍّ كـأنَّـهُ عـبـلاءُ[10]

وصـتـيـت مِـنَ الـعـواتِـك لا تـنـهـا ... هُ إلّا مُـبـيـضّـةٌ رَعْـلاءُ[11]

فَـرَدَدْنَـاهُـمْ بـطعـنٍ كَـمـا يَـخـرُ ... جُ مِـنْ خُـرْبَـة الـمـزّاد، الـمـاءُ[12]

---

(١) ميسون : اسم امرأة . العوصاء : الصعبة والشديدة .

(٢) تأوّت : تجمّعت . القرضوب : اللص الخبيث . الالقاء : جمع لقوة وهي العقاب .

(٣) الأسودان : التمر والماء وهداهم : « تقدّمهم » .

(٤) ساقتهم : دفعتهم . الأشر : البطر .

(٥) الآل : السراب . الضحاء : بعيد الضحى .

(٦) روي الصدر : « أيها الشأني المبلغ عنّا » و « أيّها الكاذب المبلغ عنا » .

(٧) خلالٌ : صفات . هذا البيت ورد فقط في رواية الخطيب .

(٨) آيات : دلائل . في كـلِّهنّ البلاء أي أن الناس يقضوا لنا على خصومنا في هذه الدلائل التي توضح عنانا وحسن بلائنا في الحروب .

(٩) الشقيقة : أرض صلبة بين رملتين . شارق أو شروق : طلوع .

(١٠) أراد قيس بن معديكرب من ملوك حمير. استلأم: لبس الدرع . الكبش : السيد . قرظيّ : نسبة إلى القرظ وهو شجر في بلاد اليمن يُدبغ به الأديم . عبلاء هضبة بيضاء .
والمعنى : جاءت من راياتها حول قيس . متحصنين بسيد من بلاد القرظ . كأنه في منعته وشوكته هضبةٌ من الهضاب .

(١١) الصتيت: الجماعة. العواتك : الخيار من النساء . تنهاه : تمنعه . رعلاء : طويلة ممتدّة . وهي صفة لكتيبة المقاتلين .

(١٢) خربة المزاد : ثقبها . والمزاد : زق الماء .

وَحَمَلْنَاهُمُ عَلى حَزْمِ ثَهلاَ ... ن شِلالاً وَدُمِّيَ الأنساء[1]

وَجَبَهناهُمُ بطعنٍ كَما تُنهزُ ... في جَمَّةِ الطويِّ الدِّلاءُ[2]

وفَعَلنَا بهمْ كَمَا علم اللهُ ... وَمَا إنْ للحائنين دِمَاء[3]

ثُمَّ حُجراً أعْني ابْنَ أمِّ قَطامٍ ... وَلَهُ فارسيّةٌ خضراء[4]

أسَدٌ في اللقاءِ، وَرْدٌ هَموسٌ ... وَرَبيعٌ إنْ شَمَّرَتْ غبراء[5]

وفَككنا غُلّ امرىءِ القيسَ عنهُ ... بَعدَ مَا طَالَ حَبسُهُ والعَناء[6]

وَمَع الجون، جون آل بني الأ ... وس عَنودٌ كأنَّها دفواء[7]

مَا جَزِعْنَا تحتَ العَجَاجَةِ إذْ وَلَّوْا ... شِلالاً وإذ تَلَظّى الصلاء[8]

وَأقَدْنَاهُ رَبّ غَسّانَ بالمنذ ... ر كَرهاً إذْ لا تُكالُ الدِّماءُ[9]

وأتَينَاهُمُ بتسعةِ أملا ... ك كِرَامٍ أسْلابُهُمْ أغْلاءُ[10]

وَوَلَدْنا عَمرو بن أمِّ أناسٍ ... مِن قَريبٍ لَما أتانا الحِباء[11]

---

(١) حزم : أغلظ من الحزن . ثهلان : اسم جبل . شلالاً : طراداً . دمّي : من التدمية ، والإدماء ، أي اللطخ بالدم . الانساء : جمع النسا ، وهو عرق من الفخذ .
والمعنى : الجأناهم في مطاردتنا إلى المكان الغليظ من ثهلان وأدمينا أفخاذهم بالضرب والطعن .

(٢) حبهناهم : ردعناهم . والجبهُ : الردعُ . النهز : التحريك . الجمّة : الماء الكثير المجتمع . الطوي : البئر التي طويت بالحجارة . الدلاء : جمع دلو ، وهو الذي يوضع فيه الماء .

(٣) الحائن : المتعرض للهلاك . وحان : هلك . والحين : الهلاك .

(٤) فارسية خضراء : أي كتيبة فارسية . ودُعيت بذلك نظراً لما علاها من الصدأ .

(٥) الورد : الذي يضرب لونه إلى الحمرة . الهمس : صوت القدم « وسمي الأسد هموساً لأنه يسمع من رجليه ، في مشيه صوتٌ . سُمّرت : استعدّت . الغبراء : السنة الشديدة الإغبرار والقليلة المطر .

(٦) الغلّ : القيد . العناء : التعب والمشقة .

(٧) عنودٌ : شديدة العناد . دفواء : هضبة دفئة .

(٨) العجاجة : الغبار . تلظى : تلهّب . شلالاً : طراداً . الصلاء : مصدر . صليت بالنار : إذا نلتُ حرّها ومعنى تلظّى الصّلاء : اشتد اوار المعركة .

(٩) قدناه : أعطيناه القود وهو المُلك . كرهاً : غصباً .

(١٠) أملاك وملوك: جمع ملك. الأسلاب . جمع السُلب . وهو الثياب والسلاح والفرس . أغلاء : غالية الثمن .

(١١) من قريب : بعد زمان قريب . الحباء : المهرُ .

مثلُها يُخرِجُ النّصيحة للقَوْم فَلاةٌ مِنْ دُونها أفلاء[١]

فاتركُوا الطيخ والتعاشي وأمَّا تتعاشوْا ففي التعاشي الدّاء[٢]

وأذْكُروا حَلْفَ «ذي المجاز» وَمَا قُدِّمَ فيهِ العُهُودُ والكُفلاءُ[٣]

حَذَرَ الجورْ والتعدّي وهلْ ينقضُ ما في المهارق الأهوَاءُ[٤]

واعلموا أنّنا وإياكُمْ فيما اشترَطْنَا، يومَ اختلفنا، سواء[٥]

عَنَناً باطِلاً وظلماً كَما تعترُ عَنِّ حَجرةِ الرَّبيض الظِّباء[٦]

أعليْنا جُناحُ كِندَةَ أنْ يَغْنَمَ غازيهمُ، ومِنّا الجزاء[٧]

أمِّ عَليْنا جَرَّى إيادٍ كما نِيطَ بِجَوْزِ المُحمَّلِ الأعباء[٨]

لَيسَ مِنّا المضرَّبُونَ ولا قَيْسُ ولا جندلٌ ولا الحذّاءُ[٩]

أمْ جنَايا بني عتيقٍ فمنْ يَغْدِرْ فإنّا من حَربِهِمْ بُراءُ[١٠]

وثمانُونَ مِنْ تَميمٍ بِأيْديهمْ رماحٌ صُدورهُنَّ القضاء[١١]

---

(١) يقول : (مثل هذه القرابة تستخرج النصيحة للقوم الأقارب قربى أرحام يتصل بعضها ببعض كفلوات يتصل بعضها ببعض) .

(٢) الطيخ والتعاشي : التكبّر والتعامي .

(٣) ذو المجاز : موضع جمع فيه عمرو بن هند بكراً وتغلب وأصلح بينهما ، وأخذ منهما الوثائق والرهائن . الحلف : العهد والميثاق .

(٤) المهارق : جمع المهرق ، وهو فارسي معرب ، يأخذون الخرقة ويصلونها بشيء ثم يصقلونها ، ثم يكتبون عليها . والمقصود بها الوثائق والاتفاقات المعقودة .

(٥) سَواء : متساوون .

(٦) العنين : الاعتراض . العتر : ذبح العتيرة . وهي ذبيحة كانت تذبح للأصنام في رجب . الحجرة : الناحية . وقد كان الرجل ينذر إن بلغ غنمه مئة ذبح واحدة منها للأصنام ثم ربما ضنت نفسه بها . فأخذ ظبياً وذبحه مكان الشاة الواجبة عليه .

والمعنى : ألزمتمونا ذنب غيرنا مناً باطلاً كما يُذبح الظبي لحقٍّ وَجَبَ في الغنم .

(٧) جُناح : إثمٌ .

(٨) جرى : جناية . نيط : علّق . الجوز : الوسط العبء : الثقل .

(٩) المضربون هؤلاء ليسوا منا ولكنهم من تغلب .

(١٠) وروي أيضاً :

أم جنايا يا بني عتيق فإنّا منكم، إن غدرتم بُرّاءُ

(١١) الصدر أول كل شيء . القضاء : القتل .

تَـرَكُـوهُـمْ مُـلَحَّـبِـيـنَ وآبُـوا بِـنِـهَـابٍ يُـصَـمُّ مِـنْـهَـا الـحُـدَاءُ[1]

أمْ عَـلـيـنـا جـرَّى حَـنـيـفَـة أوْ مـا جَـمَّـعَـتْ مِـنْ مُـحَـارِبٍ غَـبْـراءُ[2]

أمْ عـلـيـنـا جَـرَّى قُـضـاعـةَ أمْ لَـيسَ عَـلَـيْـنَـا فـيـمـا جَـنَـوا أنْـداء[3]

ثُـمَّ جَـاؤوا يَـسْـتَـرْجِـعُـون فَـلَـمْ تَـرْ جِـعْ لَـهُـمْ شَـامَـةٌ، ولا زَهْـرَاءُ[4]

لَـمْ يُـحِـلُّوا بَـنِـي رِزاح بِـبَـرْقـا ء نِـطاعٍ لَـهُـمْ عَـلَـيْـهِـمْ دُعـاء[5]

ثُـمَّ فَـاؤوا مِنْـهُـمْ بِـقَـاصِـمَـةِ الـظَّـهْـرِ وَلا يَـبْـرُدُ الـغَـلـيـلَ الـمـاء[6]

ثُـمَّ خَـيْـلٌ مِـنْ بَـعْـدِ ذَاكَ مَـعَ الـغَـلَّاقِ، لا رَأفَـةٌ وَلا إبْـقَـاءُ[7]

وَهُـوَ الـرَّبُّ والـشَّـهـيـدُ عـلَـى يـو مِ الـحِـيـارَيْـنِ والـبَـلاءُ بَـلاءُ[8]

---

(١) تركوهم ملحبين : متقطعين . آبوا : عادوا .

(٢) الجرّى : الجناية . غبراء : السنة المجدبة الغبراء والقليلة المطر .

(٣) قصد بالعجز أي أنه لا تلحقنا تلك الجناية ولا تلزمنا بشيء .

(٤) أي يسترجعون الغنائم . شامة ولا زهراء : أي شاة ذات شامة . ولا بيضاء .

(٥) يحلون : يجعلونه حلالاً . برقاء نطاع : اسم موضع .

(٦) فاؤوا : عادوا . الفيء : الرجوع . قاصمة الظهر : الداهية العظيمة التي قصمت ظهورهم . الغليل : هنا غليل الحقد الذي لا تطفئه برودة الماء .

(٧) يقول : ثم جاءتكم خيلٌ مع الغلّاق . فأغارت عليكم ولم ترحمكم ، ولم يبق عليكم .

(٨) يوم الحيارين : يوم أبلى فيه بنو بكر بلاءً حسناً في ذلك الموضع . الشهيد والشاهد على ذلك هو الملك عمرو بن هند فإنه شهد عناءهم .

تحليل المعلّقة

يبدأ الحارث معلّقته التي أعدّ لها إعداداً محكماً ليوم الاحتكام بذكر الحبيبة التي آلمه فراقها ، لأنها من النساء اللائي لا تملُّ الإقامة بقربهن ، وهذا يدلُّ على أن أسماء تلك كانت مواصلة له ومتعلّقة به ، لأنها أعلمته بالرّحيل قبيل أوانه ، فقام بواجب التوديع الذي أثار في القلب كوامن الشوق والهوى ، فراح يعدّد الدّيار متقرِّباً لها ، ويتفقد أماكن الحبّ واللقاء بحسرة ظاهرة وحنان تكاد الألفاظ تبوح به ، وتفصح عنه في رقّة امتزجت بالدموع التي انهالت متتالية معها لترسم حالةً من الوجد الحقيقي الملتهب الذي كان له فعل النار المتقدة التي تلفح بوهجها الأحشاء .

وبعينيك أوقدت هندُ النار ... أخيراً تلوي بها العلياء
أوقدتها بين العقيق فشخصين ... بعودٍ كما يلوح الضّياء
فتنوّرتُ نارها من بعيدٍ ... بخزازى هيهات منك الصلاء

أليس ذلك الإيقادُ رمزاً لتلك النار التي أجّجها الفراق في داخله ، وهل ذكره هنا إلاّ تبياناً لمقدار الحرقة والجوى اللذين خلفهما رحيل الأحبّة عنه ، وكيف لا يحترق بالنار وعيناه تتابع مسير الأحبّة وهنّ ينسلخن عنه مبتعدين شيئاً فشيئاً حتى يغرقن في ظلام التلاشي والبعد ، ويغرقنه في رعدة الخوف والجفاء والقطيعة ، فيحسّ بعيد ذلك بانسلاخ القلب ، وبرعشة باردة لا يجد معها قبساً يصطلي بحرِّ ناره ، فيتأسّف على ذلك الصلاء الذي كانت أسماء سبباً له ، وعلى ذلك الدفء الذي كانت تبعثه في نفسه ، ويودّ لو أنّ باستطاعته أن يلاحق ذلك الضياء المبتعد ليعيده إلى سالف عهده من المواصلة والحبّ واللقاء ، إلاّ أن

الحارث لا يدع نفسه تسترسل مع الهمّ الذي يوهن العزيمة ، ويخلق حالةً من اليأس والانكسار ، فهو من الرجال الذين يستعينون على الهمّ وتبديده بالأسفار والتنقلات ، يسعفه في ذلك ظهر ناقة قويّة لها سرعة نعامةٍ استشعرت الخطر فراحت تقطع المفازات مذعورةً إلى أولادها مخلّفة وراءها خطّاً من الغبار الرقيق الذي أثارته في جريها ، وبقايا طراق مرتسمة على رمال الصحراء المترامية ، وهي ناقة تحمله إلى غاياته لا يخشى معها حرّ الهجير ، ولا حيرة التردّد ، بعد ذلك نراه ينتقل بهذه العزيمة إلى موضوعه الرئيسي ، وهو الدفاع عن قومه أمام الملك ، وهنا يجب أن لا يفوتنا التذكير بقدرة الشاعر على حسن التخلّص من موضوع إلى آخر ، فقد أضفى ذلك على القصيدة جوّاً من الترابط والانسجام ينفيان ما قيل عن حادثة ارتجالها ، لأنّ القصيدة في مجملها تكاد تكون وحدة متناسقة ، وعملاً استوفى حقّه من الوقت والتفكير والاتقان .

أما في معرض الدفاع عن قومه فإنّنا نرى الشاعر يحمّل الإساءة إلى التغلبيين الذين لا يميّزون بين الحق والباطل ، بين البريء والمسيء ، ويختلقون المزاعم والأكاذيب لإشعال نار الفتنة ، ويعملون تحت جناح الظلام على الإيقاع بالآمنين والمسالمين فيقول :

أجمعوا أمرهم بليلٍ فلمّا ... أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن تصهال خيلٍ خلال ذاك رغاء

إنّها ولا شك صورة معبّرة تظهر عنت التغلبيين وحقدهم وعنادهم ، فالليل ما هو إلاّ رمزٌ لنفوس التغلبيين الذين أعماهم الحقد وعشّش الظلام في داخلها ، فباتوا معه لا ينظرون إلى الوقائع والأمور إلاّ من خلال ذلك المنظار القاتم الذي يزيّن لهم الحروب ونتائجها المدمّرة ، كما هو أيضاً يعكس بوضوحٍ صورة المكيدة التي تدبّر بالخفاء للإيقاع بالأبرياء ، فالليلُ في صورتيه هاتين ليس غريباً عن طبائعهم التي تبيّت الغدر ، وتضرب عرض الحائط بكلّ القيم والمواثيق والأعراف ، إنهم قوم لا يؤمن شرّهم ولا يحذر جانبهم لأنهم يتنادون إلى الحرب بدافع من ذلك الظلام الذي أسدل ستاراً كثيفاً من الرعونة والجهل على بصائرهم ، فأصبحوا في غوايتهم يعمهون ، ومن ثم ينتقل الشاعر ليردّ على مزاعم نظيره عمرو بن كلثوم الذي كان لسان التغلبيين والمدافع عنهم أمام الملك ، ويفند ما ذهب إليه في كلامه الذي تزيّن بالأباطيل والأكاذيب ، وينتهي إلى أن ذلك لن يجديه نفعاً لأن الملك رجلٌ عاقلٌ حازم لا يقبل أية مزاعم دون أن يتحقق من صحتها أو بطلانها ، ويرى أن الفشل سيكون نصيبه ، لأن كثيراً من الأقوام حاولوا أن ينالوا من بني بكرٍ ويكيدوا

لهم ، إلاَّ أنهم لم يفلحوا في ذلك ، لأن البكريين فوق الإساءة وفوق أن ينالهم الأعداء خسفاً أو إذلالاً أو مهانة ، يمنعهم من ذلك إباء وشمم وتاريخ من الانتصارات طويل ، كما تمنعهم أيضاً حصون منيعة تطاول السماء وترتد عنها الأبصار خاسئة حسرى ، حصون أشبه بالجبال التي تتكسر الأهوال على سفوحها أو يرتد الموت عن ذراها حاملاً الخيبة والهزيمة .

فبقينا على الشناءة تنمينا حصون وعزة قعساء

قبل ما اليوم بيَّضت بعيون الناس فيها تغيُّظٌ وإباء

فكأن المنون تردي بنا أر عن جوناً ينجابُ عنه العماء

مكفهرّاً على الحوادث لا ترتوه للدهر مؤيدٌ صمّاء

وهكذا يمضي الحارث في دفاعه عن قومه ، تارة يلين دون أن يضعف ، وتارة يشتدُّ دون أن يعنف ، مرونة فيها حكمة الشيوخ ونضجها ، وعزيمة الشباب وإباؤها ، يدفع بالحجة تلو الحجة أو بالقرينة تلو القرينة في سياق متصل بعيد عن التهوّر والطيش ، فتحس نفسك في متابعتك له وكأنك أمام محامٍ لبق راح يدافع بحماسٍ عن قضية آمن بها وأخذ يعدّد جوانبها بهدوء واتزان وبعد نظر ، ورحت أنت معه مصغياً إلى عرضه الشيّق الجميل الذي لم يشعرك بالاملال والضجر ، بل جعلك ترافقه في كل تفاصيله وأنت متعطش إلى إصدار الحكم لصالحه ، لأنك استشعرت صدقه من حرارة ذلك الدفاع ومنطقية ذلك العرض وسلامة تلك الحجج والقرائن ، ولا ينسى الحارث في معرض دفاعه المحكم أن يترك مجالاً لأولي الرأي والمشورة فهو لا يوصد الأبواب أمام أية خطة تقدِّم حلاً عادلاً لأمر ذلك العداء ويدعو التغلبيين إلى التفاهم وحقن الدمأء ، لأن ذلك في مصلحتهم ويذكرهم بمواقع جرت بين القبيلتين بكر وتغلب ، وكان النصر فيها حليف البكريين بينما آب التغلبيون بالهزيمة والعار ، وهو في دعوته يمدّ يداً قوية قادرةً على صنع النصر ، لأن تاريخ الأحداث يشهد لها ويعرف سطوتها ، والتغلبيون أخبر الناس بتلك اليد فعندهم الخبر اليقين عنها ، مواقع كثيرة جعلت القبائل خاضعةً لها ، لم ينج من بطشها عزيز مهما تمنّع وتحرّز ، ولا ذليلٌ أنّى فرّ واعتصم ، فالبكريون سادة الحرب وفرسانها الأقوياء ، قوم يغزون ولا يُغزون ، ملكوا الناس فترة حتى ملك المنذر بن ماء السماء ، فألقوا إليه عصا الطاعة اعترافاً بفضله وقوته وعظيم ملكه ، وآزروه في مواقع له ، فقاتلوا إلى جانبه في يوم الحيارين ، ووجدوا أنّه ملك لا نظير له بين الملوك ، فكانوا له عوناً على أعدائه ، بينما كان التغلبيّون عبيداً يتطلبون منه العون والحماية ولا يستطيعون تقديم أي نصرة أو مساعدة ، بعد

ذلك ينتقل ليخاطب الملك ويلفت نظره إلى مواقف ثلاث كان للبكريـين فيها اليد الطولى في تحقيق النصر والدفـاع عن الملك وآبائـه ، وهي مواقف تـدل على عظيم تضحيـاتهم وحسن بلائهم ، في الوقت الذي وقف التغلبيون فيها موقف المتفرج، وتلكأوا عن النصرة وتقديم العون ثم يعـدّد تلك المواقف التي قـاتل فيهـا البكريـون إلى جانب ملوك الحيـرة بأسلوب يستثير المشاعر فيه لصالح قومه ، فبكر ، هي التي ردّت عادية قيس بن معديكرب وجماعاتٍ من أولاد الحرائر في يوم الشقيقة ، وهي التي عملت على دفع الأذى عن امرىء القيس ، وقاتلت إلى جانبه يوم غزا حجر الكنديُّ دياره ، ثم هي التي فكّت أغلال امـرىء القيس بعد أن أسرته غسّان وقتلت أباه ، فأغارت على بعض بوادي الشام وقتلت ملكاً من ملوك غسّان واستنقذت امرأ القيس بن المنذر من الأسر ، وأخذ عمرو بن هند بنتـاً لذلـك الملك يقال لها ميسون ، وهكذا يمضي الحارث في تعداد مآثر قومه مبتعداً قدر الإمكان عن التعالي والعنجهية ، يحمله على ذلك توجّـه مبيّت لاستمالـة الملك إلى جانبـه عن طريق التذكير الليّن بتلك المواقف المشرّفة التي تؤكّد إخلاص البكريـين قديماً وحديثاً ، فضـلاً عن التذكير بوشائج القربى التي تشدّ الطرفين بعضهم إلى بعض في تلاحم رحمي يجب أن يظلّ متصلاً كما تتصل الأرض بالأرض والفلاة بالفلاة .

ووَلـدنـا عـمـرو بـن أمّ أنـاس مـن قـريبٍ لـمّـا أتـانـا الحبـاء
مثلهـا تخـرج النّصيحـة للقـوم فـلاةٌ مـن دونـهـا أفـلاء

وأخيراً يعود الحارث لمخاطبة التغلبيين ، فيطالبهم بالتعقل ومجانبة التكبُّر والجهل اللذين لا يؤديان بهم إلاّ إلى الهلاك المحقق ، ويـذكّرهم بـالعهود والمـواثيق التي أبرمت بينهم ، والتزم البكريون بها إلاّ أن التغلبيـين عملوا على نقضها من خلال إلصاق كثير من التهم الباطلة بهم ، ثم يبرىء ساحة البكريـين من تلك التهم التي اقترفتها كندة وإياد وحنيفة وقضـاعة وبني عتيق وسـواهم ، لأن الغدر والخيـانة ليسـا من شيم قومـه ولا من طبائعهم وعاداتهم ، يشهد على ذلك هذا الملك الذي خبر بلاءنا وإخلاصنا ووقوفنا إلى جـانبه في يوم الحيارين ، وعرف أنّا أهل النصيحة والثبات والالتزام .

تلك هي معلّقة الحارث التي بدت وحدة متماسكة يجمع أجزاءها بعضها إلى بعض سياق مترابط أخذ يتنامى شيئاً فشيئاً في مسارٍ فكريٍ تصاعدي ، بدأ مع بدايتها وانتهى مع نهايتها ، وقد أثبت الشاعر مهارة فائقة في توجيه ذلك المسار نـاحية أهـدافه المخـطط لها بعناية واتقان حتى أن تلك الافتتاحية التقليدية التي ذكر بها أسماء مشبباً وديارها متبتلاً بدت

وكأنها متوافقة مع مجرى ذلك السّياق وأغراضه ، فالوفاء للحبيبة والإخلاص للدّيار والحنين للذّكريات ، كلّ ذلك لم يكن بعيداً عن الوفاء الشامل الذي أراد الشاعر أن يؤكّده في دفاعه عن قومه أمام الملك ، منطلقاً فيه إلى التركيز على الجوانب التي تظهر التزاماً ونصرة وتضحيات في مختلف المواقف والمواثيق حتى أن ذكر الناقة لم يكن أيضاً بعيداً عن ذلك المسار ، لأنه من خلال وصفها أراد أن يظهر القوّة والثبات اللذين لا بدّ منهما للوفاء بأيّ عهدٍ أو التزام .

أما أسلوب القصيدة فيبدو ذلك الأسلوب المرن الدقيق الذي أظهر فيه الحارث قدراً كبيراً من الحنكة والخبرة والدّهاء ، فضلاً عن الانسجام والترابط في عرض الموضوعات ، فكان قوياً جزلاً في مواقف الافتخار والعزة والكبرياء ، ورقيقاً ليّناً في الموضوعات التي تتطلب دفعاً للتهم وتذكيراً بالمواقف ولفتاً إلى الفضائل والمكرمات ، وهو في مجمله أسلوبٌ خطابي يوجز دون إطناب ، ويقنع دون عنت ، هدفه الإيضاح وغايته التبرئة ، ووسيلته البيّنة ، كما كان الحارث فيه منسجماً مع نفسه بحيث نراه فيه يساير روح الموضوعات التي عرض لها بهدوء واتزان ، فلم يترك فيه لانفعالاته الجامحة أن تخرج به عن جادة الصواب ، كما خرجت بنظيره عمرو بن كلثوم ، فكسب بذلك النصر واستحقّ الاكبار والتقريب ، يقول صاحب الأغاني : فلما فرغ الحارث من هذه القصيدة ، حكم عمرو بن هند أنه لا يلزم بكر بن وائل ما حدث على رهائن تغلب ، ثم لم يزل في نفسه شيء من ذلك حتى همّ باستخدام أمّ عمرو بن كلثوم تعرّضاً لهم وإذلالاً[1] .

ورغم أن أسلوب المعلّقة اتسم بالعرض الذي يهدف الاقناع والابانة ، إلّا أن الحارث كان على إدراك تامٍّ لحقيقة الشعر الذي يجب أن يتضافر فيه المبنى مع المعنى لأداء الغرض ، ولذلك نرى الحارث يركّز في قصيدته على ألفاظه ، بحيث نراها ألفاظاً رقيقة متحرّكة تنبعث من حروفها الموسيقى في رشاقةٍ وخفّة لتتلاعب بالمشاعر وتمارس دورها في الإثارة والاقناع عن طريق تحريك العواطف واستمالتها برفقٍ وليونة وطول أناة ، فلم تكن موسيقى الألفاظ عند الحارث كما هي عند عمرو في ضجيجها وصخبها ، بل كانت هادئة رقيقة تساير روح القصيدة فأدّت بذلك دورها المرسوم لها على خير وجه واتقان ، ولعلّ ذلك البحر الشعري « الخفيف » الذي استعمله الشاعر قد ساعده على تحقيق غايته وأمده بذلك الجرس الذي رأيناه ينساب رقراقاً عذباً حتى في تلك الأعلام التي

---

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٨١ .

توالت لتشغل « البيت والبيتين والثلاثة ، وأنت لا تدري لها مدلولاً ، وتجد لها من الدلالة الموسيقية ما يحيل الهمهمة الملفوظة موسيقىً بالغة منتهى الروعة والجلال »[1] .

لقد استطاع الحارث في قصيدته تلك أن يستميل الملك إلى جانبه في ذلك الزمن ، ربّما لأنه بيَّن فيها ما لقومه من أيادٍ كثيرة عليه وعلى آبائه ، إلَّا أنه استطاع أيضاً أن يستميلنا نحن البعيدين عنه بتلك الشاعرية الفذة التي أثارت إعجابنا كما أثارت إعجاب القدماء الذين جعلوها نموذجاً رائعاً للشعر الخطابي والسياسي عند الشعراء ، وواحدة من ثلاث قصائد تمثل في نظرهم أجود الشعر القديم .

(١) محمد نجيب البهبيتي : تاريخ الشعر العربي ص ٦٢ .

الأعشـــى

هو ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيـل بن عوف بن سعـد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة[١] ويكنّى أبا بصير[٢] وقيل : أبا نصير أو نصر[٣] ، وقد اختلف الدارسون في تفسير كنيته فقال البعض : إنه كنيّ بذلك لأنه كان أعشى النظر ، فالأعشى : من العشا ، وهو سوء البصر بالليل والنهار ، وقيل : هو الذي لا يبصر باللّيل ويبصر بالنّهار ، وقيل أيضاً : هو ذهاب البصر[٤] وإلى هـذا الرأي الأخيـر ذهب صاحب الشعـر والشعراء فقـال : إنّه كـان أعمى[٥] إلاّ أنّ أكثر الدارسين يفسّرون كنيته تلك بضعف البصر ؛ ويرون أنّ الأعشى لقب أطلق على غيـر واحد من الشعـراء فقد أحصى منهم الآمـدي سبعة عشـر شاعـراً جاهليـاً وإسلامياً[٦] ومن الدارسين أيضاً من يزعم استناداً إلى شعره بأن بصره كان حديداً في شبابه غير أنه فقده عندما شاخ وتراخت قواه »[٧] ويرى آخرون أنّه كنّي بأبي بصير لأنه أنجب ولداً عرف بذلك الاسم ، وفي الديوان ذكرٌ له يوصيه أو يوجهه ، ويعلّمه السلوك الأمثل والمنهاج الذي يرضاه[٨] فيقول :

---

(١) راجع المؤتلف والمختلف للآمدي ص ١٢ والأغاني ص ٧٧ ج ٨ .

(٢) راجع الأغاني ج ٨ ص ٧٧ والشعر والشعراء ص ١٥٤ .

(٣) شعراء النصرانية ج ١ ص ٣٥٧ .

(٤) اللسان ج ١٥ ص ٥٦ مادة « عشا » .

(٥) الشعر والشعراء ص ١٥٤ .

(٦) راجع المؤتلف والمختلف للآمدي ص ١٢ ـ ٢٠ .

(٧) مصطفى الجوزو : الأعشى الكبير ص ١٨ .

(٨) عباس بيومي عجلان : عنصر الإبداع الفني في شعر الأعشى ص ٤ .

سأوصي بصيراً إن دنوت من البلى وكلّ امرئٍ يوماً سيصبح فانيا[١]

ويقول في مكان آخر :

سأوصي بصيراً إن دنوت من البلى وصاة امرىءٍ قاسى الأمور وجرّبا[٢]

وقد فسّر الدكتور محمد حسين بصيراً هنا ، بمعنى الحاذق العاقل ، وهذا يعني أنّ وصيته في البيتين السابقين كانت وصيّة شاملة لا تخصُّ أحداً بعينه[٣] إلَّا أنّ الدكتور عباس بيومي عجلان ، يرى أنّ الحاذق العاقل لا يحتاج إلى وصية ، وإنما يحتاجها من كان قليل الحذق والفهم ، ولذلك نراه يرجّح أن بصيراً كان ابناً له[٤] .

ونحن بدورنا لا نستبعد بعد الذي ذكرناه أن يكون الرجل قد رزق ولداً فسمّاه بصيراً على سبيل التيمُّن والتفاؤل بقوّة النظر وسلامته ، لأن الأولاد يرثون أحياناً عن آبائهم بعض ما فيهم من عاهات ظاهرة أو باطنة .

وكذلك فإنّ الأعشى اشتهر بلقب لم يطلق في الشعر العربي إلَّا عليه ، وهو « صناجة العرب » قيل : إنه لقب بذلك اللّقب لأنه ، كان يغنّى في شعره ، ولأنه أوّل من ذكر الصَّنج في شعر ، فقال :

ومستجيبٍ لصوت الصّنج تسمعُه إذا تُرجِّع فيه القينة الفُضْل[٥]

ويروى أنّ والده قيس بن جندل كان يلقّب بقتيل الجوع ، قيل : إنّه لقّب بذلك لأنه دخل غاراً يستظلُّ فيه من الحرّ ، فوقعت صخرة عظيمة من الجبل ، فسدّت فم الغار فمات فيه جوعاً[٦] وقد عيّره بعض الشعراء في ذلك فقال :

أبوك قتيل الجوع قيس بنُ جندلٍ وخالك عبدٌ من خماعة راضع[٧]

أما والدته فهي بنت علس ، أخت المسيّب بن علس من بني خماعة ثم من بني

(١) الديوان ص ٢١٧ دار صادر بيروت .

(٢) الديوان ص ٧ دار صادر بيروت .

(٣) راجع مقدّمة ديوان الأعشى الكبير ـ للدكتور محمد حسين .

(٤) راجع عنصر الإبداع في شعر الأعشى ص ٩ .

(٥) راجع الشعر والشعراء ص ١٥٤ .

(٦) الأغاني ج ٨ ص ٧٧ .

(٧) الأغاني ج ٨ ص ٧٧ .

ضبيعة بن ربيعة بن نزار[1] وقيل : إن الأعشى كان راوية لخاله المسيّب ، وكان يطرد شعره ويأخذ منه[2] .

ويرجع الأعشى في نسبه إلى قبيلة بكر بن وائل الكبيرة التي كانت تمتد فروعها وبطونها في شرقي الجزيرة من وادي الفرات إلى اليمامة ، ومن أهم هذه الفروع والبطون شيبان ويشكر وجشم وعجل ، ثم حنيفة وقيس بن ثعلبة وكانتا تنزلان في « اليمامة »[3] .

وقد ولد الأعشى هناك في قرية تسمّى منفوحة ، سميت بذلك الاسم لأن بني قيس بن ثعلبة قدمت اليمامة بعدما نزلها عبيد بن ثعلبة ، وأنزل حوله بطون حنيفة فقالوا : إنك أنزلتنا في ربعك ، فقال : ما من فضل ، غير أنّي سأنفحكم ، فأنزلهم هذه القرية ، فسمّيت منفوحة ، وهو من قولهم : نفحه الشيء أي أعطاه[4] .

أما فيما يتعلّق بتفاصيل نشأته الأولى ، فإن المصادر لا تذكر شيئاً عنها ، وكلّ ما ذكرته أنّه نشأ راوية لخاله المسيّب بن علس ، ثم نراه بعد ذلك الشاعر المشهور الذي يجوب الأقطار وينتقل في أنحاء الجزيرة العربية مادحاً ساداتها وأشرافها ، ويقال : إنّ التطواف قد وصل به إلى الحيرة واليمن وديار كندة في حضرموت ونجران وعكاظ ، ويبتعد به إلى فارس وعُمان ، وبلاد الشام ، ويجتاز به البحر إلى النجاشي في أرض الحبشة ، ومن الملاحظ أنّ فنّ القصص قد دخل سيرة ذلك الرجل ، كما دخل سيرة غيره من الشعراء الجاهليين ، وأكبر الظنّ أنّ الرجل قد اقتصر في تطوافه ذاك على أطراف اليمن ونجد والحيرة يمدح شيوخ العرب وساداتهم[5] فيغمرونه بالصلات والهدايا التي كانت تعينه على قضاء حاجاته والتزاماته ، ولذلك فقد ارتبط ترحاله بالكسب المادي ، كما ارتبط مديحه وهجاؤه بالعطاء والمنع ، وقد ذكر الرواة بعضاً من سيرته التكسّبيّة فقالوا : أتى الأعشى الأسود العنسي وقد امتدحه فاستبطأ جائزته فقال الأسود : ليس عندنا عين ، ولكن نعطيك عرضاً ، فأعطاه بخمسمائة مثقالٍ دهناً ، وبخمسمائة حللاً وعنبراً ، فلمّا مرّ ببلاد بني عامر خافهم على ما معه فأتى علقمة بن عُلاثة فقال له : أجرني ، فقال : قد أجرتك ، قال : من

---

(١) معجم الشعراء للمرزباني ص ٤٠١ .
(٢) الموشح للمرزباني ص ٦٧ .
(٣) شوقي ضيف العصر الجاهلي ص ٣٣٣ .
(٤) معجم البلدان لياقوت ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ج ٥ .
(٥) راجع العصر الجاهلي ص ٣٣٦ .

الجنّ والانس ، قال : نعم ، قال : ومن الموت ، قال : لا ، فأتى عامر بن الطفيل ، فقال : أجرني ، قال : قد أجرتك ، قال : من الجن والإنس ، قال : نعم ، قال : ومن الموت ؟ قال : نعم ، قال : وكيف تجيرني من الموت ؟ قال : إن متَّ وأنت في جواري بعثت إلى أهلك الديّة ، فقال : الآن علمت أنك قد أجرتني من الموت ، فمدح عامراً وهجا علقمة ، فقال علقمة : لو علمت الذي أراد كنت أعطيته إياه ، قال الكلبي : ولم يهجِ علقمة بشيء أشدّ عليه من قوله :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا[1]

وهكذا عاش الأعشى حياته متنقلاً من مكان إلى مكان ، ومن سيّدٍ إلى سيّد يمدح هذا ويهجو ذاك ، وينفق ما اكتسب على ملذّاته وشهواته الكثيرة ، وقد زاده ذلك التنقّل إضافة إلى الوفرة المالية ، وفرة ثقافية بدت واضحةً في ثنايا شعره من خلال ذكره الكثير من أخبار الأمم القديمة ووصفه لكثير من المشاهدات التي تعرف عليها إبّان تجواله الطويل وكانت سبباً في سعة اطلاعه وغناه ، وقد ظهرت في شعره بعض المؤثرات النصرانية ، فظنّ عدد من المؤرخين أنّه كان نصرانياً ، إلاّ أن تأثّره كان سطحياً لا يعدو الظاهر ، فهو وإن كان قد تحدث فيه « عن الله وعن البعث والحساب ويوم الدين ، فقد كان يسير في ذلك على السنن الفنيِّ لشعر الجاهلية ، وما كان لنصرانيّ عميق التديُّن أن يشبه زمزمة الأحباش في المحراب عند صلاة السحر بعزيف الجن[2] والواقع أن الأعشى لم يفارق دين قومه ووثنيتهم ، وإن استدل البعض على نصرانيته براويته النصراني[3] أو بما جاء في شعره من ذكر لها فكلّ ذلك « لا يدل على أكثر من أن الشاعر قد أفاد بعض الثقافة الدينية من أثر تنقله بين البيئات النصرانية في الجاهلية ، ولئن حلف برهبان دير هند ، فلقد حلف في مواضع أخرى بالكعبة ولئن زار بعض أشراف النصارى ، فقد رحل إلى النبيّ ﷺ حين ظهر الإسلام »[4] .

واعتقادنا بعد الذي سمعناه ، أن الأعشى لم يكن يدين إلاّ بمصالحه الخاصة ، فهي التي كانت توجّهه إلى حيث المنفعة والكسب ، وتملي عليه المعتقد الذي يقرّبه من

---

(١) الأغاني ج ٨ ص ٨٣ .

(٢) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ص ١٤٧ .

(٣) اسم راويته يحيى بن مَه .

(٤) ديوان الأعشى الكبير ـ المقدمة « ص ش » .

تحقيقها ، ولعلّ حادثة رحيله إلى النبي عليه الصلاة والسلام لمدحه ، وما جرى خلالها يدلّ بشكل قاطع على أنّ الرجل لم يكن ليعتقد شيئاً يتعارض مع مصالحه الذاتية التي ظلّ مرتبطاً بها ووفيّاً لها حتى مماته ، فقد ذكرت الروايات أن الأعشى عندما سمع بظهور النبيّ عليه الصلاة والسلام وانتشار دعوته ، ذهب إليه ليمدحه ، وكان ذلك أثناء صلح الحديبية ، فالتقى أبا سفيان في الطريق ، فسأله عن وجهته فقال : أريد محمداً ، فقال أبو سفيان : إنه يحرّم عليك الخمر والزّنا والقمار ، فقال : أمّا الزنا فقد تركني ولم أتركه ، وأمّا الخمر فقد قضيت منها وطرا ، وأمّا القمار ، فلعلي أصيب منه خلفا ، قال : فهل لك إلى خير ، قال : وما هو ، قال : بيننا وبينه هدنة فترجع عامك هذا ، وتأخذ مائة ناقة حمراء ، فإن ظهر بعد ذلك أتيته ، وإن ظفرنا به ، كنت قد أصبت عوضاً من رحلتك ، فقال : لا أبالي ، فانطلق به أبو سفيان إلى منزله وجمع إليه أصحابه ، وقال : يا معشر قريش ، هذا أعشى قيس ، وقد علمتم شعره ، ولئن وصل إلى محمد ليضربن عليكم العرب قاطبة بشعره ، فجعلوا له مائة ناقة حمراء ، فانصرف ، ولما صار بناحية اليمامة ألقاه بعيره فمات[1] .

هذه الرواية وغيرها من الروايات التي تذكر محاولته مدح الرسول عليه الصلاة والسلام تدل بشكلٍ واضح على أن الرجل كان يؤثر مصالحه على أي معتقد آخر ، وأنّه إنما جاء النبي عليه الصلاة والسلام ليس معتقداً بدينه وهديه ، بدليل ارتداده عن مقصده ، وقبوله عطاء مشركي قريش الذي هو في رأيه لا يقل عن عطاء كان يمني النفس به من خلال مدحه للرسول الكريم[2] .

وهكذا فقد ظلّ الأعشى وفيّاً لمصالحه التي حرمته نعمة الإسلام ، ومات بعد حياة مديدة بلغت ثمانين عاماً أو أكثر من ذلك بقليل ، وكانت وفاته في السنة السابعة للهجرة النبوية المباركة ويروى أنّ أحد الولاة مرَّ بمنفوحه ، فسأل عن دار الأعشى فدلّ عليه ، وسأل عن قبره فقالوا له : إنه بفناء الدار فانتهى إليه ، فإذا هو رطب فقال : ما لي أراه رطباً ، فقالوا : إن الفتيان ينادمونه فيجعلون قبره مجلس رجل منهم ، فإذا صار إليه القدح صبّوه عليه لقوله : أرجع إلى اليمامة فأشبع من الأطيبين القمار والخمر[3] .

(١) الشعر والشعراء ص ١٥٤ .

(٢) راجع قصيدته في مدح الرسول في نهاية الأرب ج ١٨ ص ٦٨ ـ ٧١ ط دار الكتب ، كذلك راجعها في ديوانه ص ٤٥ ـ ٤٦ دار صادر .

(٣) راجع شعراء النصرانية ج ١ ص ٣٦٦ .

أمّا سيرته الأدبية فقد حظيت باهتمام كبير ، وتداولها النقاد والدارسون على مدى العصور درساً وتحليلاً ، ويعود السبب في ذلك إلى أهمية شعر الأعشى وتعدّد أغراضه ومناحيه ، بحيث نرى ديوانه يحفل بأكثر الأغراض الشعريّة المعروفة ، كما يمتاز عن غيره بكثرة القصائد الجياد فيه ، وإلى هذا أشار أبو عبيدة حين قال : من قدّم الأعشى يحتج بكثرة طواله الجياد وتصرفه في المديح والهجاء وسائر فنون الشعر ، وليس ذلك لغيره[1] وقد جعله ابن سلّام الجمحي في الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين إلى جانب امرىء القيس وزهير والنابغة وفي الموضع الذي وضعه فيه أبو عبيدة حين قال : الأعشى هو رابع الشعراء المقدّمين[2] ثمّ ذكر قول أصحابه في تقديمهم له : « هو أكثرهم عروضاً وأذهبهم في فنون الشعر ، وأكثرهم طويلة جيّدة ، وأكثرهم مدحاً وهجاءً ونظراً وصفة ، كلّ ذلك عنده كما ذكر حادثة جرت له ، وقضت بتفضيل الأعشى وتقديمه فقال : وشهدت خلفاً وقيل له : من أشعر الناس ، فقال : ما ينتهي إلى واحد يجتمع عليه ، كما لا يجتمع على أشجع الناس وأخطب الناس وأجمل الناس ، فقلت : أيهم أعجب إليك يا أبا محرز ، قال : الأعشى ، قال : أظنه قال : أجمعهم ، وكان عمرو بن العلاء يقول عنه : مثله مثل البازيّ يضرب كبير الطير وصغيره[3] وفي رواية أخرى يقول : عليكم بشعر الأعشى فإنّه أشبه بالبازيّ الذي يصطاد ما بين الكركي والعندليب ، وهو عصفور صغير ، ولعمري إنّه أشعر القدماء[4] .

أما صاحب العمدة فقد ذكر أنَّ بعض متقدّمي العلماء فضّلوا الأعشى على بقية أصحابه وقالوا : الأعشى أشعر الأربعة ، قيل له : فأين الخبر عن رسول الله ﷺ أنّ امرأ القيس بيده لواء الشعراء ، فقال : بهذا الخبر صحّ للأعشى ما قلت ، وذلك أنّه ما من حامل لواء إلّا على رأس أمير ، فامرؤ القيس حامل اللّواء ، والأعشى الأمير[5] .

أمّا الشعراء فقد اختلفت آراؤهم أيضاً فيه ، ونجد كثيراً منهم يقدّمون الأعشى ومنهم الأخطل التغلبيّ الذي قال : الأعشى أشعر الناس[6] وفضّله بشار بن برد على سائر الجاهليين ، فقد ذكر يحيى بن الجون العبدي راوية بشّار أنّه قال : نحن حاكة الشعر في

(١) الأغاني ج ٨ ص ٧٩ .

(٢) الشعر والشعراء ص ١٥٨ .

(٣) طبقات الشعراء ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٤) الجمهرة ص ٢٩ .

(٥) العمدة ج ١ ص ٧٥ ـ ٧٦ .

(٦) العمدة ص ٧٤ .

الجاهلية ونحن أعلم النـاس به ، أعشى بني قيس بن ثعلبـة أستاذ الشعـراء في الجاهليـة وجرير بن الخطفي أستاذهم في الإسلام[1] وكان النابغة قد قدمه عندما أنشده الشعراء بسوق عكاظ فقال للخنساء بنت الشريد : لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت : إنك أشعر أهـل الجنّ والانس[2] كذلك يروى أن أبا جعفر المنصور أرسل كاتبه يحيى بن سليم إلى حماد الراوية فقال له : إن أمير المؤمنين يسألـك عن أشعر النـاس فقال : نعم ، ذلـك الأعشى صناجها[3] .

وهذا الرأي يتفق مع ما ذكره ابن سلام في طبقاته ، وهو أنّ أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى على غيره من الشعراء الجاهليـين[4] ولم يقتصر حاكة الشعر ورواته على تقـديمه لأننا نجد بعض الملوك والقادة ينحون منحاهم ، فعن المفضّل قال : قال عبـد الملك بن مروان لمؤدب أولاده : أدّبهم برواية شعر الأعشى ، فإن لكلامه عذوبة ، قاتله الله مـا كان أعذب بحره ، وأصلب صخره ، فمن زعم أنّ أحداً من الشعـراء أشعر من الأعشى فليس يعرف الشعر[5] وقال عليّ بن طاهر : من قدّم على الأعشى أحداً فإنما يفعل ذلك بالميل ، فهو أشعر شعراء الناس[6] .

تلك هي الأقوال التي ذكرت الأعشى وبيَّنت مكانته الشعريّة ، وهي في مجملها أقوال لا تبتعد كثيراً عن الحقيقة ، لأن الرجل كان يتمتّع بموهبةٍ شعريـة فذّة نستـطيع أن نتلمّس أبعادها في كثير من لوحاته الشعرية التي حفل بها ديوانه ، والتي تنمّ عن ذوق مرهفٍ وطبعٍ أصيل وثقافة متنوعة أغنت شعره ولوّنته بألوان شتى فيها الكثير من الإيحاء والتنوع والحركة وهذا ما حقق له شهرة عـظيمة عـرف قدرهـا القدمـاء والمحدثـون ، وليس أدلُّ على تلك الشهرة من تلك الحادثة التي ذكرتها كتب الأدب ، بأساليب مختلفة عن المحلّق الذي أتى الأعشى عندما « قدم مكة وتسامع الناس به ، وكانت للمحلّق امرأة عاقلة ، وقيل : بل أم ، فقالت له : إنّ الأعشى قدم وهو رجلٌ مفوّه مجدود في الشعر ، ما مدح أحداً إلاّ رفعه ، ولا هجا أحداً إلا وضعه ، وأنت رجلٌ كما علمت فقير خامل الـذكر ذو بنـات ، وعندنـا لقحة

(١) شعراء النصرانية ج ١ ص ٣٥٨ .
(٢) الأغاني ج ٩ ص ١٦٣ .
(٣) شعراء النصرانية ج ١ ص ٣٥٧ .
(٤) راجع طبقات الشعراء ص ٤١ .
(٥) الجمهرة ص ٢٩ ـ ٣٠ .
(٦) الجمهرة ص ٣٠ .

نعيش بها ، فلو سبقت الناس إليه فدعوته إلى الضيافة ونحرت له ، واحتلت لك فيما تشتري به شراباً يتعاطاه لرجوت لك حسن العاقبة ، فسبق إليه المحلّق فأنزله ونحر له ووجد المرأة قد خبزت خبزاً وأخرجت نحياً فيه سمن ، وجاءت بوطب لبن ، فلما أكل الأعشى وأصحابه ، وكان في عصابة قيسيّة ، قدّم إليه الشراب واشتوى له من كبد الناقة وأطعمه من أطايبها ، فلما جرى فيه الشراب ، وأخذت منه الكأس سأله عن حاله وعياله ، فعرف البؤس في كلامه ، وذكر البنات ، فقال الأعشى : كُفيت أمرهن ، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته :

أرقتُ وما هذا السّهاد المؤرق ... وما بي من سقمٍ وما بي معشقُ

ورأى المحلّق اجتماع الناس فوقف يستمع وهو لا يدري أين يريد الأعشى بقوله إلى أن سمع :

نفى الذمّ عن آل المحلّق جفنةٌ ... كجابية الشيخ العراقيّ تفهق[1]
ترى القوم فيها شارعين وبينهم ... مع القوم ولدانٌ من النسل دردق[2]
لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ ... إلى ضوء نار باليفاع تحرّق
تشبُّ لمقرورين يصطليانها ... وبات على النّار النّدى والمحلّق
رضيعي لبان ثدي أمٍّ تحالفا ... بأسحم داج عوض لا نتفرّق[3]
ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه ... كما زان متن الهندوانيِّ رونق

فما أتم القصيدة إلاَّ والناس ينسلون إلى المحلق يهنئونه ، والأشراف من كلّ قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته لمكان شعر الأعشى ، فلم تمس واحدةٌ إلاَّ في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف[4] .

هذه الحادثة تدلّ بوضوح على مكانة الأعشى عند الناس ، تلك المكانة التي بلغها بفضل شعره الذي جعل الملوك يتزيّنون لسماعه ، ويلبسون من الطبيعة حلّة جميلة له ، وكأنهم يعلمون أنّ هناك أواصر بين زهورها المتنوعة ، وشعره الغني بالصور والألوان ، فعن

---

(١) تُفهق : تمتلأ .
(٢) الدردق : الأطفال .
(٣) أسحم داج : أسود مظلم ، كناية عن الليل وعوض : أبداً .
(٤) العمدة ص ٣٧ ـ ٣٨ ، والأغاني ج ٨ ص ٨ .

حمّاد الراوية ، قال : حدثني سماك عن عبيد راوية الأعشى عن الأعشى قال : قدمت على النعمان فأنشدته :

إليك أبيت اللعن كان كلالها تروح مع الليل التمام وتغتدي

حتى أتيت على آخرها ، فخرج إلى ظهر النجف ، فرأيته قد اعتمَّ بنباته ما بين أحمر وأصفر وأخضر ، وإذا فيه من هذه الشقائق شيء لم أرَ مثله ، فقال : ما أحسن هذه الشقائق ، احموها ، فحموها ، فسمي شقائق النعمان بذلك[1] .

تلك هي بعض من سيرته الأدبية التي اقتصرنا على ذكر القدماء لها لأن المحدثين فيما ذكروه عنه لم يبتعدوا كثيراً عن أسلافهم ، بل توافقوا معهم في كثير من الملاحظات التي تنم عن الاعجاب بشاعرية الرجل ، تلك الشاعرية التي جعلها الدكتور شوقي ضيف « حلقة مهمة من حلقات الشعر الجاهلي ، وهي حلقة تضيف جديداً أو واضحاً إلى هذا الشعر سواء في موضوعاته أو في معانيه أو في أحاسيسه أو في سهولة ألفاظه أو في خفة أوزانه وجمال أنغامه وألحانه »[2] .

أما سيرته الشخصية فيبدو أن المصادر لم تذكر إلّا لمعاً مقتضبة عنها ، وهي بالتالي لا تقودنا إلى تكوين صورة مكتملةٍ عنه ، ولكنّنا إذا ما أضفناها إلى بعض التفاصيل المستمدة من شعره وسيرته التاريخية فإنه سيكون باستطاعتنا التعرّف أكثر على تلك الشخصية التي ملأت أرجاء الجزيرة وأطرافها المحيطة بها ، ولعلّ أول ما يتبين لنا من ملامح تلك الشخصية هو اضطرابها وعدم استقرارها على معتقد ثابت أو نهج في الحياة واضح يقتضي الالتزام والمحافظة عليه ، فالرجل على ما يبدو كان أسير شهواته النفسية ومصالحه الخاصة التي تقتضي التقلب وفق مسار الرغبات والعروض التي تؤمن أكبر قدر من الكسب والانتفاع ، والدليل على ذلك ما ذكرناه آنفاً عن تلك الحادثة التي جرت له مع علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل ، وهي حادثة تظهر حرص الرجل على مصالحه الذاتية التي كان لها في منظوره الاعتبار الأول ، أما حادثة ارتداده عن مدح الرسول ، فهي تدل على الانسياق الكامل مع الشهوات التي يمثلها قوله : « أرجع إلى اليمامة فأشبع من الأطيبين القمار والخمر » أما شعره فإنه يدل بشكل واضح على ذلك النهج النفعي الذي يرفض الالتزام بأي

---

(١) الشعر والشعراء ص ١٥٦ .

(٢) العصر الجاهلي ص ٣٦٥ .

مبدأ خلقيٍّ أو عقيدي ، ولذلك كانت مدائحه وآهاجيه تنطلق من معايير نفعية خالصة ، يحكمها العطاء والمنع ، كما يحكمها في بعض الأحيان مصالح قبلية تصب في خانة المصالح الذاتية ، ولعلّ ذلك الانسياق مع الشهوات هو الذي جعل الشاعر يسير في هذا المسار المتعرّج البعيد عن الاستقامة والثبات ، لأنه يتطلب انفاقاً متواصلاً ما كان يتأتى له إلاّ عن طريق التكسب الشعري الذي تحول عنده إلى أشبه ما يكون بالعرض والطلب ، ولذلك غدا الأعشى وكأنه شاعر جاهز لبيع شعره أو توظيفه لصالح من يرضي رغباته ويؤمن لها الانفاق المستمر .

إن عدم الاستقرار الذي طبع حياة الأعشى بطابعه ، والانسياق مع الشهوات المليئة بالإثم والفجور ، وذلك المجون الظاهر في ثنايا شعره ، كل ذلك يدل على أن الرجل كان أسير شهواته يدين لها ، ولا يدين إلى أي مذهب آخر ، وهذا ما حدا بابن سلاَّم الجمحي إلى أن يقرنه بامريء القيس حين قال : وكان من الشعراء من يتأله في جاهليته ، ويتعفّف في شعره ولا يستبهر بالفواحش ، ولا يتهكّم في الهجاء ، ومنهم من كان ينعي على نفسه ويتعهّر ، ومنهم امرؤ القيس والأعشى[١] .

ذاك هو الأعشى الشاعر الذي كانت حياته رحلة طويلة حافلة بالمتناقضات والمتطلبات ، ولم تعرف الهدوء والاستقرار في أي لحظة من لحظاتها لأنها كانت في سباق دائم مع الرغائب ، وكيف يهدأ من كانت الملذات وسواسه ، والشهوات أمانيه وأقصى غاياته ، والإقبال على الدنيا ومفاتنها أكثر ما يحرص عليه ؟

---

(١) طبقات الشعراء ص ٣٩ .

معلّقة الأعشى

وَدِّعْ هُـرَيْـرَةَ إِنَّ الـرَّكْـبَ مُـرتَـحِـلُ ... وَهَـلْ تُـطِيقُ وداعـاً أَيُّهـا الـرَّجُـلُ[١]

غـرَّاءُ فَـرْعَـاءُ مَـصقـولٌ عَـوارِضُـهـا ... تمشي الهُوَيْنا كما يمشي الوَجِي الوَحِلُ[٢]

كـأنَّ مِشْيَـتَـهـا مِنْ بَيـتِ جـارَتِـهـا ... مَـرُّ الـسَّحـابَـةِ لا رَيْثٌ ولاَ عَـجَـلُ[٣]

تَسْمَـعُ لِلْحلْيِ وَسْـواسـاً إذا انصـرفَتْ ... كما استعانَ بـريحٍ عِشْـرِقٍ، زَجِلُ[٤]

ليسَتْ كَمَـن يَكْـرَهُ الـجيـرانُ طَلْعتـهـا ... ولاَ تَـرَاهـا لِسِـرِّ الجـارِ تَـخـتـتِـلُ[٥]

يـكـادُ يَـصـرعُـهـا، لـولا تـشـدُّدهـا ... إذا تَقُـومُ إلى جـاراتِـهـا، الكسـلُ[٦]

---

(١) قالَ أبو عبيدة : هريـرة : قينـة كـانت لرجـل من آل عمرو بن مـرثد أهـداها إلى قيس بن حسـان بن ثعلبة بن مرثد . فولدت له خليداً وقد قال في قصيدته :

« جهلاً بأمِ خليدٍ حبل من نصل »

الركبُ : موكبُ الإبل .

(٢) الغرّاء : البيضاء الواسعة الجبين . الفرعاء : طويلة الشعر . مصقول عوارضها : أي نقية العـوارض تمشي على رسلها . الوجي : الذي يشتكي حافره ولم يُحف . الوحل : الذي يتوّحل في الطين .

(٣) مشيتها : حالتها . الريث : البطء .

(٤) الـوسواس : جـرس الحليّ . وقولـه إذا انصرفت يـريد إذا انقلبت في فـراشهـا . قـال الأصمعي : العشرق : شجيرة مقدار ذراع ، فيها حبّ صغار إذا جفّت فمرت بها الريح تحرك الحب . فشبّه صوت الحلي بخشخشة حبات العشرق إذا وقعت على الحصى .

(٥) تختتل : تتجسّس .

(٦) إذاً : بمعنى متى .

إذا تُـلاعِـبُ قِـرْنـاً سـاعـةً فَـتَـرَتْ وارتـجَّ مِنهـا ذَنُـوبُ المتْن والكفَـلُ[١]

صِفْـرُ الـوِشَـاحِ ومِلْءُ الـدِّرعِ بَهْكنةٌ إذا تـأتَّـى يكـادُ الـخصْـرُ يَـنْـخَـزِلُ[٢]

نِعْمَ الضَّجيـعُ غَـدَاةَ الـدَّجْنِ يَصْرَعهَـا لِـلَذَّةِ الـمـرءِ لا جـافٍ ولا تَـفِـلُ[٣]

هَـرْكَـوْلـةٌ، فُنُـقٌ، دُرْمٌ مـرافِـقـهـا كـأنَّ أخمصهـا بـالشَّـوكِ مُنْتَعِـلُ[٤]

إذا تَـقـومُ يـضـوعُ الـمِـسـكُ أصْـورةً والـزَّنبقُ الـوردُ مـن أردانِهـا شَـمِـلُ[٥]

مـا روضـةٌ مِنْ رِيـاضِ الحَـزْنِ مُعشِبـةٌ خضـراءُ جـادَ عليَهـا مُسبِـلٌ هَـطِلُ[٦]

يُضـاحِـكُ الشَّمسَ منهـا كـوكبٌ شَـرِقٌ مُـؤزَّرٌ بِـعـمـيـم الـنَّـبـتِ مُـكـتـهِـلُ[٧]

يـومـاً بـأطيبَ منهـا نَـشْـرَ رائحـةٍ ولا بِـأحسـنَ مِنهـا إذْ دنـا الأُصـلُ[٨]

عُـلِّقتـهـا عَـرَضـاً وَعُـلِّقـتْ رجـلاً غَيـري، وعُلِّقَ أُخـرى غيـرَهـا الـرَّجلُ[٩]

وَعُـلِّقَـتْـهُ فَـتـاةٌ مـا يُـحـاولـهـا وَمِـن بَني عَمِّهـا مَيتٌ بـهـا وَهِـلُ[١٠]

---

(١) قِرناً : شبيهاً : ذنوب المتن : العجيزة . الكفل : العجز .

(٢) صُفر الوشاح : يعني أنها خميصة البطن . دقيقة الخصر . البهكنة : الكبيرة . تأتّي : أصلها تتأتّى : تتهيأ . ينخزلُ : يتثنى .

(٣) الدجن : تلبّد السماء بالغيوم . وقيل معنى قوله : « للذّة المرء » كناية عن الوطء وقوله : « لا جافٍ » أي لا غليظ . الثفل : المنتن الرائحة ، وقيل : هو الذي لا يتطيَّب .

(٤) الهركولة : الضخمة الوركين : قيل : الحسنة المشي . الفنق : الفتية من النساء والإبل . درمٌ : مفردها أدرم : مؤنثها درماء ، التي ليس لمرفقيها حجم . الأخمص : باطن القدم .
وقوله : كأن أخمصها بالشوك منتعل . أي أنها متقاربة الخطو . وقيل : لأنها ضخمة ، فكأنها تطأ على شوك لثقل المشي عليها .

(٥) يضوعُ : يفوح . أصورة : ويروى « آونةً » قال الأصمعي : أصورة : تارات . وقوله : الزنبق الورد : أي أجود الزنبق ما كان يضرب إلى الحمرة. أردان: جمع ردن. وهي أطراف الأكمام . شمل : أي طيبها يشمل .

(٦) الحزن : الأرض الغليظة . المسبل الهطل : المطر الغزير .

(٧) يضاحك الشمس : أي يدور معها حيثما دارت . وكوكب كلّ شيء : معظمه . والمراد هنا : الزهر . مؤزَّرٌ: من الإزار. الشرق: الرّيان الممتلىء ماءً . العميم : التام السنّ . مكتهل : أدرك التمام .

(٨) نَشْرَ : فَوحَ (الرائحة الطيبة . الأُصُل : جمع الأصيل ، الوقت الذي يكون بين العصر والعشاء .

(٩) علّقتُها : تعلّقت بها . يقال : عرض له أمرٌ : إذا أتـاه على غير تعمّـد وعرضـاً منصوب على البيـان كقولك : مات هزلاً .

(١٠) ما يحاولها : ما يريدها ولا يطلبها . الوهل : الذاهبُ العقل .

وعُلِّقَتْني أُخَيْرى ما تُلائِمُني فاجتمعَ الحُبُّ، حبٌّ كلُّهُ تَبِلُ[1]

فكُلُّنا مُغرَمٌ يَهذي بصاحبه ناءٍ وَدانٍ ومَخبولٌ ومُختبِلُ[2]

صَدَّتْ هُرَيْرَةُ عَنّا مَا تُكلِّمُنا جَهلاً بِأُمِّ خُلَيْدٍ، حَبْلَ مَنْ تَصِلُ[3]

أأنْ رَأتْ رَجُلاً أعْشى أَضَرَّ بِهِ رَيبٌ ودَهرٌ مُفنِدٌ خَبِلُ[4]

قالتْ هُرَيرَةُ لَمّا جِئتُ زائرَها: وَيلي عَلَيكَ، وويلي مِنكَ يا رَجُلُ[5]

إمّا تَرَينا حُفاةً لا نِعالَ لنا إنّا كذلكَ مَا نَحفى ونَنتعلُ[6]

وقَد أُخالِسُ رَبَّ البيتِ غَفلَتَهُ وَقَد يُحاذِرُ منِّي ثُمَّ ما يئلُ[7]

وَقَدْ أقودُ الصِّبا يَوماً فَيتبعُني وقَدْ يُصاحِبُني ذُو الشِّرةِ الغَزِلُ[8]

وقَدْ غَدَوْتُ إلى الحانوتِ يَتبعُني شَاوٍ مِشَلٌّ شلولٌ شُلشُلٌ شَوِلُ[9]

في فِتيةٍ كسيوفِ الهندِ قَدْ عَلِموا أنْ هَالِكٌ كلُّ مَنْ يَحفى وَيَنتعلُ[10]

---

(١) أخيرى : تصغير أخرى . تبلُ : الذاهبُ العقلِ .

(٢) مغرمٌ : مولعٌ .
ورَوى الأصمعي : « محبوكٌ ومحتبلٌ » إنما هو من الحبالة . وهو الشرك الذي يصطادُ به . أي كلنا موثق عند صاحبه .

(٣) وروى أبو عبيدة : « صدّت خليدة عنّا » قال : هي هريرة وهي أم خليد . وقوله « جبلً من قصل » أي حبك من تصل إذا لم تصلنا ونحن نؤدها .

(٤) الأعشى : الذي لا يبصر في الليل . مفند ومفسدٌ دخيل : بمعنى واحدٍ .

(٥) لما قرأ بعضهم هذا البيت قال : « إن الأعشى أحنث الناس بسبب هذا البيت » .

(٦) إمّا : بمعنى إنْ . وقد اختلف النحاة في تفسير هذا البيت . قيل المعنى : أي أن ترينا نتبذل مرة ونتنعّم أخرى . وقيل : ترينا نميل إلى النساء مرّة ونتركهنَّ أخرى . وقيل : إن ترينا نغتني مرّة ونفتقر مرّة .

(٧) ويروى : وقد أُراقب . يئلُ : ينجو .

(٨) ذو الشرّة : ذو الهيئة الحسناء ، وقيل الطائش . الغزل : الذي يحبُّ الغزل .

(٩) الحانوت : بيت الخمار. الشاوي : الذي يشوي . المشلّ : الجيد السوق للابل . وكذلك الشلول والشلشل . شول : هو الذي يحمل الشيء . ويروى هذا العجز أيضاً :
« شاوٍ مشلٍ نشول شلشل شملُ » النشول : الذي ينشل اللحم من القدر الشمل : الطيب النفس والرائحة .
والمعنى : لقد قصدت إلى بيت الخمار يتبعني شوّاء اللحم وهو سوّاق للإبل خفيف ، سريع الحركة ، يشيل أي يحمل الأشياء .

(١٠) ويروى : « أن ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيلُ » فتية كسيوف الهند : هم في صرامتهم كالسيوف .

نـازَعْتُهُـمْ قُضُبَ الـرَّيحـانِ مُتَّكِئـاً ... وَقَـهْـوَةً مُـزَّةً رَاوُوقُـهـا خَـضِـلُ[١]

لا يَـسْتـفـيـقـونَ مِـنـهـا وهْـيَ رَاهِـنَـةٌ ... إلاَّ بـهـاتِ وإنْ عـلُّوا وإنْ نَـهِـلوا[٢]

يـسعى بهـا ذُو زُجـاجـاتٍ لَـهُ نُـطَفٌ ... مُقلِّصٌ أسفـلَ السِّـرْبـالِ مُعتمِـلُ[٣]

ومُستجيبٍ تَخـالُ الصَّنْـجَ يُسمِعُـهُ ... إذا تُـرَجِّـعُ فيـه القَيْنَـةُ الفُضُـلُ[٤]

والسَّـاحبـاتِ ذُيـولَ الـرَّيْطِ آونَـةً ... والـرَّافعاتِ على أعجـازِهـا العِجَـلُ[٥]

مِنْ كـلِّ ذَلـكَ يَـوْمٌ قَـدْ لَـهـوْتُ بِـهِ ... وفي التَّجـارِبِ طُولُ اللَّهْـوِ والغـزلُ[٦]

وَبَلْدَةٍ مِثْـلِ ظَهـرِ التُّـرسِ مُـوحِشَـةٍ ... لِلْجِنِّ بـاللَّيـلِ في حَـافاتهـا زَجَـلُ[٧]

لا يَتَنَمَّى لـهـا بـالـقيظِ يَـركَبُـهـا ... إلاَّ الَّـذيـن لَهـمْ فيمـا أَتَـوْا مَـهَـلُ[٨]

جَـاوزتُـهـا بِـطَليـحٍ جَسْـرَةٍ سُـرُحٍ ... في مِـرْفَقَيْهَـا، إذا استعْـرَضتهـا، فَتَـلُ[٩]

بَـلْ هَـلْ تَـرَى عـارضـاً قَـدْ بِتُّ أرمقُـهُ ... كـأنَّمـا البـرْقُ في حـافَـاتِـهِ شُعَـلُ[١٠]

لَـهُ رِدَافٌ وَجَـوْزٌ مُـفْـأَمٌ عَـمِـلٌ ... مُـنـطَّقٌ بِسِجـال المـاء مُتَّصِـلُ[١١]

---

(١) نازعتهم قضُب الريحان : أي حسن الأحاديث وظريفها ويروى : « مرتفقاً » بدل « متكئاً » ومرتفق : بمعنى : متكيءُ على مرفقه . راووقها : إناؤها . خضلٌ : نديٌّ .

(٢) لا يستفيقـون : أي شربهم دائم . راهنـة : دائمـة . قـولـه : بهـات ، أي : هـات . النهـل : أول الشرب . . .

(٣) النُّطف : القرطة أو اللؤلؤة ، وقيل النطف : بلغة اليمن جلدٌ أحمرٌ . مقلّص : مشمِّر . السربال : القميص . معتمل : نشيط .

(٤) المستجيب : هو العود . الصنج : آلة ذات أوتار يُضرب بهـا . القينة : الأمـة ، مغنية كـانت أو غير مغنية . الفضل : التي في ثياب فضلتها . أي مباذلها .

(٥) ويروى : « ذيول الخزّ » ويروى « والرافلات » الريط . الرافلات : النساء اللواتي يرفلن بثيابهن ، أي يجررنها . وقوله : على أعجازها العجل » أي أنه شبّه أعجازهنّ لضخمها بالعجل ، وهي جمع عجلة وهي مزادة كالأداوة . وقال الأصمعي : أراد أنهن يخدمنه ، معهنَّ العجل فيهن الخمر .

(٦) ويروى البيت :

من كـل ذلـك يـومـاً قـد لهـوتُ بـه ... وفي التجـارب طـول اللهـو والشغـل

(٧) حافاتها : نواحيها . زَجَل : صوت .

(٨) لا يتنمّى لها : لا يسمو إلى ركوبها . القيظ : الحرُّ الشديد . مَهَلٌ : تقدمٌ في الأمر .

(٩) طليح جسرةٍ سُرُحٍ : ناقة ضخمة قويّة معيبة لطول السير . الفتل : تباعد مرفقيها عن جنبيها .

(١٠) العارض : السحابة في السماء .

(١١) ردافٌ: سحاب ردفه من خانه. جوز : وسط . المفأم : العظيم الواسع . عَمِلٌ دائم . مُنَطَّقٌ : أي قد أحاط به .

لَمْ يُلْهِني اللَّهْوُ عَنهُ حينَ أرقبُهُ ... ولا اللَّذاذَةُ في كأسٍ، ولا شُغُلُ(١)

فقلْتُ للشَّرْبِ في دُرْنا وَقَدْ ثَمِلوا ... شِيموا وكيفَ يَشيمُ الشَّاربُ الثَّمِلُ(٢)

قالوا نِمارٌ، فَبطْنُ الخالِ جادَهُما ... فالعسْجديَّةُ فالأبلاءُ فالرِّجَلُ(٣)

فالسَّفحُ يَجري فخنزيرٍ فبُرْقتُهُ ... حتَّى تدافعَ منهُ الرَّبْوُ فالحُبَلُ(٤)

حتَّى تَحمَّلَ منهُ الماءَ تَكْلفةً ... رَوْضُ القطا فَكثيبُ الغنيةِ السَّهِلُ(٥)

يَسْقي دياراً لَها قَدْ أصبحتْ غَرَضاً ... زُوراً تجانفَ عنها القَوْدُ والرَّسَلُ(٦)

أبْلغْ يَزيدَ بني شَيْبان مَألُكةً ... أبا ثُبَيْتٍ أمَا تنفكُّ تأْتكلُ(٧)

ألسْتَ مُنتهياً عنْ نَحتِ أثلتنا ... ولَستَ ضائرَها ما أطَّتِ الإبلُ(٨)

كناطحٍ صخرَةً يَوماً ليوهنَها ... فَلمْ يضرْهَا وأوْهَى قَرنهُ الوعلُ(٩)

تُغْري بنا رَهْطَ مَسعودٍ وإخْوتَه ... يومَ اللِّقاءِ فتُرْدي ثُمَّ تَعْتزِلُ(١٠)

لأعرِفَنَّكَ إنْ جَدَّتْ عداوتُنا ... والتمِسَ النصرُ منكمْ عَوْضُ تحتمِلُ(١١)

تُلحِمُ أبناءَ ذي الجدَّينِ إن غضِبوا ... أرماحَنا ثُمَّ تَلقاهُمْ وتَعتزِلُ(١٢)

---

(١) ويروى : « ولا كسل » و « لا ثقل » .

(٢) درنا : كانت باباً من أبواب فارس . شيموا : انظروا إلى البرق ، وقدّروا أين صوبهُ الثمل : السكران .

(٣) ما ورد في هذا البيت أسماء مواضع . الرِّجل : جمع الرجلة : وهي مسيل الماء .

(٤) ويروى : « فالسفح أسفل خنزير » والربو : الناشز من الأرض . والحبل : اسم موضع .

(٥) ويروى : « حتى تضمن عنه الماء » أي تحمّل روض القطا ما لا يطيق ، إلّا على مشقته لكثرته . الغنية : الأرض الشجراء .

(٦) أصبحت غرضاً : أي غرضاً للأمطار . زوراً : أزورّت عن الناس . تجانف : تميل . القود : الخيل . الرّسل : الإبل .

(٧) يزيد بني شيبان بن مهر هو ابن عم الأعشى . المألكة : الرسالة . أبا ثبيت : كنية يزيد . تأتكل : تحتكّ من الغيظ .

(٨) نحت أثلتنا : الطعن في حسبنا . الأثلة : الأصل . أطّت : أنّت من التعب والحنين .

(٩) الوعل : الإبل ، والأنثى : أروية . صخرة : مفعول به لاسم الفاعل «ناطح» وهذا البيت يجري مجرى الأمثال .

(١٠) تغري بنا : تحرش علينا . تردي : تهلك .

(١١) عوض : اسمٌ للدهر .

(١٢) تلحم : أي تجعلهم لُحمةً . ذو الجدّين : قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ذي الجدّين .

لا تَقْعُدَنَّ وقدْ أكَّلْتها حَطباً ... تعوذُ مِنْ شرِّها يوماً وتَبتَهِلُ[١]

سائِلْ بَني أسَدٍ عَنّا فقدْ عَلِموا ... أن سوفَ يَأتيك من أنبائِنا شَكَلُ[٢]

واسْأَلْ قُشَيْراً وعَبدَ الله كُلَّهُمْ ... واسأَلْ ربيعةَ عَنّا كيفَ نَفتَعِلُ[٣]

إنّا نُقاتِلُهُمْ حتّى نُقَتِّلَهمْ ... عندَ اللِّقاءِ وإن جَارُوا وإنْ جَهِلوا[٤]

قَدْ كانَ في آلِ كَهْفٍ، إنْ هُمُ احتَربوا ... والجاشريَّةِ مَنْ يَسعى وينتضلُ[٥]

إنّي لَعَمرُ الّذي حَطّتْ مَناسِمُها ... تَخْدي وسِيق إليهِ الباقرُ الغُيُلُ[٦]

لئِنْ قَتلْتُمْ عَميداً لَمْ يَكُنْ صَدَداً ... لَنقْتُلَن مِثلَهُ منكمْ فَنمتَثِلُ[٧]

لَئنْ مُنيتَ بِنَا عن غِبِّ معركةٍ ... لا تُلفنا عَنْ دِماءِ القوْمِ نَنتقِلُ[٨]

لَا تَنتهونَ ولَنْ يَنهى ذَوي شططٍ ... كالطَّعن يَذْهَبُ فيهِ الزَّيتُ والفتُلُ[٩]

حَتّى يَظَلَّ عميدُ القوْمِ مُرْتفقاً ... يَدفَعُ بالرّاحِ عنهُ نسوَةٌ عُجُلُ[١٠]

أصابَهُ هُندُوانيٌّ فَأقْصَدَهُ ... أوْ ذابِلٌ من رماحِ الخطِّ مُعتدِلُ[١١]

كلَّا زَعَمتم بأنَّا لا نُقاتِلكم ... إنَّا لأمثالكمْ يا قَومَنا قُتلُ[١٢]

---

(١) أكّلتها : أجّجتها . تبتهل : تضرعُ إلى الله مستعيذة من شرّها .
(٢) شكل : أخبار .
(٣) الأسماء الواردة في هذا البيت كلّها أسماء قبائل .
(٤) ويروى العجز أيضاً : « عند اللقاء وهم جاروا وهم جهلوا » .
(٥) آل كهف : من بني سعد بن مالك بن ضبيعة . احتربوا : قعدوا عن الأخذ بالثأر . الجاشرية : امرأة من أياد . وقيل : هي بنت كعب بن مامة . تنتضلُ : تتفاخر .
(٦) حطّت : بمعنى سرعت . المنسم للبعير بمنزلة الحذوة للفرس . تخدي : تسير سيراً سريعاً . الباقر : البقر . الغُيل : جمع غيل وهو الكثير . وروي أيضاً : سيق إليه الباقر العثل » العثل : الجماعة .
(٧) الصدد : المقارب . نمتثل : نقتل الأمثل فالأمثل : وأماثل القوم خيارهم .
(٨) منيت : ابتليت . غبّ : إثرَ . الانتقال : الجحود .
(٩) الشطط : الجور . الفتل : جمع الفتيلة التي يوقد بها السراج . والمعنى : لا ينهي أصحاب الجور مثل طعن جائف يغيب فيه الزيت والفتل .
(١٠) مرتفقاً: متكئاً. عُجُلُ : جمع عجول ، وهي الثكلى . المعنى : حتى يظلّ سيد الحي يدفعُ عنه النساء بأكفهنَّ . لئلا يُقتل ، لأن من يدفع عنه من الرجال قد قُتل .
(١١) هندوانيٌّ: سيف منسوب إلى الهند. الرمح الذابل : هو الرمح اليابس . الخطّ : موضع تنسب إليه الرماح .
(١٢) قُتُلٌ : جمع قتول .

نحنُ الفـوارسُ يَـوْمَ الحنـوِ ضـاحيـةً ... جَنبَيْ فُـطَيمـةَ لَا مِيـلٌ وَلا عُـزُلُ[1]

قَـالـوا الـطِّعـانُ فقلنـا تلك عـادتنـا ... أو تَـنـزِلـونَ فَـإنّـا معـشـرٌ نُـزُلُ[2]

قَـدْ نَخضبُ العَيـرَ في مَكنـون فـائله ... وقَـدْ يَشيطُ عَلَى أرمـاحنـا البـطلُ[3]

---

(١) ضاحية : لا علانية . فطيمة : قيل أنها فاطمة بنت حبيب بن ثعلبة . الميل : الذي لا يثبت في الحرب ، جمع أميل . العزل : الأعزل . .

(٢) وروي الصدر أيضاً : « إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا » .

(٣) الفائل : عرقٌ يجري من الجوف إلى الفخذ . يشيط : يهلك . وقيل : يرتفع .

تحليل المعلقة

يبدأ الأعشى معلّقته بمخاطبة نفسه طالباً منها توديع هريرة التي أزمعت على الرحيل ، كي تقوم بواجبٍ تفرضه علائق خاصة لم تتجاوز على ما يبدو في أواصرها العلائق الحسّية التي تنتهي لأيّ سبب وتزول بزوال الحاجات والرغائب ، بدليل أن الشاعر لم يظهر جزعاً حقيقياً لفراق هريرة كجزع أولئك الشعراء العاشقين الذين كانت أنفسهم تتقطّع أشلاءً لمرأى المحامل الظاعنة ولم يسترسل في تصوير ما يخلّفه الرحيل في النفس من مشاعر حزينة وما يبعثه من وجدٍ وألم ، واكتفى من ذلك الموقف المؤثّر بمساءلة النفس ، إن كانت تستطيع تحمّل ذلك الفراق ، أو الصبر عليه ، لا لسبب ، إلاّ لأن تلك المرأة الظاعنة تحمل معها في رحيلها كلّ المتع الحسّية التي راح يعدّدها في رقّةٍ ظاهرة ، لكنّها خاويةٌ من حرارة العشق وآلام العاشقين .

لقد أظهر الأعشى في توديعه حبّاً ، إلاّ أنّه حبٌّ ينمُّ عن نفسيّة ترفض التعلّق بحبيب واحد ، أو بلذّة واحدة ، نفسيّةٌ تحبّ التنوّع ، وتعشق التغيُّر ، وترفض الرتابة ، نفسيّة ترى الحبّ كأساً يرتشف ، إلاّ أنه لا يروي نفساً كنفس الأعشى لديها الرغبة الجامحة إلى مزيدٍ من الرشف والكؤوس ، إنّه حبٌّ للجمال الذي تجسّده المرأة الفاتنة في مفاهيم عصره ، حب للذة الحسّية الآنية المفارقة التي سرعان ما يجد لها الأعشى العوض والبديل ، وليس حبّاً روحياً كحب أولئك العذريين الذين قدّسوا الحب وامتزجوا فيه وربطوا وجودهم بإقامته ورحيله فكانت حياتهم رحلة طويلة من العناء والشقاء والدموع .

ولذلك فإننا نجد الأعشى في معلقته يقطع كلّ التساؤلات النفسية والاستفهامات الوجدانية لينتقل مباشرة إلى ذلك الجمال الخلاّب الذي يشدّه إلى المرأة بوجه عام ،

فيشرع في وصف مفاتن هريرة الحسيّة والأخلاقية فيقول :

غـرّاء فـرعـاء مصقـولٌ عـوارضهـا	تمشي الهويني كما يمشي الوجي الوحل
كـأنّ مشيتهـا من بيت جـارتهـا	مـرّ السحـابـة لا ريثٌ ولا عجـل
ليست كمن يكـره الجيـران طلعتهـا	ولا تـراهـا لسـرّ الجـار تختتـل
يكـاد يصـرعهـا لـولا تشـدّدهـا	إذا تقـوم إلى جـاراتهـا الكسـل
إذا تـلاعب قـرنـاً سـاعـة فترت	وارتجّ منهـا ذنـوب المتن والكفـل
صفـر الوشـاح وملء الـدرع بهكنـة	إذا تـأتّى يكـاد الخصـر ينخـزل
نعم الضجيع غُداة الدجن يصرعهـا	لـلذّة الـمـرء لا جـافٍ ولا تـفـل
هـركـولـة فنقٌ درم مـرامـقـهـا	كـأنّ أخمصهـا بـالشـوك منتعـل

الأعشى في أبياته تلك ، ينحت لنـا تمثالاً للجمـال في عصره ، تمثـالاً تجسّده لنـا هريرة من خلال ذلك الوصف الحسّي الدقيق الذي يظهـرها سيّـدةً بيضاء فـرعاء مصقـولة العوارض ، ممتلئة الجسم شحماً ولحماً ، ثقيلة الأرداف ، ضامرة الخصر بطيئة الخطو ، تكاد قدماها تعجز عن حمل ذلك الجسد الضخم الممتلىء ، وهي أيضاً إلى جانب ذلـك الجمال الحسّي الخارق ، تتمتع بصفات خلقيّةٍ تزيد في روعتها وبهائها وجلالها ، فهي في مشيتهـا كالسّحـابة التي تحمـل الخير واليمن والبـركة إلى الجميـع ، ويقبل عليهـا الناس بالفرحة والبهجة وحسن اللقاء ، لأنها من النساء اللائي يُقمن أفضل العلاقات مع الجيران ، ويحافظن على كرامتهن وأسرارهن ، ويستـرسل الأعشى في وصف تلك المفـاتن الحسّية والخلقية ، فنراه يذهب معها في نشوة جماليّة لا تبتعد في قليلٍ أو كثير عن نشوة الخمر ، تلك النشوة التي تجعل الشاعر يسرح في رياضٍ خضـراء معشبة تفـوح بالأريـج ، وتعبق بالطيب والأنداء والظلال ، فيقول :

إذا تقـوم يضـوع المسـك أصـورة	والـزنبق الـورد من أردانهـا شمـل
ما روضة من ريـاض الحزن معشبـة	خضـراء جـاد عليهـا مسبـلٌ هـطل
يضاحك الشمس منها كوكب شـرقٌ	مـؤزّرٌ بعـميـم الـنـبـت مـكـتـهـل
يـومـاً بـأطيب منهـا نشـر رائحـة	ولا بـأحسن منهـا إن دنـا الأصـل

لا شك بأن هذه الصورة المليئة بالعبق والزنبق والورد ، هي وليدة تلك النشوة المتأتية عن الإحساس العميق بالجمال ، ذلك الإحساس الذي ذهب معه الشاعر في تفاعلٍ تخطّى

حدود الواقع رغم أنّه استعار له صوره وراح يرسمه في عشق ينمّ عن شعورٍ طاغٍ بالجمال ، عشقٍ حاول معه الشاعر أن يحتضن الطبيعة في يـديه ، يجمـع من مفاتنهـا باقـة من الورد والـطيب والنسائم ، ليحملهـا إلى تلك المرأة الجميلة الفـاتنـة حتى تكتمـل لـديـه نشـوة الجمال ، ويمتلك في يديه كلّ عبقه وأسراره .

لقد استطاع الأعشى أن يجمع الجمال بعضه إلى بعض ، ويلملم أذياله المتفرّقة ، ويوحّد قرائنه المتباينة ، ليرسم بها جميعاً صورةً رائعة لتلك المرأة السيّدة المترفـة ، التي تجسّد كلّ صفات المرأة المكتملة ، ولذلك تبدو هريرة في نظرنـا رمزاً للمـرأة التي أحبها الشاعر على طريقته ، وليست قينةً من القيان ، لأننا من خلال وصفه لها نلاحظ أنها مثـال المرأة التي يطمح إليها الجاهلي في عصره ، رغم أنّ الشاعر لم يتورّع في وصفه لهـا عن ذكر ما لم يتورّع الجاهليون عن ذكره ، ولعلّ ذلك مردّه إلى طبيعة الأعشى الخـاصة التي تقبل بكلّ جوارحها على اللذّة وصولاً إلى النشوة التي لا يستطيع معها أن يمتلك أحاسيسه ، فيشرع في رسم بواعثها غير عابىءٍ بأسرار الحب ، وقدسيّة علاقاته الإنسانية . .

وهكذا دائماً نجد الأعشى في كلّ قصائده التي يصف المرأة بها أو يتغزّل فيها يبدي رقّة ظاهرة وصراحة متناهية في وصف المشاعر الإنسانية وليس أدلّ على ذلك من قوله :

علّقتهـا عـرضـاً وعلّقـت رجـلاً غيـري وعلّق غيـرهـا الـرجـل

فهو هنا يصور العواطف المتباينة في الحب ويرسم لها صورة واقعية من خلال نفسه التي علقت هريرة ، بينما كانت عواطف هريرة مع رجلٍ آخر وعواطف ذلك الرّجل مع امرأة أخرى ، فهذا التعارض في الأهواء والعلائق الذي يرسمه الأعشى ، والذي يفتح له مجال اللوم والعتاب والشكوى أحياناً ، إنما هو تعارض يريد الأعشى من تصويره أن يؤكّد على أن الحبّ لا يكون من طرفٍ واحد ، ولا يكون آنياً في أيّ ظرف ، لأنه يتطلب كثيراً من الرعاية والاهتمام والإقامة ، حتى يستشعر الطرفان حرارة التوادّ وتوافق الرغائب وتلاقي القلوب ، وهـذه الصفات ليست من صفـاته ولا هي مـوجودة فيـه ، لأنه رجـلٌ كثير الأسفـار سريـع التقلّب ، ساعةً يتودّد ، وساعة يهجر ، فهو لا يستطيع أن يكون محبّاً ، لأنه لا يقيم على الحبّ ، أو لأن طبيعته ترفض أن تكون أسيرة حباله وأشراكه وفرائضه ، وتأبى إلاّ أن تتفلّت إلى حيث اللذائذ الحسّية المتنوّعة التي لا تتطلب استقامة وثباتاً وطويل مكوث ، وتنـطلق إلى رغائب يصبح معها الحبّ الحقيقي صورة من الرتابة والسكون والملل ، ولـذلك نـراه يلوم هريرة لصدودها عنه ، بعد إقبال من قبل عليه ، بل وخوفٍ مشتركٍ ينمّ عن تقارب في

العواطف ، إلّا أنه لا يسترسل في لوم ذلك الصدود لأنه يجد له تبريراً لم يفصح عنه ، ولكننا نستطيع اكتشافه من خلال ذلك الحديث عن الترحال الدائم الذي يتعارض مع الحب وجوهر علائقه ، ترحال في صحبة أناسٍ همهم الوحيد اصطياد اللذائذ أنّى كانت ، يبذلون في سبيل الحصول عليها كلّ ما يملكون ، يحدوهم إلى ذلك خوفٌ من الموت ورغبة في مغالبته وقهره عن طريق الإقبال على المتع التي تستوجب إنفاقاً لا ينفع الحرص معه ، كما لا ينفع مع الموت حرصٌ من مثله .

بعد هذا التفسير العبثي للإقبال على اللذائذ ، والذي لا يختلف عن تفسير طرفة له من قبل ، ينتقل الأعشى ليصف لنا مجلساً من مجالس أنسه وشرابه فيقول :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني	شاوٍ مشلٌ شلولٌ شلشلٌ شول
في فتية كسيوف الهند قد علموا	أن هالكٌ كلُّ من يحفى وينتعل
نازعتهم قُضُبَ الريحان متكئاً	وقهوةً مزّةً راووقها خضل
لا يستفيقون منها وهي راهنةٌ	إلّا بهات وإن علّوا وإن نهلوا
يسعى بها ذو زجاجات له نطفٌ	مقلّص أسفل السربال معتمل
ومستجيب تخال الصَّنجُ يسمعه	إذا ترجَّع فيه القينة الفضل
والساحبات ذيول الريط آونةً	والرافلات على أعجازها العجل
من كلّ ذلك يومٌ قد لهوت به	وفي التجارب طول اللهو والغزل

وهكذا نرى الأعشى رجلاً له حياته الخاصة ، ومجالسه الخاصة التي ترفض التقيّد والالتزام ، فهو في سعي دائم إلى حيث اللذائذ الحسّية التي يقبل عليها مع فتيةٍ لا يختلفون في سعيهم عنه ، فيرتادون معاً الحانات ، ويتنازعون قضب الريحان وكؤوس الخمر في أجواء حالمة من الرقص والغناء والطرب ، تنسيهم وجودهم المحفوف بالهموم والمتاعب ، وتجعلهم يسرحون في أطياف النشوة وغيبوبة السكر التي لا يستفيقون معها إلّا على فراغ كأسٍ يسعى إلى ملئه غلام نشيط مطبوع على الجدّ والعمل ، تراه في حركةٍ دائمة لا تكلّ ولا تضعف حركةٍ تترافق مع الموسيقى الرقيقة والغناء العذب والرقص المثير ، تلك هي أجواء الأعشى ومجالسه النواسيّة ، بل تلك هي غاياته ، لهو وغزل ، شراب وسمر ، إقامة ورحيل ، يساعده على ذلك تكسُّب دائم وناقة قوية سهلة السير مطواعة ، تقطع به المفازات الموحشة غير عابئة بالحرّ والبرد ، ولا بالتعب والمسافات ، تحمله إلى حيث اللذائذ

الحسّيّة من مالٍ وخمر وطعام ونساء ، إلى حيث الشرب ثمالى يتندرون ويتسامرون ، فيسألهم الأعشى عن ذلك العارض الذي بات يرمقه مراقباً برقه وتصببه اللذين لا يختلفان عن بريق الكأس وتصبّب الخمرة فيه ، كلاهما يضيآن ، ذاك يضيء المكان وهذا يضيء النفس ، وكلاهما يرويان ، ذاك يروي الأرض ويلبسها زينتها ، وهذا يروي الشرب ويجعلهم يتيهون في سعادة وانتشاء ، ثم تأمّل معنا قوله :

يسقي دياراً لها قد أصبحت غرضاً　　وقد تجانف عنها القود والرّسلُ

لقد استطاع الأعشى في تقديرنا أن يوظف صور الطبيعة في خدمة ترفه ولهوه وشرابه ، فإذا الدّيار التي يردها ذلك العارض ليسقي تربتها ، لا تبتعد عن الدّيار التي يردها الأعشى ليرتوي من شرابها ، تلك ديارٌ للعزّ والمنعة والكرامة ، وهذه ديارٌ لا يؤمها إلا الأعزّاء المترفون الذين يتصبّب كرمهم كتصبّب الغيث ، فلا ينقطع إلا بعد الثمالة والارتواء ، فهناك ما بين العارض والخمر تجانس أدركه الأعشى من خلال حسّه الذي غدت الخمرة جزءاً منه ، فبات يرى في كلّ المشاهد صورتها ، ويستنشق من كلّ الأجواء والنسائم عبيرها ، ويستلهم من كلّ المعطيات وحيها وأطيافها ، « فلقد كانت الخمرة عنده كلّ شيء ومقدمة على كل موضوع ، ومسكوبة في كل شعره ، منذ أن شبّ عن الطوق إلى أن شاخ وهزل »[1] .

إن هذه المعاقرة الطويلة للخمرة ، بل هذه العشرة التي كان الأعشى وفيّاً لها إلى آخر درجات الوفاء ، هي التي ولّدت في نفسه تلك العاطفة المشبوهة ، وجعلته يتعشّق الخمرة تعشّقاً كاد يطغى على كلّ عشق آخر ، ولذلك نراه لا يترك مناسبة إلا ويصوّرها ، ويطيل في ذكر تفاصيلها ، بل ويخصّص لها المقطوعات المستقلّة التي تظهر شديد تعلّقه بها ، وحرصه العظيم على تعاطيها وعلّ كؤوسها ، وبراعته الفائقة في تقصّيه صور آثارها ونتائجها ، كلّ ذلك لفت نظر النقاد من بعد ، فأشاروا إلى أهمية شعر الأعشى في هذا المجال ، ونبّهوا إلى مقدار تأثيره في شعر الأخطل التغلبي وأبي نواس من بعده[1] .

بعد ذلك ينتقل الأعشى إلى موضوع قد لا يتآلف ذكره مع ذكر الخمرة ، إلاّ أنّ من الممكن أن نلمح فيه روحها وأجواءها من خلال ذلك اللسع الذي لا يختلف في رأينا عن

---

(١) محمد التونجي ـ الأعشى شاعر المجون والخمرة ص ١٧٩ .

(٢) راجع محمد محمد حسين : أساليب الصناعة في شعر الخمر والأسفار بين الأعشى والجاهلين ص ١٥ ـ ١٦ .

لسع الخمرة القريب من لسع النار ، وهذا اللسع يبدو واضحاً في ذلك الهجاء التهكُّميّ المليء بالسخرية والازدراء يقول الأعشى :

أبلغ يزيد بني شيبان مألكةً — أبا ثبيت أما تنفكُّ تأتكل
ولست منتهياً عن نحت اثلتنا — ولست ضائرها ما أطّت الإبل
كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها — فلم يضرها وأوهى قرنه الوعلُ

لقد استطاع الأعشى بهذا النوع الجديد من الهجاء أن يكون أكثر إيلاماً ، لأنه هجاء يحمل كل معاني الهزء والازدراء والشماتة ، فهو هجاء لا يركز على الأعراض والسجايا كما جرت الأعراف والتقاليد ، ولكنّه يركّز على صورٍ تجعل المهجوّ عرضة للتمثيل المضحك ومثاراً للتندُّر الموجع ، ولعلّ هذا النوع الجديد من الهجاء قد خلص إلى الأعشى عن طريق مجالس اللهو والشراب والسمر ، حيث يكثر التندُّر الذي يثير عاصفةً من الضحك المصحوب باحتساء الكؤوس حتى الثمالة والارتماء ، وهل هناك هجاءٌ أكثر إيلاماً من هذا الهجاء الذي يصوّر المهجو ، وعلاً ينطح بقرنه الصخر ليحدث به شطباً أو فلولاً ؟ إنه تصوير يركّز على صفاتٍ تبدو حسّية ، ولكنه في الحقيقة يرمي إلى أبعاد معنويّة تظهر عناد الرجل وجهله ورعونته ، ولذلك نرى الأعشى يطالب يزيداً الشيباني ذاك ، بالابتعاد عن قومه وعدم التعرض لهم لأنه لن يجني من ذلك إلا الهزيمة والسخرية والانكسار ، ويذكّره بمواقع عديدة أجج نارها عناداً ، إلا أن نهايتها كانت الموت لأعداء قومه ، والأحزان الطويلة لنسائهم البائسات وهنا ينتقل الأعشى ليسرح مع الفخر في نشوة لا تقل عن نشوة الخمر ، فيقول :

نحن الفوارس يوم الحنو ضاحيةً — جنبي فطيمة لا ميلٌ ولا عزل
قالوا الطرّاد فقلنا تلك عادتنا — أو تنزلون فإنّا معشرٌ نزل
قد نخضب العير في مكنون فائله — وقد يشيط على أرماحنا البطل

إنّها ولا شك حميّا أشبه بحميّا الخمر ، يروح معها الأعشى مستحضراً أمام عينيه صور الأيام والمواقع التي أثبت فيه قومه فروسيتهم التي لا تضاهى ، ومنعتهم التي لا تنال ، ومن ثم تأخذه نشوة عارمة تحمله إلى ذرى المجد والعزّة والعلاء ، فيرى قومه أبناء الحرب وفرسانها المجربين الذين درجوا عليها شيباً وشيّاناً ، فغدت سجيّة من سجاياهم ، ومنقبة من مناقبهم التي لا تعدُّ ولا تحصى .

تلك هي معلّقة الأعشى التي تبدو أكثر المعلّقات شبهاً بمعلّقة امريء القيس من

حيث الأغراض والموضوعات ، إلاّ أنّنا رغم ذلك يمكننا أن نستشف خيطاً فكرياً يربط أجزاءها المتعدّدة بعضها إلى بعض ، ذلك الخيط هو الإحساس الغامر باللذة الذي يظهر جلياً في كلّ أجزائها ، وهذا الإحساس ليس بعيداً عن طبيعة الأعشى ، تلك الطبيعة التي أظهرت ميلاً شديداً إلى اللذائذ الحسية المتنوعة ، وخاصة الخمرة التي آثرها على غيرها من اللذائذ ، حى بدت وكأنها لذته الوحيدة من الحياة .

أمّا أسلوب الأعشى فيبدو ذلك الأسلوب السهل السلس الذي هذبته الحضارة ، ووسّعت آفاقه الثقافات المكتسبة ، ورققت حواشيه اللذائذ الحسية المتنوّعة ، فغدا أسلوباً مبايناً لأساليب معاصريه وسابقيه أسلوباً يمثّل نفسيّة الأعشى اللينة التي ابتعدت عن الغرابة ، وأقبلت على ما يوافق سجاياها من لهو وخمر وغزلٍ وطرب ، ولذلك اتّسم أسلوبه بالخفة والرشاقة والإيحاء ، فانسابت الأوزان فيه انسياب الجداول ، وتصاعد النغم تصاعد العبق والأشذاء ، ورقّت الألفاظ رقّة العواطف والنّسائم لتواكب جنوح الخيال إلى كل ما هو أليف ومأنوس .

تلك هي معلّقة الأعشى ، الشاعر الذي عرف فضله القدماء والمحدثون ، وقدّروا شاعريته الخلاقة التي أسهمت في مسار الشعر وتنوّعه وغناه ، فاستلهم صورها كثيرٌ من الشعراء عبر العصور .

النابغة الذبياني

« هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيط بن مرّة بن غوث بن سعد بن ذبيان[١] الغطفاني المضريّ[٢] . ويكنّى أبا أمامة وأبا ثمامة[٣] . وهما ابنتاه على عادة العرب آنذاك » ويقال أيضاً : إنه كان يكنى بأبي عقرب ، وعقرب هذه هي ابنته التي أسرها النعمان بن الجلاّح حين أغار على بني ذبيان وقال لها : من أنت ؟ قالت : أنا عقرب بنت النابغة ، فقال لها : والله ما أحدٌ أكرم علينا من أبيك وما أنفع لنا عند الملك[٤] .

« ويلقّب بالنابغة وبهذا اللقب عرف واشتهر » وقد ذكر أهل الرواية أنه لقب بالنابغة لقوله :

وحلّت في بني القين بن جسر ... فقد نبغت لنا منهم شؤون[٥]

أو لأنه نبغ بالشعر بعدما احتنك وهلك قبل أن يهتر[٦] .

أو لنبوغه الشعري وتفوّقه فيه ، لأننا نجد ذلك اللقب قد أطلق من بعد على مجموعة

(١) طبقات الشعراء ص ٤١ ، الأغاني الجزء التاسع ، والشعر والشعراء ص ٨٣ .
(٢) فهرس الأعلام للزركي مجلد ٣ ص ٥٤ .
(٣) الشعر والشعراء ص ٨٣ والمعلقات العشر للتبريزي ص ١٩٦ .
(٤) إيليا حاوي : النابغة الذبياني ص ١٦ وخزانة الأدب ص ٢٨٧ ج أول .
(٥) ديوان النابغة ص ٧٢ دار الكتب العلمية .
(٦) لشعر والشعراء ص ٨٣ ، وطبقات الشعراء ص ٤٢ .

من الشعراء المخضرمين والإسلاميين منهم : النابغة الجعدي ، والنابغة التغلبي ، والنابغة الشيباني[1] .

وقيل : إن هذا اللقب مشتقٌّ من قولهم : نبغت الحمامة إذا تغنّت .

وحكى ابن ولّاد أنه يقال : نبغ الماء ونبغ بالشعر فكأنه أراد أن له مادةً من الشعر لا تنقطع كمادة الماء النابغ[2] .

أمّا مولده فكان في قبيلة ذبيان الغطفانيّة القيسيّة التي « تنتسب إلى بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان ، وإلى بغيض تنتسب أيضاً قبيلة عبس . وتظهر قبيلة ذبيان وعشائرها على مسرح التاريخ الجاهلي مع حرب داحس والغبراء التي نشبت بينها وبين أختها عبس واستمرّت فيما يقول الرواة نحو أربعين عاماً »[3] .

أمّا قصة تلك الحرب فمشهورة في كتب التاريخ والأدب ، وقد شارك في وصف أحداثها ثلاثة من شعراء المعلّقات ، هم : زهير وعنترة والنابغة .

ولكنّ سنة ولادته لا تعرف على وجه التحديد ، شأنها في ذلك شأن أكثر الولادات الجاهلية التي عادة ما تكون بدايتها مجهولة . وأمّا والدته فهي عاتكة بنت أنيس من بني أشجع الذبيانيين ، فهو إذاً ذبياني الأم والأب ، ولا تذكر المصادر شيئاً عن طفولته ونشأته ، وكلّ الذي ذكرته قولها : إنّه كان أحد الأشراف الذين غض الشعر منهم[4] .

وقد يكون في مصاهرة يزيد أخي هرم بن سنان له ، وهو من أشراف ذبيان ما يقطع بذلك[5] .

وربما يعود السبب في ذلك الاغفال إلى نظمه الشعر في سنٍّ متأخرة ، بحيث ظل خامل الذكر حتى نبغ فيه ، وإذا كانت المصادر لا تذكر شيئاً عن نشأته وصباه ، فإنها

---

(١) راجع المؤتلف والمختلف للآمدي ص ١٩١ ـ ١٩٢ فقد ذكر عدداً من الشعراء الذين لقبوا بذلك اللقب .

(٢) المعلقات العشر للشنقيطي ص ٦٢ ط بيروت .

(٣) شوقي ضيف العضر الجاهلي ص ٢٦٦ .

(٤) الأغاني ص ١٦٢ ج ٩ .

(٥) شوقي ضيق : لعصر الجاهلي ص ٢٦٩ .

أسهبت في ذلك بعد أن أصبح النابغة الشاعر الفذّ الذي يشار إليه بالبنان ، وتفتتح أمامه أبواب الملوك والأشراف لينادمهم ويقول فيهم الشعر ، وأوّل تلك الأبواب التي ولجها النابغة كانت أبواب النعمان بن المنذر ملك الحيرة الذي مدحه بغررٍ من قصائده الجياد ، ومن ثمّ أخذ نجمه يتألق في سماء الشعر والقبيلة ، حتى غدا سيّد الشعراء والحكم الذي يفصل بينهم فيرفع ويضع ويخنس لقوله وحكمه ، فضلاً عن كونه سيّد قومه وسفيرهم المتجوّل الذي يذبّ عنهم ويدفع الأعداء . . .

أمّا اتصاله بالنعمان فيعود إلى تلك العلاقات التي كانت تربط قبائل نجد بملوك الحيرة بعد قضائهم على دولة كندة ، فقد كان من الطبيعي أن تقيم ذبيان كغيرها علاقات مع ملوك الحيرة وتدين لهم بالولاء ، ولذلك نرى النابغة ييمِّم شطر الحيرة ليمدح ملكها النعمان ، وليعزّز مكانة قومه في بلاطه ، هذا فضلاً عن نيله بعضاً من الأعطيات التي كان النعمان يغدقها على شعراء ذلك العصر الذي كان بلاطه يموج بهم من أمثال : أوس بن حجر ، والمثقّب العبدي والمنخّل اليشكري ولبيد العامري ، ولقد حظي النابغة من بين هؤلاء وغيرهم من الشعراء بمكانة رفيعة عند النعمان حتى صار شاعره المفضل ونديمه المقرّب . وقد أشار الرواة إلى هذه المنزلة التي بلغها النابغة في ذلك البلاط فذكر أبو عبيدة وغيره من العلماء : أن النابغة كان كبيراً عند النعمان خاصاً به ، وكان من ندمائه وأهل أنسه[1] .

إلّا أن كتب التاريخ والأدب أشارت جميعها إلى حادثةٍ كدَّرت العلاقات بين الرجلين ، وجعلت النابغة يلتجىء بعدها إلى بلاط الغساسنة الأعداء التقليديين لملوك الحيرة في ذلك الزمن ، فقد ذكرت تلك الكتب أن النابغة والمنخّل اليشكري كانا جالسين عند النعمان ، « وكان النعمان دميماً أبرش قبيح المنظر ، وكان المنخل بن عبيد من أجمل العرب وكان يرمى بالمتجرّدة زوجة النعمان ، ويتحدّث العرب ان ابني النعمان كانا من المنخل ، فقال النعمان للنابغة : يا أبا أمامة ، صف المتجرّدة في شعرك فقال قصيدته التي وصفها فيها ووصف بطنها وروادفها ، فلحقت المنخل من ذلك غيرة فقال للنعمان : ما يستطيع أن يقول هذا الشعر إلاّ من جرّبه . فوقر ذلك في نفس النعمان ، وبلغ ذلك النابغة فهرب فصار في غسان »[2] .

---

(١) الأغاني ص ١٦٢ ج ٩ .

(٢) الأغاني ص ١٦٦ ج ٩ .

ويقال إن الذي أبلغ النابغة غضب النعمان وعزمه على الانتقام به ، بوابٌ كان على باب النعمان يقال له عصام ، وقد مدحه النابغة بقوله :

نفس عصـام سـوّدت عصـامـاً وعـلّمتـه الـكـرّ والإقـدامـا
وصـيّـرتـه مـلكـاً هـمـامـا حـتى عـلا وجـاوز الأقـوامـا(١)

ويقال أيضاً : إن النابغة أنشد مرّة بن سعيد القريعي قصيدته في المتجرّدة وكان لمرّة هذا سيفٌ قاطع يقال له ذو الرّيقة من كثرة فرنده وجوهره ، فذكره النابغة للنعمان فأخذه ، فاضطغن ذلك القريعي على النابغة ووشى به إلى النعمان وحـرّضه عليه وذكـر له قصيدته في وصف المتجرّدة ، فامتلأ غضباً وأرعد ، ومن ثمّ هرب النابغة إلى ملوك غسان(٢) .

إذاً بعد هذه الحادثة ، اضطر النابغة إلى ولوج أبواب ملوك دولة الغساسنة ، أعـداء ملوك الحيرة ، فنزل « بعمرو بن الحرث الأصغر بن الحرث الأعـرج بن الحرث الأكبـر بن أبي شمر » ، « فمدحه النابغة ومدح أخاه النعمان ، ولم يـزل مقيماً مـع عمرو حتى مـات وملك أخوه النعمان ، فصار معه إلى أن استطلع النعمان فعاد إليه »(٣) .

إلّا أن الروايات تختلف هنا في سبب ورود النابغة على الغساسنة ومفارقته لبلاد أبي قابوس ، فتذكر بعض المصادر أن النابغة اضطر إلى ذلك ليس بسبب حادثة المتجرّدة بـل بعد أن أوقع الغساسنة بقومه وأحلافهم إثر ارتيادهم وادي أقر الخصيب الذي منع الغساسنة القبائل من ارتياده فكان من الطبيعي أن يسارع النابغة إلى ديار الغساسنة ليمدحهم ويفـك أسرى قومه وأحلافهم ، وقد استطاع النابغة أن يصل إلى غايتـه ويحقّق لسفارتـه تلك كل أسباب النجاح(٤) .

وهكذا فإن الرعاية لمصالـح قبيلته هي التي حملتـه على مدح المنـاذرة والغساسنـة معاً ، لأنه بذلك المدح أراد أن يحفظ قبيلته من عدوّين متنافسين ويضمن السلامة والأمن عند تقلّب الأيام وتغيّرها لصالح فريقٍ من الفريقين ، فسيادته لقبيلته أوجبت عليه أن يكون الولاء لها لا لغيرها ، ومدحه لأمراء زمانه من قبيل المداهنة السياسسية التي فُرضت على

---

(١) ديوان النابغة ص ٦٩ دار الكتب العلمية .
(٢) راجع الأغاني ص ٦٦ ج ٩ وخزانة الأدب ص ٢٧٨ ج ١ .
(٣) الأغاني ص ١٦٧ ج ٩ .
(٤) راجع شوقي ضيق العصر الجاهلي ص ٢٥٧ وراجع بروكلمان تاريخ الأدب العربي ص ٨٨ ـ ٨٩ .

الرجل في زمن كانت كل الاعتبارات فيه ترتكز إلى القوّة .

بعد ذلك تذكر الروايات أن النابغة ظل يواصل النعمان سرّاً ويمدحه بأروع القصائد التي يصور فيها وجده وشوقه وقلقه واضطرابه وليله ونهاره وما يكابد فيهما من حنين وهموم ولوعة وأسى ، فيقول في واحدة منها والألم يعصر قلبه ، ويدمي مدامعه :

فكفكفت منّي عبرة فرددتها ... على النحر منها مستهلٌ ودامعُ
على حين عاتبت المشيب على الصبا ... وقلتُ: ألمّا أصحُ والشيب وازعُ؟
وقد حال همٌّ دون ذلك شاغلٌ ... مكان الشّغاف تبتغيه الأصابع
وعيدُ أبي قابوسُ في غير كنهه ... أتاني ودوني راكسٌ فالضواجع
فبتُّ كأني ساورتني صئيلةٌ ... من الرقش في أنيابها السمُّ ناقع
يُسهَّد من ليل التمام سليمها ... لحلي النّساء في يديه قعاقع[1]

ويتدخّل الوساطء لدى النعمان ، فتصفو له نفسه ، ويسأل العودة إليه فيسارع ، ويقدم عليه « مع زيّان بن سيّار ، ومنظور بن سيّار الفزاريين ، وكان بينهما وبين النعمان دُخلل[2] ، فضرب لهما قبّة ، ولا يشعر أن النابغة معهما ، ودسّ النابغة أبياتاً من قصيدته :

نُبئت أنّ أبا قابوس أوعدني ... ولا قرار على زأرٍ من الأسد
مهلاً فداءً لك الأقوامُ كلهم ... وما أثمِّرُ من مالٍ ومن ولد
فلا لعمر الذي مسحت كعبتهُ ... وما أُريق على الأنصاب من جسد
ما ان بدأت بشيءٍ أنت تكرهه ... إذن فلا رفعت سوطي إليَّ يدي

فلما سمع النعمان الشعر ، أقسم بالله إنّه لشعر النابغة ، وسأل عنه فأخبر أنّه مع الفزاريَّين وكلّماه فيه فأمّنه »[3] .

وهكذا عاد النابغة إلى بلاط أبي قابوس بعد جفوةٍ كانت السبب في معاناةٍ داخليّة عميقة صوّرها النابغة بشعر يفيض رقّة وألماً وعذوبة ، كما يفيض صدقاً وحرارة وجمالاً ،

---

(١) ديوان النابغة ص ٥٣ ـ ٥٤ .
(٢) دُخلُل : مداخلة ومسارة على سبيل المصادقة .
(٣) الشعر والشعراء ص ٨٩ ـ ٩٠ .

وتشاء الظروف أن لا يطول تمتّع أبي أمامة في ديار النعمان ، لأن الدهر ذو غيرٍ وصروف ، فقد وقع أبو قابوس « في أسر خسرو الثاني الملك الساساني في فارس ، ولم يلبث أن مات في محبسه ، وحينئذٍ رجع النابغة إلى قبيلته بني ذبيان الذين كان يرعى مصالحهم دائماً عند أولى حظوته من الأمراء وبقي هناك إلى أن مات »(1) .

وكانت وفاته بين سنتي ٦٠٤ و ٦١٠ م حسب أرجح الروايات(2) في زمن النبي عليه الصلاة والسلام وقبل أن يبعث(3) .

هذه نبذة موجزة عن سيرة الرجل التاريخية حاولنا فيها أن نلمّ بأكثر التفاصيل .

أما سيرته الأدبية فقد أفردت لها كتب الأدب والتاريخ حيّزاً متسعاً ، نظراً للمكانة الرفيعة التي احتلها النابغة في نظم الشعر وتجذير أصوله الفنيَّة ، فقد جعله ابن سلام الجمحي في عداد الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية ، وذكر اسمه بعد اسم امرىء القيس مباشرة ، كما ذكر رأي العلماء الذين احتجوا له وقدموه على غيره من الشعراء ، وقال على لسانهم : كان أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتاً كأن شعره كلام ليس فيه تكلّف .

وأضاف إلى ذلك رأي عمر بن الخطاب حين قال : أيُّ شعرائكم يقول :

ولست بمستبقٍ أخاً لا تلمُّهُ   على شعثٍ أيّ الرجال المهذب

قالوا النابغة قال هو أشعرهم(4) .

ويروي صاحب الأغاني ما ذُكر عن عمر رضي الله عنه بأسلوبٍ آخر ، ويضيف إلى عمر عدداً من الأبيات الشعرية التي تمثل بها في تلك الحادثة مستشهداً على شاعرية الرجل ، ويقول للوفد عنه : « هو أشعر العرب »(5) .

وذكره صاحب العمدة فقال : وأمّا النابغة فقال : من يحتجُّ له ، كان أحسنهم ديباجة

---

(1) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ص ٨٩ .

(2) راجع فهرس الأعلام للزركلي ص ٥٤ ، مجلد ٣ ، وشعراء النصرانية ص ٦٤ ، ومحمد زكي العشماوي ـ النابغة الذبياني ص ١١٨ .

(3) خزانة الأدب ص ٢٨٧ .

(4) طبقات الشعراء ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(5) الأغاني ص ١٦٢ . ج ٩ .

شعر وأكثرهم رونق كلام ، وأذهبهم في فنون الشعر ، وأكثرهم طويلة جيدة ومدحاً وهجاءً وفخراً وصنعةً »[١] .

أمّا صاحب العقد فقد ذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لوفدٍ من غطفان كان وفد عليه : من الذي يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً ... وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا : نابغة بني ذبيان ، قال : فمن الذي يقول هذا الشعر :

أتيتك عارياً خلقاً ثيابي ... على وجلٍ تظنُّ بي الظنون
فألفيتُ الأمانة لم تُخنْها ... كذلك كان نوح لا يخون

قالوا : هو النابغة ، قال : « هو أشعر شعرائكم » .

وأضاف صاحب العقد معقّباً: «وما أحسب عمر ذهب إلاَّ إلى أنه أشعر شعراء غطفان ويدلُّ على ذلك قوله : « هو أشعر شعرائكم »[٢] . ومن الواضح هنا أن عمر رضي الله عنه في هذه الرواية قد نظر إلى شعر النابغة بالمنظور الديني وليس بالمنظور الفنّي ، ومن ثمّ فضّله على غيره ، لأن ما ذكره له يتوافق مع التعاليم الإسلامية التي أراد لها عمر أن تترسَّخ في النفوس .

ونقل صاحب الشعر والشعراء أقوال العلماء فيه ، وتقديمهم له ، فذكر أن أبا عبيدة قال : يقول من فضّل النابغة على جميع الشعراء : هو أوضحهم كلاماً وأقلّهم سقطاً وحشواً ، وأجودهم مقاطع وأحسنهم مطالع ، ولشعره ديباجة إن شئت قلت ليس بشعر مؤلَّف من تأنُّثه ولينه ، وإن شئت قلت صخرة لو رُدِيَتْ[٣] بها الجبال لأزالتها[٤] .

وذكر السيوطي : أن أبا بكرٍ الصدّيق رضي الله عنه كان يقدم النابغة ويقول : « هو أحسنهم شعراً وأعذبهم بحراً ، وأبعدهم قعراً »[٥] .

---

(١) العمدة ص ٧٥ ج ١ .
(٢) العقد الفريد ص ١١٩ ج ٦ .
(٣) رديت : رميت .
(٤) الشعر والشعراء ص ٩٠ .
(٥) المزهر ص ٢٤ ج ٢ .

وفي الأغاني عن أبي المؤمل قال : قام رجل إلى ابن عباس فقال : أيُّ الناس أشعر ؟ فقال ابن عباس : أخبره يا أبا الأسود الدؤلي ، قال : الذي يقول :

فإنّك كالليل الذي هو مدركي وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسع[1]

هذه بعض الأقوال التي قدمت النابغة على غيره من الشعراء ، وهي أقوالٌ تتفق مع ما ذهب إليه النقاد حين قالوا : إن أهل الحجاز والبادية كانوا يقدّمون زهيراً والنابغة ، وكان أهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحداً[2] .

أمّا الروايات التي ذكرت النابغة وبيّنت فضله ومكانته فهي كثيرة في كتب التاريخ والأدب وسوف نذكر هنا بعضها لأنها تدلُّ بوضوح على شاعرية الرجل التي أقرّ بها الشعراء ، وجعلتهم يحتكمون إليه ويذعنون لرأيه وفصله ، فقد جاء في الأغاني عن عبد الملك بن قريب[3] أنه قال : « كان يضرب للنابغة قبَّة من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، قال : وأوّل من أنشده الأعشى ، ثم حسّان بن ثابت ، ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته خنساء بنت عمرو بن الشريد :

وان صخراً لتأتمُّ الهداة به كأنه علمٌ في رأسه نار

فقال : والله لولا أن أبا بصير « الأعشى » أنشدني آنفاً لقلت إنّك أشعر الجن والانس ، فقام حسان فقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابغة : يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسعُ
خطاطيفُ حجنٍ في حبالٍ متينةٍ تمدُّ بها أيدٍ إليك نوازعُ

قال : فخنس حسان لقوله[4] .

وفي الأغاني أيضاً وفي غيرها من كتب الأدب عن الشعبي بعد أن أرسله الحجاج إلى عبد الملك بن مروان لينادمه ، وبعد أن أذن له عبد الملك بالدخول عليه قال : فدخلت فإذا

---

(١) الأغاني ص ١٦٢ ج ٩ .
(٢) العمدة ص ٧٤ .
(٣) هو الأصمعي .
(٤) الأغاني ص ١٦٣ ج ٩ .

عبد الملك جالس على كرسيٍّ وبين يديه رجل أبيض الرأس واللحية على كرسي ، فسلّمت ، فردَّ عليَّ السلام ، ثم أومأ إليَّ يقضيبه ، فقعدت عن يساره ، ثم أقبل على الذي بين يديه فقال : ويحك من أشعر الناس ؟ قال : أنا يا أمير المؤمنين ، قال الشعبي : فأظلم عليَّ ما بيني وبين عبد الملك ، فلم أصبر أن قلت : ومن هذا يا أمير المؤمنين الذي يزعم أنه أشعر الناس ؟ قال : فعجب عبد الملك من عجلتي قبل أن يسألني عن حالي ، ثم قال : هذا الأخطل ، فقلت : يا أخطل أشعر والله منك الذي يقول :

هذا غلامٌ حسنٌ وجهه ... مستقبل الخير سريع التمام
للحرث الأكبر والحرث الأعرج ... والأصغر خير الأنام
ثمّ لهندٍ ولهندٍ وقد ... أسرع في الخيرات منهم إمام
ستّةٌ آباؤهم ما همُ؟ ... أكرم من يشرب صوب الغمام

فردّدتها حتى حفظها عبد الملك ، فقال الأخطل : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا الشعبي ، فقال : صدق والله يا أمير المؤمنين النابغة والله أشعر مني[1] .

وفي الجمهرة عن حسان بن ثابت بعد وفوده على النعمان ومدحه له ، قال حسان : « فوالله إني لجالس عنده أي : عند النعمان » إذ بصوت خلف قبَّته ، وكان يوماً ترد فيه النّعم السود ، ولم يكن للعرب نعم سودٌ إلاّ للنعمان ، فأقبل النابغة فاستأذن فقدم وهو يقول :

أنام أم يسمع رب القبة ... يا أوهب الناس لعيسٍ صلبه
ضرّابةٍ بالمشفر الأذبّة ... ذاتِ تجافٍ في يديها حدبة

قال أبو أمامة : ادخلوه فأنشد قصيدته التي يقول فيها :

ولست بمستبقٍ أخاً لا تلمُّهُ ... على شعثٍ أيُّ الرجال المهذّب

فأمر له بمائة ناقة فيها رعاؤها ومطافيلها وكلابها من السود ، قال حسان : فخرجت من عنده لا أدري أكنت له أحسدَ على شعره أم على ما نال من جزيل عطائه[2] .

هذه بعض الروايات التي تظهر بشكل واضح مكانة النابغة الرفيعة التي جعلته يتبوّأ

---

(١) الأغاني ص ١٦٩ ج ٩ .

(٢) الجمهرة ص ٢٨ .

زعامة الشعر في عصره ، كما جعلته أيضاً قبلة الأنظار والأسماع فيما عداه من العصور .

أمّا سيرته الشخصية فإن كتب الأدب لم تذكر عنها إلاّ نبذاتٍ موجزةٍ ، ولكنّنا من خلالها ومن خلال شعره نستطيع أن نرسم شخصية النابغة ونتعرّف على بعض خلالها وطبائعها ، فقد أجمعت كتب الأدب على القول: إنَّ النابغة « كان شريفاً فغض منه الشعر »[1] . وهو أحد الأشراف الذين غضّ الشعر منهم[2] .

ويقول ابن حبيب عنه : إنه ممّن حرّم الخمر والأزلام في الجاهلية[3] .

أمّا شعره فيدلّ على أنه كان رجلاً وقوراً مهذباً « ولا يتفتّى تفتّي امرىء القيس وطرفة وأضرابهما ، بل يتراءى سيّداً وقوراً ذا خلق وشيم كريمة فهو لا يتدنّى سفاهة ولا يتبذّل في مجون »[4] .

وقد ذكر اليعقوبي في تأريخه : أن الملوك « كانت تعظم الشعراء وترفع أقدارهم لما يبقون لهم من المدح والذكر ، فكان النابغة مقدّماً عند ملوكهم[5] . كما كان سفيراً لقومه عندهم يتكلّم باسمهم فيسمع له ، ويدافع عن حقوقهم فتلبّى مطالبه ، وفي شعره حكم مبثوثة هنا وهناك تدلّ على رجاحة عقل وبعد نظر ، كما أنَّ فيه ذكر للثواب والعقاب واليوم الآخر ، وربّما عناه ابن سلام حين قال : وكان من الشعراء من يتألّه في جاهليته ويتعفّف في شعره ولا يستبهر بالفواحش ولا يتهكّم في الهجاء »[6] . ولعلّ ذلك التأله جاءه من اتصاله بالمناذرة والغساسنة أو من معاينته لبعض الأحبار والرهبان ، إلاّ أن الرجل لم يفارق دين قومه ، ووثنيّة آبائه وذلك ظاهر من خلال معلقته حين يقول :

فلا لعمر الذي قد زرته حججاً ... وما هريق على الأنصاب من جسد

فذِكْرُ الحجّ والأنصاب وإراقة الدماء يؤكد ما ذهبنا إليه .

---

(١) الشعر والشعراء ص ٨٧ .
(٢) الأغاني ١٦٢ ج ٩ .
(٣) المحبّر ص ٢٣٨ .
(٤) شوقي ضيق العصر الجاهلي ص ٢٨٧ .
(٥) تاريخ اليعقوبي ص ٢١١ ج ١ .
(٦) طبقات الشعراء ص ٣٩ .

كما يذكر الرواة أنه كان يقوي في شعره فعيب ذلك عليه ، وأسمعوه في غناء :

أمن آلِ أميّة رائحٌ أو مغتدٍ   عجلان ذا زدٍ وغير مزوّدِ
زعم البوارح أن رحلتنا غداً   وبذاك خبّرنا الغراب الأسودُ

ففطن ولم يعد[1] ، وكان يقول ، وردت يثرب وفي شعري بعض العاهة فصدرت عنها وأنا أشعر الناس[2] .

هذا هو النابغة الذي استطاع أن يجمع في شخصه خلّتين اثنتين ، هما خلّة الشاعر المتميّز الرقيق الحسّ والبعيد الخيال ، والبارع الانتقاء للمعاني والألفاظ ، وخلّة المزايا الأخلاقية الحميدة التي أكملت وقاره ، وحققت هيبته ، ورفعت قدره بين معاصريه وقارئيه . . .

(١) الشعر والشعراء ص ٨٣ .
(٢) الأغاني ص ١٦٤ ج ٩ .

معلّقة النابغة الذبياني

يَـا دَارَ مَيَّـةَ بـالـعـلـيـاء فـالـسَّـنَـدِ — أقـوَتْ وطـالَ عليهـا سـالفُ الأَبَـدِ[1]

وقَـفتُ فيـهـا أصيـلاً كـيْ أُسـائـلَهـا — عيَّتْ جـوابـاً ومـا بـالـرَّبـع مِنْ أحَـدِ[2]

إلاَّ الأَوَاريَ لأيـاً مـا أُبَـيِّـنُـهـا — والنُّؤيُ كـالحَوْض بـالمَـظلومَـةِ الجَلَدِ[3]

رُدَّت عَـلَيـهِ أقـاصِـيـهِ وَلَـبَّـدَهُ — ضَـرْبُ الـوَليـدَة بـالمِسحـاة في الثَّأدِ[4]

خـلَّتْ سبيـلَ أتـيٍّ كـانَ يَـحبِـسُـهُ — ورَفَّـعَتـهُ إلـى السَّجَفَيـنِ فـالـنَّضـدِ[5]

أضحَتْ خَـلاَءً وأضحى أهلُهـا احتـملوا — أخنى عَلَيهـا الَّـذي أخنى عَـلَى لُبَـد[6]

---

(١) ميّـة : اسم امرأة . العليـاء : المكان المـرتفع من الأرض . السّـنـد : ما بين القمـة والـوادي . أي السفح . أقوت : خلت من أهلها . السالف : المـاضي . الأبد : الـدهر . أي أن الـديار خلت من ساكنيها وطال عليها سالف الدهر .

(٢) الأصيل : العشي . عيّت : عجزت عن الإجابة .

(٣) الأواري : جمع الآري : أي الآخية تشدُّ بها الدابّة . لأياً : شدّة . النؤي : الحفرة التي تحفر حول المسكن لئلا ينفذ الماء إليه . المظلومة الجلد : الأرض الصلبـة التي حفر فيهـا حوض . على غيـر استحقاق منها لذلك .

(٤) أقـاصية : مـا شذّ منـه . لبّده : ألصق التراب بعضه بـالبعض الآخر . الـوليدة : الخـادمة الفتيـة . المسحاة : آلة كالمجرفة . الثأد : الموضع الندي التراب .

(٥) الأتي : السيل . السجف : ستر يكون عند مدخل المنزل . النّضد : ما نضد من متاع البيت .

(٦) احتملوا : رحلوا . أخنى عليها : بدّلها من حال إلى حال . لبدِ : اسم نسرٍ يروى أنه كان للقمان بن عاد ، وقد عاش عمراً طويلاً .

فَعَدِّ عَمَّا تَرَى إِذْ لا ارتجاعَ لَهُ وانْمِ القُتود على عيرانةٍ أُجُدِ[1]

مَقذوفةٍ بِدَخيسِ النَّحض بَازِلُها لَهُ صَريفُ صَريفَ القعوِ بالمَسَدِ[2]

كأنَّ رَحلي وقَدْ زَالَ النَّهارُ بِنا يَوْمَ الجليلِ على مُستأْنِسٍ وَحَدِ[3]

مِنْ وَحشِ وَجرَةَ مَوْشيٍّ أَكارِعُهُ طَاوي المصيرَ كَسيفِ الصَّيقلِ الفَرد[4]

فارتاعَ مِنْ صَوْتِ كلَّابٍ فباتَ لَهُ طَوْعَ الشَّوامتِ مِنْ خوفٍ ومِنْ صَرَدِ[5]

فَبَثَّهنَّ عليه واستمرَّ بهِ صُمعُ الكُعوبِ بَرِيَّاتٌ مِنَ الحَرَدِ[6]

وكانَ ضُمرانَ مِنْهُ حيثُ يُوزِعُهُ طَعنَ المعارِكِ عِندَ المُحجرِ النَّجد[7]

شكَّ الفريصةَ بالمِدْرَى فأنفذها طَعنَ المُبيطِرِ إِذْ يشفى مِنَ العضد[8]

كأنَّهُ خارجاً مِنْ جَنبِ صَفحتِه سَفُّودُ شَرْبٍ نَسوهُ عندَ مُفتأدِ[9]

---

(١) عدِّ ما ترى : أي انصرف عنه . أنم القتود : ارفع خشب الرحل . عيرانة : ناقة تشبه الغير نظراً لصلابة خفّها . الأجد : الموثقة الخلق أو التي عظُم فقارها .

(٢) النحض الدخيس : اللحم في باطن الكفّ . مقذوفة : مرمية باللحم . البازل : الكبير أو : البعير الفتيّ الذي بلغ التاسعة من عمره . الصريف : الصياح . القعو : ما يضمُّ البكرة إذا كان خشباً . ومعنى صريف القعو بالمسد : أي أن للبعير صوتاً كصوت البكرة إذ تلفُّ حولها الحبال المجدولة . المسد : الحبل المحكم الفتل .

(٣) زال النهار بنا : انتصف . الجليل : اسم وادٍ بالقرب من مكة المكرمة . مستأنسٍ وحد : ناظرٌ بعينه ، متفردٌ بذاته ومنه : « إني آنستُ ناراً » أي أبصرت .

(٤) وجرة . اسم مكان كثير الوحوش . الموشي : الذي فيه ألوان مختلفة . أكارعه : قوائمه . طاوي المصير : ضامرة . والمصير : جمعه مصران . كالسيف الصقيل : أي هو يلمع . الغرد : أي ليس له نظير .

(٥) ارتاع : فزع . الكلَّاب : صاحب الكلاب . الشوامت : القوائم . الصرد : البرد الشديد .

(٦) بثّهن : فرّقهنّ . الصمع : الضوامر . الكعوب : جمع كعب وهو المفصل من العظام . الحرد : استرخاء العصب .

(٧) ضمران : اسم كلب . يوزع : يغري . المحجر : الملجأ . النجد : المقدام . ذو النجدة .

(٨) الفريصة : اللحمة بين الكتف والعنق . المدرى : القرن . ويريد بها قرن الثور . المبيطر : البيطار . العضد : داء ينخرُ العضد .

(٩) الصفحة : الجانب . السفود : حديدة يشوى عليها اللحم . الشرب : القوم يشربون . نسوه : تركوه . المفتأد : المكان الذي يُشوى فيه اللحم . ونصب « خارجاً » على أنه حال . والهاء في كأنّه تعوّد على المدرى .

فَـظلَّ يَـعجـمُ أعلَى الـرَّوْقِ مُـنقـبـضـاً ... في حـالـكِ اللَّوْنِ صَـدْقٍ غيـر ذي أوَد[١]

لَـمَّـا رأى واشقٌ إقـعـاصَ صـاحـبـهـا ... ولاَ سَـبـيـلَ إلـى عـقـلٍ وَلاَ قَـود[٢]

قَـالَـتْ لَـهُ النَّـفسُ إنِّي لا أرى طَـمـعـاً ... وإنَّ مـوْلاك لَـمْ يَـسلـم ولـم يَـصـد[٣]

فـتـلكَ تُـبـلِغُـنـي الـنُّـعـمـانَ إنَّ لَـهُ ... فضلاً على النّاس في الأدْنى وفي البعد[٤]

ولاَ أرى فَـاعِـلاً فـي الـنّـاس يُـشـبِـهُـهُ ... ولا أُحـاشـي مِنَ الأقـوامِ من أحـد[٥]

إلاَّ سُـلـيـمَـانَ إذْ قـالَ الإلَـهُ لَـهُ ... قُـمْ في البـريَّـةِ فـأحـدُدْهـا عَن الفَـنَـد[٦]

وخَـيِّسِ الـجـنَّ إنِّي قَـدْ أذِنـتُ لَـهُـمْ ... يَبنـونَ تَـدْمـر بـالصُّفَّـاح والـعَمـدِ[٧]

فَـمنْ أطَـاعَـكَ فـانـفـعْـهُ بـطـاعـتِـهِ ... كمـا أطـاعـك، وادلِلهُ على الـرَّشَـد[٨]

ومَـنْ عَـصـاكَ فـعـاقِـبْـهُ مُـعـاقَـبَـةً ... تَنهي الـظَّلومَ وَلاَ تَقعُـدْ على ضَـمَـد[٩]

إلاَّ لـمـثـلـكَ أوْ مَـنْ أنـتَ سـابـقُـهُ ... سَبْقَ الجَـوَاد إذا اسْتولى على الأمـد[١٠]

أعـطى لِـفـارهَـةٍ حُـلـوٍ تـوابِـعُـهـا ... مِنَ المَـوَاهِـبِ لا تُعـطى عَـلى نَكَـدِ[١١]

الـوَاهـبُ المـائـةِ الـمِعـكـاءَ زَيَّـنـهـا ... سَعْـدَانُ تُـوضِـحَ في أوْبـارهـا اللِّبَد[١٢]

---

(١) يعجم : يمضغ . الروق : القرن . منقبضاً متجهم الوجه . الحالك : الشديد السواد . الصدق : الصلب . أود : أعوج .

(٢) واشق : اسم كلب . إقعاص : مقتل . عقل أو قود : ديّة أو قصاص .

(٣) مولاك : ابن عمك أي الكلب المقتول . وقد ذهب البعض إلى أن المقصود بالمولى هو صاحب الكلب . المولى : الناصر .

(٤) تلك : يعني ناقته التي شبّهها بالثور .

(٥) فاعلاً : أي فاعلاً للخير . أحاشي : أستثني .

(٦) سليمان : هو الملك سليمان بن النبي داود . البرية : المخلوقات . الحدُّ : المنع . الفند : الخطأ .

(٧) خيّس : ذلّل . تدمّر : مدينة قديمة في بادية الشام . الصفاح : الحجارة العريضة . العمد : جمع العمود .

(٨) الرّشد : الهدى .

(٩) الضمد : الحقد .

(١٠) الأمد : الغاية والهدف .

(١١) الفارهة : الناقة الكريمة . توابعها : ما يتبعه من هبات . نكد : ضيق وعسر .

(١٢) المعكاء: الغلاظ الشداد. سعدان : نبات يسمّن الإبل إذا ارتعته . توضح : اسم موضع . اللبد : الوبر المتلبّد .

والأُدْمُ قَـدْ خُيِّسَتْ فُتـلاً مـرافقُـهـا / مشـدودةً بـرحـالِ «الحيـرة» الجُـدُدِ[1]

والـرَّاكضـات ذُيُـولَ الـرَّيْطِ فَـنَّقَـهـا / بَـرْدُ الهَـوَاجـرِ كـالغـزلان بِـالجَـرَدِ[2]

وَالـخَيـلَ تَـمـزَعُ غَـرْبـاً في أَعِـنَّتِـهـا / كـالطَّيـرِ تنجو مِنَ الشُّؤْبوب ذي البـرَدِ[3]

أحكمْ كـحُكـم فَتَـات الـحَيِّ إذْ نَـظَرَتْ / إلـى حَمَـامٍ شِـرَاعٍ وارد الـثَّمَـدِ[4]

يَـحُفُّـهُ جَـانـبـا نِيـقٍ وَتُـتْـبِـعُـهُ / مِثْـلَ الـزُّجَاجَـة لَمْ تَكحـلْ مِنَ الـرَّمَـدِ[5]

قـالـتْ ألاَ لَيتمـا هـذَا الـحمـامُ لَـنـا / إلـى حَمـامتـنـا ونـصفُـهُ فَـقَـدِ[6]

فَـحسَّـبُـوهُ فَـألفَـوهُ كـمـا زَعَـمَـتْ / تسعـاً وتـسعـين لَـمْ تنقصْ ولَمْ تَـزِدِ[7]

فَـكَـمَّـلتْ مـائـةً فيـهـا حـمـامتـهـا / وأَسـرَعَتْ حسبَـةً في ذَلـكَ الـعـدد[8]

فَـلاَ لَـعمـر الّـذي مَسّحتُ كـعبتَـهُ / ومَـا هُـريقَ على الانصـاب من جسـد[9]

والمُؤْمِن العـائـذَاتِ الـطَّيـرِ تَمسحُهـا / رُكبـانُ مَكَّـةَ بينَ الـغِيـلِ والـسَّعَـدِ[10]

---

(١) الأدمُ : النياق البيض . خيّست : ذللت . فُتلاً مرافقها : التي بانت مرافقها من آباطها . الرحال : السروج . الحيرة : مدينة بالعراق .

(٢) ذيول الرّيط : أطراف الملاءة . فنّقها : طيب عيشها . أي لا تسير في شدّة الحر . الهواجر : جمع الهاجرة ، وقت الحرّ الشديد . الجرد : المكان الذي لا ينبت العشب فيه .

(٣) تمزع : تمر سريعاً . غرباً : خفّة ونشاطاً. الشؤبوب : السحاب العظيم القطر .

(٤) الثمد : الماء القليل ، والمقصود هنا هو الماء مطلقاً . وسراع : مسرعة ، وروي « شراعٍ » أي مجتمعة .

(٥) يحفُّه : يكون في ناحيته . نيّق : اسم جبل . مثل الزجاجة : المقصود بها عين زرقاء اليمامة وهي في صفاء الزجاجة لم تكحل من الرمد : لم يصبها رمدٌ فتحتاج إلى كحل . ومعلوم أن القطا متى كان بين جانبي جبل ضيق ، ركب هذا القطا بعضه بعضاً فكان أصعبُ لعدّة .

(٦) فَقدِ : فقط .

(٧) الفوه : وجدوه .

(٨) رواه الأصمعي : « وأحسبت حسبة في ذلك العدد » .

(٩) الذي مسحت كعبته : الله تعالى ، وهذا ليس بمستغرب من شاعر جاهلي كالنابغة لأنه كان كغيره يحج إلى مكة . هريق أو أريق : صبَّ . الانصاب : الأحجار التي كانت تذبح الضحايا عندها في الجاهلية .

(١٠) العائذات: الحديثة النتاج من الحيوان. تمسحها : تمسح عليها . الغيل والسعدِ : أجمتان تقعان بين مكة المكرمة ومنىً .

مـا إنْ أتيتُ بـشـيءٍ أنـتَ تَكـرَهُـهُ إذاً فَـلا رَفَـعَتْ سـوطي إليَّ يَـدِي(١)

هَـذا لأبْـرَأُ مِـنْ قَـوْلٍ قُـذِفـت بِـهِ طَـارتْ نَـوافِـذُهُ حرَّى عَـلى كبـدي(٢)

إذاً فَـعـاقَـبـنـي رَبِّـي مُـعَـاقَـبـةً قَـرَّتْ بهـا عَين مَنْ يَـأْتيك بـالحَسَـدِ(٣)

أُنـبِئْـتُ أنَّ أبـا قـابـوس أوْعَـدَنـي وَلا قَـرَارَ عَـلى زأرٍ مِـنَ الأسـدِ(٤)

مَـهـلاً فَـداءٌ لَـكَ الأقـوامُ كُـلُّهُـم ومَـا أُثَـمِّـرُ مِـنْ مـالٍ ومِـنْ وَلَـدِ(٥)

لا تَـقْـذِفَـنِّـي بِـرُكـنٍ لا كـفـاءَ لَـه وإنْ تَـأثَّـفَـكَ الأعـداءُ بـالـرِّفَـدِ(٦)

فَـمـا الفُـراتُ إذا هَـبَّ الـرِّيـاحُ لَـهُ تَمـرِي أُواذِيُّـهُ العبـرَينِ بـالـزَّبَـدِ(٧)

يَـمُـدُّهُ كـلُّ وادٍ مُـتْـرَعٍ لَـجِـبٍ فيـه رُكـامٌ من اليَنبـوت والخَضـدِ(٨)

يَـظَل مِنْ خَـوْفِـهِ المـلاَّحُ مُعتصمـاً بِـالخَيـزرانـةِ بـعـد الأينِ والـنَّجـدِ(٩)

يَـوْمـاً بـأجـوَدَ مـنـهُ سَيـبَ نـافـلةٍ ولا يَـحـولُ عَـطاءُ اليـوْمِ دُونَ غَـدِ(١٠)

---

(١) المعنى : إنه إذا كان حقاً قد أساء القول بحق النعمان فشلّت يده حتى لا تستطيع رفع السوط ، رغم خفّة وزنه .

(٢) النوافذ : من قوله جرح نافذ المعنى أنهم قالوا قولاً صار ناراً على كبدي ، وشقيت بهم .

(٣) وروي : « بالفند ». والفند : الكذب .

(٤) أبو قابوس : كنية النعمان بن منذر . أوعدني : هدَّدني .

(٥) أثمِّر : أجمع .

(٦) كفاء أو كفوء : نظير . مثيل . تأثفك الأعداء : صاروا منك موضع الأثافي من القدر معنى الرِّفد أي يتعاونون عليَّ ، ويسعون بي عندك .

(٧) جاشت : فارت . غلت : هاجت . الأواذي : جمع الآذي وهو الموج . العبرين : الضفتين . الزبد : رغوة الماء إذا اضطرب . ويروي البيت :

فمـا الفـرات إذا جـاشت غـواربـه تـرمي أواذيّـه العبـرين بـالـزبـد

الغوارب : الأمواج وأعالي الماء .

(٨) يمدُّه : يزيد الفرات مدداً ويقويه . مترع : ملآن . لجب : ذو صوت . الركام : المتكاثف . الأشياء المتراكم بعضها فوق بعض . الينبوت : ضرب من النبت ذو أشواك الخضد : ما ثني وكُسر من النبت .

(٩) الملاّح : النوتي . معتصماً : متمسكاً الخيزرانة : دفة السفينة . الأين : التعب والإعياء . النجد : الغرق .

(١٠) السيب : العطار . النافلة : الزيادة العطية الزائدة . ومعنى : « لا يحول عطاء اليوم دون أن يعطي في الغد » .

هــذا الـثّـنــاءُ فــإنْ تَـسـمــعْ لــقــائـلِهِ فَلمْ أُعَــرِّضْ أبَيْتَ اللَّعـنَ بــالصَّـفــد[1]
هَــا أنَّ ذي عِــذرَةٌ إلاَّ تَــكُــنْ نَــفَـعَــتْ فــإنَّ صــاحـبـهــا مُـشــارِكُ الـنَّـكــد[2]

---

(١) أبيت اللعن : أي أبيت أن تأتي شيئاً تلعن عليه . الصّفد : العطاء .

(٢) عذرة : اعتذار . مشارك النكد : محالف الهمّ . منغصّ العيش .

تحليل المعلّقة

يستهلُّ النابغة معلّقته منادياً ديار ميَّة بنداء نلمح فيه نشيج الألم وتباريح الشوق ورقّة المناجاة ، ولكنه لم يجد لندائه إلّا رجع أصداءٍ تردّدها القفار والبوادي ، لأنّ الديار خلت من أهلها وخيّم عليها السكون القاتل الذي يشبه سكون الموت المريع ، ويتقدم الشاعر بعد ذلك النداء المتوجّع ليقف على تلك الديار كي يسائلها عن أهلها وما فعلته بهم صروف الدهر وغِيَرِه ، إلّا أن الديار ظلت في صمتها المعهود وسكونها المطبق وحزنها الذي يفسره ذلك الظلم الذي أحسّت به من خلال الرحيل عنها وترْكها عرضةً للريح والمطر والفراغ ، وليس ذلك الوقوف عند الأصيل إلا تكملة لصورة الحزن التي حاول النابغة أن يرسمها ، لأن الأصيل رمزٌ لنهاية النهار وبداية الغروب للوجود والأشياء .

وقفت فيها أصيلاً كي أسائلها عيّت جواباً وما بالرّبع من أحد

لقد خلت ديار ميَّة ورحل عنها قطّانها ، ولم يبقَ فيها إلّا رسوم من رملٍ وتراب ، فبدت حزينة مطرقةً وكأن يد الفناء قد لامست كل شيءٍ فيها ، فبدّلت صفوها كدراً وحياتها موتاً وحركتها سكوناً وعمّارها تشريداً وضياعاً . . .

إلا أن النابغة ينتقل بعد هذه الصورة المحزنة لديار الحبيبة إلى صورة أخرى نلاحظ فيها انتقالاً من حالة إلى حالة ، وكأن الشاعر يريد منا أن لا نسترسل مع الحزن طويلاً ، بل ويكاد يصرفنا عنه صرفاً ، لأن الحياة في نظره تستحقّ منّا حركة وسعياً وتعاطفاً يتفاعل مع جانبها الإيجابي الذي يرفض سيطرة الجانب القاتم منها على تفكير الإنسان وقدراته الذاتية البنّاءة فيقول :

فعـدّ عمـا تـرى إذ لا ارتجـاع لـه   وانـمِ القتـود على عيـرانـةٍ أُجُـدِ

أليس في ذلـك صرف للحـزن وبواعثـه ، ودعوة لـلإقبـال على الحيـاة والسّعي في مناكبها ، وانتقالٌ يحسن الربط بين موضوع وآخر ؟

لقد بدا النابغة في هذا التخلص اللبق من غرضٍ انتهى إلى غرض آخر يسعى إلى انجازه ، وهو هنا وصف الناقة ، شاعراً ماهراً في ترتيب الأغراض الشعرية وسوقهـا ضمن القصيدة الواحدة بشكلٍ جعلنا أقلّ إحساساً بسماجة ذلك الانتقال التقليدي الذي كان يفكّك القصيدة إلى موضوعات لا تترابط ولا تتلاقى .

ويرتبط وصف الناقة عند النابغة بموضوع السفر ، فهو يقدم عليه عرضاً أو تقليـداً ، لأننا من خلال وصفه لها لا نحسُّ بتلك المودة أو العاطفـة التي أحسسناهـا عند طـرفة من قبل ، فظلّت الناقة بنظره مجرّد وسيلة إلى غاية ، وراح يصف قوتها وصلابتها وقدرتها على التحمل مقارناً إيّاها بثور وحشيٍّ يسترسل في وصفه بأبياتٍ نلمح فيها استقلاليّة عن وصف الناقة فشرع يتحدث فيها عن أكارعه الموشـاة وبطنـه الضامـرة وجلده المتلمّع كـالسيف ، وعمد إلى إظهار سرعته عن طريق تنفيره بالصيّاد وكلابه التي حاولت اصطياده ، إلّا أنها لم توفق لأن الثور استطاع أن يقاوم وأن ينفذ بقرنه في كتف أحد الكـلاب المهاجمـة ، الذي أخـذ بدوره يتلوّى من شـدة الألم ، عندئـذٍ انسحبت الكلاب الأخـرى لتسلم بنفسهـا من ضربات قرن الثور ، الذي تلوّن بالدماء فغدا كالسفـود الذي نسيـه القوم في مـوضع النـار فاحمرّ والتهب ، كلّ تلك الصور التي رسمها للثور إنما أراد النابغة منها أن يفهمنا كم هي قوية تلك الناقة التي حملته إلى غايته :

فـتـلك تـبـلغـنـي الـنـعـمـان إنّ لـه   فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعد

وهكذا ينتقل النابغة إلى مدح النعمان بهذه الصورة التي يحاول فيها أن يضفي على عمله نوعاً من اللحمة التي تخفّف من شعورنـا بالقلق والاضـطراب اللذين نحسّهما عنـد الانتقال المفاجىء من موضوع إلى آخر ، ولذلك دأب النابغـة « على التوفيق بين ضـرورة التقليد وضرورة الشعر ، مما أكدى على أسلوبه وأوقعه بآفة التعمُّد والقصدية اللذين ينطليان على الذائقة البدائية ويثيران إعجابها ، بينما ينكشفان للقارىء المثقف ، ويستخفـانه لمـا فيهما من حليةٍ واهية »(١) .

---

(١) إيليا حاوي : النابغة الذبياني ص ٢١٥ .

ومن ثم نرى النابغة يشرع في تعداد أوصاف الممدوح الذي تفرد عن جنسه كرماً وفضلاً وعطاء ، فليس هناك من يشبهه في الناس قاطبة ، ولا يُرى له مثيلاً فيهم إلا سليمان الحكيم صاحب الفضل والمعجزات الخارقة التي يخضع لها الجنُّ والأنس والطير ، وهنا نرى النابغة يستعير لتبيان عظمة أبي قابوس صوراً فيها كثير من المبالغة بحيث قارنه بالأنبياء الذين ربما اطلع على سيرهم من الأديان السماوية التي كانت منتشرة في الحيرة وعند الغساسنة ، إلاّ أن تصوير النعمان بهذا المظهر الذي يرضي أذواق أولئك القوم الذين تعوّدوا المبالغة الفطرية لما فيها من غرابة ودهشة ، وخوارق ترضي إحساسهم يبتعد عن جوهر الفن الأصيل الذي يعبر عن المشاعر الحقيقية للإنسان، وينم عن قصور عاطفي أحس به الشاعر تجاه الممدوح ، فراح يغدق عليه التشبيهات المتداولة بين الناس دون أن يرسم له صورة خاصة متفرّدة لها استقلايتها فعلاً وسلوكاً ومزايا ، ولذلك نرى النابغة بعد ذلك يستعير للنعمان أيضاً صورة أخرى غير صورة سليمان الحكيم ، وهي صورة زرقاء اليمامة التي تذكر الروايات بعد نظرها وصدق حكمها ، واستعارة هذه الصورة ليس بعيداً عن طابع التمثيل الحسّي الذي يوفّق بين عدد حمامات زرقاء اليمامة ، وعطاء النعمان ، فتلك كانت نافذة النظر والنعمان كان نافذ العطاء ، إلاّ أنّ هناك فرقاً بين من يسأل ويُعطي ، بين من يحبس ويجود ، بين من يتمنّى الخير لنفسه وبين من يمنح الخير للجميع .

ثمّ نراه ينتقل بعد ذلك التمثيل الذي صوّر النعمان فريداً في الناس والكرم وبعد النظر إلى الدفاع عن نفسه وتبرئتها من تلك التهمة الباطلة التي رموها بها ، فيقسم للنعمان بكل الإيمان المثقلة بمعتقدات الجاهلية بأنه لم يأت بشيء فيه الإساءة له ، وأن الذي ذكر عنه هو من فعل الحسّاد الذين أرادوا أن يُفرّقوا بينه وبين من أحبّ ، ثم يشرع في استعطاف النعمان والتذلّل له ، ويضع نفسه وأولاده وما يملك تحت تصرفه وفداءً له ، ويطالبه بأن يفسح له مجالاً للدفاع عن نفسه ، وأن لا يركن في رأيه إلى أعدائه وحساده الذين اكتنفوه من كل جانب فيقول :

لا تقذفني بركنٍ لا كفاء له ... وإن تأثّفك الأعداء بالرِّفد

إنها صورة نقلية بارعة حاول النابغة فيها أن يصور غضب النعمان الحبيس داخل نفسه ، ذلك الغضب الذي عمل الأعداء على تأجيجه إلى درجة الغليان الذي فذف بالنابغة بعيداً إلى حيث لا أمان ولا استقرار ، كما تقذف القدر المملوءة بما في داخلها حين ترتفع درجة الحرارة من كثرة اللهب والاضطرام ، كما أنّ تصوير الأعداء بالأثافي التي تحيط بالنار

كي يتوجّه كل اللهب إلى القدر قد أضفى على الصورة أبعاداً جماليّة نلمحها في تصوير ذلك الاحتواء للنعمان من قبل الأعداء الذين أحاطوا به وعملوا جهدهم على إذكاء غضبه بكثيرٍ من الدسائس والوشايات المختلفة التي كانت بمثابة من يصبُّ الزيت على النار .

لقد استطاع النابغة أن يرسم صورة الغضب الذي هو حالة وجدانية داخلية بتعابير حسيّة بسيطة ، إلا أنها تدل بوضوح على قدرة الشاعر الفنيّة التي وظفت الواقع المادي في سبيل التعبير عمّا هو معنويٌّ محض .

بعد ذلك يعود النابغة إلى المدح فيرسم صورة للنعمان لا تبتعد عن صورة الغليان وثورته ، إلّا أنها تختلف في النتائج ، لأن في الصورة الأولى قذفٌ وإبعاد ، وفي الصورة الثانية فيضٌ وعطاء .

فما الفرات إذا جاشت غواربُـهُ	ترمي أواذيُّـه العبـرين بالـزَّبـدِ
يمـدُّه كـل وادٍ مـزبـدٍ لـجـب	فيـه حـطامٌ من الينبـوت والخضـد
يـظلُّ من خـوفـه المـلّاح معتصمـاً	بـالخيـزرانـة بعـد الأين والنجـد
يـومـاً بـأجـودَ منـه سيب نـافلةٍ	ولا يحـول عـطاءُ اليـوم دون غـد

فالنابغة في هذه الصورة التي يرسمها للفرات ، تكاد لا تفارقه صورة النعمان الغضبي التي استولت على كل مشاعره وأفكاره ، فغدا حبيساً لها تحيط به أنّى اتجه وحيث أقام ، فالفرات هنا رمزٌ للنعمان الغاضب الثائر الذي يقذف الوعيد والتهديد ، وتموج نفسه بشتى الانفعالات الهائجة التي تزيدها روافد أخرى مساعدة ، رمز إليها النابغة بالسيول المزبدة التي تخترق الأودية لتصل إلى الفرات أي إلى النعمان ، وليست تلك الأودية إلا رموزٌ للمسارب التي ينفذ منها الأعداء إلى نفس النعمان ، وليس ذلك الحطام ببعيدٍ قطّ عن وقود النار التي تؤجج غضبه وتضرم مشاعره .

وهنا يقف النابغة في هذا الخضم المتلاطم ملّاحاً يحاول أن يعبر في سفينته إلى ميناء الأمان ، أي إلى قلب النعمان علّه يخفف من ثورته وينال عفوه ورضاه بعد سفرٍ طويل ورحلة شاقة وبُعْدٍ قسريٍّ أضنى النفس وبرى الجسد ، ولذلك يحاول النابغة جهده أن يغيّر معالم الصورة المستولية على مشاعر النعمان ، ويقلبها رأساً على عقب من صورة الثورة الغاضبة إلى صورة العطاء المتجدّد ، فالفرات وإن كان في هياجه وصخبه وأمواجه يمثل صورة النعمان الغضبى بكلِّ أبعادها ، إلا أنه يمثل أيضاً صورة العطاء المتجدّد الذي لا

تحدّه حدود والتركيز هنا على ذلك العطاء لا يبتعد قطّ عن تذكير النعمان بالماضي ذلك الماضي الذي كان فيه النابغة أثيراً عند النعمان وقريباً من نفسه ومن نواله المتكرّر ، فلعله بذلك التذكير يستطيع أن يجد طريقه إلى داخل ذاته فيمحو ما علق فيها من صورة مشوهةٍ اصطنعها الواشون ، لأنها غير أصيلةٍ عنه ، فالصورة الحقيقية له هي صورة ذلك الشاعر النديم المقرّب الذي يسبغ المدائح على النعمان في كل الأوقات والظروف ، ويفيض النعمان لقاءها جوداً وكرماً كما يفيض الفرات متجدّداً في كلّ حين . . .

لقد استطاع النابغة بهذه الصورة الحسيّة الماديّة ، أن يرسم لوحة جميلة للنعمان تمثله حقيقة في عاداته ومواقفه ، وهي في الوقت نفسه تنال إعجابنا من خلال ذلك التوفيق بين صورة النهر وصورة الممدوح في حالتي الرضى والغضب بحيث غدا الممدوح فيهما كالنهر لا يفيض إلا بالخير والبركة ولا ينقطع عطاؤه إلّا ليعود ثانية ويتجدّد رغم كل المظاهر التي تثير الخوف والقلق والمحاذير .

بعد هذا المدح يعود النابغة إلى تصوير حاله بُعيد وعيد أبي قابوس ، ذلك الوعيد المرعب الذي كان وقعه عليه شديداً وصاعقاً بحيث أفقده الأمان والاستقرار ، وملأ حياته خوفاً ورعباً واضطراباً ، ولذلك نراه يستعطف النعمان ثانيةً ويتذلل له، ويرجوه أن يفسح لثنائه وحججه أذناً واعيةً وعقلاً يقتلع ما علق في نفسه من ضغينة زرعها الحسّاد فيها، وهي ليست من شيمه وطبائعه ، لأنه الرجل الرزين الذي يقلّب الأمور مواضعها ، ولا يجعل لهواه غلبةً على عقله ، وتشبيهه من قبل بسليمان الحكيم وبزرقاء اليمامة لا يبتعد كثيراً عن سياق ما ذكرناه ، لأن هدف النابغة هو الدخول إلى عقل النعمان لاقناعه ببراءته ، بعد أن أوغر الأعداء صدره ، وليس كالعقل وسيلة إلى التخفيف من حدة العاطفة ، ومن إخماد جذوتها الملتهبة فإذا لم يتخلّ أبو قابوس عمّا في نفسه بعد هذه الأعذار والبينات فإنّ النابغة سيظل في توهانٍ مستمر وهروبٍ مصحوب بالخوف والقلق والضياع . . .

تلك هي معلقة النابغة بكل موضوعاتها المتعدّدة التي لم تختلف في كثير أو قليل عن مثيلاتها من المعلقات الأخر ، إلّا أن النابغة حاول من خلال حيلٍ فنيّة ، مستحدثة أن يجعلها تبدو أكثر تلاحماً وترابطاً ، وكأنه أحس أن الانتقال من موضوعٍ إلى آخر دون ذلك التعليق السّياقيّ ، يلحق الوهن بالعمل الشعري ويظهر التفكك فيه ، ولذا فإننا نرى النابغة قد تحاشى هذه الفعلة ، وحاول أن يقلّل منها عن طريق ربط موضوعاته بعضها ببعض ، إلا أن التوفيق لم يحالفه كثيراً ، لأن الربط لا يتأتى من خلال طرق جديدة مستنبطة ، فهو وليد

الفكر والعاطفة معاً ، وليد التجربة الشعرية المتكاملة التي تبدأ سيرها من السفح إلى القمة في صعودٍ شعوريٍّ يتنامى شيئاً فشيئاً من البداية حتى النهاية .

ورغم ذلك كله فإننا نستطيع أن نلمح في معلّقة النابغة رابطاً أو هاجساً إن شئت ـ يربط القصيدة بعضها إلى بعض ، ذلك الرابط هو الدفاع عن النفس الذي أملى على الشاعر كل المواقف ، وجعله خاضعاً لها ، بحيث نراه يجول هنا وهناك ، وفي نفسه غرضٌ واحد ، هو نيل رضى النعمان وعودة عطائه .

أمّا أسلوب النابغة فإنه أسلوب يمتاز بخصائص فنيّة معينة جعلته موضع تقدير النقاد وإعجابهم ، فهو يمتاز بالحركة والقدرة على تنويع المعاني ، يرفده في ذلك خيالٌ واسع ينفذ منه إلى صور طريفة ومعانٍ دقيقة ومبتكرة ، وقد استطاع أن يلائم فيه بين معانيه وألفاظه ، بحيث كان يختار لقصائده ما يناسبه منها ، فهو في حالة وصف الدّيار والصحراء والحيوان ، فإنه يلتزم فيه ذوق معاصريه ، في اختيار الألفاظ البدوية كما نراه يستطرد طويلاً في وصف جزئيات الصورة وتفاصيلها كما هو الحال في وصف ناقته ، بحيث لم يقف إلّا القليل معها . واستطرد بصورة مطولة بعدها ليصف لنا الثور الوحشي ونفوره والكلاب التي نفرته والمعركة التي جرت بينه وبينها إلى غير ذلك حتى يبيِّن لنا من كل تلك الصور سرعة ناقته وقوة تحملها ، فقد أخذ الشاعر نفسه « بنوعٍ من المهارة ليست مبالغةً في القول » « وإنما هو أسلوب من الشاعر في التصوير » ، وهذه من غير شك دليل على أهمية الموقف عند الشاعر ، ورغبته في الوقوف ، وإبرازه الصورة في أدق جزئياتها ، ومن هنا سمّينا هذا الأداء صنعة من ناحية أن الشاعر قد أستأنى نفسه وتروّى وأخذ يضع الصورة واحدة بعد الأخرى ، وليس هذا تكلفاً وإنّما تدفع به أهميَّة الموقف »[1] .

ولكنه في حال مدحه واعتذاره فإنه شاعرٌ كثير التخيّر للألفاظ المأنوسة الجزلة الناعمة التي تفيض رقةً وموسيقى ، وتبتعد كل البعد عن الغرابة والتعقيد وحوشيّ الكلام ، كما تبتعد أيضاً عن التكلّف في المشاعر والمواقف ، إنها ولا شك صنعة حقيقية قائمة على إبراز الصورة الشعرية بأدق تفاصيلها ، وفي براعةٍ فذة جعلت كثيراً من النقاد في العصر العباسيّ يذهبون إلى القول عنه ، إنه : « كان أحسن الجاهليين ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتاً ، كأنّ شعره كلامٌ ليس فيه تكلّف »[2] .

---

(١) محمد زكي العشماوي النابغة الذبياني ص ٢٠٧ .

(٢) طبقات الشعراء ص ٤٢ .

ذاك هو النابغة الشاعر الذي تبوّأ قمة الشعر في عصره فغدا سيّد الشعـراء وفيصلهم المطاع ، كما أن تأثيره لم يقف عند حدود عصره بل تجاوزه إلى غيره من العصور الأخرى بحيث نراه ماثلاً في مدائح الأخطل التغلبي والمتنبِّي من بعده .

عبيد بن الأبرص

هو عبيد بن الأبرص بن عوف بن حنتم[١] وقيل بن جشم بن عامر بن مالك بن زهير بن مالك بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد[٢] ويكنّى أبا زياد ، واسم أمّه أمامة[٣] ولا تعرف سنة ولادته بالتحديد كما أنّ المصادر لم تذكر شيئاً عن تفاصيل حياته ، أو بالأحرى لم تتوسّع في ذكرها ، وكلّ الذي سطرته عنه قولها : إنه أحد الشعراء الجاهليين القدامى الذين عمّروا طويلاً ، حتى أن بعضهم زعم أنه قد عاش ثلاثمائة سنة[٤] وفي ذلك نوع من المغالاة ، وإنّما عبيد على ما يؤخذ من سياق آثاره لم يتجاوز المائة سنة[٥] وفي أيّامه تملّك حجر بن الحارث والد امرىء القيس الشاعر ، على قومه بني أسد ، وكان عبيد ممن ينادم حجراً إلاّ أنه تغير عليه بسبب سوء سلوكه وظلمه لقومه ، فتوعّده حجر في شيء بلغه عنه ، ثم استصلحه فقال يخاطبه واعظاً ومفتخراً :

طاف الخيال علينا ليلة الوادي — لآل أسماء لم يلمم بميعاد

ابلغْ أبا كربٍ عنّي وأسرته — قولاً سيذهب غوراً بعد انجاد

---

(١) راجع المعلّقات العشر : للزوزني ص ٢٠٦ ، والأغاني ص ٨٤ ج ١٠ وتاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢٠٦ .

(٢) راجع الشعر والشعراء ص ١٦١ ، وطبقات الشعراء ص ٥٨ .

(٣) راجع الأغاني ج ١٠ ص ٨٢ وفهرس الأعلام للزركلي ج ٤ .

(٤) العمدة ص ٧٨ .

(٥) شعراء النصرانية ص ٦٢ ج ٢ .

يا عمرو ما راح من قومٍ ولا ابتكروا — إلا وللموت في آثارهم حادي

اذهب إليك فإني من بني أسد — أهل القباب وأهل الجرد والنادي

قد أترك القرن مصفرّاً أنامله — كأنّ أثوابه مجّت بفرصاد[١]

إلا أنّ حجراً أوقع بقومه بعد أن رفضوا دفع الأتاوة وقتلوا رسله ، فأخذ سراتهم وجعل يقتلهم بالعصا فسمّوا عبيد العصا ، وقد ذكر ذلك امروء القيس في شعره :

قولا لدودان عبيد العصا — ما غرّكم بالأسد الباسل[٢]

ولكنّ عبيداً توسط لهم عند حجر ، وأنشده مقالة طلب منه الاستماع إليها فقال :

يا عين فابكي ما بني — أسد فهم أهل الندامة

أهل القباب الحمر والنـ — ـعم المؤبّل والمدامه

حلاً أبيت اللعن حلاّ — إنّ فيما قلت آمه[٣]

في كلّ وادٍ بين يثرب — فالقصور إلى اليمامة

تطريب عانٍ أو صياح محـ — ـرّقٍ أو صوت هامه

إمّا تركت تركت عفواً أو — قتلت فلا ملامه

أنت المليك عليهم وهـ — ـمُ العبيد إلى القيامة[٤]

فرقّ لهم قلب حجر حين سمع مقالته ، وبعث في أثرهم فأقبلوا ، ولم يلبثوا يسيراً حتى ثاروا عليه وقتلوه ، فجمع لهم امرؤ القيس وهدّدهم بفرسان قحطان وحمير فأجابه عبيد متهكماً ومفتخراً :

يا ذا المعيِّرنا بقتل أبيه إذلالاً وحينا

أزعمت أنّك قد قتلت سراتنا كذباً ومينا

هلاّ على حجر بن أم قطام تبكي لا علينا

إنّا إذا عض الثّقاف برأس صعدتنا لوينا

(١) ديوان عبيد ص ٦٢ ـ ٦٣ دار صادر .

(٢) راجع اليعقوبي ج ١ ص ٢١٩ .

(٣) الآمه : العيب .

(٤) راجع ديوان عبيد ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

نحمي حقيقتنا وبعض القوم يسقط بين بينا[1]

ويظهر أنّ حياة عبيد قد شابها كثيرٌ من الخلط والاضطراب ، وهذا ما يمكننا أن نلاحظه من خلال الاختلاف على تعيين مدّة الحياة التي عاشها ، ثم في تلك الروايات التي ذكرت في سبب نظمه الشعر ، فقد روي أن عبيداً كان في بداية حياته قليل المال محتاجاً له « فأقبل ذات يوم ومعه غنيمة له ، ومعه أخته ماويّة ليورد غنمه ، فمنعه رجلٌ من بني مالك بن ثعلبة ، وجبهه ، فانطلق حزيناً مهموماً لما صنع به المالكي حتى أتى شجراتٍ فاستظلّ هو وأخته تحتهنّ ، فناما ، فزعم أن المالكي نظر إليه نائماً وأخته إلى جنبه فقال :

ذاك عبيد قد أصاب ميّا ... ياليته ألقحها صبيا

فحملت فولدت ضاويّا[2]

فسمعه عبيد فساءه فرفع يديه نحو السماء ، فابتهل فقال : اللهم إن كان هذا ظلمني ورماني بالبهتان ، فأدلني منه ، ثم نام ، ولم يكن قبل ذلك يقول الشعر ، فأتاه آتٍ في المنام بكبّة من شعر حتى ألقاها في فيه ، ثم قال له : قم ، فقام وهو يرتجز ببني مالك وكان يقال لهم بنو الزنيّة فقال :

يا بني الزِّنيّة ما غرّكمُ ... لكم الويل بسربال حُجُر[3]

ثم اندفع في قول الشعر ، فقال معلّقته[2] .

كما أن الخلط والاضطراب قد ألحقا أيضاً في بعض أخباره ، فقد روي أن عبيداً خرج في ركب فبينما هم يسيرون ، إذ بشجاعٍ قد احترق جنباه من الرمضاء ، فقال له بعض أصحابه ، دونك الشجاع يا عبيد فاقتله ، قال عبيد : هو إلى غير القتل أحوج ، فأخذ أداوة من ماءٍ فصبّها عليه ، فانساب الشجاع ودخل حجره ، وسار القوم فقضوا حوائجهم ثم أقبلوا حتى إذا صاروا إلى ذلك الموضع الذي فيه الشجاع ، قال : فتأخرّ عبيد لقضاء حوائجه فانفلت بكره ، وقيل : بل حسر عليه ، فسار القوم وبقي عبيد متحيّراً ، فإذا بهاتف من عدوة الوادي وهو يقول :

---

(1) ديوان عبيد ص ١٤١ ، وراجع كذلك ترجمتنا لأمرىء القيس .

(2) الضاوي : الهزيل الجزم .

(3) السربال : القميص ، والحُجُر : ما لا يحلُّ انتهاكه .

(٤) المعلّقات السبع للزوزني ص ٢٠٦ دار الثقافة بيروت .

يا صاحب البكر المضلّ مركبه دونك هذا البكر منّا فاركبه
ما دونه من ذي الرّشاد تصحبه وبكرك الآخر أيضاً تجنبه
حتى إذا الليل تجلّى غيهبه فحطّ عنه رحله وسيِّبه
إذا بدا الصبح ولاح كوكبه وقد حمدت عند ذاك مصحبه

قال : فالتفت عبيد فإذا هو ببكره وبكرٌ إلى جنبه ، فركبه حتى إذا صار إلى دار قومه أرسل البكر وأنشأ يقول :

يا صاحب البكر قد أنقذت من بلد يحار في حافتيها المدلج الهادي
هلاّ أبنت لنا بالحق نعرفه من ذا الذي جاد بالمعروف بالوادي
إرجع حميداً فقد أبلغت مأمننا بوركت من ذي سنامٍ رائحٍ غادي

فأجابه هاتف يقول :

أنا الشجاع الذي الفيته رمضاً في رملةٍ ذات دكداكٍ وأعقاد
فجدت بالماء لما ضنّ حامله جوداً عليّ ولم تبخل بانجادي
هذا جزاؤك منّي لا أمنّ به فارجع حميداً رعاك الله من غاد
الخيرُ يبقى وإن طال الزمان به والشرّ أخبث ما أوعيت من زاد[1]

ولم يقف الأمر عند هذا الشجاع ، فذكر بعض الرواة أنّ لعبيد شيطاناً يسمّى هبيد ، كان يملي عليه الشعر[2] ، « وقد حاول بعضهم أن يرسل هذا المثل : لولا هبيد ما كان عبيد ، وقد رووا لهبيد هذا شعراً ، وزعموا أنه أراد أن يلهم الشعر أناساً غير عبيد فلم يوفق »[3] .

وهكذا فإن الروايات التي تشبه الأساطير ظلّت تلاحق الرجل حتى نهاية حياته ، وأبت إلاّ أن تختمها بحادثة فيها كثير من الغرابة والاستهجان ، فقد ذكر أن المنذر بن ماء السّماء ، جدّ النعمان بن المنذر ، كان ينادمه رجلان من العرب ، خالد بن المضلّل ، وعمرو بن مسعود الأسديّان ، وهما اللذان عناهما الشاعر بقوله :

(١) الجمهرة ص ٢٢ ، راجع كذلك الأغاني ص ٨٦ المجلد العاشر .
(٢) راجع الجمهرة ص ١٧ و ١٨ .
(٣) طه حسين في الشعر الجاهلي ص ٢٠٩ .

ألا بكّر الناعي بخيري بني أسد بعمرو بن مسعودٍ وبالسّيد الصّمد

فشرب ليلةً معهما ، فراجعاه الكلام فأغضباه ، فأمر بهما فقتلا ، وجعلا في تابوتين ، ودفنا بظاهر الكوفة ، فلمّا أصبح وصحا ، سأل عنهما فأخبر بذلك فقدم وركب حتى وقف عليهما ، فأمر ببنيان الغريّين ، وجعل لنفسه في كلّ سنةٍ يومين ، يوم بؤسٍ ويوم نعيم ، فكان يضع سريره بينهما ، فإذا كان في يوم نعيمه ، فأوّل من يطلع عليه وهو على سريره يعطيه مائة من إبل الملوك ، وأول من يطلع عليه في يوم بؤسه ، يعطيه رأس ظربان ، ويأمر به فيذبح ويغرّى بدمه الغريّان ، فلم يزل كذلك ما شاء الله ، فبينا هو ذات يوم من أيام بؤسه إذ طلع عليه عبيد بن الأبرص ، فقال له الملك : ألا كان الذِّبح غيرك يا عبيد ، فقال عبيد : « أتتك بحائنٍ رجلاه » فقال له الملك : أو أجل قد بلغ إناه ، ثم قال يا عبيد : أنشدني فقد كان يعجبني شعرك ، فقال : « حال الجريض دون القريض وبلغ الحزام الطُّبيين » ، فقال أنشدني :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيّات فالذنوب

فقال :

أقفر من أهله عبيد فاليوم لا يبدي ولا يعيد
عنّت له منّة نكود وحان له منها ورودُ

فقال أنشدني هبلتك أمُّك فقال : « المنايا على الحوايا » فقال بعض القوم أنشد الملك هبلتك أمّك ، فقال : لا يرحلُ رحلك من ليس معك ، فقال له آخر : ما أشدّ جزعك من الموت فقال :

لا غرو من عيشة نافذه وهل غير ما ميتة واحده
فأبلغ بنيّ وأعمامهم بأنّ المنايا هي الراصده
لها مدّة فنفوس العباد إليها وإن كرهت قاصده
فلا تجزعوا لحمام دنا فللموت ما تلد الوالده

فقال له المنذر ، لابدّ من الموت ، ولو عرض لي أبي في هذا اليوم لم أجد بدّاً من ذبحه ، فأما إذ كنت لها وكانت لك ، فاختر من ثلاث خصال ، إن شئت من الأكحل ، وإن شئت من الأبجل ، وإن شئت من الوريد ، فقال : ثلاث خصالٍ مقادها شرّ مقاد ، وحاديها

شرّ حاد ، ولا خير فيها لمرتاد ، فإن كنت لا بدّ قاتلي فاسقني الخمر حتى إذا ذَهَلتْ لها ذواهلي ، وماتت لها مفاصلي ، فشأنك وما تريد ، فأمر المنذر له بحاجته من الخمر ، فلما أخذت منه وقُرِّب ليذبح أنشأ يقول :

وخيّرني ذو البؤس في يوم بؤسه — خلالاً أرى في كلّها الموت قد برق
كما خيّرت عادٌ من الدهر مرّةً — سحائب ما فيها لذي خيرة أنق
سحائب ريحٍ لم توكّل ببلدةٍ — فتتركها إلا كما ليلة الطلق

وأمر به ففصد ، فلما مات طلي بدمه الغريّان[1] .

تلك هي نبذة من سيرة عبيد التاريخية التي يظهر أن فنّ القصص الخيالي قد تلاعب بها في كلّ مراحلها حتى بات من المستحيل على المتتبع لها أن يصل معها إلى رأي راجحٍ ، لأن الخلط والاضطراب قد أسدلا ستاراً من الشك والغرابة حولها ، ولفّاها بظلمة يستحيل فيها تمييز الصحيح من الدخيل ، أمّا سيرته الأدبية فهي قليلة في أيدي الرواة ، ولم تذكر المصادر إلا شيئاً يسيراً عنها ، وقد أشار صاحب العمدة ألى ذلك فقال : وعبيد بن الأبرص قليل الشعر في أيدي الناس على قدم ذكره وعظيم شهرته[2] ويبدو أنّ ابن رشيق القيرواني قد استأنس في رأيه هذا إلى رأي ابن سلام الجمحي الذي قال : وعبيد الأبرص قديم عظيم الذكر عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف له إلا قوله :

أقفر من أهله ملحوب — فالقطبيات فالذنوب

ولا أدري ما بعد ذلك[3] وقرنه ابن قتيبة في قلّة الشعر إلى طرفة عندما قال عنه : وليس عند الرواة من شعره وشعر عبيد إلا القليل[4] وهكذا يتضح مما تقدّم أن شهرة الرجل لم تتأتى له عن طريق شعره ، بل تأتّت عن طريق تلك الروايات التي أنيطت بشخصه وأخباره الأسطورية ، وذكره صاحب الأغاني فقال : هو شاعر فحل فصيح من شعراء

---

(١) الأمالي لأبي عليّ القالي ج ٢ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ كذلك راجع الشعر والشعراء ص ١٦١ والأغاني ج ١٠ ص ٨٦ ـ ٨٧ .
(٢) العمدة ص ٧٨ ج ١ .
(٣) طبقات الشعراء ص ٥٨ .
(٤) الشعر والشعراء ص ١٠٣ .

الجاهلية[١] ، وكان يعدُّ فيها من شعراء الطبقة الأولى[٢] أمّا ابن سلام فقد جعله في الطبقة الرابعة وذكره بعد طرفة وقرن بهما علقمة بن عبده وعديّ بن زيد[٣] إلا أن صاحب الجمهرة لم يذكره مع أصحاب المعلّقات ، وجعله واحداً من أصحاب المجمهرات التي تلي المعلّقات مكانة ومقاماً[٤] ، وقد ذكره الشعراء فقال الحطيئة عندما سئل من أشعر الناس ؟ قال الذي يقول :

من يسأل الناس يحرموه   وسائل الله لا يخيب[٥]

كما ذكر أن الأصمعي قال : قلت لأعرابيّ ، أيّ الناس أوصف للغيث قال الذي يقول ، يعني أمرأالقيس :

ديمةٌ هطلاء فيها وطفٌ   طبق الأرض تحرّى وتدرّ

قلت فبعده من ؟ قال الذي يقول : يعني عبيد بن الأبرص :

يا من لبرقٍ أبيت الليل أرقبه   في عارضٍ مكفهر المزن دلّاح
دانٍ مسفٌّ فويق الأرض هيدبه   يكاد يدفعه من قام بالراح[٦]

وممّا يتمثّل به من شعره قوله :

لأعرفنّك بعد اليوم تندبني   وفي حياتي ما زوّدتني زادي[٧]

تلك هي نبذة من سيرته الأدبية ، أما سيرته الشخصية ، فلم تشر المصادر إلى ما يوضح أيّ جانب منها ، وكلّ الذي ذكرته عنها قولها : إنّه كان من شعراء الجاهلية المعمّرين ، وأنه قديم الذكر عظيم الشهرة ، وألحقت به كثيراً من الخرافات والاقاويل ، إلا أننا من خلال اطلاعنا على ما نسب إليه من شعر تمكّنا ولو بشكل يسير أن نستشف بعض

---

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٨٤ .
(٢) راجع جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ج أول ص ١١٦ .
(٣) طبقات الشعراء ص ٥٨ .
(٤) الجمهرة ص ١٠٠ .
(٥) العقد الفريد ج ٦ ص ١٢٠ .
(٦) العقد الفريد الجزء ٤ ص ٥٣ .
(٧) راجع ديوان عبيد ص ٦٣ .

ملامح تلك الشخصية التي تظهر الرجل فارساً من فرسان قومه ، وسيّداً من ساداتهم وشاعراً غير منازعٍ فيهم كما كان الناطق باسمهم ورسولهم إلى الملوك والنافذين ، ويدلّ شعره على أنه كان يتميّز بعقلٍ راجح ورأي حصيف وحكمة ناضجة وخبرةٍ في إيراد الأمور وإصدارها ، كما يدلّ على أنّه كان لسان قومه الذاكر لأيّامهم والمصوّر لحروبهم وانتصاراتهم والمدافع عنهم في السرّاء والضرّاء ، كما لا بدّ أن يلاحظ المتصفّح لديوانـه كثيراً من الأشعـار التي تذكر الله والثواب والعقاب وتحثّ على فعل الخير والتحلّي بالمزايا الكريمة والصفات التي تنال الرضا والاعجاب ، ذاك هو عبيد بن الأبرص ، الشاعر الذي لا يختلف قط عن أمثاله من شعراء المعلّقات رغم ما أحيط به من هالة خرافية وأسطورية ، فقد ظلّ الرجل أسير قومه وعصبيته ، ولم يستطع أن يتفلّت من الواقع الذي انغمس فيه ، فبات يردّد توقيعاته دون أن يكون له في ذلك الترديد أي صوتٍ مميّز أو متفرّد .

معلّقة عبيد بن الأبرص الأسدي

أقْفَـر مِـنْ أهـلِهِ مَـلحـوبُ	فـالـقُـطّبيّـات فـالـذَّنُـوبُ[١]
فـرَاكِسٌ فـثُـعَـيلبـاتٌ	فـذاتُ فَـرْقَـيـنِ فـالـقَـلِيـبُ[٢]
فَـعَـرْدَةٌ فَـقَـفَـا حِـبِـرٍّ	لـيس بـهـا مِـنهـمُ غَـريـب[٣]
وبُـدِّلَـتْ مـنـهُـمُ وُحـوشـاً	وغَـيّـرَتْ حـالَهـا الـخُـطوبُ[٤]
أرض تَـوارثـهـا الـجُـدوبُ	فـكُـلُّ مَـنْ حَـلّهـا مَـحـروبُ[٥]
إمّـا قَـتـيـلاً وإمّـا هَـالـكـاً	والـشـيّـبُ شَـيـنٌ لِـمَـنْ يـشـيـبُ[٦]
عَـيـنـاكَ دَمـعُـهـمـا سَـرُوبٌ	كـأنّ شـأْنَـيـهـمـا شـعـيـبُ[٧]
وَاهـيـةٌ أوْ مَـعـيـنٌ مـمـعـنٍ	مِـن هَـضْـبـةٍ دُونَـهـا لُـهـوبُ[٨]

(١) أقفر : خلا . ملحوب : ماءٌ لبني أسد بن خزيمة . القطبيات فالذنوب ؛ موضعان .

(٢) راكس : ثعيلبات . ذات فرقين : اسماء مواضع . القليب : البئر .

(٣) عردة : هضبة بالمطلاء في أصلها ماء لكعب بن أبي بكـر . حبرٌ : جبـل في ديار سليم . غـريب : أحد .

(٤) وروي الصدر : وبُدِّلت من أهلها وحوشاً . الخطوب : الأمور .

(٥) وروي الصدر : « أرضٌ توارثها شعوبٌ » محروب : مسلوب .

(٦) إمّا قتيلاً وإمّا هالكاً : يريد إمّا أن يكون ذلك المحروب قتيلاً ، وإمّا أن يكون هالكاً . ويقصد الشاعر بعجز البيت : إن الذي لم يقتل وعمّر حتى شاب . فشيبه شينٌ له ، وكانوا يستحبون أن يموت الرجل وفيه بقيّة ، وقبل إن يفرّط به الكبر .

(٧) سروب : سرب الماء يسرب . الشأن : مجرى الدمع . شعيب : المزادة المنشقة .

(٨) واهية : بالية . معين : المعين الذي يـأتي على وجه الأرض من مـاءٍ . ممعن : مسرعٍ . لهـوب : =

أَوْ فـلجٌ وادٍ بـبـطـنِ أرضٍ	لِـلمـاء مِـنْ تَـحتـهِ قسـيـبُ[١]
أو جـدولٌ فـي ظـلال نـخـلٍ	لِـلمـاء مِنْ تـحتهـا سُـكـوبُ[٢]
تَـصبـو وأنّـى لـك التّـصـابي	أنّـى وقـد راعـك الـمشيـب[٣]
فـإنَّ يَـكُـن حـالَ أجـمـعُـهـا	فـلا بـديٌّ ولا عـجـيـبُ[٤]
أوْ يـكُ أقـفـرَ منـهـا جَـوُّهـا	وعـادَهـا المحْـلُ والجُـدوبُ[٥]
فـكُـلُّ ذي نـعـمـةٍ مـخـلوسٌ	وكـلُّ ذي أمـلٍ مـكـذوب[٦]
وكُـلُّ ذي إبـلٍ مـوروث	وكـلُّ ذي سـلبٍ مَـسـلُوب[٧]
وكـلُّ ذي غَـيـبـة يَـؤوبُ	وغـائـب الـمـوتِ لا يَـؤوب[٨]
أعـاقِـرٌ مِـثـلُ ذاتِ رِحْـمٍ	أو غـانـمٌ مثـلُ مَـنْ يَـخـيـبُ[٩]
مَـن يَـسـألِ الـنّـاسَ يُـحـرمـوهُ	وسـائِـلُ الـلَّهِ لا يَـخـيـبُ[١٠]
بـالله يُـدرَكُ كـلُّ خَـيـر	والـقـولُ في بـعضـه تَـلغيـبُ[١١]
والله لـيس لَـهُ شَـريـكُ	عـلاَّمُ مـا أخـفَـتِ الـقـلوب[١٢]

= جمع لهب . وهو شقّ الجبل .

(١) فُلج ، نهرٌ صغيرٌ . قسيب الماء ، وثجيجه ، وعجيجه : صوت جريه .

(٢) الجدول : النهر الصغير . سكوب : أراد انسكاب ، ولكن القافية لم تمكنه من ذلك .

(٣) تصبو : تعشق . أنّى لك : كيف لك بهذا بعدما صرت شيخاً . راعك : أفزعك .

(٤) ويروى أيضاً :

« إن يكن حُوِّل منها أهلها » . بديٌّ : البديء : المبتدأ . أي ليس أول ما خلا من الديار .

(٥) جوُّها : وسطها . عادها : أصابها . المحل : المجدب .

(٦) مخلوسٌ : مسلوب . كلُّ ذي أملٍ مكذوب . أي لا ينال كل ما يؤمل به . ورويت « مخلوسها » .

(٧) ورويت : « موروثها » أي يورثها غيره . ومعنى العجز : إن من كان له شيء سلبه من غيره ، فيُسلب منه أيضاً .

(٨) يؤوب : يرجع .

(٩) العاقرُ من النساء : التي لا تلد . ومن الرمال التي لا تنبت . ذات الرحم : الولود . الغانم : الذي يخرج فيغنم . يخيب : يعود خائباً . أي هل تستوي التي تلد والتي لا تلد ؟ وهل يستوي من خرج فغنم ، ومن خرج فعاد خائباً ؟ .

(١٠) ويروى هذا البيت ، على ما ذهب إليه ابن الأعرابي ، ليزيد بن ضبة الثقفي .

(١١) تلغيب : ضعف .

(١٢) لم يرد هذا البيت في رواية ابن خطاب .

أفلح بما شِئتَ قد يُبلَغُ بالضَّعف	وقد يُخدَعُ الأريبُ[١]
لا يَعظُ النّاسُ من لا يَعظُ الدَّ	هرِ ولا ينفعُ التّلبيبُ[٢]
إلّا سجيّاتُ ما القُلوبُ	وكمْ يُصَيِّرْنَ شائناً حَبيبُ[٣]
ساعِدْ بأرضٍ إن كنتَ فيها	ولا تقُلْ إنَّني غريبُ[٤]
قد يوصلُ النازحُ النّائي وقد	يُقطَعُ ذو السُّهْمَةِ القريبُ[٥]
والمرءُ ما عاشَ في تكذيبٍ	طُولَ الحياةِ لهُ تعذيب[٦]
يا ربَّ ماءٍ وردْتُ آجنٍ	سبيلُهُ خائفٌ جديبُ[٧]
رِيشُ الحَمَام على أرجائه	لِلقلبِ مِنْ خوفِهِ وجيبُ[٨]
قطعْتُهُ غُدْوَةً مُشيحاً	وصاحبي بادِنٌ خَبوبُ[٩]
عيرانةٌ مُؤجَدٌ فَقَارُها	كأنَّ حارِكَها كثيبُ[١٠]
أخلَفَ بازِلاً سَدِيسٌ	لا خُفَّةٌ هِيَ ولا نَيُوب[١١]

---

(١) أفلحْ : من الفلاح ، وهو البقاء . الأريب : عشْ كيف شئت . فلا عليك ألّا تبالغ ، وقد يخدع العاقل عن عقله .

(٢) أي من لم يتعظ بالدهر فإن الناس لا يقدرون على عظته . التلبيب : تكليف اللبّ من غير طباعٍ ولا غريزة .

(٣) السجيّة : ترك النفس على هواها . الشانىء : المبغض . أي ما ينفع التلبيب إلّا سجيات القلوب .

(٤) أي ساعد من كنتم معهم على جميع الأمور ، ولا تعتبر نفسك غريباً عنهم وإلا أخرجوك من ديارهم .

(٥) النازح والنائي واحدٌ : وهو البعيد . السُّهمة : النصيب .

(٦) المعنى : إن الحياة كذبٌ وطول عذابها على من أعطيها . لما يقاسي من الكبر وغيره من غير الدهر .

(٧) آجن : متغيّر . خائف : أراد أنه مخوّف المسالك .

(٨) أرجاءه : نواحيه . وجيب : خفقان .

(٩) مشيحاً ؛ مجدّاً . بادن خبوب : الناقة الضخمة التي تخبُّ في سيرها .

(١٠) قال أبو عمرو: المؤجد التي يكون عظم فقارها واحداً . الفقار : خرز الظهر . حاركها : منسجها . الكثيب : الرمل . وصف حاركها بالملاسة .

(١١) وروي البيت أيضاً :

أخلف بازلاً سديسها   لاحقةٌ هي ولا نيوب

أخلف : أتى عليها سنة بعدما بزلَت . فإذا جاوز البزول بعده عام قيل : مخلف عام . فالسديس : السنُّ قبل البازل . والبازل : جملٌ في تاسع سنيه . الخفّة من الإبل : الداخلة في سنها الرابعة . النيوب : النوق الهرمة .

كــأنَّــهـــا مـــنْ حَـــمـيـــر غـــابٍ   جَــوْنٍ بــصـفــحــتــهِ نــدُوب(١)

أو شَـبَـبٌ يَـرتـعـي الـرُّخَـامـى   تــلـفُّــهُ شَــمــألٌ هَــبــوب(٢)

فــذاكَ عــصــرٌ وقــد أرانــي   تَـحـمِـلني نَـهـدَةٌ سُـرْحـوب(٥)

مُـضـبَّـرٌ خَـلـقُـهـا تـضـبـيـراً   يـنشـقُّ عن وجـهِـهـا الـسَّـبيـبُ(٤)

زَيـتـيَّـةٌ نـائـمٌ عُـروقُـهـا   ولـيِّـنٌ أَسـرُهـا رطـيـبُ(٧)

كـأنَّـهـا لِـقْـوَةٌ طَـلوبٌ   تَـيـبَسُ فـي وَكـرِهـا الـقُـلوبُ(٦)

بـاتَـتْ عـلى إرَمٍ عَـذوبـاً   كـأنَّـهـا شَـيـخَـةٌ رَقـوبُ(٧)

فـأصـبـحـتْ فـي غَـدَاة قُـرٍّ   يسقطُ عـن ريشـهـا الضَّـريـب(٨)

فـأبـصـرَتْ ثـعـلبـاً سـريعـاً   ودُونـه سـبـسَـبٌ جـديـب(٩)

فـنـفَّـضَـتْ ريـشَـهـا وولَّـتْ   وهْـيَ مـن نَـهـضـةٍ قَـريـبُ(١٠)

---

(١) غاب : مكان . جونٍ : لها لون أسود وأبيض . ندوب : آثار العض .

(٢) الشبب : الذي قد نمَّ شبابه . الرخامى : نبتٌ . تلفّه : يعني تلفُّ الثور . شمآلٌ : ريح الشمال . الهبوب : الهابّة .

(٣) ذاك عصر : ذاك دهرٌ . نهدة : فرسٌ . سرحوب : سريعة ، سمحةٌ ، وقيل : طويلة الظهر .

(٤) مضبَّرٌ : موثق . السبيب : شعر الناصية .

(٥) نائمٌ عروقها : غير ناتئة العروق . أسرُها : خلقها . رطيبٌ : متثنى .

(٦) اللقوة الطلوب : العقاب ، وسميت بذلك لأنها سريعةُ التلقي لما تطلب . القلوب أي قلوب الطير .

(٧) عذوب : لا تأكل شيئاً ، ورقوب : لم يبق لها ولد . والمعنى : أنها باتت لا تأكل ولا تشرب كأنها عجوز يمنعها الثكل من الطعام والشراب .

(٨) القرّ : البرد الشديد . الضريب : الجليد .

(٩) ويروى البيت أيضاً :

فـأبـصـرت ثـعـلبـاً بـعـيـداً   ودون مـوقـعـه شـنـخـوب

السبسب : المفازة . جديب : مجدبة . شنخوب : رأس الجبل .

(١٠) لهذا البيت روايتان :

فـنفّـضت ريشـهـا سـريعـاً   فـذاك مـن نـهـضـةٍ قـريـب

النهضة : الطيران .

أي نفضت الجليد عن ريشها . وأيضاً :

فنشـرت ريـشهـا فـانتفـضت   ولـم تـطرْ نهضتهـا قـريـبُ

فاشتالَ وارتاعَ من حَسيس | وفِعْلَهُ يَفعلُ المذؤوبُ[1]
فنهضَتْ نحوَهُ حثيثاً | وحَرَدَت حَردَةَ تَسيبُ[2]
فدَبَّ من خلفِها دبيباً | والعينُ حِملاقُها مقلوبُ[3]
فأَدرَكَتْهُ فطَرَّحَتْهُ | والصَّيدُ من تحتها مكروبُ[4]
فجدَّلَتهُ فطرَّحَتهُ | فكدَّحَت وجهَهُ الجَبُوبُ[5]
فعاوَدَتهُ فرفَّعَتْهُ | فأرسَلتهُ وهو مكروبُ[6]
يضغو ومخلبُها في دفِّه | لا بُدَّ حيزومُهُ منقوبُ[7]

---

(١) اشتال (الثعلب) : رفع ذنبه من حسيس العقاب . المذؤوب : الفزع .
(٢) حرّدت : قصدت . تسيب : تنسابُ .
(٣) وروي الصدر : « فدبَّ من رأيها دبيباً » رأيها : أي رؤيتها . الحملاق : عرقٌ في العين . وقيل هو جفن العين . أو بياض العين . أي من الفزع انقلب حملاق عينيه .
(٤) وروى الصدر : « فأدركته فضرجته » . وفي رواية ابن خطاب أسقط العجز من هذا البيت . والصدر من البيت الذي يليه :

فأدركته فضرّجته | فكدّحت وجهه الجيوبُ

(٥) جدلته : طرحته بالجدالة . وهي الأرض . الجيوب : الحارة . وقيل : الأرض الصلبة . وقيل : القطعة من المدر كدح : خدش .
(٦) هذا البيت لم يرد في رواية ابن خطاب ، ولا في رواية ابن الأعرابي .
(٧) الضغاء : هو صوت الثعلب . المخلب : الظفر . دّفه : جنبه . حيزومه : صدره . منقوب : مثقوب .

تحليل المعلّقة

يبدأ عبيد معلّقته بتوجّع ظاهرٍ يلفّ المكان ويحتضنه احتضاناً إنسانياً رقيقاً نكاد نلمح فيه ذوبان المشاعر وصورة الرثاء الممتزج بالبكاء واللوعة والدموع ، وكأنّ عبيد في توجّعه على المكان الذي تحوّل إلى قفر ، يتوجع على الإنسان الذي يعزله الموت وحيداً في قفرٍ من نوع آخر ، قفر تلفّه الوحشة والرّهبة والسكون ، ويخيّم عليه الفراغ والصمت والمجهول .

لقد أراد عبيد من خلال ذلك التوجّع أن يوجد روابط مشتركة بين الإنسان والمكان ، روابط ربّما فرضتها العادة والتقاليد على الشعراء الجاهليين ، فرأينا معظمهم إلّا ما ندر يتوجع من أجل المكان ، ويذرف الدموع على رسومه وأطلاله الدارسة ، ويذكر أحبّةً أقاموا فيه ، ومن ثم رحلوا عنه انتجاعاً إلى مكانٍ آخر ، أو انتقالاً أبديّاً لا رجوع من بعده ، ولكنّ صورة التوجّع عند عبيد تبدو أكثر تجذّراً وأشمل أبعاداً بحيث يتحوّل المكان عنده إلى أبعد من أرضٍ خالية ، أو قفر مجدب قاحل ، يتحوّل إلى رمزٍ للوجود الإنساني ، رمزٍ للعلاقة الحميمة بين الإنسان والمكان ، تلك العلاقة التي أراد لها عبيد أن تتوطّد وتتجذّر وتتحوّل إلى علاقةٍ من نوعٍ آخر ، علاقة تجعل المكان مقرّاً ووطناً وليس طريقاً عابراً إلى رحلة طويلة لا تنتهي فصولها ، ولا تعرف الاستقرار الذي باستطاعته وحده أن يولّد حالة من الترابط العضويّ الفاعل ، حالةً من التعاطف المتبادل بين المكان والإنسان ، بين المادة والروح ، تلك الحالة التي لا بدّ منها ، ولا غنى لكلا الطرفين عنها ، لأنها حالة تفرضها طبيعة الوجود تلك الطبيعة التي جعلت الأرض رحماً ومقرّاً ، والإنسان ستراً وزينةً وفرضت عليهما تفاعلاً يبني الحياة ويقهر الفراغ والوحشة والسكون ، فالأرض بلا إنسان قفرٌ وموت جمادٌ وعدم ،

والإنسان بلا أرضٍ غربة وضياع ، وجودٌ ولا هويّة ، ولذلك كان لا بدّ من التفاعل الذي يجسّد إرادة علويّةً تريد أن تكتمل دورة الحياة ، وأن تنتظم وفق معايير يُظهر انتقاصها خللاً واضحاً ، كما يظهر عند عبيد في تلك الأمكنة التي افتقدت الإنسان فتحوّلت إلى قفر تسكنه الوحوش ، وتعمره الخطوب والأحزان . .

إنّ تعامل عبيد مع المكان ، تعاملٌ إنسانيٌّ واضح ، يهدف إلى خلق مشاعر معيّنة بين الإنسان والمكان ، عن طريق ذلك التوحّد في المصير الذي يتأتّى من خلال الموت ، فالمكان بدون الإنسان ، جمادٌ لا يتغيّر ولا يتبدّل ، هو موجودٌ في الزمان ، ولكنّ الزمان يمرّ عليه كما يمرّ على الإنسان الملتحد بالتراب ، أيّام تروح ، وليالٍ تغدو وسنوات تمرّ دون أن يكون لذلك المرور معنىً أو تأثير أو نتيجة ، صورٌ من الرتابة المملّة المميتة تخيّم عليه ، وهذه الصّور لا يبدّلها إلاّ الإنسان الذي يعمر المكان ، ويضفي عليه حياةً من حياته ، غنىً من تشكيلاته وتنوّعاته حركة تتفاعل مع الزمان والمكان لترسم حالةً من التجدُّد الذي يجعل الموت أضعف من أن يمحو صورة الحياة المتواجدة إلى ما لا نهاية من خلال تلاحم المكان والزمان والإنسان ، ولذلك كان الأقفار موتاً عند عبيد حين قال :

أقفر من أهله ملحوب   فالقطبيات فالذنوب

وكان موتاً للإنسان أيضاً في قوله :

أقفر من أهله عبيد   فاليوم لا يبدي ولا يعيد

إنهما صورتان تمثلان وجهاً واحداً للموت ، ذلك الموت الذي يصيب الإنسان والمكان معاً ، وهذا ما جعل عبيد في تعامله ذاك ينطلق من حالة نفسيّة يخيم عليها الحزن ، ويوشحها السواد ، ويلفّها اللون المأساوي القاتم ، ولعلّ تلك الحالة النفسية لم تكن عنده وليدة خواطر عابرة كتلك الخواطر التي رأيناها من قبل عند طرفة وزهير وغيرهما من الشعراء الجاهليين ، بل كانت في نظرنا وليدة تأمّل طويل في الحياة والموت أحسّ معه عبيد بتفاهة الوجود الذي يقضي عليه الموت في أيّ لحظة شاء من لحظاته ، فراح يرسم صوره بتوجّع مأساويّ يكاد يطغى على كلّ الصور التي حاول أن يجسّد بها حقيقته بأمانة وواقعية ، ولذا كان توجع عبيد من الموت عميقاً ينتفض له القلب وترتعد له الفرائض ، ويحسّ الإنسان معه حيرة وذهولاً لا يمتلك إزاءهما إلا الاستكانة والرضوخ ، إنّه ولا شك منتهى التوجع الإنساني الذي لا يدرك أبعاده إلا من نظر إلى الوجود نظرة متأمّلة تحاول أن تستجلي كنه الحياة وتستكشف واقعها المرّ الأليم ، ولذلك راح عبيد يخاطب في الإنسان

عقله ، لأنه لا يريد أن يستثير عواطفه ، فالحديث عن الموت يكفي لاستثارتها ، ولكنه يريد أن يقنعه عن طريق التمثيل المستوحي من وجوده الذاتي المتبدّل عبر الزمن، ذلك الوجود الذي يتغيّر وفق مسار تصاعدي ينتهي إلى نتيجة حتمية لا تقبل الجدال والمناقشة ، حتى يتأمل وجوده ويسلك في حياته طريق الخير والصلاح ، فالحياة ليست دائمة ، بل هي كأيّ وجود آخر سوف يختلسها الموت كما يختلس المحل والجدب رونق المكان وبهجته ونعماءه .

تصبو فأنّى لك التصابي	أنّى وقد راعك المشيب
إن تك حالت وحوّل	أهلها فلا بديء ولا عجيب
أويك أقفر منها جوّها	وعادها المحل والجدوب
فكلّ ذي نعمةٍ مخلوس	وكلّ ذي أملٍ مكذوب
وكلّ ذي إبلٍ موروث	وكلّ ذي سلبٍ مسلوب
وكلّ ذي غيبةٍ يؤوب	وغائب الموت لا يئوب

ويمضي عبيد مركّزاً على ذلك الاختلاس ، فنراه حيناً يصوّر الموت قناصاً ماهراً يرمي الكائنات بسهامٍ ، لا تخطىء ولا تنقطع ، لأنها سهام دائمة ترافق الزمن في دورانه المستمرّ المتجدّد الذي يطحن الحياة بلا كللٍ أو فتور ، ونراه حيناً آخر يصوّره بالرحم العقيم الذي يئد الحياة ، فيقول :

أعاقرٌ مثل ذات رحمٍ	أم غانمٌ مثل من يخيب

إنها ولا شك صورة معبّرة ترسم واقع الوجود بشكلٍ مبسّطٍ يكاد يحسّ ويلمس ، فالموت رحمٌ عاقر ، والحياة رحمٌ معطاء ، ولذا كان الرحم المعطاء من الرحمة ، والرحم العاقر ، كالقفر واليباب والخراب ، إنّهما صورتان متناقضان لوجودٍ واحد ، ولكنهما تمثلان سنة الحياة وحقيقتها المبنية على ذلك التنازع المستمر إلى ما لا نهاية .

وهذا التأمل الوجودي عند عبيد لا يقوده إلى العبث الذي رأيناه عند طرفة من قبل : بل يقوده إلى السعي الذي لا يشترط فيه النجاح أو الفشل ، فالسعي واجب ، وعلى المرء أن يسعى مهما كانت النتائج ، لأن الحياة لا تبنى إلا بالسعي والعمل والمجتمع لا يقبل إلا العاملين ، لأن التوقف موت يصيب الحياة وغربة تقطع أوصالها المتحركة ، ولذا كان العمل واجباً لقهر ذلك التوقف الذي يعيق مسيرة الحياة ويمنع تواصلها واستمرارها ، كما يقوده

إلى التفكير الواقعي الذي يراقب الظواهر الحياتية ويتعمق مساراتها المتباينة ويربط علائقها بعضها ببعض ليكوّن منها رأياً ذاتياً يكاد يقترب في مضمونه من آراء أولئك الأحناف الذين عرفت الجزيرة العربية بعضهم ، ودوّنت كتب الأدب والتاريخ نتفاً من وعيظهم وإرشادهم ، وهو في تفكيره ذاك لا ينسى أن يخصّ الحياة بنظرة زاهدة نلمح فيها البرم والتأفّف ، كما نلمح فيها السأم الذي ألفيناه عند زهير من قبل ، ذلك السأم المتولّد عن الموت الذي يطحن الناس ويحوّل الحياة إلى مصدرٍ للعذاب والشقاء والألم ، كما يحولها إلى خرافة وكذب وخداع ، إلى سرابٍ مضلٍ وومضٍ سرعان ما يتلاشى ويزول .

والمرء ما عاش في تكذيب   طول الحياة له تعذيب

إن سأم عبيد ليس رفضاً للحياة بحدّ ذاتها ، بل هو في نظرنا رفضٌ للجانب العابث فيها ، ذلك الجانب الذي يجعل الإنسان يفقد توازنه وينساق مع الشهوات والمغريات إلى أبعد الحدود ، فينسى بذلك وجوده الحقّ المبني أساساً على هذا التوازن الذي يبدو واضحاً في كلّ الكائنات والأشياء ، في الليل والنهار في الخير والشرّ في الموت والحياة ، في ثنائية متعارضة تكتمل بها دورة الحياة وفق نظام يعتبر الخلل فيه شططاً أو جموحاً في بعض الأحيان ، كما يعتبره في أحيانٍ أخرى تغليباً لذلك الجانب الخيِّر الذي يساعد على بناء الحياة وتطوّرها ودفعها في معارج الرقيّ والتقدّم .

بعد تلك الآراء والمواعظ ، يعود عبيد ليتحدَّث عن نفسه في فترة من فترات حياته ، حيث كان يقطع المهامة والفيافي على ظهر ناقة قوية نشيطة ، أو على ظهر فرس سريعة سمحة السّير حادة البصر ، كأنها عقاب تدرك ما تطلب في سرعة متناهية ، وهي إلى جانب ذلك حذرة متيقظة دائمة الترقب والتأمل ، تنقضّ كما تنقض اللقوة على طريدتها ، وفي انقضاضها يكمن الهلاك الذي لا بدّ منه ، لأنّ المطارد يحسّ قدرتها وسرعتها فيتملّكه الذعر ويوقن بالموت الذي لا يلبث أن يصيبه فيقضي عليه رغم الصراخ والألم ، ويغرز فيه مخالب حادة تخرج الروح من الجسد ، وتجعله أسير القوة الهائلة التي لا يمكن معها الحراك أو الإفلات .

تلك هي معلّقة عبيد التي تبدو لأول وهلة أنّها أغراض متباينة ، إلاّ أن نظرة متأنّيّة إليها تجعلنا ندرك أنّ هناك غرضاً واحداً حاول عبيد أن يتحدّث عنه ، وهذا الغرض هو الموت والتوجّع منه ، ذلك الموت الذي يصيب الإنسان والمكان معاً ، ولا يبقي عليهما مهما حاولا توقّيه وتجنّبه ، ولذلك راح عبيد يرسم صوره المأساوية في بناء يمزج الذهن

بالواقع ، وينمّ عن خبرة طويلة وفهم حقيقي لواقع الوجود والأشياء ، فغدت معلّقته بذلك كلًّا واحداً من بدايتها إلى نهايتها حتى في وصفه للناقة والفرس ، وهما الغرضان التقليديان اللذان يمكن أن يحسّ البعض أنّهما زجّا على المعلّقة زجّاً ، فإنه فيهما يظهر تفكيراً في الموت وخوفاً منه ، يتمثلان في ذلك الخفق والوجيب اللذين لا يتأتّيان إلّا عنه :

بل ربّ ماءٍ وردت آجنٍ — سبيله خائف جديب
ريش الحمام على أرجائه — للقلب من خوفه وجيب

أليس ذلك الماء الآجن الذي تغيّر من حالٍ إلى حال ، يمثل هذه الحياة المتغيرة التي لا تثبت على قرار ولا تستقر على وضع ؟ طفولة فشباب فكهولة فموت ففناء ، أليس في ذلك التغيُّر مدعاةً للهم والقلق ومبعثٌ للحزن والتوجّع ، وهل تلك القوة التي شبه بها فرسه بعيدة في أوصافها عن الموت الذي يترقّب الكائنات وينتظر اللحظة المواتية للانقضاض والإيقاع ؟ وهل صورة الثعلب المسكين بعيدة عن صورة الإنسان الذي يحاول جهده أن يحذر الموت أو يهرب منه ، ولكنّ الموت ليس بغافلٍ عنه ، فهو دائم الترقّب له ، يكاد يعدّ له حركاته ويحصي عليه أنفاسه .

إن عبيداً لم يصوّر كلّ ذلك في معلّقته من أجل أن يظهر شجاعته أو قوّة فرسه ، لأن سياق الأبيات يأبى أن نذهب إلا حيث شاء عبيد لنا الذهاب ، فإيراده هاتين الصورتين ليسا إلّا تمثيلاً لصورة الموت الذي تخفق له القلوب ، وترتعد منه الفرائص ، ولنقرأ معاً وصفه لما أحسّه ذلك الثعلب الضعيف عندما أحسّ باللقوة تطارده :

يدبّ من حسّها دبيباً — والعين حملاقها مقلوب
فنهضت نحوه حثيثةً — وحردت حردةً تسيب
فاشتال وارتاع من حسيسها — وفعله يفعل المذؤوب
فأدركته فطرّحته — والصيد من تحتها مكروب
فجدّلته فطرّحته — فكدحت وجهه الجبوب
يضغو ومخلبها في دفه — لا بد حيزومه منقوب

إنّ قراءة متأنّية لهذه الأبيات تثبت ما ذهبنا إليه ، لأننا من خلالها نستطيع أن نتبين وصفاً حسّياً للحظة الموت الرهيبة ، تلك اللحظة التي تخلق حالة من الرعب والانهيار ، وتولّد في النفس شعوراً مفعماً بالأسى والمرارة ، لا يمتلك الإنسان إزاءهما إلا التضعضع والانكسار ، ويبدو أن عبيداً قد أحس بهول تلك اللحظة من خلال مشاهدات حسية

وتأملات فكرية ، فراح يمثل لها في أبياته تلك ، ويصور أبعادها الخانقة تصويراً ينم عن معاناة طويلة أحس معها بفضاعة الموت الذي يزهق الأرواح وينقضّ على سائر الكائنات ليتخطفها من وجودها ويرسلها في رحلة طويلة إلى العدم والفناء ، ولذا فإن جزع عبيد في أبياته لم يكن من أجل ثعلب انشبت به المنيّة أظفارها ، بل كان من أجل الإنسان الذي لا يختلف في وجوده عنه ولا يبتعد في مصيره عن مصيره ذاك ؟ .

أما أسلوب عبيد في قصيدته فقد طغى عليه الطابع العقلي الذي أفقدها جانباً من جوانب الشعر ، وهو جانب المشاعر التي تضفي على العمل الشعريّ الحرارة والحيوية والانسياب ، ولذا بدت القصيدة أقرب إلى الوعظ والإرشاد والنصيحة ، منها إلى الشعر الحقيقي الفذّ ، رغم أن الموضوع الذي تحدّثت عنه ، موضوع يخصُّ كلّ إنسان ويتطلّب سوحاً نفسياً في عالم المشاعر والرؤى والتأمّلات ، إلا أن عبيداً اكتفى من الموضوع بالأشياء الحسّيّة الظاهرة ، ولم يستطع أن يحوّله إلى تجربةٍ تتعمّق حقائق الكون والوجود ، وتسبر ذلك الجانب الغامض من أسرار الذات والحياة ، ولذا ظلّت تجربة عبيد قاصرة عن تناول تلك الأبعاد ، ومفتقرة إلى ذلك الجانب الشمولي الذي لا يتراءى إلّا لذوي البصيرة والنفاذ، وبدت أقرب إلى النظم الذي يتوخّى نقل الأشياء وصوغ حقائقها المجرّدة في أسلوب تقريريّ لا يتجاوز في رؤياه أبعد ممّا تراه العين ، وقد كان للوزن الشعري « الرّجز » الذي هو من أكثر البحور عللاً وزحافات ، أثره في إضفاء طابع التقريريّة والنثريّة على القصيدة ، بحيث أفقدها ذلك النغم الموسيقى الذي يكسب العمل الشعريّ حركةً وانسياباً يخففان من ذلك القصور التعبيري الذي نلمحه أحياناً في نقل التجارب إلى الآخرين .

وهكذا فقد تضافرت عوامل عدة على قصيدة عبيد لتبعدها عن العمل الشعري المميّز ، ولتجعلها من الأعمال الشعرية التي لم ترض أذواق النقاد قدماء ومحدثين فحكموا عليها بالقبح وسوء التركيب لأنها كما ذكر صاحب العمدة : كادت أن تكون كلاماً غير موزون بعلّة ولا غيرها ، حتى قال بعض الناس : إنّها خطبة ارتجلها فاتزن له أكثرها[1] .

مع ذلك كلّه ، فإننا لن نظلم عبيداً كلّ الظلم ، حسبه أنه استطاع في فترة مبكّرة من الزمن أن يكون الشاعر الذي أكثر التأمل في الموت والحياة ، واختصّ الوجود بنظرات فاحصة شكّلت في ما حملته من معاناةٍ وأبعاد ، نقطةً هامّة في فهم طبيعة الوجود الإنساني الذي لم يتكشّف إلّا لذوي البصائر والعقول .

---

(١) العمدة ص ١٠٢ .

ثبت المصادر والمراجع

ـ أ ـ

ابن جنّي ، الخصائص دار الكتاب العربي ـ بيروت .

ابن حبيب ، المحّبر ـ ط ـ حيدر أباد .

ابن خلدون ، المقدّمة ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت .

ابن دريد ، الاشتقاق ـ ط ـ أوروبا .

ابن عبد ربه ، العقد الفريد ـ دار الكتاب العلمية ـ بيروت .

ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

ابن منظور ، لسان العرب ـ دار صادر ـ بيروت .

ابن النحّاس ، شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلّقات ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

الابشيهي ، المستطرف من كل « فن » مستطرف ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

أبو الفداء ، تاريخ أبي الفداء ـ دار الفكر ـ بيروت .

الأصبهاني ـ أبو الفرج ، الأغاني ـ طبعتي بولاق وساسي .

الأعشى ، ديوانه ـ دار صادر .

الألوسي محمود شكري ، بلوغ الأدب ـ دار الكتاب العربي .

الآمدي ، المؤتلف والمختلف ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

امرؤ القيس ، ديوانه ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

أمين ـ أحمد ، فجر الإسلام ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .

أمين ـ بكري الشيخ ، المعلقات السبع ـ دار الإنسان الجديد .
الأنباري ـ محمد بن القاسم ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ـ دار المعارف ـ مصر .

ـ ب ـ

بروكلمان ـ كارل ، تاريخ الأدب العربي ـ دار المعارف .
البغدادي ، خزانة الأدب ـ دار الثقافة ـ بيروت .
بلاشير ، تاريخ الأدب العربي ـ منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق .
بن فارس ـ أحمد ، الصاحبي في فقه اللغة ـ مؤسسة بدران ـ بيروت .
البهبيتي ـ محمد نجيب ، المعلّقات سيرةً وتاريخاً ـ دار الثقافة ـ المغرب .
البهبيتي ـ محمد نجيب ، تاريخ الشعر العربي ـ دار الكتب المصرية .

ـ ت ـ

التونجي ـ محمد ، الأعشى شاعر المجون والخمرة ـ مطبعة الشرق ـ حلب .

ـ ث ـ

ثعلب ـ أبو العباس ، شرح شعر زهير بن أبي سلمى ـ دار الآفاق ـ بيروت .

ـ ج ـ

الجاحظ ، البيان والتبيين ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
الجبوري ـ يحيـي ، لبيد بن ربيعة العامري ـ مكتبة الأندلس ـ بغداد ط ـ بيروت .
الجمحي ـ محمد بن سلام ، طبقات الشعراء ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
الجندي ـ سليم ، امرؤ القيس ـ مكتب النشر العربي ـ دمشق .
الجندي ـ علي ، تاريخ الأدب الجاهلي ـ دار مكتبة الجامعة العربية ـ بيروت .
الجوزو ـ مصطفى ، الأعشى الكبير ـ دار الطليعة ـ بيروت .

ـ ح ـ

حاوي ـ إيليا ، امرؤ القيس ـ دار الثقافة ـ بيروت .
حسين ـ طه ، في الأدب الجاهلي ـ دار المعارف ـ بمصر .

حسين ـ محمد محمد ، ديوان الأعشى الكبير ـ مكتبة الأدب بالجمافير ـ مصر .
حسين ـ محمد محمد ، أساليب الصناعة في شعر الخمر والأسفار ـ دار النهضة العربية ـ بيروت .
الحموي ـ ياقوت ، معجم البلدان ـ دار صادر ـ بيروت .

ـ خ ـ

خفاجي ـ محمد عبد المنعم ، الشعر الجاهلي ـ دار الكتاب اللبناني .
خوري ـ ألفرد ، زهير بن أبي سلمى ـ دار الشرق الجديد . بيروت .
خوري ـ رئيف ، امرؤ القيس ـ دار صادر ١٩٣٤ .

ـ د ـ

الدميري ـ كمال الدين ، حياة الحيوان ـ نسخة في مكتبة الجامعة الأمريكية ـ بيروت .

ـ ذ ـ

الذبياني ـ النابغة ، ديوانه ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

ـ ر ـ

الرافعي ـ مصطفى صادق ، تاريخ آداب العرب ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .

ـ ز ـ

الزركلي ، فهرس الأعلام ـ ط ـ بيروت .

ـ س ـ

سلطان ـ جميل ، زهير شاعر الجاهلية ـ دار الأنوار ـ بيروت .
السيوطي جلال الدين ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها .

ـ ش ـ

الشهّال ـ رضوان ، امرؤ القيس ـ مطابع البحيري ١٩٦٢ .
الشنتمري ـ الأعلم ، أشعار الستة الجاهليين ـ دار الآفاق ـ بيروت .
الشنقيطي ، المعلّقات العشر وأخبار شعرائها ـ دار الأندلس ـ بيروت .

شيخو ـ لويس ، شعراء النصرانية ط ١٩٢٦ .

ـ ض ـ

ضيف ـ شوقي ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ـ دار المعارف ـ بمصر .
ضيف ـ شوقي ، العصر الجاهلي ـ دار المعارف ـ بمصر .

ـ ط ـ

طيانة ـ بدوي ، معلّقات العرب ـ دار الثقافة ـ بيروت .
طرفة بن العبد ، ديوانه ـ دار صادر ـ بيروت .

ـ ع ـ

عبيد بن الأبرص ، ديوانه ـ دار صادر ـ بيروت .
عجلان ـ عباس بيومي ، عنصر الابداع في شعر الأعشى ـ دار المعرف ـ بمصر .
العسكري ـ أبو هلال ، الصناعتين ـ دار الكتب العلمية .
العشماوي ـ محمد زكي ، النابغة الذبياني ـ دار المعارف ـ بمصر .
علي ـ جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ دار العلم للملايين ـ مكتبة النهضة ـ بغداد .
عنترة بن شداد ، ديوانه ـ دار الكتب العلمية .

ـ غ ـ

غريب ـ جورج ، الشعر الملحمي تاريخه وأعلامه ـ دار الثقافة ـ بيروت .

ـ ف ـ

الفرزدق ، ديوانه ـ دار صادر ـ بيروت .

ـ ق ـ

القالي ـ أبو علي ، الأمالي ـ دار الكتب العلمية .
القرشي ـ أبو زيد ، جمهرة أشعار العرب ـ دار المسيرة ـ بيروت .
القيرواني ـ ابن رشيق ، العمدة في صناعة الشعر ونقده ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

- م -

المرزباني ، الموشّح ـ تحقيق محمد علي البجّاوي دار نهضة ـ مصر .

المرزباني ، معجم الشعراء ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

- ن -

نالينو ـ كارلو ، تاريخ الآداب العربية ـ دار المعارف .

- هـ -

الهاشمي ـ محمد علي ، طرفة بن العبد ـ عالم الكتب ١٩٨٠ .

- ي -

اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي دار صادر ـ بيروت .

الفهـــرس

مطابع يوسف بيضون
Beirut -Tel + Fax : 01.54 99 20